بحوث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

٣

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م





محور العلوم الإنسانية والحكم التشريعية



الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنّة
INTL. COMMISSION ON SCIENTIFIC SIGNS IN QUR'AN & SUNNAH

العلوم الإنسانية والحكم التشريعية



رابطة العالم الإسلامي MUSLIM WORLD LEAGUE

الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُنّة

INTL. COMMISSION ON SCIENTIFIC SIGNS IN QUR'AN & SUNNAH

بحوث
المؤتمر العالمي العاشر
للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

محور العلوم الإنسانية
والحكم التشريعية

دار جياد للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

كلمة فضيلة الدكتور/ عبد الله بن عبد العزيز المصلح

الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة

بسم الله الرحمن الرحيم

إخواني وأخواتي :

جمهور الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .. في العالم أجمع ..

أحييكم بتحية الإسلام؛ فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد

فقد تداعى أهل الاهتمام بشأن الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة في عالمنا من المشارق والمغارب والتقوا في حمى الكعبة وتحت ظلال الحرم المكي الشريف وضمتهم أروقة رابطة العالم الإسلامي لتنبثق من هذا اللقاء الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة.

إنها العلم؛ وهل يردُّ العلمَ إلا من سفه نفسه.

إنها اليقين؛ وهل يصد عن اليقين إلا من رضي الجهل له قريناً.

إنها النظر المتأمل في الآيتين المتألقتين الثابتتين :

الآية المنظورة والآية المسطورة.

آية في الكون والإنسان والحياة في دقتها المذهلة وانتظامها في هذا الملكوت الرحب .. المسبح بحمد ربه، وآية في هذا الكتاب.

والسنّة حدثتنا عن هذه الحقائق في توافق تام وانسجام بديع مع كونه قد تنزل في زمن لم يكن في مقدور البشر ولا في علمهم معرفة به ولا إحاطة بتلك الحقائق.

إنها الحجة البالغة الدالة على أن من خلق الأكوان هو من أنزل القرآن.

إن رسالة هذه الهيئة أن تبين هذه الحقيقة الناصعة وأن تكون قنطرة للتواصل العلمي نحقق من خلالها خدمة الإنسانية في البحث عما ينفع الناس ويمكث في الأرض ولنثبت للعالم أن ديننا دين علم ومعرفة يبحث عن الحق ويدعو إلى الإبداع والتقدم والأخذ بأسباب الرقي المادي وصناعة الحضارة من أجل حياة إنسانية كريمة يسودها العدل ويصير العلم فيها خادماً للناس معيناً لهم لا معول هدم وسبب دمار وبذلك يصبح الناس جميعاً في أمن وأمان ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (الإسراء: ٩).

أما أنتم معاشر العلماء والباحثين..

يا من تحرصون على التواصل مع الهيئة التي هي بكم ولكم ومنكم وإليكم؛ لكم مني ومن إخوتي العلماء والباحثين والإداريين في الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة الشكر والعرفان بالفضل ولم لا يكون ذلك كذلك وأنتم شهود الله على ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وعظيم نعمائه ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران : ١٨).

إن هذه الهيئة التي هي جامعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة التي تجمع من العلماء صفوتهم ومن الباحثين أعلاهم رتبة في بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وعندها وفي رحابها تلتقي الكفاءات العلمية العالمة بهذا الشأن المهم من شؤون قرآننا وسنة نبينا

محمد صلى الله عليه وسلم لندعو كل قادرعلى السير في هذا المنهج السوي والمنهل الروي إعلاءً للحق وإظهاراً للحقيقة واكتشافاً لما أودع الله في الكون والحياة والأحياء مما ينفع الناس ويكشف نعماء الله علينا التي استودعها في ملكوته الرحب (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٩).

لقد ألزمت الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة نفسها بمقتضى المنهج العلمي وضوابط البحث في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ما يمكن أن نجمله في الآتي:

١. تجاوز الفرضية والنظرية وتخطى هذه المرحلة إلى مرحلة الحقيقة العلمية التي لا تقبل النقض ولا التغيير.

٢. وجود الدلالة الظاهرة على تلك الحقيقة في كتاب الله أو ما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣. الربط بين هذه الحقيقة ودلالة النص بأسلوب ميسر وسهل.

٤. أن تكون تلك الدلالة وفق مفهوم العرب الذين نزل القرآن بلغتهم.

٥. أن لا نبحث في الأمور الغيبية التي اختص الله نفسه بعلمها والتي آمنا بها وصدقنا بمقتضاها.

٦. أن يكون تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة الصحيحة ثم بالآثار التي صحت عن سلف هذه الأمة ثم بدلالة اللغة العربية التي تنزل بها القرآن الكريم.

ونود أن نبين هنا أن الشبهات التي أثيرت حول التفسير العلمي – وكذلك ما سبق من التردد بشأن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة – إنما هي عند التحقيق منْصبَّة في مجملها على البحوث غير المنضبطة بضوابط البحث في الإعجاز المذكورة آنفاً؛ حيث وقع أصحابها

في التسرع أو الغفلة عن بعض الضوابط المقررة؛ علماً بأن مثل تلك البحوث لا تمثل إلا حالات قليلة ومرفوضة، لذلك فإن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة عندما تنظر في بحث من البحوث تضعه في مكانه على حسب قربه من تحقيق ما يشترط في البحوث أو بُعده عن تلك الشروط والقواعد..

إن معاناة البحث في هذا المجال وما نلاقيه من صعوبات ومتاعب وعوائق لنشر تلك القضايا يذهب أثرها وينقشع غبارها عندما نرى عياناً آثار وثمار بحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وجدير بنا أن نذكر بعضاً منها تحفيزاً لهمم الباحثين كي يسلكوا هذا الطريق وينصروا دين الله من خلاله؛ ومن أهمها:

١. الأثر البالغ الذي تتركه في قلوب المسلمين، والذي يترجم بزيادة اليقين عندهم لدى معرفتهم بهذه الحقائق الباهرة؛ لأنها وردت في القرآن الكريم وعلى لسان النبي الأمي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وهكذا فإنها خير محرض للتمسك بالقرآن والسنة والاهتداء بهما.

٢. الرد العلمي الدامغ على الأفكار التشكيكية بصحة الرسالة المحمدية؛ حيث إن عرض تلك الحقائق التي جاءت في القرآن الكريم أو أخبر عنها نبي أمي في زمن لا يوجد فيه تقدم علمي كما أنه لا توجد في المجتمع وكذا البيئة التي عاش فيها أية أثارة من علم في تلك الميادين الكونية؛ ولذلك فهذا الإعجاز العلمي يعتبر مجالاً خصباً لإقناع المنصفين من العلماء بربانية القرآن الكريم وصدق رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

٣. الرد العملي المقترن بالبرهان الساطع على أن الدين الإسلامي هو دين العلم حقاً؛ فمع إشادة الرسول صلى الله عليه وسلم بالعلم - والترغيب في تحصيله والتنويه بفضل العلماء - فقد ذكر كثيراً من الحقائق العلمية وأشار إلى كثير من الأسرار الكونية مما هو موضوع العديد من التخصصات في آفاق الكون ولم يستطع أحد إلى

الآن أن يثبت وجود تعارض بين أي دلالة كونية واردة في القرآن الكريم أو حديث شريف صحيح مع ما استقر من الحقائق العلمية اليوم وأنى له ذلك.

٤. الإعجاز العلمي يعتبر خير محرض لهمم المسلمين كي يتابعوا مسيرة البحث والتجريب والمقارنة وغير ذلك من وسائل الكشوف العلمية والتقدم المعرفي، وفي الوقت نفسه فإن ذلك يفضي إلى توسيع دائرة شواهد الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٥. هذا الإعجاز العلمي يعتبر قناة آمنة ترفد بقية قنوات الدعوة إلى الله في هذا العصر الذي هو عصر العلم؛ والذي يتتبع أسباب دخول كثير من الناس في الإسلام – ممن كانوا نصارى أو بوذيين أو يهود – يجد بحق أن فريقاً منهم قد ابتدأ سيره في الطريق إلى الحق من خلال معاينة لطائف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٦. ولا شك أن ظاهرة الرجوع إلى دين الإسلام من قبل الذين كانوا قدماً من الشاردين الغافلين، وأيضاً إسلام غير المسلمين؛ كل ذلك أثمر مع ازدياد يقين المسلمين بدينهم رجوعاً لحالة العزة في نفوس أبناء الأمة الإسلامية بعد الكبوة التي حصلت لهم عقب سقوط الخلافة الإسلامية وهيمنة الدوائر الاستعمارية عليهم.

٧. وهذا كله يذكرنا بالحقيقة التي لا تتخلف أبداً؛ والتي أخبرنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال لا يضرهم من خالفهم أو من خذلهم حتى يأتي أمر الله).

إننا في هذه الهيئة العالمية نعلنها دعوة عالية عالمية جادة للعلماء والباحثين والمهتمين بمجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة أن يشاركونا بعلمهم وبرأيهم وبنصحهم فنحن وإياهم شركاء في هذا الطريق، ولإخواننا الذين يسكنون ديار الغربة خارج العالم الإسلامي دعوة

خاصة أن يكونوا دعاة لله في تلك الديار باستخدام هذه الوسيلة الدعوية المؤثرة مستفيدين من أبحاث محققة مدققة، آملين أن نصل مع الجميع إلى أن تكون الهيئة العالمية درة العاملين في هذا المجال وجوهره ...

هذه دعوة لأن نجعل من الهيئة العالمية للإعجاز العلمي التي تأسست في موطن تنزل الوحي مكانا رحباً يجمعنا بكم على مائدة كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ..

فيا معشر الإخوة والأخوات كونوا أنصار الله في هذه المسؤولية..

والله ولي التوفيق ،،،



المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

الهدي النبوي في منع ومعالجة الغضب

د. محمد العجرودي

صيدلي وباحث في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة



أهداف البحث

١. بيان سبق السنة النبوية المطهرة في منع وقوع الغضب وتجنيب المسلمين ويلاته في وقت يجأر فيه الغرب بالشكوى من عدم وجود برامج تطبق لمنع الغضب قبل وقوعه.

٢. بيان إعجاز السنة النبوية المطهرة في علاج وقوع الغضب بعلاجات أثبت الطب بعد أربعة عشر قرنا من الزمان فعاليتها مع بيان الأسباب العلمية لتلك الفعالية .

٣. في السبق والإعجاز الطبي والنفسي ما يشهد لله تعالى بالوحدانية والعظمة وللنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة والعصمة.

٤. رتيب النصائح النبوية التي وردت في الأحاديث الشريفة ترتيبا يصلح الأخذ به كخطة عمل نبوية علمية تربوية للخلاص من آفة الغضب المهلكة للفرد و المجتمع.

٥. بيان ثمار التطبيق العملية والتي أينعت عند من سار على هذا الهدي المستقى من مشكاة الوحي.

أقسام البحث

- معنى الغضب
- كيفية حدوث الغضب وآثاره على البدن
- أنواع الغضب ومتى يكون الغضب
- سبع قواعد نبوية في منع الغضب
- خمس قواعد نبوية في معالجة الغضب
- دلائل السبق الطبي و أوجه الإعجاز العلمي

- من ثمار الهدي النبوي في منع وقوع الغضب وعلاجه بعد الوقوع.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل وسائر أعمالنا خالصة لوجهه الكريم فإن أصبت فمن الله و إن أخطأت فمن نفسي و من الشيطان .

إن من فضل الله تعالى على المسلمين أن جعل لهم قدوة يقتدون بها ؛ تتمثل فيها مكارم الأخلاق التامة ؛ التي هي من مشكاة النبوة وذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أثني عليه ربه عز وجل فقال:" وإنك لعلي خلق عظيم" (القلم-٤) ومن مكارم الأخلاق التي عنيت بها السنة وأمر بها القرآن العظيم مجاهدة نوازع الغضب ؛ وكظم الغيظ؛ والتحلي بالحلم والعفو عند المقدرة حتي في مواجهة المتطاولين والجهلاء وفي ذلك منهج رباني أمرنا كمسلمين بالأخذ به وهدي نبوي يحقق لنا النجاح في الدنيا والنجاة في الآخرة . وهيا إلى جولة في بساتين القرآن والسنة ثم نعرج على بعض المآثر الرائعة للصحابة والتابعين في مكافحة الغضب ونوضح الإعجاز في هدي النبي عليه الصلاة والسلام في مجال معالجة الغضب في ضوء ما قدر الله لنا أن نتعلم في عصر العلم هذا الذي نحياه ...

الهدي القرآني في معالجة الغضب

قال تعالى:(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)" (الحجر ٩٧-٩٩)

يبين الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم – وللأمة كلها من خلفه – كيف يعالج الغضب باللجوء إليه سبحانه بالتسبيح بحمده و السجود، وفي الذكر و السجود والاستنصار بالله وأوجه إعجاز سوف نتطرق لها لاحقا إن شاء الله تعالى

ويقول ربنا تبارك وتعالي في محكم التنزيل : (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون) (الشورى ٤٣)

ويقول عز وجل : " الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " (آل عمران –١٣٤)

ويقول جل وعلا: " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" (الفرقان – ٦٣)

أي أن الله عز وجل قد جعل من كظم الغيظ والتسامح عند الغضب والقول الحسن عند أذى الجاهلين وسائل للتقرب إلى الله والدخول في زمرة عباد الرحمن الذين يحبهم الله تعالى ويؤثرهم .

لقد ورد ذكر العفو و المغفرة في القرآن الكريم ٢٣٤ مرة مقابل ذكر الغضب ٢٤ مرة، منها ٥ مرات غضب إنساني و الباقي غضب من الله بمعنى العقاب ،فإن كان من دلالة لهذا التفاوت فهي أهمية الصفح والعفو و التسامح ، لأن الغضب ينبغي أن يكون نادر الوقوع وبما يناسب ردع الظالمين.

ما هو الغضب؟

الغضب سلوك يشترك في حصوله ثلاثة عوامل رئيسة تشكل كيان الإنسان وهي: العوامل البيولوجية وتمثل الجسد، و العوامل الفكرية وتمثل العقل والعوامل النفسية وتمثل المشاعر و الوجدان.

والغضب هو تصرف انفعالي يصدر ردا على موقف استفزازي قد يفقد فيه الغاضب تعقله و اتزانه.-

من معاني الغضب في اللغة:

١. السخط: خلاف الرضا
٢. الغيظ: غضب كامن للعاجز عن التشفي
٣. الحرد: يغتاظ الإنسان فيتحرش بالذي غاظه ويهم به
٤. الحنق:شدة الاغتياظ مع الحقد.

كيف يحدث الغضب في داخل جسم الإنسان؟

١. تبدأ عاطفة الإنسان في المخ في الجزء الذي يسمي بـ(amygdala) وهو الجزء المسئول عن تحديد المخاطر وإرسال التنبيهات وتتوتر عضلات الجسم ويفرز المخ هذه المواد الهامة المسماة بالـ(catecholamines) التي تسبب الشعور بدفعة من الطاقة تستمر لعدة دقائق وتتزايد معدلات ضربات القلب ويرتفع ضغط الدم وتزيد سرعة التنفس ويحمر الوجه وتستعد الأطراف والأعضاء لرد الفعل الجسدي ، ويفرز المزيد من الأدرينالين الذي يطيل مدة بقاء الإنسان في حالة توتر .
٢. وإذا كان للغضب مرحلة إعداد فسيولوجية سابقة لحدوثه ، فانه توجد أيضا مرحلة

أخري هي مرحلة "هدوء العاصفة" حيث يستعيد الجسم استرخاءه لكن من الصعب العودة للحالة الطبيعية سريعاً لان "الأدرينالين" يجعل الغاضب في حالة تحفز قد تستمر لساعات أو أيام وقد يكون خلالها عرضة لنوبة جديدة من الغضب فيما بعد .

استعدادات الجسم لمواجهة الغضب

كقاعدة عامة ينشط الجهاز العصبي الودي الأجهزة التي يحتاجها الجسم عند المرور بخبرة الضغوط و منها الغضب ، بينما على الجانب الآخر يلعب الجهاز العصبي الجار ودي دوره لتثبيط الأجهزة التي ليس لها احتياج في مواجهة الضغوط الواقعة على الجسم عند الغضب.

- فمثلا تحدث زيادة سريعة في ضغط الدم و معدل ضربات القلب و التنفس لتسريع نقل الأوكسجين والمواد الغذائية للعضلات و الجوارح.
- ويتم التحرك السريع للطاقة من مخازنها في الكبد و العضلات والخلايا الدهنية مما يؤدي إلى توافر الجلوكوز و الدهون و البروتينات البسيطة.
- تفرز "البتيدات" وهي وسيلة الاتصال بين أجزاء الجسم المختلفة ولها مستقبلات في كل عضو حيث تشكل البتيدات ومستقبلاتها كيمياء المشاعر.
- تستدعي الذاكرة الخبرات السابقة لمواجهة موقف الغضب.
- على الجانب الآخر تثبط المناعة ، لأجل توفير الطاقة للغضب.
- يتوقف الهضم وتتلقى الأمعاء أمرا بتفريغ الطعام المهضوم ليخف وزن الجسد.
- تتوقف وظائف التبويض و الانتصاب و الرغبة الجنسية .
- يتوقف الإنسولين وهرمونات النمو و الهرمونات الجنسية لتوفير الطاقة للجسم.
- يقل الإحساس بالألم.

مواجهة الغضب هرمونياً

Hypothalamic-pituitary-adrenal axis (HPA)

- تستحث تحت المهاد الغدة النخامية لإفراز "الكورتيكوتروبين" الذي يعد إفرازه بمثابة إشارة للغدة الجار كلوية لإفراز الكورتيزون من قشرتها.
- ومن الغدة الجار كلوية أيضا، ولكن من اللب يتحرر هرمونا "الأدرينالين" و"النور أدرينالين" بفعل الجهاز العصبي الودي.
- يفرز البنكرياس هرمون "الجلوكاجون" الذي يرفع مستوى السكر في الدم.
- تقوم الغدة النخامية بإطلاق "البرولاكتين" الذي يثبط الأجهزة التناسلية و"الفازوبريسين" وهو هرمون مضاد لإدرار الماء.
- يقوم المخ و الغدة النخامية بإفراز مواد مشابهة للمورفين تسمى "إندورفين" و "إنكفالين" والتي تقلل الإحساس بالألم.

الآثار الصحية السيئة للغضب على الجسم :

١. الغضب يؤثر على قلب الإنسان تأثير "الجري" فيزيد من عدد مرات الانقباض في الدقيقة الواحدة فيضاعف بذلك كمية الدماء التي يدفعها القلب وهذا يجهد القلب لأنه يجبره على زيادة معدلات عمله عن المعتاد ، ولكن الفارق الهام أن الجري في إجهاده للقلب لا يستمر طويلاً إذ يتوقف من يجري فور إحساسه بالتعب أما في الغضب فلا يستطيع الغاضب السيطرة على غضبه وعلى تأثير هذا الغضب – بعد أن انفعل فعلاً – على قلبه .

٢. يصاب الغاضب بارتفاع ضغط الدم لاضطراب قلبه كي يدفع كمية من الدماء الزائدة عن المعتاد وبذلك تفقد الشرايين تدريجياً مرونتها وقدرتها على الاتساع فتتصلب جدرانها لكي تستطيع أن تمرر تلك الكمية الزائدة من الدماء التي يضخها القلب المنفعل .

٣. قد يؤدي الارتفاع المفاجئ للضغط إلى نزف دماغي يؤدي إلى إصابة الغاضب بالجلطة المخية أو يؤثر على أوعية العين الدموية فيسبب "العمى المفاجئ" أو يؤدي إلي جلطة قلبية وكثيراً ما نسمع عن تلك الحوادث المؤلمة التي تنتج عن لحظات غضب !

٤. ارتفاع النور أدرينالين في الدم يحرر "الجليكوجين" من مخازنه في الكبد مما يرفع مستوي السكر الدموي ، إذ من المعلوم أن معظم حوادث السكر تبدأ بعد انفعال شديد أو غضب .

٥. ارتفاع الأدرينالين يصرف كثيراً من الطاقة المدخرة مما يؤدي إلي شعور الغاضب بسخونة جلده وارتفاع حرارته .

٦. ترتفع شحوم الدم مما يؤهب لحدوث تصلب الشرايين ، وتثبيط حركة الأمعاء حيث يحدث إمساك شديد وهذا سبب إصابة ذوي المزاج العصبي بالإمساك المزمن .

٧. يزداد إفراز "الكورتيزون" من قشرة الغدة الكظرية فتزيد الدهون في الدم على حساب البروتين ويحلل الكورتيزون النسيج الليمفاوي مؤدياً إلي نقص المناعة وفتح الطريق للميكروبات لتحدث التهابات عديدة ، وهذا ما يعلل ظهور التهاب حاد في اللوزتين عقب الانفعال الحاد .

٨. يزيد الكورتيزون من حموضة المعدة مما يهيئ لحدوث قرحة المعدة أو ارتفاع الحموضة بها .

٩. أثبتت الدراسات الطبية مؤخرا العلاقة الوثيقة بين الانفعالات النفسية– ومنها الغضب– وبين الإصابة بالأورام الخبيثة حيث أن الاضطراب الهرموني في الغدد يساعد على ظهور بؤرة سرطانية في احد أجهزة الجسم.

أي أن الغضب – مما سبق – مهلك للجسم البشري مستنفذ لقواه ، وقد جاءت التعاليم النبوية بطرق ناجعه لمكافحة هذه التأثيرات السلبية للغضب على الجسم كما يلي :

أولاً: منهج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في منع وقع الغضب

يتكون منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكافحة وقع الغضب من خمس أسس نورانية شريفة:

١. الأمر المباشر لاتغضب:

- عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلني على عمل يدخلني الجنة" قال : "لا تغضب" ولك الجنة . (الترغيب والترهيب ٣ / ٤٤٦)
- وخرج الترمذي هذا الحديث ـ في رواية له ـ ولفظه : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علمني شيئا ولا تكثر على لعلي أعيه ، قال:(لا تغضب)، فردد ذلك مرارا كل ذلك يقول : "لاتغضب" (الترمذي ٤/ ٣٧١ حديث رقم ٢٠٢٠)
- وعن أبي هريرة رضي الله " أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني فقال : "لا تغضب فردد مراراً فقال : "لا تغضب " (رواه البخاري في الأدب حديث رقم ٦١١٦)
- وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – أنه سال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذا يباعدني من غضب الله قال:"لا تغضب" .(مسند أحمد ٢ / ١٧٥) بإسناد حسن.

فالجزاء من جنس العمل ومن ترك شيئا لله عوضه الله تعالى خيراً منه .

وقد أحصى أحد علماء المسلمين-هو الشيخ سليمان العلوان جزاه الله خيرا- أكثر من خمسين فائدة لهذا الحديث الذي هوقليل المبنى عظيم الأثر و المعنى وهو إعجاز بياني بلاغي لسيد البشر و خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

٢. التذكرة برضاء الله و حب الله:

- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "ما من جرعة أعظم أجرا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله" (رواه ابن ماجة حديث رقم ٤١٨٩)
- وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم الأشج قائلاً له : " إن فيك خصلتين يحبهما الله :الحلم والأناة "(رواه مسلم في الإيمان حديث رقم ٦٦) .

٣. الترغيب في الجنة:

- عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين فيزوجه منها ما شاء" (مسند أحمد ١٥٦١٩، سنن أبي داود ٤١٤٧،الترمذي ٢٤١٧، ابن ماجة ٤١٧٦) بإسناد حسن .

٤. ترغيب العرب ببيان الشدة والشجاعة في حجز النفس عن الغضب(وهو ما يحبونه):

- فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بقوم يصطرعون فقال : "ما هذا ؟ " قالوا: فلان لا يصارع أحداً إلا صرعه فقال :" أفلا أدلكم على من هو أشد منه ؟ رجل كلمه رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه" (رواه البزار قال ابن حجر بإسناد حسن . الفتح ١٠/ ٥١٩) وحسن إسناده
- روي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"(البخاري ٦١١٤ أحمد ٢/ ٢٣٦).

ولهذا فقد حث الرسول صلى الله عليه و آله وسلم على تمالك النفس لو وقع الغضب فقد ورد المعنى المُراد وأنه يتمثل في أن القوة الحقيقية تكمن في امتلاك النفس والسيطرة عليها عند فوران الغضب.وهذا فيه تربيةٌ للإنسان المسلم على مُجاهدة النفس ومُغالبتها على عدم الغضب بأن تعلم أن التحكم في حال انفعال الغضب إنما يُقوي إرادة الإنسان على التحكم في جميع أهواء النفس وشهواتها ، ويُمكِّن الإنسان في النهاية من أن يكون مالك نفسه وسيدها وليس عبداً لانفعالاته.

٥. **الترهيب من فساد الإيمان وغضب الله :**

- كراهة قضاء القاضي وهو غضبان : عن عبدالرحمن بن أبي بكرة. قال: كتب أبي (وكتبت له) إلى عبيدالله بن أبي بكرة وهو قاض بسجستان: أن لا تحكم بين اثنين وأنت غضبان.فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(**لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان**).رواه مسلم
- وعن أبي مسعود البدري قال : كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي "**اعلم أبا مسعود**" فلم أفهم الصوت من الغضب ، قال فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول "**اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود**" قال فألقيت السوط من يدي . وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيبته فقال "**اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**" ، قال : فقلت لا أضرب مملوكاً بعده أبداً . وفي رواية فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله ، فقال "**أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار**" (رواه مسلم) . وفي رواية لمسلم أيضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**والله لله أقدر عليك منك عليه**" قال فأعتقه . وعن أبي مسعود الأنصاري قال : كنت أضرب مملوكاً لي فسمعت قائلا من خلفي يقول : "**اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود**" فالتفت فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "**لله أقدر عليك منك عليه**" ، قال أبو مسعود : فما ضربت مملوكاً لي بعد ذلك .

٦. القدوة بالمثال : هديه صلى الله عليه وسلم في التحلم والتبسم في مواطن الغيظ والغضب للنفس

وهذه السمة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، واضحة في عدة أحاديث من أبرزها : عن أنس رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم (ما بين العنق والكتف) وقد أثرت بها حاشية البرد ، ثم قال : يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه صلى الله عليه وسلم فضحك ، ثم أمر له بعطاء (متفق عليه فتح الباري ١٠/ ٥٠٥).

ومثل ذلك الموقف الذي حدث مع الحبر اليهودي زيد بن سعنة والذي انتهى بإسلام هذا اليهودي لتيقنه من أن التحلم في مواطن الغضب للنفس من سمات النبوة ليكون في ذلك درس عملي نبوي لكل مسلم أراد أن يكون داعية ، بأن التحلم في مواطن الغضب للنفس من الأدوات العملية للداعية الناجح.

٧. الإعجاز في نهي الصائم عن الغضب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب ، فإن سابه أحد، أو قاتله ، فليقل إني امرؤ صائم". (متفق عليه) (البخاري مع الفتح ٤/ ١١٨ حديث رقم ١٩٠٤)

ولكون الصائم أكثر استجابة لدواعي الغضب في آخر النهار عندما ينقص السكر في الجسم مما يجعله معرضاً لبعض الأضرار؛ لذلك أكد الرسول صلى الله عليه وسلم على الصائمين أن يمسكوا عن دواعي الغضب والخصومات المفضية إلى تلك الأضرار.فقد اكتشف العلم أن الصائم إذا اعتراه غضب وانفعل وتوتر ازداد إفراز هرمون الادرينالين في دمه زيادة كبيرة تصل من ٢٠ إلى ٣٠ ضعفاً عن معدله العادي أثناء الغضب الشديد أو العراك .فإن حدث هذا في أول الصوم أثناء فترة الهضم "الامتصاص" اضطرب هضم الغذاء وامتصاصه زيادة على الاضطراب العام في جميع أجهزة الجسم ذلك لأن الأدرينالين يعمل على ارتخاء العضلات الملساء في الجهاز الهضمي ويقلل من تقلصات المرارة ويعمل

على تضييق الأوعية الدموية الطرفية وتوسيع الأوعية التاجية كما يرفع الضغط الدموي الشرياني ويزيد كميةَ الدم الواردة إلى القلب وعددَ دقاته .وإن حدث الغضب والشجار في منتصف النهار أو آخره أي أثناء فترة ما بعد الامتصاص تحلل ما تبقى من مخزون الجليكوجين في الكبد وتحلل بروتين الجسم إلى أحماض أمينية وتأكسد المزيد من الأحماض الدهنية.كل ذلك ليرتفع مستوى الجلوكوز في الدم فيحترق ليمد الجسم بالطاقة اللازمة في الشجار والعراك وبهذا تُستهلك الطاقة بغير ترشيد ويُفقد بعضُ الجلوكوز مع البول إن زاد عن المعدل الطبيعي .وبالتالي يفقد الجسمُ كميةً من الطاقة الحيوية الهامة في غير فائدة تعود عليه ويضطر إلى استهلاك الطاقة من الأحماض الدهنية التي يؤكسد المزيد منها وقد تؤدي إلى تولد الأجسام الكيتونية الضارة في الدم .

كما أن الازدياد الشديد للأدرينالين في الدم يعمل على الآتي :

١. خروج كميات كبيرة من الماء من الجسم بواسطة الإدرار البولي .

٢. ارتفاع معدل الاستقلاب الأساسي عند الغضب والتوتر ؛ نتيجة لارتفاع الادرينالين والشد العضلي.

٣. يؤدى لنوبات قلبية أو موت الفجأة عند بعض الأشخاص المهيئين لذلك ؛ نتيجة لارتفاع ضغط الدم وزيادة حاجة عضلة القلب للأكسجين من جراء ازدياد سرعته

٤. وقد يسبب النوبات الدماغية لدى المصابين بارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين.

٥. يزيد من تكون الكوليسترول من الدهن البروتيني منخفض الكثافة وثبتت علاقته بمرض تصلب الشرايين.

لهذا ولغيره أمر النبي صلى الله عليه وسلم الصائم بالسكينة وعدم الغضب والانفعال.

لقد أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنور وحي النبوة خطورة انفعالات الغضب قبل أن يكتشفها الطب بقرون ودعا – بحكمة – المسلمين إلي تفادي الغضب فكثرت أحاديثه التي وردت بها تلكم النصيحة الذهبية الغالية " لا تغضب" والتي ثبت نفعها العظيم طبيا ونفسيا ، و قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أساليب مختلفة في مجال

الترغيب بما يحفظ النفس من الغضب، ثم الترهيب من الوقوع فيه ، أساليب شملت العلم و العمل... آخذا بأيدي المسلمين إلي جادة الصواب رحمة بهم وحفاظاً على صحة أبدانهم من مجموعة من الأمراض المهلكة كما بينا بفضل الله في صدر هذا البحث.

و السؤال الآن..هل هناك برامج مطبقة لمنع وقوع الغضب؟

أطلق الموقع الإخباري "بي بي سي" بتاريخ ٢٥ مارس ٢٠٠٨صيحة ضمن تقرير بعنوان "مشاكل الغضب بلا علاج" جاء فيه: مؤسسة الصحة النفسية الأمريكية تقول : "لا يتم التعامل مع الغضب إلا بعد أن يرتكب شخص ما جريمة عنف مدمرة" في إشارة واضحة أنه ليس هناك برامج لمنع وقوع الغضب! ويقول التقرير أيضا: " نحتاج للمزيد من الأبحاث و طرق التعليم لمواجهة الغضب و التدخل المبكر قبل المشاكل الناتجة عنه". وقال المدير التنفيذي للمؤسسة الدكتور "أندرو مكولوك" :إنه لمستنكر أن يخذل الناس حين يتعلق الأمر بالغضب بينما تتم مساعدتهم لعلاج الإحباط والقلق واضطرابات الغذاء وكثير من الأدواء النفسية. وأجمع الباحثون على أن التغلب على مشكلة الغضب بات أمرا ليس سهلا ! وأكد التقرير أن الغضب أصبح معضلة كبرى تشمل ربع المجتمع إحصائيا و نادى بضرورة ألا يغضب الإنسان -خاصة الشباب - كوسيلة لهدف هو علاج غالبية مشاكل المجتمع.

أما المعهد البريطاني لإدارة الغضب فيؤكد مايلي: "لقد أصبح التعامل مع الغضب اليوم أمرا في غاية التعقيد و لابد من اتباع قواعد التوافق مع المجتمع الذي نحيا به".

وهنا يبرز السبق النبوي المعجز قبل مئات من السنوات حيث وضع النبي صلى الله عليه و سلم لأتباعه العاملين بسنته المتبعين لهديه الشريف برنامجا متكاملا رائعا مكونا من القواعد السبعة التي أسلفناها ، و التي بها سبق نبوي علمي طابقه العلم الحديث بل وأثبتت الأبحاث الطبية و النفسية جدواها في الوقت الذي تتحير فيه المؤسسات و المعاهد الطبية في إيجاد برامج لمنع وقوع الغضب قبل حدوثه.

ثانيا: الهدي النبوي في معالجة الغضب

يتكون منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في علاج الغضب من خمس قواعد نورانية نوجزها بإذن الله في التالي:

١- السكوت فور الغضب :

دعا النبي صلى الله عليه وسلم الغاضب إلي السكوت فورا فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" علموا ويسروا ولا تعسروا

وإذا غضب أحدكم فليسكت " (رواه الإمام أحمد في المسند ١/ ٢٣٩ ، وفي صحيح الجامع ٦٩٣ ، ٤٠٢٧ والطيالسي (٢٦٠٨) والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٥).

٢- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم :

عن سلمان بن صرد رضي الله عنه قال:"استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال:"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" (رواه البخاري، الفتح ٦/ ٣٣٧ ومسلم٢٦١٠)

وورد أن الشيطان يصرع العبد عند ثلاث : الغضب ، والشهوة، والغفلة .

ويقول د. إبراهيم الراوي: "ينصح علماء الطب النفسي الأشخاص الذي يتعرضون إلي نوبات الغضب إلي تمارين خاصة لإطفاء ثورة الغضب منها أن يعد الشخص من ١ إلي ٣٠ قبل النطق بأي حرف"

هذه الحقائق في مجال الطب النفسي سبق بها و طبقها النبي صلى الله عليه و آله وسلم الأطباء و حكماء الساسة بقرون حين أمر الغاضب أن يسكت وذلك أن الغاضب ربما يخرج عن شعوره فيتلفظ بكلمات قد يكون فيها كفر أو سب يجلب له العداوات أو طلاق يهدم بيتا

، وبالكلية فإن السكوت حل وقائي لتلافي كل ذلك . هذا من ناحية ، ثم أن يتعوذ بالله وهذا أفضل - بلا شك - من أن يعد أرقاما بل إنه الأمثل لاستعانته بالله أن يدرأ عنه الغضب ويعيذه ممن يدفعه إليه ألا و هو الشيطان.

و لعل هذا مستمد من الوصية القرآنية : (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم " (فصلت -٣٦).

و من الأمر القرآني: (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين* و أعوذ بك رب أن يحضرون" (المؤمنون ٩٧-٩٨)

٣- تغيير الوضعية:

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :

«**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**"
(رواه أبو داود ٥/ ١٤١)

وراوي هذا الحديث أبو ذر رضي الله عنه ، حدثت له في ذلك قصة : فقد كان يسقي على حوض له فجاء قوم فقال : أيكم يورد على أبي ذر ويحتسب شعرات من رأسه ؟ فقال رجل أنا فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقّه أي حطّمه (والمراد أن أبا ذر كان يتوقع من الرجل المساعدة في سقي الإبل من الحوض فإذا بالرجل يسيء ويتسبب في هدم الحوض) ، وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع فقيل له : يا أبا ذر لم جلست ثم اضطجعت ؟ قال فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .... وذكر الحديث بقصته (مسند أحمد ٥/ ١٥٢ وصحيح الجامع رقم ٦٩٤ وفيض القدير ، المناوي ١/ ٤٠٨) .

قال العلامة الخطابي - رحمه الله - في شرحه على أبي داود : (القائم متهيىء للحركة والبطش والقاعد دونه في هذا المعنى ، والمضطجع ممنوع منهما ، فيشبه أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد

ويقول د .حسان شمسي باشا :"جاء في كتاب هاريسون الطبي انه من الثابت علمياً أن هرمون النور أدرينالين يزداد من ضعفين إلي ثلاثة لدي الوقوف أما هرمون الأدرينالين فيزداد بنسبة بسيطة لكن الغضب يزيد من نسبته في الدم – ولا شك أن العاملين معاً – الغضب والوقوف – يرفع نسبتهما ويبدآن في التأثير سلبيا في الجسم بالتأثيرات الآنف ذكرها .

أليس في ذلك سبق طبي به إعجاز للنبي صلى الله عليه وسلم ليصف هذا العلاج اليسير ذا الفائدة الطبية العظيمة في تهدئة الغضب ؟ فمن علمه ذلك قبل اكتشاف العلوم الطبية بقرون .. لا شك أنه الوحي .. وهنا يشرق إعجاز النبوة .

٤- الوضوء :

عن عطية السعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

"إذا غضب أحدكم فليتوضأ فإنما الغضب من النار" (أخرجه أبو داود) وفي رواية: "إن الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ"(رواه أحمد ٤/ ٢٢٦ وأبو داود ٤٧٨٤)

وَأَخْرَجَ ابْنُ عَسَاكِرَ : "الْغَضَبُ مِنْ الشَّيْطَانِ ، وَالشَّيْطَانُ خُلِقَ مِنْ النَّارِ ، وَالْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ "

والاغتسال بالماء البارد توصية طبية معروفة من أطباء الأعصاب على عهدنا هذا لتهدئة الجهاز العصبي وتبريد السطح surface cooling ، ويأتي الوضوء ليخفف آثار الغضب من حرارة الجسم والتعرق والإحساس بالضيق .. كما أن الوضوء يضفي لدى المسلم شعوراً بالعبودية لله عند قيامه بهذا الفعل التعبدي الذي يذهب عنه الغضب ويعطيه إحساسا بالرضا والخشوع وانكسار جذوة الغضب .

وقد ثبت أيضا علميا سخونة الجلد بتأثير الغضب (لزيادة عمليات الاستقلاب كما ذكرنا) وهذا التأثير ينحسر جدا مع الوضوء لما يحدثه من ترطيب لسطح الجلد بالماء. وفي الوضوء أيضا:

- غسل الوجه واليدين: ولغسل الوجه واليدين إلى المرفقين فائدة كبيرة في إزالة العرق من سطح الجلد، كما أنه ينظف الجلد من المواد الدهنية التي تفرزها الغدد الجلدية.
- غسل القدميـــن: أما غسل القدمين مع التدليك الجيد فإنه يؤدي إلى الشعور بالهدوء والسكينة، لما في الأقدام من منعكسات لأجهزة الجسم كله، وكأن هذا الذي يذهب ليتوضأ قد ذهب في نفس الوقت يدلك كل أجهزة جسمه على حدة بينما هو يغسل قدميه بالماء ويدلكهما بعناية. وهذا من أسرار ذلك الشعور بالسكينة الذي يلف المسلم بعد أن يتوضأ فلا يليق به عندئذ أن يستأنف غضبته و ثورته...
- قال الدكتور أحمد شوقي إبراهيم عضو الجمعية الطبية الملكية بلندن واستشاري الأمراض الباطنية والقلب :"توصل العلماء إلى أن سقوط أشعة الضوء [Light photons] على الماء أثناء الوضوء يؤدي إلى انطلاق أيونات سالبة تؤدي إلى استرخاء الأعصاب والعضلات فتزيل أي انفعال ناتج عن الغضب... فسبحان الله العظيم".
- عند الوضوء بالماء البارد تحدث تغييرات في أجسامنا؛ لأن الماء من أهم عناصر الجسد، ويحتاج الجسم إلى الماء لتبريده عندما ترتفع درجة حرارة الجسم، وذلك بتبخر المياه الداخلية بواسطة العرق، لذا يقوم الوضوء بدور هام في تبريد الجسد من الخارج ويساعد في عملية انخفاض درجة الحرارة.

٥- إلصاق الخد بالأرض :

ومن هذا القبيل ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:"إن الغضب جمرة في قلب ابن ادم، ألا ترون إلي حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن وجد من ذلك شيئاً فليلزق خده بالأرض"

(رواه الترمذي و أبو داود وابن حبان وأحمد بإسناد ضعيف)

وتمكين أعز الأعضاء (الخد أو صفحة الوجه) من أذل المواضع (الأرض) يجعل النفس تستشعر الذل وتزيل زهو "الأنا" الذي كثيراً ما يكون هو سبب الغضب وقد قال بعض العلماء استنباطاً أن في هذا إشارة إلي الأمر بالسجود ، وهذا يتفق مع الهدي النبوي المبارك حيث كان النبي صلى الله عليه و آله وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. وكان يقول:"... وجعلت قرة عيني في الصلاة" (رواه انس بن مالك رضي الله عنه وأورده أحمد ، والنسائي ، وابن سعد ، وأبو يعلى ، والحاكم ، والبيهقي) وصححه الألباني.

هذا ما علمنا إياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه ربه: " لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ " (التوبة١٢٨)

فيما نرى الغرب يعاني من مشكلة الغضب و يكاد لا يرى لها حلولا عملية يسهل تطبيقها فمثلا :

تقرير الموقع الإخباري بي بي سي بتاريخ ٢٥ مارس ٢٠٠٨ جاء فيه:

أعلنت المتحدثة باسم الكلية الملكية للطب النفسي كارولين جراهام أن العلاجات المتاحة لمن يستشيرون الأطباء بشأن مشاكل الغضب قليلة للغاية وأن هؤلاء الأطباء يكرسون جهودهم فقط لعلاج مشاكل الاكتئاب و القلق.

بينما صرح المتحدث عن المؤسسة الاستشارية للعلاقات أن طرق معالجة الغضب المتاحة قد تسبب بعض الأذى وأن هناك إساءة استخدام لهذه الطرق.

ويبرز الجانب الإعجازي و السبق النبوي حين نستعرض سويا في السطور القليلة التالية ما أبرزته مايو كلينيك أحد أشهر مستشفيات أمريكا و العالم و بالتحديد "مؤسسة مايو للتعليم الطبي و الأبحاث"[١] على الإنترنت بتاريخ ٢٦ يونيو ٢٠٠٧ و أضع لكم النص الانجليزي وترجمته و بجواره بين قوسين النص النبوي ذي السبق في مجال علاج الغضب لنؤصله للإسلام و نثبته للنبي عليه الصلاة والسلام كالتالي:

(١) Mayo Foundation for Medical Education & Research MFMER

Anger management tips: Tame your temper

نصائح معالجة الغضب: روض انفعالك (لا تغضب)

Take a "time out" ..counting to 10 before reacting

خذ فترة صمت وعد إلى عشرة قبل رد فعلك (إذا غضب أحدكم فليسكت)

Do something physically

تحرك بجسدك (المعنى: غير وضعك) (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع)

Swim

اسبح (المعنى : باشر الماء) (...وإنما تطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)

Find ways to calm yourself. Repeat calming word or

"!phrase to yourself such as "Take it easy

كرر كلمة تهدئك مثل خذها ببساطة (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

Think carefully before you say anything

فكر بعناية قبل قول أي شئ (...و إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)

ومن ناحية أخرى يجيب موقع الاستشارات الكاملة[١]عن سؤال محير:

هل تصلح الأدوية للمساعدة في علاج الغضب؟

---

(١) www. all about counseling .com

Can medication help treat anger?

فيقول بوضوح: (بعض مضادات الاكتئاب تقلل الأعراض الانفجارية و القلق ولكن الأدوية بصفة عامة لا تستخدم بصورة مباشرة لعلاج الغضب).

وهو ما يبرهن مرة أخري على سبق النبي صلى الله عليه وسلم للطب الغربي وإعجاز سنته المطهرة في إيجاد علاجات للغضب في حين تشمل الحيرة المتخصصين في الطب حول علاج الغضب حتى بعد تقدم علوم الطب و ازدهارها.

ثمرة تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم في صحابته والتابعين:

والصحابة – رضوان الله عليهم – قد فهموا هذه الدروس النبوية وتعلموا في المدرسة المحمدية وطبقوا ما تعلموه على حياتهم وعلموا من بعدهم من المسلمين وحتى عصرنا هذا دروساً عملية فهنا درس عملي لنا جميعاً من ابن عباس وعمر بن الخطاب رضوان الله عليهما في أنه من شاهد غاضباً فعليه أن ينصحه ؛ ويذكره فضل الحلم وكظم الغيظ وعلى المنصوح قبول ذلك من أخيه والعودة لصوابه فوراً فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : استأذن الحر بن قيس لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل (أي العطاء الكثير) ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم به ؛ فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه :(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين ؛ والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله.

ودرس آخر في الحلم من أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – حين قال لغلامه : " لم أرسلت الشاة على علف الفرس ؟ " قال أردت أن أغيظك . قال : " لأجمعن مع الغيظ أجرا أنت حر لوجه الله تعالى"

واستمرت المدرسة المحمدية في التابعين وفي علماء المسلمين حتي يومنا هذا فقد قيل لعبد الله بن المبارك : أجمل لنا حسن الخلق ؛ فقال : ترك الغضب"!

ومما يُذكر هنا أن جارية لعلي بن الحسين جعلت تسكب عليه الماء فتهيأ للصلاة فسقط

الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجه فرفع على بن الحسين رأسه إليها ، فقالت الجارية : إن الله –عز وجل – يقول :(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) فقال لها : قد كظمت غيظي . قالت (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) فقال لها : قد عفا الله عنك . قالت : (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) قال : اذهبي فأنت حرة

وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ويشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف فأعطي كل صحيفة رجلا وقال للأول : إذا أشتد غضبي فقم إلي بهذه الصحيفة وناولنيها ؛ وقال للثاني : إذا سكت بعض غضبي فناولنيها ؛ وقال للثالث : إذا ذهب غضبي فناولنيها وكان في الصحيفة الأولي :" أقصر فما أنت وهذا الغضب ؟ إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً وفي الثانية :" ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء " وفي الثالثة :" احمل عباد الله على كتاب الله فإنه لا يصلحهم إلا ذاك"...!

كما روى الإمام الغزالي عن الحسن رضي الله عنه قوله :" يا بن آدم كلما غضبت وثبت؛ وأوشكت أن تثب وثبة فتقع في النار" ويجمل الإمام الغزالي رأيه في الغضب قائلاً" .. فأقل الناس غضباً أعقلهم ؛ فإنه إن كان للدنيا كان دهاء ومكراً وإن كان للآخرة كان حلماً وعلما.

متى الغضب ؟

وليس معنى هذا عدم الغضب تماما بل عدم التمادي فيه وينبغي أن يغضب الانسان اذا انتهكت حرمات الله.

أنواع الغضب

الأول : الغضب المحمود

وهو ما كان لله –تعالى– عندما تنتهك محارمه ، وهذا النوع ثمرة من ثمرات الإيمان وهكذا كان غضب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فلا يُعرف إلا أن تنتهك محارم الله –تعالى– فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : ما ضرب رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم – شيئا قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط

فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله -عز وجل (رواه مسلم ٢٣٢٨)

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال : خرج رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم - على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال : (أبهذا أمرتم ؟ أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم) فقال عبد الله بن عمرو : ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه .)رواه أحمد ٢ / ١٧٨ وابن ماجه (٨٥) واللفظ له قال البوصيري -رحمه الله تعالى - "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات"

ومن التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم أن نجعل غضبنا لله ، وإذا انتهكت محارم الله، وهذا هو الغضب المحمود فقد غضب صلى الله عليه وسلم لما أخبروه عن الإمام الذي يُنفر الناس من الصلاة بطول قراءته ، وغضب لما رأى في بيت عائشة ستراً فيه صور ذوات أرواح ، وغضب لما كلمه أسامة في شأن المخزومية التي سرقت ، وقال : أتشفع في حد من حدود الله ؟ وغضب لما سُئل عن أشياء كرهها ، فكان غضبه صلى الله عليه وسلم لله وفي الله.

الثاني : الغضب المذموم

وهو ما كان في سبيل الباطل والشيطان كالحمية الجاهلية ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

" إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا "(الفتح)

و هنا ذم الله عز و جل الكفار بالحمية الصادرة عن الغضب بالباطل

الثالث : الغضب المباح

وهو الغضب في غير معصية الله تعالى ولم يتجاوز حدَّه ويتجلى ذلك بحفظ اللسان والجوارح كأن يجهل عليه أحد، علماً بأن كظمه هنا خير وأبقى قال تعالى:"وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (آل عمران : ١٣٤)

أوجه الإعجاز

١. لا شك أن نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم قد عرف بنور الوحي خطورة الانفعالات النفسية على مستقبل المجتمع قبل أن يكتشف الطب آثارها ودعا – بحكمة – المسلمين إلي ضبط انفعالاتهم قدر المستطاع فكثرت أحاديثه التي وردت بها تلكم النصيحة الذهبية الغالية "لا تغضب" والتي ثبتت جدواها طبيا ونفسيا، وقدم أساليب مختلفة في الترغيب في حفظ النفس من الغضب ثم الترهيب من الوقوع فيه محاولاً الأخذ بأيدي أتباعه إلي جادة الصواب رحمة بهم وحفاظاً على صحة أبدانهم من المرض والتلف .

٢. لكنه – صلى الله عليه وآله وسلم – كان يعلم في الوقت ذاته طبيعة النفس البشرية ويعلم أن الإنسان لحظة غضبه قد لا يقوى على كظم غضبه خاصة إن كان يغضب لله أو لعرضه أو لماله فإذا به يصف العلاج المحمدي المعجز قبل أن يستفحل الغضب ويحدث مالا تحمد عقباه في خطة نبوية وروشته محمدية لعلاج الغضب و بها سبق طبي معجز بعد أن أثبت الطب بعد أربعة عشر قرناً أن كل ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في علاج الغضب له تأثير إيجابي على جسد الإنسان الغاضب بل يكاد ينقذه من مخاطر لا يعلم مداها إلا الله . وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. والحمد لله رب العالمين

مراجع البحث

- د.محمد نزار الدقر الهدي النبوي في كراهة الغضب.موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- الشيخ محمد صالح المنجد فتوى ٦٥٨ موقع الإسلام سؤال و جواب.
- الإمام أبو حامد الغزالي : " إحياء علوم الدين " .
- الإمام ابن حجر العسقلاني : " فتح الباري شرح صحيح البخاري " .
- د. حسان شمسي باشا : " قبسات من الطب النبوي "
- د. محمود البرشة : " الغضب وأثره السيء على البدن " صدى الإيمان ع ٢ م ١ ١٩٩٦
- د. إبراهيم الراوي : " موقف الإسلام من الإصابة السرطانية " حضارة الإسلام م ١ع ٨ ـ ١٩٦٦
- د. عبد الرزاق الكيلاني : " الحقائق الطبية في الإسلام "
- د. حامد الغوابي : " الحلم والغضب " ، لواء الإسلام م ١٠ ع ١١ ـ ١٩٥٧
- د. إبراهيم الراوي : " الإنفعالات النفسية " حضارة الإسلام م ١٥ ـ ع ٧ ـ ١٩٧٤
- الإمام المناوي : " فيض القدير شرح الجامع الصغير"
- محمد نبيل كاظم.كيف تتحرر من نار الغضب؟ دار السلام الطبعة الأولى ٢٠٠٨



من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

د. محمد محمد داود

أستاذ. م. علم اللغة بجامعة قناة السويس

عميد معهد معلمي القرآن الكريم بالمركز الإسلامي بالعمرانية

الخبيربمجمع اللغة العربية



مقدمة

لم يَحْظَ كتابٌ في الدنيا بالدراسات فيه وحوله مثلما حظي القرآن الكريم، بَيْدَ أنه على الرغم من استبحار الدراسات القرآنية ووفرتها، إلا أن القرآن الكريم لا يزال يستنهض الباحثين لمزيد من البحث في آفاقه الممتدة التي لا تقف عند نهاية: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩).

وكلّ باحث ـ حسبما يتيسر له من أدوات بحثه ـ يكشف الله له جانبًا من أسرار كتابه العزيز الذي لا تنفد أسراره: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

ولـمَّا كان القرآن من الله الحكيم ـ وفعلُ الحكيم كلُّه حكمة ـ وكل شيء عنده بقدر ومقدار؛ لذا وصف الله القرآن بالإحكام، قال تعالى:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

ومن ثَمَّ فقد نشطت الجهود لتتبع الظواهر اللغوية في القرآن الكريم، للكشف عن أسرار هذا الإحكام المعجز. ومن بين هذه الجهود هذا البحث ـ من الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم ـ الذي وقفت فيه على الظواهر الصوتية التي تفرَّد بها القرآن الكريم والتي تلفت الانتباه، ويظهر فيها وجه من وجوه الإعجاز.

وقد صنفتُها في سبع مسائل، هي:

الأولى: أثر صوتيات القرآن في حفظ اللغة العربية واستقرارها.

الثانية: الإيقاع والنغم القرآني الخالد.

الثالثة: الفاصلة القرآنية قيمة صوتية ذات وظيفة دلالية.

الرابعة: التناسب بين صفات الصوت ومعنى الكلمة.

الخامسة: التناسب بين إيحاء الصوت ومعنى الكلمة.

السادسة: التناسب والتناسق بين نوع الحركة والمعنى.

السابعة: عولمة الصوت وعالمية النغم القرآني الخالد.

والله أسأل أن يوفقني فيه وأن ينفع به، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨). ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)،

والحمد لله رب العالمين.

المسألة الأولى: أثر صوتيات القرآن في حفظ اللغة العربية واستقرارها

التلقي الشفهيُّ هو الأساس في تعلُّم القرآن الكريم، منذ نزل جبريل عليه السلام بالقرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وحتى وقتنا الحاضر، وإلى أن تقوم الساعة.

ولهذه الخاصية ـ المشافهة ـ آثار تصل إلى حدِّ الإعجاز، لكنَّ إلْفَ العادة هو الذي يمنعنا أو يحجب عنا ملاحظة نواحي الإعجاز. ولكن إذا ما قُورِنت العربية بغيرها من اللغات وما حدث لها، يظهر أثر القرآن في الاستقرار الصوتي للغة العربية وحفظها من الاندثار.

حفظ اللغة العربية حية على ألسنة المسلمين في بقاع الأرض كلها:

أ. اندثار اللغات القديمة كلها، ما عدا العربية:

إن المتأمِّل في التاريخ يرى ـ بوضوح ـ لغات كثيرة قد اندثرت بموت أهلها، أو ضعفت بضعفهم؛ فأين اللغة الفينيقية ـ لغة أهل لبنان قديماً ـ؟! وأين اللغة الهيروغليفية ـ لغة أهل مصر ـ؟! والآشورية ـ لغة أهل بابل ـ ؟!... إلخ.

إن ارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم جعلها محفوظة بحفظه، وباقية ببقائه، وسبحان الله القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

وبتأمُّل النظم القرآني في هذه الآية الكريمة نرى من وجوه الإعجاز:

- عدول الخطاب القرآني عن لفظ (القرآن)، واستعمال لفظ (الذِّكْر)، والمراد به هنا: القرآن؛ لإفادة معنى الحضور اللساني والذهني، في تناسب وتناغم مع معنى البقاء المعبَّر عنه بالحفظ.

استعمال أكثر من أداة من أدوات التوكيد: (اسمية الجملة، إن، نحن، تضعيف الفعل (نزَّلنا)، تكرار إن، اللام، تقديم الجار والمجرور "له" على المتعلّق "لحافظون").

استعمال صيغة اسم الفاعل في (لحافظون) بدلالتها على الحاضر والمستقبل.

وكل هذه الأدوات تتآزر معًا لإفادة معنى البقاء والدوام والحضور وقوة التأثير لهذا الكتاب العظيم، والواقع يشهد بهذا، فالقرآن الكريم هو النص الوحيد الذي لم يتغير ولم يتبدَّل منه حرفٌ على تطاول العصور، وعلى امتداد رقعة البلاد الإسلامية في كافة أرجاء المعمورة.

ومن وسائل حفظ القرآن العظيم: حفظ لغته وبقاؤها حَيَّةً على ألسنة المسلمين أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، من مهد الإسلام في جزيرة العرب إلى أقصى أطراف الأرض.

كيف استطاعت هذه اللغة العبقرية أن تصمد أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، بينما اندثرت اللغات القديمة جميعًا، بل اندثرت لغات كانت حيةً على الألسنة منذ أقل من أربعة قرون؟

من أمثلة تلك اللغات: اللاتينية التي انقسمت إلى لهجات تحوَّلت فيما بعد إلى لغات مختلفة في ألفاظها وتراكيبها وبنيتها الكُلِّية. لقد كانت اللاتينية هي لغة الثقافة والعلم حتى وقت قريب، وكانت المؤلفات العلمية الكبرى تُكتب بها إلى عهد نيوتن (عاش في القرن الثامن عشر)، ومؤلَّفُه الذي قلب موازين علم الفيزياء عنوانه: "Princibia Mathmatica" باللاتينية، أي: مبادئ الرياضيات.

ومع ذلك كانت اللاتينية حينئذٍ قد اندثرت تمامًا، وصارت لغة أبراج عاجيَّة، يكتب بها الفلاسفة والعلماء، ولكنها غائبة عن الحياة؛ لأنَّ الألسنة لا تنطق بها.

ومثلها اللغات الدينية التي اندثرت ـ بموتها على الألسنة ـ وانحصر وجودها بين جدران المعابد والأماكن المقدسة، كالسريانية (الآرامية)، والعبرية القديمة، ولغات السيخ والهندوس والشنتو وغيرها من لغات المعابد التي لا يعرفها سوى أفراد قليلين من كهنة المعابد.

على حين ظلت العربية صامدة متجددةً عبر العصور، واتسع نطاق المتحدثين بها، الذين

هم عربٌ باللسان، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "ليست العربية لأحدكم بأبٍ ولا أُمٍّ، ولكنها اللسان، فمن تكلَّم العربية فهو عربي[١]".

وهذا أمرٌ مُشَاهَدٌ محسوس، فإنك لتجد الهندي أو الباكستاني أو الإيراني أو الأمريكي المسلم لا يعرف شيئًا عن قواعد العربية، فإذا ما تلا آيات الذكر الحكيم انطلق لسانُه، وتَخَلَّص من عجمته ولُكْنته، وصارت أصواته واضحة كل الوضوح مطبوعة بالطابع العربي الخالص في صفات الأصوات ومخارجها.

أفليس هذا وجهًا من وجوه الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم؟!

ب. الألفاظ القرآنية الخاصة:

مَن يدقِّق النظر في العربية المعاصرة يجد الكثير من الألفاظ التي هُجِرت وظلَّ بقاؤها حيةً على الألسنة مقصورًا على الاستخدام الديني المرتبط بالقرآن.

وفي دراسة قمت بها عن الألفاظ الدالة على الكلام والاستخدام الديني في العربية المعاصرة[٢]، كان من الظواهر اللافتة للانتباه وجود مجموعة من الألفاظ ذات الدلالة الكلامية كادت تغيب عن الاستعمال المعاصر إلا في المجال الديني الإسلامي، عند شرح آيات القرآن التي وردت بها هذه الألفاظ، واستعمالُ هذه الألفاظ خارج مجال القرآن نادر ندرةً تصل إلى درجة العدم في الأعمِّ الأغلب، وضِيقُ مجال الاستعمال واقتصارُه على المجال الديني الإسلامي هو الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية فهي ثمرة للملاحظة الأولى، فقد ترتب على الاستعمال اللصيق بالقرآن لهذه الألفاظ استقرار دلالاتها حتى أصبحت تبدو مشابهةً في استقرار دلالاتها للألفاظ الإسلامية الاصطلاحية: (الصلاة، الزكاة، الحج،.... إلخ).

وفيما يلي أمثلة مختارة من هذه الألفاظ مرتبة ترتيبًا هجائيًّا، مع ذكر معناها الذي استعملت به في القرآن الكريم:

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الرواة عن مالك، وابن عساكر في تاريخ دمشق، ٢١/ ٤٠٧.

(٢) الدلالة والكلام: دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة / محمد محمد داود . القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٢ م .

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
١	ث ج ج	ثجاجًا	شديد الانصباب	﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ (النبأ)
٢	ث خ ن	أثخنتموهم يثخن	المبالغة في القتل	﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ (محمد: ٤) ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧)
٣	ث ر ب	تثريب	اللوم والتعيير والتوبيخ	﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾
٤	ج أ ر	تجأرون يجأرون تجأروا	رفع الصوت بالدعاء والتضرع	﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل: ٥٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (المؤمنون) ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾
٥	ج ب ت	الجِبت	كل ما عُبِد من دون الله، واستعمل في الصنم والكاهن والساحر.	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥١)

الشواهد القرآنية	المعنى	الصيغة الواردة	المادة	م
﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ٣٢﴾ (لقمان)	غدّار	ختّار	خ ت ر	٦
﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨﴾ (الأنعام) ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ١٠﴾ (الذاريات)	إلقاء القول عن ظن وتخمين	تخرصون الخراصون	خ ر ص	٧
﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ٢٩﴾ (الواقعة)	مقطوع شوكه	مخضود	خ ض د	٨
﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣﴾ (المائدة)، واللفظ في (التوبة: ١٢٠)	مجاعة؛ لأن البطن يضمر من شدة الجوع	مخمصة	خ م ص	٩
﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ١٦﴾ (سبأ)	كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة بشعة الطعم	خَمْط	خ م ط	١٠
﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤﴾ (الناس) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ١٦﴾ (التكوير)	الشيطان الذي يخنس ويتوارى عند ذكر الله. الكواكب السيارة؛ لأنها تختفي وتغيب	الخناس الخُنَّس	خ ن س	١١

م	المادة	الصيغة الواردة	المعنى	الشواهد القرآنية
١٢	د ع ع	يَدُعُّ يُدَعُّون	الدفع بعنف وغلظة	﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ٢﴾ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ (الطور: ١٣)
١٣	ر ف ث	رفث	الفحش في القول	﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ (البقرة:١٩٧)
١٤	ش ن أ	شنآن	بُغض	﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ (المائدة:٢) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾ (الكوثر)
١٥	ض ب ح	ضَبْحًا	صوت أنفاس الخيل في جوفها حين تعدو	﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ١﴾ (العاديات)
١٦	ض غ ث	ضغثًا أضغاث	ما جُمع وقُبِضَ عليه بالكف. أخلاط ملتبسة	﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص:٤٤) ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ (يوسف)
١٧	غ ط ش	أغطش	أظلم	﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾ (النازعات)
١٨	هـ ي ت	هَيْتَ لك	هَلُمَّ وأَقْبِل	﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ﴾ (يوسف: ٢٣)

هذا قليلٌ من كثير مما حفظه القرآن للعربية، وفي هذا أبلغ الدلالة وأقواها على أنّ كلمات القرآن الكريم هي التي كُتِبَ لها الحياة والخلود على مَرِّ الزمن، في حين أن الثروة اللفظية للعربية التي لم تُستعمَل في القرآن الكريم قد أُودِعت في قرافة المعجمات في الأعمّ الأغلب.

ولا عجب من هذه الملاحظة التي تأكدت من خلال بحث قيِّم لعالمَيْن فَذَّيْن أحدهما لغوي وهو أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، والآخر متخصص في علم الإحصاء وهو الدكتورعلي حلمي موسى تحت عنوان " دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكمبيوتر(١) "، وكان من نتائج هذه الدراسة:

أن القرآن اصطفى ١٥٪ من جذور العربية هي أفضل وأيسر ما فيها، وأن جذور القرآن هي المادة المستعملة في اللغة العربية من أول الإسلام حتى الآن، وأما الـ ٨٥٪ من لغة الجاهلية فقد أصبحت في المعاجم لكنها لا تجري على ألسنة الناس في حياتهم.

أن جذور القرآن الكريم هي التي يجري بها فكر هذه الأمة منذ نطقت بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وبعد نزول القرآن إلى أيامنا هذه، وبحصر مفردات أي جريدة، أو بحث أو مقال، أو أي مادة مكتوبة؛ فإنها لا تخرج عن مادة القرآن إلا بمقدار ٢٪ فقط، وهذا يعني أن المادة الشائعة المهيمنة في الكتابات والأحاديث العربية هي مادة القرآن.

وتلتقي هذه الملاحظة مع ملاحظة ابن فارس في كتابه "الصاحبي" التي تقول: " إن القرآن فرض على الناس بيانًا خاصًّا، فهم يقولون في الشيء إذا وصفوه بالطول يقولون: طويل، ولا يقولون: أَشَقُّ ولا أَمَقُّ، وهما لا يردان في استعمال الناس(٢)".

إذن فقد هيمن القرآن على هذه اللغة وكان سببًا في استقرار مادتها؛ لأن مادة القرآن نحفظها جيلا بعد جيل، ونُردِّدها بطريقة واحدة، وهذا هو السر في استمرار العربية ما يقرب من خمسة عشر قرنًا حتى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إن شاء الله تعالى.

فأي كتاب أو أثر أدبي أو غير ذلك كان له مثل هذا التأثير البالغ والهيمنة الدائمة على فكر

---

(١) دراسة إحصائية لجذور تاج العروس باستخدام الكمبيوتر / على حلمي موسى ، عبد الصبور شاهين . الكويت : مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٧٣ م .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها / ابن فارس ؛ تحقيق مصطفى الشربيني . ـــ القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٣ م .

أمة نشرت حضارتها في ربوع الأرض من أدناها إلى أقصاها وعلى لسانها؟!

إن الكتب المقدسة الأخرى ـ على الرغم من أثرها الكبير في نفوس أتباعها ـ لم يكن لها شيءٌ من هذا التأثير البالغ؛ لأنها تقوقعت في المعابد، وانحصر استعمالها في أداء الشعائر الدينية وحسب، أمَّا العربية ـ التي صاغها القرآن صياغة فريدة ـ فقد تحررتْ وانطلقت بها الألسنة وصار قُصارى جهد الكُتَّاب الذين يكتبون بها أن يتلمَّسوا قبسًا من فصاحة القرآن وبعضًا من بلاغته وحسن تأليفه وتناغُم كلماته وأصواته.

استقرار اللغة العربية:

على الرغم من أن التطور سُنَّة جارية في كل اللغات وأكثرُ مظاهره يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتـها اللُّغويَّة (صوتية ـ صرفية ـ نحوية ـ دلالية)، وما تطور منها كان في إطار المعاني الأصلية وبسببٍ منها.

ويزداد إدراك أهمية الاستقرار اللغوي الذي تتميز به العربية إذا ما تأملنا التغيُّر السريع الذي يلاحق اللغة الإنجليزية (لغة الحضارة المعاصرة)، فنصوص الإنجليزية القديمة التي مر عليها قرابة ثلاثة قرون أصبحت عصيَّة على الفهم بالنسبة للإنجليزي المعاصر.

يضاف إلى ذلك ما نشرته مجلة نيوزويك باللغة العربية تحت عنوان " تراجع الإنجليزية الفصحى الراقية على مستوى العالم والإحساس بالخطر من سرعة تغيرها "، ويتساءلون في فَرْضِيَّة علمية لها ما يبررها: هل نحن (علماء الإنجليزية) أمام لغة جديدة؟[1]

ولعلَّ هذا التغيُّر السريع هو الذي دفع علماء هذه اللغة إلى إعادة صياغة النصوص الأدبية المهمَّة عندهم (مثل نصوص شكسبير) بإنجليزية حديثة Modern English يفهمها المعاصرون بدلا من الإنجليزية القديمة Old English.

في حين أن العربي المعاصر يقرأ آيات القرآن الكريم فلا يحس معها بغرابة؛ ويكفي النظر إلى هذه الآيات: ﴿ **وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾** ﴾ (العصر).

(١) نيوزويك، مارس ٢٠٠٥ م ـــ (عدد٢٢)، ص٥٤ .

لنتأمَّل هذه السلاسة السائدة في السورة، وذلك الوضوح الدلالي مع عمق المعاني، وذلك التناسق الصوتي المتمثل في ختم الآيات بفاصلة الراء المقفلة بالسكون، وتكرار حرف الصاد بما فيه من تفخيم يتناسب وفخامة المقول، ويزيد من عُلُوِّ طبقته الصوتية مجاورة الراء المفخَّمة.. هذا إلى التدرُّج في طول الجُمَل بحيث توحي بالانتقال بالخطاب من الشدة والقوَّة والفخامة البالغة في الآية الأولى (والعصر) إلى درجة أخف في الآية الثانية، ثم تُختَمُ السورة بأطول آياتها، وكأنَّ في ذلك إشارة إلى اللين والرفق بالمؤمنين الذين عملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر... إنك لتشعر مع هذا الامتداد والهدوء بزمان ممتد طويل يملؤه المؤمنون بعمل الصالحات واستمرار التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إن الجملة القرآنية تتألف من كلمات وحروف ذات أصوات يستريح لتآلُفِها السمع والصوت، والنطق، ويتكون من اجتماعها على الشكل الذي رتبت عليه، نسق جميل ينطوي على إيقاع جلي رائع، ما كان لِيَتِمَّ إلا بالصورة التي جاءت عليها الآيات، وأي وجه من التغيير أو التبديل أو النقص أو الزيادة يضيع معه هذا الجمال والإبداع القرآني.

تأمل قوله تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ (القمر)

وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها، ثم دقق نظرك وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة ومع المهموسة والمجهورة وغيرها، ثم أمعن في تآلف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها، فإنك إذا تأملت في ذلك علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صُبَّتْ من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما قُدِّر تقديرًا بعلم اللطيف الخبير، وهيهات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة[1].

ولذلك فإنه على الرغم من مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا، لا يكاد الإنسان يجد صعوبة في التواصل مع كلمات القرآن، وذلك في كل المستويات اللُّغوية: (الصوتية، والصرفية،

---

(١) كمال اللغة القرآنية / محمد محمد داود. ــ ط١ ـــ القاهرة: دار المنار، ٢٠٠٧م، ص٢١٠، ٢١١.

والنحوية، والدلالية [١]، وهذه ميزة عظيمة: أن تكون الأُمَّة موصولةً بتراثها الزاخر تفيد منه وتنتفع به.

وتأمُّلُ مزية استقرار اللغة العربية التي تفردت بـها عن سائر اللغات التي تغيرت وتبدلت تغيُّرًا وَتَبدُّلا جعل من اللغة الواحدة لغاتٍ كثيرةً متباينة ـ يجعلنا نتساءل:

ما السبب وراء هذه المزية؟

هل يمكن إرجاع هذه الميزة إلى أن اللغة العربية كانت لغة عالمية فيها كل ما تفتقر إليه الأمم في كل الأزمنة والأمكنة من ألفاظ ومعانٍ وأخيلة، بحيث يجد الناس فيها ما يفتقرون إليه؛ لذلك فهم يحرصون عليها؟!

وهذا بعيد؛ فما كانت اللغة العربية ولا غيرها كذلك.

أم أن مزية استقرار اللغة العربية ترجع إلى أهلها ومكانتهم الاجتماعية والسياسية والعلمية؟! والواقع يُكَذِّب ذلك؛ فقد كان أهل العربية في وضع متأخر الشأن بجوار حضارتين عظيمتين هما حضارتا الفرس والروم، وفي حياتنا المعاصرة تتلاحق الهزائم سياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا على العرب.

وهكذا ينتهي بنا التأمل إلى أننا لا نجد سببًا مقنعًا لهذه المزية سوى أنها أثر من آثار القرآن الكريم، ووجه من وجوه إعجازه.

تـهذيب اللغة العربية (تنقية صوتية):

لقد نَحَّى القرآن الكريم عن اللغة التَّقعُّر في الكلام، والألفاظ الحُوشيَّة الثقيلة على السمع، إن من يتأمل النثر أو الشعر الجاهلي يرى كثيرًا من الكلمات الحُوْشِيَّة، من ذلك: " جحيش "، و" مستشزرات "، و"جحلنجح"، و" البخصات "، و"المطاط " وغير ذلك كثير.

من ذلك أيضًا ما رواه القالي في أماليه لأبي محلَّم الشيباني في أواخر القرن الثاني من كتاب

---

(١) Holes: Clive Modern Arabic: Structure، Functions and Varieties.- London: Longman، 1995-343p.

له إلى بعض الحذَّائين في نعل.. قال هذا المتقعِّر: " دِنْها، فإذا هَـمَّتْ تأتدن، فلا تُخَلِّها تُـمَرْخِد، وقَبْلَ أن تَقْفَعِلَّ، فإذا ائْتَدَنَتْ فامْسَحْها بخِرْقَة غير وكيَّة ولا جَشِيَّة، ثم امْعَسْها مَعْسًا رَقيقًا، ثم سنَّ شفْرَتَكَ، وأَمْهِهَا، فإذا رأيت عليها مثل الهَبْوة فسِنَّ رأس الإزميل".. إلخ.

وانظر قول القائل:

فـاحـذر ولا تَـكْـتَرْ كَـرِيًّـا أعْـوَجَـا
عِـلْـجًـا إذا سـاق بـنـا عَـفَـنْـجَـجَـا!

وتأمَّلْ تكرار صوت الكاف والعين والجيم على مسافات متقاربة؛ مما يثْقُل على السمع واللسان، حتى يضيق به الناطق ويَمَجّه السامع وتنبو عنه القلوب.

وتكفي نظرة إلى ديوان أي شاعر أو راجز من العصر الجاهلي، لنرى إلى أي مدًى كان أثر القرآن الكريم بالغًا في تصفية أصوات اللغة وتنقيتها؛ وإليك مثالا مما أورده صاحب "نظام الغريب في اللغة" لكلمة معروفة للعرب قاطبة هي "اللبن"، ومن مرادفاتها:

لبن أُمْهُجانٌ، وأُمْهَج بالفتح وأُمْهُوج أيضًا: اللبن الخالص. والماضر: اللبن الحامض ومنه سُمِّيَت المضيرة، ومثله الخاثر. والضَّيَاح: اللبن الممزوج بالماء. والرِّسْل: اللبن الحليب نفسه. والمذيق: اللبن الممزوج بالماء، والصريح الخالص منه. والعُجَالِط والعُجَلِط: الرائب الغليظ. والرُّوبة بغير همز: اللبن الحامض الذي قد رُوِّبَ به الحليب. والعَكِيُّ بتشديد الياء: اللبن الحامض. والهُجْمة والهَجيمة: اللبن قبل أن يحمض. والحاذر: اللبن الحامض، فإذا تقطَّعَ وصار اللبن ناحية والماء ناحية فهو مُمْذَقِرٌ، فإن تكبَّدَ بعضه على بعض وحمض فلم يتقطع فهو إذْك. والعُثَلِط والهُدَبِد: ما خَثَر منه وتلبَّد. والصَّقْر: أحمض ما يكون من اللبن، فإذا صُبَّ عليه حليب فهو الرَّائثة والمُرضَّة. والعكيس: اللبن الحليب يُصَبُّ على مَرَق. والنَّخيسة: لبن الضأن يُصَبُّ على لبن المعز. والصَّحيرة: الحليب المسخن حتى يحترق. والسَّمْهَج والسَّمْلَج: اللبن إذا كان حلوًا دسمًا. والمِلْعاز والمِلْهاز: اللبن يختلط بعضه ببعض عند المخض. والصَّرْب والصَّرَب: أحمض ما يكون من اللبن. والسَجَاج: أرَقُّ ما يكون من

اللبن، والْمَهْو والْمَسْجُور مثله. والنَّسْء: الحليب إذا مزج بالماء، والنَّسِيُّ مثله[١].

بينما اكتفى القرآن الكريم بكلمة واحدة هي (اللبن)، ولا عجب أن غابت كل تلك الكلمات الحوشية والغريبة عن واقع الاستعمال اللغوي، وبقيت الكلمة القرآنية.

لقد كان القرآن بمثابة غربال لأصوات العربية، ومصفاةً لها أخرجت منها ما ينبو عنه السمع وما يثقل على اللسان، والناظر في هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثلة ناصعة للنقاء الصوتي والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة إعجازية لا نجد لها مثيلا في أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة.

كذلك نَحَّى القرآن الكريم كثيرًا من الألفاظ التي تعبر عن معانٍ لا يُقِرُّها الإسلام: من ذلك:

« **المِرْباع** »: وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

« **النشيطة** »: وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود.

« **المَكْس** »: وهي دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية.

وفي هذا سُمُوٌّ لغوي يتوازى مع السُمُوِّ الخُلُقِي الذي أتَى به القرآن الكريم.

---

(١) نظام الغريب في اللغة / عيسى الربعي، ص٦١: ٦٥.

المسألة الثانية: الإيقاع والنغم القرآني الخالد

دُهِشَ العرب حينما سمعوا القرآن، وتحيَّروا في أمر هذا الكلام الذي تستلذُّه الآذان وتستخفُّه الألسنة وتقشعرُّ منه الجلود وتطمئنُّ به القلوب، ومَبْعَث حيرتهم ودهشتهم يعود ـ في جانب منه ـ إلى هذه الخصائص الصوتية الفريدة للقرآن، وقد جسَّد الوليد بن المغيرة هذه الحيرة حين قال يصف القرآن في مقولته المشهورة: والله لقد وضعته على أقراء الشعر فما هو بالشعر، وما هو بالسجع ولا الكهانة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه لَيَعْلُو ولا يُعْلَى عليه.

في هذه الكلمة يتجسَّد ما تملَّك هذا الرجل وغيره من العرب لـمَّـا سمعوا القرآن الكريم فقد اهتزت قلوبهم وهيمن الصوت القرآنيُّ على مشاعرهم، وتحيروا في شأن هذا النغم الفيَّاض ــ من أين يأتى؟! إنه ليس بشعر؛ لأنه لا يتفق مع أوزان الشعر وطرائق نظمه، وليس بسجع متوازن كسجع الكهان، ومع ذلك تنساب أنغامه انسيابًا في عذوبة وسلاسة وتآلف عجيب، وكأنَّه تيار موسيقي تتفجر منه النغمات من أعلاه ومن أسفله على حد قول الوليد، ولعلَّ من بين ما تدل عليه عبارته: عمق التناسق بين أنغامه العالية القوية وبين أنغامه الرقيقة الهادئة المنسابة.

والنغم القرآني ينبعث من أصواته، وحسن جَرْسِه، وتآلف ألفاظه، وطرائق الأداء المعروفة في فن التجويد منذ عصر النبوَّة، ويشهد لهذا ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما أَذِنَ الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنَّى بالقرآن "[١].

والتغنِّي بالقرآن يعني تجويده، باعطاء كلِّ صوتٍ من أصواته ما يستحق من صفات وامتداد وعمق وتلوين؛ حتى يظهر المعنى وظلال المعنى في وضوحٍ تامٍّ، وفي أداء جمالي ممتع للسمع والفؤاد. وليس من قبيل الصدفة أن القرآن الكريم قد أُنْزِل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.. إنَّه خطاب إلى القلب؛ ولذلك كان للإيقاع فيه نصيب كبير، قال الله تعالى:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٩٧).

والإيقاع القرآني يهز القلوب ويأخذ بمجامعها؛ ولذلك كان للنبي صلى الله عليه وسلم عند سماع القرآن أحوالٌ، فمرةً يرتجف، وتارةً ينبسط... وهكذا بحسب المعاني التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٣٦).

تتضمنها الآيات والإيقاع المصاحب لها،وقد ارتبط أداء القرآن الكريم بالمقامات الموسيقية العربية كالبياتي والنهاوند والرَّست والحجاز والصَّبا وغيرها، ولكل مقام من هذه المقامات طرق عديدة وأساليب متباينة في إبراز وجوه النغم القرآنيّ المتنوّع والفريد.

وينبعث النغم القرآني من توالى المقاطع الصوتية على مسافات منتظمة متقاربة، بما يمنح الأذن إحساسًا بالتوازن الإيقاعي، دون رتابة أو جمود كالذي نُحسُّ به حين نسمع الأسجاع المتماثلة في مقاطعها، فالنغم القرآنى متوازن الإيقاع ومتجدِّدٌ في آنٍ واحد؛ لتنوع الفواصل أو المسافات الفاصلة بين مواضع النبر في الكلمات، واختلاف الكلمات طولا وقِصَرًا.

هذا بالإضافة إلى تلوين الأداء القرآني وتحسينه عن طريق المدِّ والغُنَّة والسَّكْت القصير والسكون، وغير ذلك من خصائص التلاوة القرآنية التي تضيف إلى عظمة النغم القرآني توازُنَ الإيقاع، فتجويد القرآن يشتمل إلى جانب إعطاء الأصوات حقَّها على أمور أخرى، منها: المد بأنواعه والغنة والسكت وما إلى ذلك مما يُعَدُّ من قبيل الانقطاع المؤقت لتوالي الأصوات التي تتكون منها الألفاظ. فإذا قرأ القارئ مع الترتيل أتى بكل رتل وآخر وبينهما فترة انقطاعه إما مد أو غنة أو سكت إلخ..

هذا النوع من الترتيل يضيف إلى إيقاع القرآن الكامن في نظمه إيقاعًا آخر طارئًا عليه من خلال الأداء والقراءة، فإذا اجتمع الإيقاع الصوتي وذلك الإيقاع الترتيلي لم يكن للأذن إلا أن تستمع وتنصت وتستمتع بالجمال، وسبحان الله و تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(الأعراف٢٠٤)[١]

كما أن القُرَّاء المجيدين يستطيعون إبراز المعاني القرآنية صوتيًّا عن طريق التنغيم؛ أي رفع الصوت وخفضه وتلوينه بألوان مختلفة تعبِّر عن الفرح، أو الحزن، أو الخوف، أو الدهشة، أو التعجب، أو الغضب، أو الرضا... إلخ.

الإيقاع في العربية:

مصطلح الإيقاع في العربية مستمدٌّ من وَقْع المطر. وهو في عرف أهل اللغة عبارة عن "اتفاق الأصوات والألحان وتوقيعها في الغناء أو العزف[٢]".

(١) البيان في روائع القرآن / تمام حسان، ج١، ص١٨٩، ١٩٠.

(٢) المعجم العربي الحديث / لاروس، ١٩٧٣م، صـ ٢٠٥. لسان العرب / ابن منظور. ــ ط٣. ــ بيروت: دار صادر،

والإيقاع غير الوزن، ومن المناسب أن نشير ـ هنا ـ إلى الفرق بينهما، إذ طالما اختلط الأمر بشأنهما؛ ذلك أن الوزن عندما يتمثل لدى بداية تركيب ما، فإنه "لايفتأ قائمًـا دون أن يصيبه تغيير إلى نهايته، مثله مثل الشكل الميكانيكيّ؛ في حين نجد أنَّ الإيقاع خَلْقٌ جماليٌّ مَحْضٌ[1]".

الإيقاع في القرآن:

من دوافعِ الاهتمام بإيقاعية القرآن الكريم: خروج هذه الإيقاعية عن منظومة أشعار العرب وما أَلِفُوه فيها، حيث وجدوا أنفسهم أمام ظاهرة متمثلة في "اتساق القرآن، وائتلاف حركاته وسكناته، ومدَّاته، وغُنَّاته، واتصالاته، وسكتاته، ذلك ما يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم أو منثور[2]".

إن السمات البارزة في بنية الخطاب القرآنيّ، لهي ذلك الترتيب في الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة كُلٍّ للآخر مناسبةً طبيعية: همسًا وجهرًا، شدة ورخاوة، تفخيمًا وترقيقًا، تفشِّيًا وتكرارًا.

وإذا ما رُمْنَا تَـمَثُّـلَ ذلك بآذاننا؛ بل بوجداننا وإحساساتنا، فلنستمع إلى مطلع سورة العاديات وهي تُتلَى علينا؛ فما من شك أن أول ما يطرق آذاننا هو تلك الحركات والطرقات المتواليات، كما تفعل "الخيول" حال ركضها قالبًا بقالب، فلا ريب أن الألفاظ تفعل فينا ما هو أجمل وأجلُّ من السِّحر بمنتهياتها المتماثلة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾

ويؤكد الرافعي أن المدار في هذه السورة قائم بشكل جَليٍّ ومسموع على خاصية الإيقاع؛

١٩٩٤م، مادة: وقع.

(1) Jean Cohen, Structure du Langage poetique, Flammation, Paris. 1966. P. 42.

(٢) التعبير الفني في القرآن / أمين بكري شيخ . ط٤ . ـ القاهرة : دار الشروق ،] د.ت [، ص١٨٥ : ١٩٨ .

فيقول: "ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرَى الحروف أنفسها فيما هي لـه من أمر الفصاحة، فيهيئُ بعضُها لبعض، ويساند بعضُها بعضًا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، متساوقة معها في النّظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيًّا كان؛ فلا تَعْذُب ولا تُساغ، ربما كانت أَوْكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة؛ فإذا هي استُعْمِلَتْ في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقًا في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأَرَقَّه(١)".

ومصطفى صادق الرافعي إذ يؤكد هذه الخصيصة لم يفتأ يُقَدِّم الشاهد تِلْوَ الآخَرِ على ما يذهب إليه، ومن ذلك إيراده للفظة: (النُّذُر). وفي ذلك يقول: "فإن الضمة ثقيلة فيها ـ أي لفظة النذر ـ لتواليها على النون والذال معًا، فضلا عن جَسْأَة هذا الحرف ـ صلابته أو صعوبة النطق به ـ ونُبُوِّه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس، وانتفى من طبيعته في قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾ (القمر:٣٦).

فتأمل هذا التركيب، وأَنْعِمْ ثم أنعم على تأمله، وتَذَوَّقْ مواقعَ الحروف، وأَجْرِ حركاتها في حِسِّ السمع، وتأَمَّلْ مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا)، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد... ثم رَدِّد نظرك في الراء من(تماروا)، فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر)، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذا انتهى إليها من مثلها، فلا تجفو عليه ولا تغلظ، ثم اعْجَبْ لهذه الغُنَّة التي سبقت الطاء في (أنذرهم)، وللغُنَّة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر)(٢)".

ونرى سيد قطب لا يكتفي بالتلويح إلى احتواء النظم القرآني على الإيقاعية من باب

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي ط٩ . بيروت : دار الكتاب العربي،١٩٧٣م، ص٢٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

وصفها السطحي؛ وإنما نلفيه في الكثير من المرات يقف وقفة المتأمل في هذه الخصيصة التي امتاز بها القرآن، ومتتبعًا لأسرارها وحقائق تواجدها بشكلها المتميز، وهو لذلك يقول: " فأما تنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تُطْلَق فيها؛ فَلَدَيْنَا ما نعتمد عليه في الجزم بأنه يتبع نظامًا خاصًّا، وينسجم مع الجو العام باطِّراد لا يَسْتَثْنِي(١)".

وهو ـ أيضًا ـ يحاول الربط بين جو النص القرآني والإيقاع؛ فيرى بعد تفحص وإمعانٍ أن ذلك الإيقاعَ ما هو إلا انعكاسٌ للجو العام الذي يطبع الخطاب الـمُدْرَج فيه، فهو يرى أن جو سورة (النازعات) أشبه بالزلزال الكبير الذي يُفقد كل شيء توالزنه، وتترادف مزعجاته، فإذا القلوب مضطربة والأبصار كسيرة، "ذلك الجو سريع النبض، شديد الارتجاف، والذي ينسجم تمام الانسجام مع إيقاعها، حيث هذه المقطوعة سريعة الحركة، قصيرة الموجة، قوية المبنى(٢)".

كما أنه يرى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يرى فيه ذلك الجوَّ المفعم بالرعب والهول والفزع، والذي ينسجم تمام الانسجام مع إيقاع هذا المقطع القرآني، حيث " إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طولا وعرضًا في عمقٍ وارتفاع، ليشترك في رسم الهول العريض العميق، والمدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظيٍ للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق(٣)".

ومن ذلك أيضا ما ذكره الشيخ محمد الغزالي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾﴾ إذ يقول: "وكنتُ أسمع هذه الآيات من فم قارئ ندىِّ الصوت وقف على

---

(١) التصوير الفني في القرآن/ سيد قطب . ط١ . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٨ م، ص١١٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ١١١.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٣.

كلمة (مغلوب) وأطال مدَّ الواو ستّ حركات مليئة بالقهر والضراعة والاستنجاد، خُيِّلَ إليَّ أنها امتلأت بآلام تسعة قرون ونصف من جهاد الدعوة وفشل الاستجابة، ونظرتُ حولي فرأيت الدموع تطفر من الأعين رقَّة لعبودية نوح واستغاثته".[١]

ويشير الدكتور صبحي الصالح إلى الإعجاز في نغم القرآن بقوله: "إن هذا القرآن ـ في كل سورة منه وآية، وفي كل مقطع منه وفقرة، وفي كل مشهد منه وقصة، وفي كل مطلع منه وختام ـ يمتاز بأسلوب إيقاعي غنيٍّ بالموسيقى، مملوء نغماً، حتى ليكون من الخطأ الشديد في هذا الباب أن نُفاضِلَ بين سورة وأخرى، أو نُوازِنَ بين مقطع ومقطع، لكننا حين نومئ إلى تفرُّد سورة منه بنسق خاص، إنما نقرر ظاهرة أسلوبية بارزة نؤكِّدها بالدليل، وندعمها بالشاهد، مؤكِّدين أن القرآن نسيج واحد في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوِّعٌ تنوُّعَ موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه![٢]".

وعن اللفظة القرآنية يقول الدكتور صبحي الصالح: " تكاد تستقل ـ بجرسها ونغمها بتصوير لوحة كاملة؛ فيها اللون زاهيًا أو شاحبًا، وفيها الظل شفيفًا أو كثيفًا... وحين تتسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ (التكوير).

وتقرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، فلا ترى في المعجم غير كلمة "زحزح" تُصَوِّر مشهد الإبعاد والتنحية، بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات.. وما أحسب شفتيك إلا منطبقتين استقباحًا واستهجانًا لحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه، في قوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ (إبراهيم).

ولا أحسبك إلا مستشعرًا عنف لفظة الكبكبة في قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم/ الشيخ محمد الغزالي.ـ ط٨، القاهرة: دار الشروق، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٤١٩، ٤٢٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن / صبحي الصالح . ـــ القاهرة : مكتبة وهبة ، ٢٠٠٤م ، ص ٣٣٤.

وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ (الشعراء: ٩٤)، حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يُكَبُّون على وجوههم أو على مناخرهم، ويُلْقَوْنَ إلقاءَ المهمَلين، فلا يقيم أحد لهم وزنًا![١]".

ويشير الدكتور محمد عبد الله دراز إلى التفرُّد في النظم الصوتي للقرآن قائلا: "أول ما يلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم، خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره[٢]".

ويضيف الدكتور دراز: " دع القارئ الـمُجَوِّد يقرأ القرآن يرتِّله حقَّ ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه، ثم انتبذْ منه مكانًا قصيًّا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومَدَّاتها وغُنَّاتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم أَلْقِ سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جُرِّدَتْ تجريدًا وأُرْسِلَتْ ساذَجةً في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحنٍ غريب لا تجده في كلام آخرَ لو جُرِّدَ هذا التجريد وجُوِّدَ هذا التجويد[٣]".

إن موسيقى القرآن وإيقاعه لا ينبعان من جرس الحروف والكلمات، ولا من تجانس الأصوات والتراكيب فحسب، بل من هذا التآزر بين الصوت والمعنى، بين الأنغام الخارجية والنغم الداخلي المنبعث من المعاني وظلالها المرهفة الباعثة على التأمل العميق والتدبر المتأني لكلماته وآياته، فترتعد لوَقْعِه القلوب، وتقشعر الجلود، ثم تلين وترقّ خاشعة لذكر الله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ (الزمر: ٢٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٥، ٣٣٦.

(٢) النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن / محمد عبد الله دراز . ط٦ . الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤م، ص ١٠١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠١، ١٠٢.

المسألة الثالثة: الفاصلة بين التناسق الصوتي ورعاية المعنى

أودُّ هنا ـ بدايةً ـ توضيح ملاحظة تتصل بأدب السلف الصالح، حيث أطلقوا على نـهايات الآيات القرآنية تسمية "رءوس الآيات"، تمييزًا لها عن مصطلحات الشعر والنثر، ففي الشعر نقول: صدر البيت وعجزه، وفي النثر نقول: بداية الجملة ونـهايتها، فبداية الآية عندهم كنـهايتها: رأس، أي مستوى من الارتفاع والارتقاء لا ينتهي ولا يهبط أبدًا، والوقف عند الرأس يشعر بأن آيات القرآن قِمم يرقى القارئ إليها، وكلَّما مضى في القراءة ازداد رقيًّا، فهو صاعد أبدًا، حيث يقال لقارئ القرآن: " اقرأ وارْقَ، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منـزلتك عند آخر آية تقرؤها[1] ".

ومعلوم أن رءوس الآيات توقيفية، أي كما جاءت بالتلقي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. والملاحَظ في رءوس الآيات النغم الصوتي الذي يلفت الانتباه وتستريح له الأذن إلى حد يأخذ بالنَّفس، ولعله كان أحد الأسباب التي جعلت الوليد يقول بعد سماعه القرآن الكريم: " إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة "، وهما من حِسِّ اللسان وحِسِّ الأذن.

وإذا ما حاولنا الكشف عن الظاهرة بأسلوب علمي، وذلك بتتبع أصوات الحروف والحركات التي تُكَوِّن هذه الفواصل بـهذا التناسق الصوتي المبدع، فإننا نلاحظ التالي:

كثرة الحركات، وبخاصة الطويلة (حروف المد: الألف والواو والياء)، بما لها من نغمات منتظمة تسيطر على لحن الكلام.

كثرة ورود الصوامت المتوسطة (النون، الميم، الراء، الواو، الياء)، وهي قريبة ـ من الناحية الفيزيائية ـ إلى طبيعة الحركات، التي تسهم في خاصية التنغيم الشجيِّ بشكل واضح.

يُدَعِّمُ هذا ظواهرُ صوتيةٌ خاصَّةٌ بالقرآن كالـمَدِّ والغُنَّة، وكل هذه العناصر الصوتية لا تكون بـهذا التناسب الفريد في غير القرآن من فنون الشعر والنثر.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٥٠٨)، والنسائي في سننه (٨٠٥٦)، وابن حبان في صحيحه (٧٦٧)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والتهذيب: حسن صحيح (١٤٢٦).

سؤال اعتراضي: هل هذا التناسب الصوتي هو من قبيل السجعِ، حيث يتوالى الكلام المنثور على حرف واحد؛ ليكتسب النثر ضربًا من الموسيقى والنغم؟ أمْ هو من قبيل القافية في الشعر؟

والجواب: لا هذا ولا ذاك؛ فالفاصلة في القرآن ليست على وتيرة واحدة، كما هو الحال في كلٍّ من السجع والقافية، فهي لا تلتزم شيئًا من ذلك، حيث تجري في عدد من آيات القرآن على نمط، ثم تتحول عنه إلى نمط آخر، ومن خلال جريها على نمط واحد، فأغلب ما تقوم عليه هو حرف المد كما في هذه الآيات:

﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ ﴾ (ق).

والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة دلالية، ورعايتها تؤدي إلى تقديم عنصر أو تأخيره، ليس رعاية للتناسق الصوتي فقط، بل رعاية للمعنى أيضًا، وهذا هو الإعجاز.

مثاله قول الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ (الفاتحة).

فإن قلت: لم قدَّم العبادة على الاستعانة؟ أجابك اللغويون القدماء أصحاب الحس المرهف، وعلى رأسهم الزمخشري، حيث قال: " هو من تقديم العلة على المعلول". وقال أبو السعود: " هو من تقديم الأشرف ".

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ ﴾ (الليل)، لماذا قدم الآخرة على الأولى؟ والجواب: أن ذلك مرتبط بسياق السورة ومقصدها؛ فقد قامت السورة لتأكيد سوء العاقبة والإنذار لمن كذَّب وأعرض بالتنكيل به في الآخرة، في مقابل الثواب الذي ينتظر من أحسن وتصدَّق، فإذا ما تحقق مع هذا المعنى الانسجام الصوتي وتناسب الإيقاع في الفواصل، فذلك لا يتم على هذا الوجه من الكمال في غير هذا النظم القرآني المعجز.

ومن قال بالتقديم لرعاية الفاصلة فقط، فهو قصور عن فهم المعنى المراد؛ فالتقديم والتأخير يرتبطان بالسياق والمعنى المراد.

كذلك فإن الترتيب في تقديم الصفات الخاصة بالله تبارك وتعالى، أو الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ مرتبط بالسياق، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (سبأ).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحجرات).فقدم الرحمة في آية سبأ؛ لأنـها منشأ المغفرة. أما الغفور فتقدم في كل موضع في القرآن فيه ولو إشارةً إلى وقوع المعاصي وكفران النعم[1].

وإنَّ مـمَّـا يلفت الانتباهَ أن القرآن الكريم قد خلا من التنافر في بنية كلماته، فأصواته كلها قامت على الائتلاف، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد سجلت كلمات القرآن الكريم قمة التناسق بين أصواتـها والمعانى المرادة لها، وهذا هو الجديد في الصوت القرآني: أن يُوَظَّف الصوت المفرد داخل الكلمة لخدمة المعنى المقصود، ومن ذلك كلمات: الصَّاخَّة، الطَّامَّة، القارعة، وكلُّها أسماء ليوم القيامة، وقد جاءت حروف الاستعلاء: الصاد في (الصَّاخَّة)، والطاء في (الطَّامَّة)، والقاف في (القارعة)، وتلا كلا منها حرفُ المد (الألف) ليعطي أقصى مدًى من التفخيم. وفي هذا إشارة إلى أبلغ القوة والشدة والمفاجأ

---

(١) معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة / محمد محمد داود . ـــــ القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٨ م، ص٦٢٢.

المسألة الرابعة: إيحاء الصوت بالمعنى

يُقْصَدَ بإيحاء الصوت بالمعنى: أن يُوحِيَ جَرْسُ أصوات الكلمة بمعناها الذي رُصِدَ لها في المعجم، فيلتقي الجَرْسُ والعُرف عندئذ لا على مصادفةٍ ومحض اتفاق، ولكن انتقاء اللفظ يكون عن تعمُّد وحسن اختيار[١].

وإن من إعجاز القرآن وتفرُّده الرائع في الدلالة: ارتباط الصوت بمعانيه ارتباطًا وثيقًا. وقد تأكَّد لعلماء العربية أنّ الجانب الصوتي ركنٌ أساسي في بناء التعبير القرآنيّ في مواضع عدة من التنـزيل. وقد تنبَّه اللغويون القدماء إلى هذه الظاهرة الصوتية، فنقل ابن جني عن الخليل قوله: "كأنهم توهموا في صوت الجُنْدُب استطالةً ومدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهَّموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صَرْصر[٢].

وعقد ابن جني لهذه الظاهرة بابًا أسماه: "باب في إمساس الألفاظِ أشباهَ المعاني"، ساق فيه ما ذكره الخليل وسيبويه، ثم أورد أمثلة عديدة، نجتزئ منها بقوله:

"فأمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسعٌ[٣]، ونَهْجٌ مُتْلَئِبٌّ عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المُعَبَّر بها عنها فَيُعَدِّلونها بها ويحتذونها عليها. وذلك أكثر مما نُقَدِّره وأضعاف ما نستشعره، من ذلك قولهم: خضم، وقضم، فالخَضْمُ لأَكْلِ الرَّطْب، والقَضْمُ للصُلْبِ اليابس، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطْبِ، والقاف لصلابتها لليابس؛ حَذْوًا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث[٤].

لكنَّ ما في القرآن الكريم من تجلياتٍ لهذه الظاهرة الصوتية أوسع بكثير مما ذكره ابن جني، فلقد فجَّر القرآن طاقات الصوت في العربية إلى أقصى مدًى، بحيث إننا نتخيَّل ـ بل نكاد نرى ـ المشهد المعبَّرَ عنه إذا ما لامست أسماعَنا كلماتُه.

---

(١) البيان في روائع القرآن / تمام حسان، مرجع سابق، ج١، ص ٢٠٢.

(٢) الخصائص / ابن جنى، تحقيق محمد على النجار، ج٢، ص١٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٧، ١٥٨.

ومن أمثلة ذلك: التكرار لبعض الأصوات بما يوحي بالتتابع، نحو قول الله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الشعراء)، أي: سقط بعضهم فوق بعض، وتكرار صَوْتَي الكاف والباء (كب. كب) يوحي بهذا السقوط المتكرر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾(الزلزلة) حيث دلَّ تكرار صوتي الزاي واللام على قوة الاضطراب والارتجاف.

ومن ذلك: التشديد بعد قلب التاء حرفًا مجانسًا لما يليها، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧٢).

الأصل: تدارأتم، فقُلبت التاء دالا وأُدغمت في الدال التالية فنتج عن ذلك التشديد الذي يدل على حدة التنازع والتشاحن.

ومثله قول الله جل ثناؤه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا ﴾(الأعراف:٣٨).

أصل الفعل (تداركوا)، وقُلبت التاء دالا وأُدغمت في الدال، فلما سُكِّنت جيء بـهمزة الوصل، والتشديد يوحي هنا بتداعيهم في النار متزاحمين بغير نظام، بل إن اشتمال التشديد على سكون فحركة يدل على أن تزاحمهم في النار جعل بعضهم يعوق بعضًا قبل أن يَتَرَدَّوْا فيها، فكأن النقطة التي تداعوا عندها كانت كعنق زجاجة.

ومن هذا أيضًا " اثَّاقلتم " في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾(التوبة: ٣٨).

وذلك فيما يوحيه التفخيم من الإحساس بالمبالغة في الحدث أو الصفة، ومن ذلك قولـه تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فـاطر: ٣٧).

فكأن ارتفاع الصوت بالصراخ ومشاركتهم جميعًا فيه، وتكرار ذلك منهم لا يكفي أن يُعبَّر عنه بالفعل المجرد (يصرخون)، فجاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة، وقُصِدَ لها أن

تجاور الصاد المطبقة فتتحول بالمجاورة إلى التفخيم فتصبح طاءً؛ ليكون في تفخيمها فَضْلُ مبالغةٍ في الفعل.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ ﴾ أبلغ من (يصرخون)؛ للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخا منكرًا خارجًا عن الحدِّ المعتاد.[١]

ومن ذلك ما حكاه السيوطي في "الإتقان" عن الفرق بين قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩) ، وبين قول العرب "القتل أَنْفَى للقتل"، حيث ذكر عشرين وجهًا للفرق بينهما، ومن ذلك:

أن في المثل توالي أسباب كثيرة خفيفة، وهو السكون بعد الحركة، وذلك مُسْتَكْرَه.

سلامة الآية من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة وبعدها غُنَّة النون.

اشتمال الآية على حروف متلائمة، لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد؛ إذ القاف من حروف الاستعلاء والإطباق، بخلاف الخروج من القاف إلى التاء التي هي حرف منخفض، فهو غير ملائم للقاف، وكذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة؛ لبُعْد ما بين طرف اللسان وأقصى الحنك.

سلامتها من لفظ (القتل) المُشعر بالوحشية، بخلاف لفظ (الحياة)، فإن الطباع أميل له من لفظ (القتل)[٢]

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النجم).

و(ضيزى) تعني: جائرة ظالمة، لكن لفظ (ضيزى) جاء هنا ليحقق غرضين هما: رعاية الفاصلة التي غلبت فيها الألف المقصورة، والثاني: الإيحاء ـ بما في الضاد من تفخيم ـ إلى أن الجور في هذه القسمة لا مزيد عليه.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ (البقرة:١٩).

---

(١) الإتقان/ السيوطى، تحقيق: د. محمد متولي منصور، ج٣، ص ٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٧١ : ١٧٤ بتصرف.

والصَّيِّب: النزول الذي له وقع وتأثير، ويُطْلَق على المطر والسحاب، وتنكيره لِـمَا أنه أُرِيدَ به نوعٌ شديدٌ هائل، كما أن الصاد المستعلية (المفخمة) والياء المشددة والباء الشديدة ـ تدل على القوة والتدفق وشدة الانسكاب.

وكان الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) قد التفت إلى ما سمَّاه بعض المحدثين " الحاسَّة الموسيقية"، وسمَّاه هو "الهيئة الشعرية"، وكونها مركوزة في الإنسان منذ تكوينه، أو على حدّ قوله: "مركوزة فيه من أول كونه[١]".

وهي في اللغة العربية وفي إحساس العربي أكثر ظهورًا، حتى إنَّ كثيرًا من الباحثين يصف لغتنا بأنها لغة موسيقية، وأنها انحدرت إلينا وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم نصوصها[٢]

وتلك الخصيصة أكسبت سمع العربي قدرة عالية في التمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة، فكان حِسُّه مرهفًا يستريح لجنسٍ من الكلام لحسن وقعه، وينفر من آخر لِنُبُوِّ جرسه[٣].

ولقد بلغ القرآن الكريم الذروة في التأثير في سمع العربي ووجدانه، وذلك بعذوبة جَرْسه وجمال إيقاعه ونغمه، وما لذلك من صلة بدلالته.

إنّ الإيحاء الصوتي في القرآن ينهض به الصوت اللغوي وحده، مفردًا كان أو مركّبًا، فيصوّر المعنى ـ الذي في السياق ـ بدقَّة، بحيث لا يسدُّ آخَرُ مَسَدَّه.

فمن الأصوات المفردة (الصوائت) Vowels: ألف المدّ وياء المدّ؛ إذ لهما إيحاءان صوتيان متغايران يستشعرهما السامع النابه المتأمّل، أحدهما (صاعد) بألف المدّ، والآخر (هابط) بياء المدّ، وكلاهما وردا في سياق واحد، هو قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ (ق).

فعند الوقوف في التلاوة على لفظة (بَاسِقَات) تُـمَدُّ الألفُ فيها ستَّ حركات، وهو المدُّ العارض للسكون[٤]؛ لِتُصَوِّرَ هذا الامتداد إلى علوٍّ في بُسوق النخلة وارتفاعها في الجوّ بتلك

---

(١) كتاب الموسيقى الكبير / الفارابي . – القاهرة : دار الكتاب للطباعة والنشر،]د.ت[، ص٧٠.

(٢) دلالة الألفاظ / إبراهيم أنيس . – القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٣ م، ص١٩٥.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / الجرجاني . ـــ القاهرة ، ١٩٦٨م، ص ١٢٥. دلائل

الرشاقة الجميلة، التي تنتهي في أعلاها بذلك السعف الجميل المتهدّل على جوانب قمّتها من كل جهة، حتى إنها لتبدو كالفتاة الفرعاء[١].

فإذا تلا القارئ بعد ذلك لفظة (نضيد)، ووقف على الدال، استشعر السامع بهذا المدّ الهابط (الياء) خلاف ما استشعره بذلك المدِّ الصاعد، الذي قَبْلَهُ في (بَاسِقَات)؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره هذا التنضيد الذي في الطَّلْع، وقد غُطِّي بغطائه الربّاني الجميل ذي الرائحة الذكية العبقة، ومن إيحاء الأصوات المفردة فِي تعبير القرآن: إيحاء (الهمزة)، وإيحاء (الهاء) في سياقيهما؛ إذ ورد كل منهما في سياق مغاير ـ دلاليًّا ـ لسياق الآخر، وهذا يعود إلى تغاير صفة كل منهما من الناحية الصوتية، وإنْ كانَا من مخرج واحد هو الحنجرة؛ إذ الهمزة صوت شديد انفجاري، بل هو أشدّ الأصوات اللغوية في العَربية، على حين عُدَّت الهاء من الأصوات الرِّخوة والمهموسة الضعيفة، بل هي أضعف أصوات العربية.

فإذا تدبَّرْنَا الكتاب المعجز المبين ـ القرآن الكريم ـ وجدنا الهمزة فيه قد وردت في سياق يوحي بالشدة، متمثّلا بهذا التركيب الفعلي المؤكد بالمصدر في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾(مريم : ٨٣).

ووجدنا (الهاء) قد وردت في سياق مغاير له، بل هو مضادٌّ له دلاليًّا من حيث الإيحاء؛ إذ وردت في تصوير ما أُمرت به مريم ابنة عمران ـ عليها السلام ـ (وهزي إليك). حين أتاها الطَّلْق، فضاقت بذلك ذرعًا؛ إذ كيف يُولَدُ لها ولدٌ وهي لم تتزوج بَعْدُ؟ فكان النداء الذي سمعته مُطَمْئِنًا لها من ناحية، وآمرًا إياها بهزّ جذع النخلة التي أَوَتْ إليها تستظلُّ وتَسْتَتِرُ بها بعد أن أمرها ألا تحزن من ناحية أخرى. وذلك بقوله تعالى: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾

فقال تعالى: (هُزِّي) هنا، ولم يقل: (أُزِّي)، كما قال في آية إرسال الشياطين على الكافرين: (تؤزُّهم)، ولم يقل: (تهزُّهم)، وذلك للفارق الدلالي بين السياقين: سياق الشدة والعنف،

الإعجاز / الجرجاني؛ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي . ــــ القاهرة : مكتبة القاهرة ، ١٩٨٠م .

(١) القاموس المحيط / الفيروز آبادي . ــــ ط١ . ــــ بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٦ م، مادة: فرع.

وسياق اللِّين والحنان، في تَوَازٍ مع الفارق الصوتي بين الهمزة الشديدة المجهورة والهاء المهموسة. وهذا من رائع بيان القرآن ودلائل إعجازه.

وإذا كان إيحاء (الألف) في فواصل آيات مريم جميلا باعثًا على التأمُّل الـمُفْضي إلى شكر النعمة، فإنَّ للألف في غير هذا السياق إيحاءً آخرَ؛ نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ (القيامة: ٣٣)

إذ نجدها في هذا الموضع تُشعر بالكِبْر والاستعلاء، في تصوير مِشْيَة كافرٍ من قريش، غَرَّتْهُ مظاهر الدنيا الفانية من مال وجاه وولد؛ فإيقاع الآية مشعر بمشية الكِبْر لدى هذا المشرك المتعالي، ولَكِنْ يَهُمُّنا كثيرًا هنا هذه اللفظة التي وقعت فاصلة، وهي: (يتمطّى)؛ إذ وردت لامُها ألفًا، وهي الطاء الثانية في أصل الكلمة؛ وأصلها: (يتمطّط)، ولكنّ التعبير القرآني عدل عن الطاء التي في آخر اللفظة إلى الألف بدلا منها، لا لمجرّد اتّساق حروف الرويّ - كما في الشعر - فيها مع سائر الفواصل التي تَلَتْها، مثل (أَوْلَى) و(سُدَى) و(يُمْنَى) و(فَسَوَّى)[1].

إنَّ هذا ملحظ شكليّ ليس هو المراد هنا، وإنْ كان له قيمته الصوتية الإيقاعية المؤثرة في نفس المتلقِّي، وإنما ورد لفظ (يتمطّى) معدولا عن أصله الطائي (يتمَطَّطُ) إلى الألف الواقعة حرفَ رَوِيٍّ للفاصلة؛ إيحاءً بتبختر صاحب هذه المشية، وإشعارًا بما في نفسه من الزهو والـخُيَلاء الفارغيْن من بواعث الحق والخير؛ إذ معنى (يتمطّى) في اللغة: يتبختر، وأصله: يتمطَّطُ، أي يتمدّد؛ لأنّ المتبختر يمدُّ خطاه. وقيل: هو من المطا، وهو الظَّهر؛ لأنه يلويه عند سيره[2].

ويَهُمُّنا هنا كيف رَسَمَ المدُّ الصوتي بالألف هذه المشية المكروهة المنهيّ عنها، فإذا قرأنا (يتمطّى) بأداء صوتي دقيق في التجويد، فأعطينا الطاء الشديدة المطبقة المكررة بالتشديد حقها من الأداء الصوتي، وأتبعناها مَدّة الألف واقفين عليها، حاكت الصورةُ الصوتيةُ بذلك تلك المشية الممقوتة، مشية التلوِّي صعودًا إلى الأعلى ونزولا. وذلك من التصوير

---

(١) تحفة الإخوان في بيان تجويد القرآن / حسن إبراهيم الشاعر، ص ١٣.

(٢) تُنظَر فواصل الآيات: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨ من سورة القيامة.

الفني في القرآن عن طريق الإيحاء الصوتي، مضافًا إلى الدلالة اللغوية الأصلية للفظة، التي تعرفها العرب في تحاورها.

ومن الإيحاء الصوتي الإفراديّ: المدّ بالألف الـمُوحِي بالندم والتوجّع النفسي، في مثل قول الكافر: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٦) في يوم القيامة، وقد وقف بين يدي ربه للحساب، وهذا مشعر صوتيًّا بتوجّعه وندمه بهذين المدَّيْن اللَّذَيْن اكتنفا التعبير، وهما مدُّ (يا) ومدُّ (تا)، مضاعِفًا إحساس المتلقِّي بندم المُلْقَى المرير، فضلاً عَمَّا في نداء الحسرة بحرف النداء (يا) من تشخيص استعاري للحسرة، حين جعلها تُنَادَى كما يُنَادَى العاقل، وهذا من بليغ بيان التنـزيل.

ومن الإيحاء الصوتي بالشعور بالندم: ما تحدثه (هاء السكت) في قول من فَرَّطَ فيما ينبغي عليه أداؤه إزاء ربِّه وأهله، قال تعالى:﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾(الحاقة). فهذه الهاء إذا وَقَفَ عليها القارئ أشبهت الحسرة في انطلاقها من صدر المتحسِّر لندمه.

وقد يكون الإيحاء الصوتي في تعبير القرآن مقطعيًّا وليس إفراديًّا، كالذي في لفظة (دَمْدَمَ) في قوله تعالى: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم﴾ (الشمس: ١٤)، حين عقروا ناقةَ الله التي أُمِروا بألا يمسُّوها بسوء فغضب الله تعالى عليهم، فدمَّر قريتهم، فجاء التعبير بهذا اللفظ: (دَمْدَمَ)، بدلالة مزدوجة، إحداهما (لغوية)، وهي الأصلية، أو كما يسمّيها المعاصرون: (مركزية) أو (أساس)، والدلالة الأخرى (إيحائية)، وهي لون من الدلالة الثانوية، أَحْدَثَها إيقاع اللفظة.

وأمَّا وصف هذه اللفظة (دَمْدَم) بأنها مقطعية، فلأنَّها ذات مقطعين متماثلين هما: (دَمْ/ دَمْ)، فلمّا الْتَأَمَا في اللفظة مكرَّرَيْن، أشعر جَرْسُهما المدوِّي بما يشبه القصف: (دَمْدَمَ). وهذه الدلالة الإضافية صَعَّدَت استشعار الشدَّة والغضب في تصوير هذه العقوبة الإلهية العادلة، بمن لم يَرْعَ لله حُرْمَتَه، ومن التناسب بين إيحاء الصوت والدلالة المقصودة للكلمة قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾ (الإنسان: ١٨)، إذ توحي لفظة السلسبيل بالسلاسة ويسر الاستساغة، وذلك لما بين اللفظين (سلسبيل/ سلاسة) من شَرِكَةٍ في بعض الحروف.

هذا في مقابل الإيحاء في جهة الضد للمعنى السابق، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾(النبأ: ٢٥)؛ إذ إن مادة (غسق) في القرآن منها: الغسق، والغاسق، والغسَّاق،

وتوحي بأن القسط المشترك بين هذه المشتقات هو: الدلالة على أمور كريهة؛ فالغسق: الظلمة، والغاسق: الليل الشديد الظلمة، والغسَّاق: شيء كَريهٌ لا يُشْرَب، وفسَّروه بالصديد، وتُسْتَفَاد هذه الدلالة لغويًّا من إيحاء الغين والقاف هنا ([1]).

ومثله قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾(المطففين: ٧)، وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ (الغاشية: ٦)

والضريع نبات شوكي، وإيحاء لفظ (ضَريع) في الطعام يفيد ذلا يؤدي إلى تضرُّع كلٍّ منهم وسؤال الله العفوَ عن ذلك، كما أن الضادَ المفخمة توحى بما فيه من كزازة، كذلك فإن العين الحلقية كأنما توحى بإظهار الكزازة وتأثيرها في الحلق([2]).

يقابله في المعنى على الجهة الأخرى قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾. وكذا قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾. ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

حيث عُبِّر عن هذا الحدث بلفظ مغاير للفظ (الضرب)، الذي استعمله القرآن في موضع أُريد به تأديب الزوجة إذا نشزت على زوجها بضرب غير مُبَرِّح، بعد مرحلتي الوعظ والهجر، واستُعْمِلَ هنا الفعل (صَكَّ)، وهو اللفظ الذي انفرد به هذا الموضع.

فإذا حلَّلنا الفعل (صَكَّتْ) تحليلا صوتيًّا مع ما لحقه من تاء دالَّة على التأنيث، وجدناه يجمع بين الشدَّة والتفخيم؛ إذِ الصاد من أصوات الإطباق، والمطبق مفخَّم، والكاف والتاء صوتان شديدان، وزاد من شَدَّة الكاف تضعيفها. وبهذا أدَّتْ هذه اللفظة بهذه الأصوات صورة اللطمة الشديدة من جانبها الصوتي الإيحائي، فضلا عن جانبها اللغوي الدالِّ على الضرب الشديد؛ وبذلك ضاعف الإيحاء الصوتي للصكِّ من دلالته على الضرب الشديد

---

(١) البيان في روائع القرآن / تمام حسان، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٨: ٢١٠.

(٢) المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة / محمد العبد. ـــ ط١ . ـــ القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٦م، ص٩٠.

المسألة الخامسة: الإيحاء الصوتي للتراكيب

وقد ينهض التركيب الصوتي بإيحاءٍ معيَّن منبعث من خصائصه في صورته المركبة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ (فصلت)

وُصف الدعاء في هذه الآية بأنه (عريض)، ولعل إيثار العرض على الطول هو الأقوى دلالةً على أنَّه دعاء الاستصراخ والاستغاثة الملهوفة... وذكر العرض يومئ إلى سعة الدعاء التي تُومِئ إلى حركة جاهدة من أعضاء النطق، وهذه الحركة تُومِئ بدورها إلى أن ذلك الإنسان قد امتلأت جوانبه بذلك الدعاء. وقد أُوثِرت كلمة "دعاء" على مرادفها "نداء"؛ لأن الدعاء ـ رفع الصوت وخفضه ـ أَدَلُّ على حال اللهفة والمداومة على الطلب وفقدان السكينة، وهي دلالات يفتقدها النداء المجرد.

ونلاحظ هنا أن البنية الصوتية للموصوف "دعاء" تأتلف مع صفته "عريض"؛ وذلك أن الألف في "دعاء"، سوف يصل صوتها، وتتمكن مدتها؛ لوقوع الهمزة بعدها. وإنما تمكن المد في الألف مع الهمز، لأن الهمزة ـ كما يقول ابن جني ـ حرف نَأَى منشؤه، وتراخى مخرجه، فإذا نطقنا بالألف (ويجري ذلك على الواو والياء) قبل الهمزة، ثم تمادينا بالألف نحوها طالت الألف وشاعت في الصوت، فوفَّت لها، وزادت في بيانها ومكانها، وليس كذلك إذا وقع بعد الألف ـ وحروف المد الأخرى ـ غير الهمزة وغير المشدد. ولذلك كان ابن جني يصف حروف المد إذا تلاهن الهمز والحرف المشدَّد، بأنهن ليِّنات، ناعمات، وافيات، مستطيلات[1]. وإذا كان الأمر كذلك، رسخت الألف في المد وتمادى الصوت بها في الموصوف، وكأن الموصوف بما فيه من وفاء الصوت وتمكن المد يحكي معنى الصفة ويطابقها!

العرض ـ إذن ـ يومئ إلى الطول، ولا عكس. والعرض فيه التجسيم لصورة الدعاء المتسع. والعرض أقوى تعبيرًا عن الامتلاء بالدعاء. ومن ثم لا يكفينا أن نتوقف عند تحديد دلالة "عريض" في الآية الكريمة بأنها الكثير كما فعل الشوكاني. إن كلمة (كثير) التي

---

(١) الخصائص / ابن جني، مرجع سابق، ج٢، ص١٢٥.

ذكرها الشوكاني تظل قاصرة عن حمل الدلالات والإيحاءات والمعاني الأسلوبية الخصبة التي تحملها كلمة "عريض" قصورًا ملحوظًا للغاية. لقد حاول الشوكاني تفسير قوله تعالى: ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ في ضوء تخريج المعنى في لغة العرب؛ قال: "والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة مجازًا. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء، إذا أكثر. والمعنى: إنه إذا مسه الشر، تضرع إلى الله واستغاث به، أن يكشف عنه ما نزل به واستكثر من ذلك [١] ".هذا إلى جانب التآزر الخلاق بين الصورة التي ترسمها المفارقة والصوت، في تلك الآية. ونعني بذلك علاقة تكرار صوت العين تكرارًا ملحوظًا (خمس مرات) بصورة المعرض إذا دعا دعاءً عريضًا. فالعين ـ مخرجًا ـ صوت حلقي منخفض خلفي، والعين ـ صفةً ـ صوت جهوري استمراري خشن.

ولعل تمتع العين بهذه الصفات ـ من قوة إسماع، واستمرارية، وخشونة.. الخ ـ مما يجعلها أكثر الفونيمات مواءمة لهذا الدعاء الصادر في تلك الحال بخاصة؛ حال الشدة والضر!

ولعلنا ندرك في السياق الصوتي للآية كلها ملمحًا صوتيًا آخر؛ هو تردد الأصوات الأنفية، والأصوات الأنفية أصوات رنانة، والأصوات الرنانةهي التي تنتج بشكل التجويف للوترين الصوتيين الذي يجعل الجهر التلقائي ممكنًا. ولعل مثل هذه الأصوات الرنانة ذات اتصال بالإيحاء بجوِّ هذا الدعاء، بما قد يداخله عند مس الضر من أنين وندم.

ونلاحظ في السياق الصوتي الوظيفي للآية ذاتها وظيفة أخرى تشغلها حروف المد، لا سيما الطويلة، التي تكررت في مجموعها تسع مرات، وتلتقي حروف المد صوتيًا ـ من حيث طول مدة الاستغراق الزمني للنطق بها ـ بهذا الضرب من الدعاء العريض؛ حيثما يستلزم العرض هنا الطول!وفي الخطاب القرآني مواضع أخرى وردت فيها مفردات عينية، تصور حالات فزع وهلع. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج).

وإذا كانت العين في هذه الآيات ترتبط قيمتها التعبيرية بمقامات مجردة يغلب فيها

---

(١) فتح القدير / الشوكاني دمشق : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،] د. ت [، ج٤، ص٥٢٢، ٥٢٣.

الاضطراب والشدة، فإننا نلاحظ هذه القيمة ذاتها في مقامات محسوسة أيضًا. ومن ذلك لفظ "الدَّع" في قوله تعالى عن المكذبين: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾

والدع: دفع في الظهر بعنف. ولعله وقع هنا؛ لأنه أقدر من غيره على الإيحاء بما يخرج من المدفوع من صوت غير إرادي، فيه عين ساكنة هكذا: أع، وهو في جرسه ـ كما يقول سيد قطب ـ أقرب ما يكون إلى جرس الدع[١].

ومن ذلك أيضًا لفظ "البلع" و"الإقلاع" في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بيد أننا إذا عدنا إلى آية (فصلت) السابقة، لاحظنا تردد حركة الفتحة بخاصة ترددًا ملحوظًا (بلغ اثنين وعشرين مرة، منها ثمانٍ للفتحة الطويلة، وأربع عشرة للفتحة القصيرة).

ولعل من الطريف هنا أن نشير إلى أن صفة الاتساع التي تتصف بها الفتحة تتصف بها أصوات الحلق أيضًا، ويرجع ذلك إلى أن "كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقي تحتاج إلى اتساع في مجراها بالفم، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعًا، وتلك هي الفتحة [٢] .

وإذا كانت الفتحة تتصف بالاتساع، فإن المدى الزمني لهذا الاتساع مع الألف التي تكررت سبع مرات سوف يصير أطول. إن الألف ـ بما فيها من مد الصوت والإبعاد فيه ـ قد ارتبطت بهذا الدعاء العريض ارتباطًا وثيقًا، ولعل الألف أشد الحركات الطويلة ارتباطًا وحكاية لطبيعة مثل هذا الدعاء، إنها ـ فيما يبدو ـ أحق من أختيها: الواو والياء؛ لأن الألف ـ كما يقول ابن جني ـ أمدّهن صوتًا وأنداهن، وأشدّهن إبعادًا وأنآهن[٣]

لقد هيأت هذه المادة الصوتية واللفظية لكلمة "دعاء" رسم صورة ساخرة لإنسان لاهٍ، مُعْرِض، ناءٍ بجانبه، مطمئن إلى نعيم وافاه، قد شغله وأنساه، كما مكنتها من رسم صورة أخرىً لإنسان هلعٍ فزعٍ، قد انقلب حاله، فانخرط في دعاء عريض[٤]

---

(١) التصوير الفني في القرآن / سيد قطب، مرجع سابق، ص٨١.

(٢)() في اللهجات العربية / إبراهيم أنيس .ــــ ط٤ .ــ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٣م، ص١٧٠.

(٣) الخصائص / ابن جني، مرجع سابق، ج٣، ص١٥٥.

(٤) المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة / محمد العبد، مرجع سابق، ص ١٥٦ : ١٦٢.

المسألة السادسة: التناسب والتناسق بين نوع الحركة والمعنى

التناسب والتناسق بين الحركة (فتحة وكسرة وضمة) ومعنى الكلمة في سياقها أمْر يثير الانتباه أمام هذه العظمة في لغة القرآن الكريم.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ (فاطر).

بتأمل حركة الكاف في كلمة (ممسك) في الآية نجد أن السكون في الثانية موافق لمعنى الإمساك؛ لما بـها من إغلاق وعدم حركة، في حين أن الأولى مفتوحة وهي مناسبة لمعنى قول الله تعالى ﴿يَفْتَحِ﴾ .

ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في آيات أخرى نحو قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (الفاتحة).

لو كانت الجملة من مقول القول لكان مقتضاها: الحمدَ بفتح الدال على تقدير: أقولُ الحمدَ لله، فلماذا عُدِلَ عن النصب إلى الرفع (الحمدُ) على تقدير: قولي: الحمدُ لله؟!

الجواب: عُدِلَ عن النصب إلى الرفع للدلالة على أن الحمد ثابت لله تعالى أزلا، وإنْ لم يحمده أحد؛ فقد حَمِدَ نفسه بنفسه قبل أن يَحْمَدَهُ الخلق، وعليه فالجملة خبرية لا إنشائية لفظًا ومعنًى. وهو أَوْلَى الأقوال في هذه الجملة.

المسألة السابعة: عولمة الصوت وعالمية النغم القرآني الخالد

مفهوم العالمية:

يُقصْدَ بالعالمية: سعة الانتشار عبر الزمان والمكان، والعالمية سمة مميزة للفنون الرفيعة، فقد أجمع النقاد ومؤرِّخو الفنِّ على أن الفن الرفيع ينبغي أن تتوفر فيه صفتان هما: العالمية والدَّوام، ويُرمز إليهما بالحرفين الأوَّلَيْن من هاتين الكلمتين: Universal أي عالمي، Permanent أي دائم، فيُقال: إن الفن الرفيع (U.P)، حيث تشير صفة العالمية Universal إلى الانتشار عبر المكان، فالفن العظيم لا وطن له، وتشير صفة الدوام إلى بقاء الفن الرفيع على مدى العصور.

مفهوم العولمة:

أمَّا العولمة "Glabalism" فتعني: تنميط الثقافات المتنوعة وقصرها على التشكُّل في قوالب يُقَال إنها عالمية، والحقيقة أنها القوالب والأنماط الثقافية الغربية والأمريكية خاصة، بحيث تمثل الثقافة الأمريكية المحور والتيار الرئيس الذي تدور من حوله ثقافات كل الشعوب وتحتذيه مثالا أَعْلَى في العلم والإبداع وغير ذلك من أشكال الممارسة الإنسانية.

وهنا يكمن الفرق بين العالمية والعولمة، فالعالمية تُسْتَمَدُّ من القيم التي يحملها الإبداع، بما يهيِّئ له أن يتخطَّى حواجز الزمان والمكان، ويُصغي إليه البشر في كافة العصور والبقاع.. بينما تُفْرَض العولمة قسرًا؛ خضوعًا للثقافة المهيمنة بما روَّجَتْ له من نظريات المركز والأطراف، المحور والهامش.

عولمة الصوت:

سعى دعاة العولمة إلى تحويل الصوت إلى سلعة يتم تداولها عبر وسائط العولمة الاقتصادية والتكنولوجية كشرائط الكاسيت والفيديو والإذاعة والتليفزيون وبرامج الكمبيوتر وشبكاته، بحيث لم تعد فنون الصوت ـ كالموسيقى والغناء ـ فنونًا تؤثر في العاطفة الإنسانية المشتركة وتلمس الروح الإنسانية بما تحمله من قيم جمالية ووجدانية، بل مجرد سلعة تُقَدَّم لمن يدفع الثمن.

وراحت عمليات العولمة تنتج فنونًا موسيقية وغنائية ليس فيها شيءٌ من الجمال أو الإبداع، وإنما هي ضجيج صاخب يصدع الرؤوس، وإيقاعات فجة تتمايل معها الأجساد حتى تسقط منهكة القُوَى سقيمة المشاعر، فكانت تلك الأساليب الموسيقية الغربية، والغناء المُخنَّث على طريقة مايكل جاكسون وغيره من نجوم هذا اللون من الغناء والموسيقى.

كما قامت عمليات عولمة الصوت باجتذاب بعض الموسيقيين والمغنيين من بلاد العالم الثالث، وراحت تروِّج لهم بكل أشكال الدعاية، وتروِّج لموسيقاهم بزعم البحث عن الأصالة والعنصر الروحي في الموسيقى والغناء، على نحو ما فعلوا مع المُنْشِد الصوفي الباكستاني "نصرت فتح على خان"، الذي اشتهر عالميًّا بـ "فن القوَّالي"، أي: الموسيقَى والإنشاد الصوفي، والمُغَنِّي والموسيقي السنغالي "يوسو ندور"، الذي لم يمتثل لشروط شركات الإنتاج الموسيقى التي كانت ترغب في تحويل أصالته الفنية إلى مجرد حِلْيَةَ شكليَّة تذوب في تيار الموسيقى الغربية؛ ولذلك أسقط اسمه من تلك الألبومات الموسيقية التي وصفها النقاد بأنها مُمْعِنة في الطابع الغربي أكثر من اللازم.

في هذا الاتجاه نحو عولمة الصوت ادَّعت شركات الإنتاج أنها تبحث عن الأصالة والتنوع الموسيقى، واخترعت مصطلح "الموسيقى العالمية" وأطلقته على ألوان الموسيقى التي لا يعرفها الجمهور الغربي مثل: التانجو (من الأرجنتين وأورجواي)، والروك والبوب (من البرازيل)، والنورتينو (موسيقى الشمال من المكسيك)، إلى الموسيقى الشعبية الأندلسية ذات الأصول العربية المُسمَّاة "موسيقى لوس ديل ريو"، وهي جملة إسبانية تعني: أولئك الذين من النهر، إشارة إلى نهر جود الكوفير ـ مأخوذ من العربية: الوادي الكبير ـ، وقد اشتهر فنَّانو هذه الموسيقى الشعبية الأندلسية باسم "ملوك الماكارينا" نسبة إلى أشهر أغنياتهم

المُسماة "ماكارينا" التي كانت مثارًا لجنون الشباب في الغرب وكثير من بلاد العالم الأخرى؛ نتيجة للدعاية الضخمة التي قام بها مُنْتِجو الكاسيت، بهدف جَنْي أرباح وفيرة ([1]).

إذن لم تعد الموسيقى ـ في إطار العولمة ـ تحتفي بالقيم الفنية والجمالية، وإنماهي تُسَوِّق كل ألوان فنون الصوت، وتخلط الغثَّ بالسمين، وتضع أسطوانات بيتهوفن وباخ وموزار إلى جانب أسطوانات مايكل جاكسون وموسيقى الراي الجزائرية...... إلخ.

إن الهدف الواضح في عمليات عولمة الصوت أمران:

الأول: جَنْي الأرباح.

الثاني: تنميط الأشكال الموسيقية والغنائية في العالم كله وإخضاعها للقوالب الموسيقية الغربية؛ لإرضاء ذوق الجمهور الغربي، وإبقاء سيادة الأشكال الموسيقية الغربية دون غيرها من ألوان الموسيقى وفنون الصوت في البقاع الأخرى من العالم.

وإذا أردنا أن نفهم العلاقة بين الموسيقى العالمية (المزعومة) وبين العولمة، فلن يتأتَّى لنا ذلك إلا بالبحث عن الأهداف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الكامنة وراء ذلك الإنتاج الضخم لفنون الصوت المُعَوْلَمَة.

فأمَّا من الناحية الاقتصادية: فنجد أن ٩٠٪ من إجمالي المبيعات من ألبومات الأغاني والموسيقى في العالم كله (خلال عام ١٩٩٤) تملكه ست مؤسسات تجارية دولية هي: فيليبس، وسوني، وماتسوشيتا، وثورن إي. إم. آي، وبيرتلزمان، وتايم وورنر؛ ولذا تميَّزت صناعة الموسيقى العالمية بالهيمنة الاقتصادية لمؤسسات تجارية من أمريكا وأوروبا وشرق آسيا، وهي مراكز صناعة العولمة.

وأمَّا من الناحية الثقافية: فإن الثقافة المهيمنة ـ أو التي يُراد لها الهيمنة ـ هي الثقافة الغربية، وخاصة الأمريكية وما يدور في فلك التبعيَّة لهذه الثقافة؛ ولذلك لا تؤخذ فنون الصوت غير الغربية مأخذ الجِدِّ بوصفها فنونًا رفيعة وأدواتٍ للتعبير عن أنماط ثقافية مختلفة، بل

---

(١)(١) سوسيولوجيا الفن / ديفيد إنجليز ، جون هجسون ؛ ترجمة ليلى الموسوي ؛ مراجعة محمد الجوهري . ـــ الكويت : المجلس الوطني للثقافة والعلوم ؛ ٢٠٠٧م . ـــ (عالم المعرفة ؛ ٣٤١)، ص٣٤١.

تُدَجَّن وتُتخذ كحِلًى شكلية تَزْدان بها الموسيقى الغربية؛ إرضاءً لنزعة الجمهور الغربي إلى الغرائبية والروحانية، واجتذابًا للجاليات الأجنبية في بلاد الغرب.

وأمَّا من الناحية الاجتماعية: فهناك حالة من النفاق الاجتماعي في الغرب، إذ يجتذب الألوان الموسيقية والغنائية من مختلف الثقافات، والغرب نفسه هو الذي يقمع تلك الشعوب ويمارس عليها كافة صور الهيمنة والتجويع والحرمان، بل وصياغة مصائر تلك الشعوب.

ولعولمة الصوت كَهَنَتها من الكُتَّاب والصحفيين ومُقدِّمي البرامج الإذاعية والتليفزيونية وأصحاب شركات الإنتاج، ومُخطِّطي البرامج الثقافية، كل هذا يتآزر معًا لتكوين ثقافة صوتية عالمية، يتم إنتاجها في المركز "الغرب"، وتصديرها إلى الأطراف "سائر بلاد العالم".

وعلى الرغم من كل هذه السلبيات الناتجة عن عمليات العولمة لفنون الصوت، فإن لها بعض الإيجابيات المتمثلة في تعريف الغرب ببعض من أشكال الفنون الصوتية في الثقافات الأخرى المُهمَّشة، وأيضًا إلقاء بعض الضوء على تلك الثقافات وما لها من خصوصية في مجال الإبداع الصوتي.

ولكن ما يُضْعِف هذه الإيجابيات ويعظِّم من سلبيات عولمة الصوت ـ أنها تقوم على الأهداف الاقتصادية، وبالتالي استبعاد العناصر الجمالية والفنية، والأهداف الثقافية والاجتماعية التي كرَّست جهدها في تنميط الثقافات الأخرى، والقضاء على الخصوصية الثقافية والهوية القومية والشخصية الاجتماعية للشعوب الأخرى لحساب حضارة الغرب وهيمنته بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

عالمية الصوت:

الإبداع العظيم يفرض نفسه في كل زمان ومكان، تلك حقيقة العالمية عبر تاريخ الإنسان. وعلى الرغم من كل ممارسات الهيمنة التي قامت بها قُوَى العولمة، فإنها لم تستطع إخضاع الإبداع الصوتي للحضارات الأخرى، وسنضرب لذلك مثلا بخلود الصوت القرآني وعظمة أدائه وعمق تأثيره في القلوب والمشاعر.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف قراءة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "مَنْ أَحَبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا طريًّا كما أُنزل على فليقرأه على قراءة ابن أُمِّ عبد "[١]

ولا تزال هاتان الصفتان: الغضاضة والطراوة، التي تعني عذوبة أنغامه، وأخذها بمجامع القلوب، ودوام هذه العذوبة وذلك التأثير.. لا تزال هذه الصفة الخالدة للأداء القرآني العظيم باقية وستظل باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فها نحن أولاء نستمع إلى كلمات القرآن ونغماته فنهتز وتنتفض قلوبنا من الأعماق، ونسبح في فضاء روحاني نوراني ونحن نصغي لتلاوة المشايخ: محمد رفعت أو محمود خليل الحصري أو محمد صديق المنشاوي أو مصطفى إسماعيل.... وغيرهم ممن وهبهم الله عذوبة الصوت، وكان لهم تمكُّن من فن التجويد والأداء القرآني.

وقد ظهر فيما تقدم من مسائل تفرُّد الخصائص الصوتية للقرآن الكريم، وهذا قليل من كثير عن القيم الصوتية والإبداع الصوتي للقرآن الكريم وطرائق أدائه، التي تعبِّر عن التميُّز والخصوصية والإعجاز الصوتي للقرآن الكريم، وخلود الصوت القرآني في آفاق الزمان والمكان.

ولعلَّ ما قدَّمناه مقنعًا للفارق الهائل بين عولمة الصوت المفروضة بقُوًى خارجية لا تحكمها قيم جمالية وإبداعية، وبين عالمية الصوت المستمدة ممَّا يحمله من قيم جماليَّة ووجدانية وإنسانية فريدة، وما يتميَّز به من قدرة على التأثير العميق في القلوب والمشاعر دون إغفالٍ لخطاب العقل وإثارة الفكر والتأمُّل؛ مما مكَّن للقرآن الكريم أن ينتشر بقوته الذاتية عبر الزمان والمكان.وسيظل الصوت القرآنيُّ فريدًا مُشْبِعًا للأسماع والقلوب، إلى أن تقوم الساعة وتخشع الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا.

وهكذا كلما ازددنا تدبرًا ازددنا إجلالا لهذا الإعجاز الصوتي الفريد في القرآن الكريم.

وسبحان من هذا كلامه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (العنكبوت).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥)، وابن ماجه (١٣٥)، وقال الألباني: صحيح في السلسلة الصحيحة.

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

القرآن الكريم.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي. ـــ ط٩ . ـــ بيروت: دار الكتاب العربي،١٩٧٣م

البيان في روائع القرآن : دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني/ تمام حسان. ـــ القاهرة:عالم الكتب، ١٩٩٣م.

تحفة الإخوان في بيان تجويد القرآن / حسن إبراهيم الشاعر.

التصوير الفني في القرآن / سيد قطب . ـــ ط١ . ـــ القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٨ م .

التعبير الفني في القرآن / أمين بكري شيخ . ـــ ط٤ . ـــ القاهرة : دار الشروق ،] د.ت [.

الخصائص / ابن جنى، تحقيق محمد على النجار. ـــ ط٣، مزيدة ومنقحة. ـــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

دراسة إحصائية لجذور تاج العروس باستخدام الكمبيوتر / على حلمي موسى ، عبد الصبور شاهين .ـــ الكويت : مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٧٣ م .

دلالة الألفاظ / إبراهيم أنيس . ـــ القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٣ م .

الدلالة والكلام (دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة)/ محمد محمد داود . ـــ القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٢ م .

دلائل الإعجاز / الجرجاني ؛ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي . ـــ القاهرة : مكتبة القاهرة ، ١٩٨٠م

الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / الجرجاني . ـــ القاهرة ، ١٩٦٨م .

سنن أبي داود / أبو داود . ـــ ط١ . ـــ القاهرة : مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٢ م .

سنن الترمذي / الترمذي . ـــ القاهرة : جمعية المكنز الاسلامي ، ١٤٢١ هـ.

سوسيولوجيا الفن / ديفيد إنجليز ، جون هجسون ؛ ترجمة ليلى الموسوي؛ مراجعة محمد الجوهري .

ــ الكويت : المجلس الوطني للثقافة والعلوم ؛ ٢٠٠٧م . ــ (عالم المعرفة ؛ ٣٤١) .
الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها / ابن فارس ؛ تحقيق مصطفى الشربيني . ــ القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٣ م .
فتح القدير / الشوكاني . ــ دمشق : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،] د. ت [.
في اللهجات العربية / إبراهيم أنيس . ــ ط٤ . ــ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٣م.
القاموس المحيط / الفيروز آبادي . ــ ط١ . ــ بيروت : دار العلم للملايين،١٩٨٦ م .
كتاب الموسيقى الكبير / الفارابي . ــ القاهرة : دار الكتاب للطباعة والنشر،]د.ت [.
كمال اللغة القرآنية / محمد محمد داود. ــ ط١ .ــ القاهرة: دار المنار، ٢٠٠٧م.
لسان العرب / ابن منظور . ــ ط٣ . ــ بيروت : دار صادر ، ١٩٩٤ م .
مباحث في علوم القرآن / صبحي الصالح . ــ القاهرة : مكتبة وهبة ، ٢٠٠٤م .
المعجم العربي الحديث / لاروس ، ١٩٧٣ م .
معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى والصيغ والأساليب المتشابهة / محمد محمد داود . ــ القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٨ م .
المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة / محمد العبد. ــ ط١ . ــ القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٦م.
النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن / محمد عبد الله دراز . ــ ط٦ . ــ الكويت : دار القلم ، ١٩٨٤م .
نظام الغريب في اللغة / عيسى الربعي.
نيوزويك ، مارس ٢٠٠٥ م .ــ (عدد٢٢) .

المراجع الأجنبية:

Clive Modern Arabic, Holes, Structure, Functions and Varieties, London, Longman, 1995.

Structure du Langage poetique, JeanCohen, Flammation, Paris, 1966.



بعض أوجه الإعجاز في حديث النهي عن بيع ما ليس عندك

عبد الكريم أحمد قندوز

محاضر بقسم المالية - كلية العلوم الإدارية والتخطيط

جامعة الملك فيصل (الأحساء)

المملكة العربية السعودية



مستخلص البحث

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: يا رسول الله: يأتيني الرجل فيريد مني البيع ليس عندي، أفأبتاعه له من السوق؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تبع ما ليس عندك". و في رواية قال: ابتعت طعاماً من طعام الصدقة، فتربّحت فيه قبل أن أقبضه، فأتيت رسول الله صلى الله عليه و سلم، فذكرت ذلك له فقال: "لا تبعه حتى تقبضه".[أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٢)، و أبو داود (٣٥٠٣)، و الترمذي (١٢٣٢)، و النسائي (٤٦١٣)، و ابن ماجه (٢١٨٧)، و ابن حبان (٤٩٦٢)، و ابن الجارود (٦٠٢)، و الطبراني في الكبير (٣٠٩٧)] وحسنه الترمذي

و قد استرعى انتباه الباحث، أن سبب حدوث الكثير من الأزمات التي عصفت بأسواق المال المحلية و العالمية كان سببه هو عدم تملك الأصول محل التعاقد

لهذا يستهدف البحث اسكتشاف بعض أوجه الإعجاز في قوله صلى الله عليه و سلم: "لا تبع ما ليس عندك". و كيف أدى الإخلال بهذا الشرط إلى حدوث الكثير من الأزمات كما أشرنا سابقاً، متعرضين مع ذلك إلى الكثير من المعاملات التي تتم اليوم في أسواق المال دون الحاجة إلى تملك الأصول، في حين تتم التعامل بتلك الأصول (بيعاً و شراء أو قرضا و اقتراضا أو غيرها من المعاملات المالية)

لتحقيق هدف البحث سوف نناقش موضوعين

الموضوع الأول: نخصصه لأقوال العلماء في معاني الحديث، و ذلك حتى تتوافر لدينا المعرفة المطلوبة لتوضيح وجه الإعجاز من نواحٍ اقتصادية.

الموضوع الثاني: نتناول في بعض التعاملات (المالية) المعاصرة التي تكون من باب التصرف في الأصول (الأعيان) قبل التملك و آثارها على أسواق المال المحلية و الدولية.

بعض أوجه الإعجاز في حديث النهي عن بيع ما ليس عندك

توطئة:

نرى أنه من الضروري قبل الابتداء بموضوعنا أن نقدم له بالإشارة إلى نقطتين أساسيتين:

الأولى: هي أن الأصل في المعاملات الإباحة، وقد نبه الإمام ابن تيمية–رحمه الله تعالى– إلى أساس فساد العقود في المعاملات وإرجاعها إلى أمرين وهما:

١. الربا وما يؤدي إليه.

٢. تحريم الغرر الفاحش دون اليسير.

قال رحمه الله: "إن عامة ما نهي عنه في الكتاب والسنة من المعاملات يعود إلى تحقيق العدل والنهي عن الظلم: دقة وجله، مثل أكل المال بالباطل وجنسه من الربا والميسر، وأنواع الربا والميسر التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم: مثل بيع الغرر وبيع حبل الحبلة وبيع الطير في الهواء. يقول الشيخ أحمد بن على السالوس حفظه الله: "و إذا نظرنا في الفاسد من المعاملات المعاصرة، أدركنا دقّة و حسن فهم شيخ الإسلام رحمه الله تعالى".[1]

الثانية: أن فقه المعاملات مبني على مراعاة العلل والمصالح

فالمعاملات ليست كالعبادات توقيفية، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الغرر في حين هناك من الفقهاء من أجاز من البيوع ما فيه غرر لا يفضي عادة إلى النزاع. ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع المعدوم، في حين عقد الاستصناع (وهو بيع معدوم) جائز وذلك لحاجة الناس إليه وجريان العمل به.

مشكلة البحث:

تمثل المخاطر (خاصة المالية منها) تحدياً للاقتصاد العالمي ككل، و قد تزايدت تلك المخاطر بشكل مطرد و رهيب ابتداء من خمسينيات القرن العشرين و ازدادت حدتها مع ثورة الاتصالات و تكنولوجيا المعلومات و ما رافقها من عولمة الاقتصاديات المحلية، بحيث لم يعد أحد بمعزل عن المخاطر التي يمكنها أن يسببها أحد عناصر النظام العالمي.

تلا ذلك سعي حثيث للبحث عن أسباب المخاطر و طرق قياسها و من ثم تجنبها أو على الأقل تقليل آثارها، و توالت الابتكارات تحت مسمى الهندسة المالية...إلا أنه و بالرغم من النمو المطرد في تلك الابتكارات من أدوات و أساليب لمعالجة المخاطر كالمشتقات المالية (التي أصبحت تثير الكثير من الإشكالات القانونية و الاقتصادية)، فإن التقلبات و الاضطرابات الاقتصادية المالية و الاقتصادية تبدو في ازدياد بدلاً من الانحسار.

إن المتأمِّل في واقع التَّغيُّرات الاقتصادية التي يشهدها العالم يلاحظ أنَّ الاقتصاد العالمي أصبح اليوم يبحث عن بدائل و حلول جديدة، و هو على استعداد لقبولها ما دامت تحقق أهدافه، و لعل الواقع قد وضح لنا الكثير من ذلك...لهذا تبرز الفرصة مواتية لإعطاء البدائل. و هي بدائل تحقق الرفاه المنشود (بإذن الله) للبشرية قاطبة، و هي مستمدة من الاقتصادي الإسلامي الذي يقوم على مجموعة من المرتكزات الفقهية و تستمد جذوره من فقه المعاملات.

فما هو الاقتصاد الإسلامي؟

الاقتصاد الإسلامي له العديد من الإطلاقات، يطلق وصفًا لاقتصاد دولة إسلامية، ويطلق كتعبير عن النشاط الذي يخضع للشريعة الإسلامية في أحكامه، ويطلق على العلم الذي يدرس النشاط الاقتصادي أو يبحث في النشاط الاقتصادي على هدي الإسلام، و المعنى الأخير يشمل جانباً مذهبياً وجانباً نظرياً وجانباً تطبيقياً، فالجانب النظري يقصد به الأسس والمبادئ العامة التي جاءت في الكتاب والسنة؛ لكي يستظل بها المجتمع ويسير على

ضوئها أو يحتكم إليها في الجانب الاقتصادي، وهو الذي يطلق عليه المذهب الاقتصادي الإسلامي، مثل مقولة: "إنَّ المال مال الله والبشر مستخلفون فيه"، ومقولة: "إن التوازن الاقتصادي بين الأفراد يجب أن يسود المجتمع الإسلامي"، "كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُم" [الحشر:] أي حتى لا يكون المال وقفًا على فريق دون فريق، ومقولة: "وجوب تحقيق حدِّ الكفاية لكل إنسان في المجتمع المسلم"

هذه مبادئ عامة تمثل الجانب المذهبي ، أما الجانب التطبيقي أو النظام الذي يجب أن يسود في ظل الإسلام فيتمثل في ضرورة اشتقاق صورة تطبيقية واقعية عملية تمثل هذه المبادئ ، والأسس التي جاء بها المذهب الاقتصادي الإسلامي، ثم يأتي الجانب النظري المتمثل في بناء النظريات واشتقاق القوانين على هدى الإسلام.

الثابت والمتغير في الاقتصاد الإسلامي

الثابت في الاقتصاد الإسلامي هو المبادئ التي هي مجموعة الأصول الواردة في القرآن والسنة ليلتزم بها المسلمون في كل زمان ومكان، مثل أن المال لله والبشر مستخلفون فيه، وضمان حد الكفاية لكل فرد، وتحقيق العدالة الاجتماعية وحفظ التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع، واحترام الملكية الخاصة، والحرية الاقتصادية المقيدة بتجريم أوجه النشاط الاقتصادي التي تتضمن استغلالاً واحتكاراً أو ربا، ثم التنمية الاقتصادية الشاملة أي طرق تملك المال بالعمل، ثم ترشيد الإنفاق وتحريم التبذير والإسراف وكنز الأموال.

و المتغير هو طريقة التطبيق وهي الأساليب والخطط العلمية والحلول الاقتصادية التي يكشف عنها المجتهدون لإحالة أصول الإسلام إلى واقع. وعلى هذا فالاقتصاد الإسلامي إنما هو مذهب ونظام، فهو مذهب من حيث الأصول ونظام من حيث التطبيق.

رسالة الاقتصاد الإسلامي:[٢]

الاقتصاد الإسلامي ليس للمسلمين فحسب، بل هو للعالم أجمع: قال تعالى: (و ما أرسلناك

إلا رحمة للعالمين). [الأنبياء: ١٠٧]، و هذا يعني أن أمام الاقتصاديين الإسلاميين مسؤولية كبيرة في إبلاغ هذه الرسالة للبشرية، و المساهمة الإيجابية في تحقيق الرخاء و الاستقرار للاقتصاد العالمي. و تتضاعف هذه المسؤولية في ظل تزايد الشكوى من الأنظمة الاقتصادية السائدة، و المطالبة بالبحث عن حلول بديلة تحقق الأهداف المنشودة للتنمية الشاملة و عدالة التوزيع...، مع المحافظة على القيم الأخلاقية و الموارد الطبيعية، و من تلك المشاكل التي سببتها الأنظمة الاقتصادية القائمة هو كما أشرنا تزايد المخاطر بشكل يهدد الاستقرار العالمي.

إن ورقتنا هذه هي محاولة لفتح باب الحوار المتعمق بين الباحثين في الاقتصاد و الاقتصاد الإسلامي و الفقهاء سعيا لإعطاء بدائل أفضل مما هي متاحة، و ذلك انطلاقا من كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم، و كذا تراث الفقهاء المسلمين على مر العصور...

و في هذه الورقة البحثية محاولة لإعطاء مقترح لحل أحد أسباب تلك المخاطر (على نحو ما بدا للباحثين)، هذا السبب هو التعامل بالأصول (مادية كانت أو مالية أو معنوية) من دون تملك.

و يمكن أن نرجع أهمية ورقتنا البحثية إلى العناصر التالية :

- الحاجة إلى تقريب فهم حديث النهي عن بيع ما ليس عندك حتى يتسنى مواجهة ما يستجد من تطبيقات معاصرة.
- محاولة التأصيل لموضوع التحوُّط و إدارة المخاطر في الاقتصاد الإسلامي و إيجاد أسسه انطلاقاً من أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بالمعاملات المالية.
- إيجاد منهج إسلامي أصيل و معاصر يمكن من خلاله تقليل المخاطر التي تواجه الاقتصاديات العالمية
- توفير متطلبات وضع معيار شرعي حول هذا الضابط، يمكن أن تستفيد منها هيئة المحاسبة والمراجعة الإسلامية وغيرها.

الموضوع الأول: أقوال العلماء في معاني الحديث[٣]

أولا: حديث النهي، حجيته ومدلوله

أ- حديث النهي

ورد حديث النهي على ثلاث هيئات:

١. استفسار حكيم بن حزام، كقوله:" سألت النبي فقلت: يا رسول الله، يأتيني الرجل فيسألني البيع ليس عندي، أفأبيعه منه ثم أبتاعه له من السوق؟. قال: (لا تبع ما ليس عندك)". (رواه النسائي، ج٧، ص٢٨٩).

٢. إقرار حكيم بن حزام لنهيه بقوله:" نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبيع ما ليس عندي". (رواه الترمذي، تحفة الأحوذي، ج٤، ص ص ٤٣٠-٤٣١).

٣. أمور نهى عنها، منها بيع ما ليس عندك. عن عبد الله بن عمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يحل سلف وبيع، ولا شرطان في بيع، ولا ربح ما لم تضمن، ولا بيع ما ليس عندك". (رواه أبو داود، ج٣، ص ص ٧٦٩-٧٧٥ حديث رقم ٣٥٠٤).[٤]

ب- حجيته

الحديث رواه الخمسة: أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه في سننه (مجلد٣، ص٣٠-٣١)، والإمام أحمد في مسنده (مجلد٣، ص٤٠٢).

وقد ذكر الترمذي أن الحديث حسن صحيح، والعمل به عند أكثر أهل العلم. قال ابن قدامة المقدسي: "لا نعلم فيه مخالفا" (الشرح الكبير مع المغني، ج٤، ص١٦)، وتناوله فقهاء المذاهب بالقبول.

قال الوزير: اتفقوا على أنه لا يجوز بيع ما ليس عنده ولا في ملكه وأنه باطل. ا هـ.

ج- مدلوله

يفهم من الحديث كما ورد عن غير واحد من الفقهاء قديما وحديثا: أن الرجل يأتي إلى حكيم بن حزام يطلب منه شراء سلعة يعتقد أنها عنده، وهي في الحقيقة ليست عنده، والمشتري لا يعلم، وحكيم لم يشأ أن يخبره، فيبيعه السلعة ويقبض ثمنها، على أمل أن يشتريها من السوق، ثم يسلمها له.

في معنى الحديث و مدلولاته:

آراء فقهاء المذاهب من خلال تتبع آراء فقهاء المذاهب، يتبين أنهم رغم اتفاقهم على النهي، واحتجاجهم بالحديث، إلا أنهم اختلفوا فيما يمكن أن يتضمنه النهي من معنى، فمنهم:

- من يرى أن النهي خاص بالمعين دون الموصوف في الذمة، ومن يراه في الموصوف في الذمة دون المعين.
- من يراه في المملوك غير المقدور على تسليمه (لخروجه عن الحوزة)، ومن يراه في غير المملوك باعتباره في ملك غير بائعه.
- من يراه في الحاضر غير المملوك، ومن يراه في المعدوم، ومن يراه في الغائب.
- من يراه في البائع فيما يبيعه بالأصالة عن نفسه، أو حينما يبيع مباحًا قبل الاستيلاء عليه، **بمعنى أنهم اختلفوا في:**

١. **المبيع:** بين: المعين، والموصوف في الذمة، والمملوك الخارج عن القدرة، وغير المملوك باعتباره في ملك غير البائع، والحاضر غير المملوك، والمعدوم، والغائب، والمباح قبل الاستيلاء عليه.

٢. **البيع:** بين: الحال، والبيع مطلقا (حالاً ومؤجلاً).

٣. **البائع:** بين: من يبيع ما يملكه كالغائب والخارج عن الحوزة، ومن يبيع ملك غيره كالفضولي.

قد يبدو للناظر أن مسألة بيع ما ليس عندك واضحة وبسيطة، ولكن الواقع أوضح غير ذلك. فقد تبين اتساع الموضوع وتشعب الآراء فيه.

أولاً: معنى (عند) الواردة في الحديث: ما كان حاضرًا قريبًا لديك، أو في حوزتك وإن كان بعيدًا، بحيث يكون تحت قدرتك وقت طلبه.

ثانيا: ذكر بعض الفقهاء أن (ما ليس عندك): أي ما ليس في ملكك. وذكر آخرون: ما ليس في ملكك ولا تحت مقدرتك.

والحق أن القدرة على التسليم مع مشروعية التصرف بالبيع تحقق قصد الشارع، فالبائع قد يملك ولا يجوز فلا يقدر على التسليم، ومن ثم لا يمكنه ملكه من تجاوز النهي الوارد في الحديث. وقد لا يملك المبيع الذي تحت حوزته وقدرته، ويكون بيعه صحيحًا مع عدم الملك، حينما يكون وكيلاً يبيع بإذن موكله الذي يملك المبيع. بمعنى أن عدم ثبوت ملك البائع للمبيع يمكن ألا يؤثر على صحة البيع، بينما خروج المبيع عن قدرة البائع على تسليمه حتى لو كان مالكًا له يجعل البيع داخلاً تحت نهي الحديث.

ثالثًا: علة النهي: هي عدم القدرة على التسليم، وما ينشأ عنها من غرر فاحش يصل إلى حد القمار، ومن استحالة تمليك البائع ما لا يملك للمشتري فيما يبيع بالأصالة عن نفسه، ومن تفويت القصد بالبيع في تمليك التصرف، ومما قد ينشأ من نزاع بين البائع والمشتري، إضافة إلى عدم دخول المبيع في ضمان البائع، ومن ثم لا يجوز له أن يربح في ما لم يضمن.

رابعًا: حول آراء الفقهاء في المبيع المنهي عنه بين كونه في المعين أو الموصوف في الذمة: من صيغ العموم، الأسماء الموصولة مثل (ما)، كما في قوله تعالى: (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) [النحل:٩٦] وقوله تعالى: (ولله ما في السموات وما في الأرض) [النجم:٣١]. وهنا في نص الحديث:" لا تبع ما ليس عندك". أي أن هذه الصيغة واردة في حديث النهي. وعلماء أصول الفقه يقولون: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب". أي أن المبيع على عمومه منهي عن بيعه طالما أنه ليس عند البائع. هذا هو عموم اللفظ. أما خصوص السبب، فهو أن يكون هذا النهي خاصًا بحكيم بن حزام، وهذا هو المستبعد.

وعلى ذلك فبيع ما ليس عندك على عمومه، يتضمن المبيع المعين والمبيع الموصوف في الذمة المعجوز عن تسليمهما. وطالما اتفق المعين والموصوف في الذمة في عموم اللفظ، فلا مسوغ لإدخال أحدهما تحت النهي وإخراج الآخر. بمعنى أن حكيم بن حزام إذا لم يكن يبيع معينًا مملوكًا خارجًا عن حوزته، أم مملوكًا لغيره، فإن هذا المعين ليس عنده، ويندرج تحت عموم اللفظ.

خلاصة ما سبق: إذا كان بعض الفقهاء قد حصر النهي في المبيع المعين، والبعض الآخر حصره في نطاق المعاني التي تحملها قصة الحديث، ليكون في الموصوف في الذمة دون المعين، فإن النهي يتحقق فيهما معًا، عملاً بعموم اللفظ الذي يتسع لهما.٥

خامسًا: إن النهي خاص فيما كان البيع فيه حالاً.

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى وضع ضابط لنهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع ما ليس عندك لمعرفة ما يندرج تحت النهي وما يخرج عنه، كما يلي:

ضابط الخروج عن النهي:

- أن يصدر البيع عن البائع الذي له ولاية إصدار عقد البيع، سواء كانت ولاية الإصدار أصلية أو نيابية.
- وأن يكون المبيع في ضمانه.
- وأن يكون مقدور التسليم في المحل المشروط بحسب العادة.

وبمفهوم المخالفة، يدخله النهي:

- إذا صدر عن بائع ليس له ولاية إصداره (لا بالأصالة ولا بالنيابة). و/ أو .
- إذا لم يكن المبيع في ضمانه. و/ أو.
- إذا لم يكن قادرًا على تسليمه في المحل المشروط.

الموضوع الثاني: المعاملات (المالية) المعاصرة التي تكون من باب التصرف في الأصول (الأعيان) قبل التملك وآثارها على أسواق المال المحلية و الدولية

بعض المعاملات التي هي من قبيل بيع ما لم يملك

- إذا جاءك إنسان يريد سلعة وهي ليست عندك ؛ ولكنها موجودة في السوق فيقول لك: أبرم معي عقد البيع ثم اشترها وسلمنيها، فإذا قال ذلك فقل له : هذا لا يجوز لأنه لا يحق لي أن أبيعك سلعة لم تدخل بعد في ملكي لأن البيع لا يصح إلا من مالكٍ للعين أو من يقوم مقامه
- الأراضي التي توزعها الدولة على المواطنين فيتقدم بعض المواطنين بطلب إقطاعها ، وبعد سنوات يمتلكونها فعلاً، فيقوم بعض المواطنين ببيع هذه الأرض قبل توزيعها ولا معرفتها عيناً، وإنما يبيع الأوراق الخاصة بها إلى آخر بعقدٍ يكتب فيه أن السلعة المبيعة هي هذه الأرض التي ستوزع بعد سنوات ، وهذا لا شك في منعه لأنه الآن ليس بمالك لها، والبيع لا يصح إلا من مالك للعين، ولأن ذلك من الغرر إذ قد توزع وقد لا توزع، فهو غير متحقق القدرة على تسليمها وقد نهى النبي صلى الله عليه و سلم عن بيع الغرر، والله أعلم.[٦]

المرابحة المصرفية على نحو ما تقوم به بعض المصارف الإسلامية:

تعتبر المرابحة من أكثر أساليب التمويل استعمالاً لدى المصارف الإسلامية، فجوهرها يتضمن إبرام العقود التي يلتزم بموجبها البائعون بنقل ملكية سلعهم أو حقوقهم العينية بمقابل نقدي يتضمن هامش ربح مقبول شرعاً، أما المرابحة المصرفية أو المرابحة للآمر بالشراء فتعني قيام المصرف [الإسلامي] بتنفيذ طلب المتعاقد معه على أساس شراء الأول

ما يطلبه الثاني بالنقد الذي يدفعه المصرف - كليا أو جزئياً - وذلك في مقابل التزام الطالب بشراء ما أَمَرَ به وحسب الربح المتفق عليه عند الابتداء).[٧](كما ورد في قانون المصرف الإسلامي الأردني)

وهنا مسألة قد عمت بها البلوى، لها علاقة بموضوع بحثنا و هو البيع من دون تملك الأصول محل التعاقد. حيث تقوم بعض المصارف ببيع سيارات أو سلع الشركات الأخرى، فهل المصرف بهذا يبيع ما يملك، وما ليس عنده؟

ومن المعلوم أن العميل عندما يأتي إلى البنك الإسلامي ليشتري سيارة مثلا، يقول له البنك الإسلامي: أنا أبيعك، ويقصد بذلك أنا أبيعك ما تختاره من السيارات الموجودة في الشركات التي في السوق، ولكن من أين يأتي بها ؟ وهل هو يبيع ما يملك ؟

وقد حاول بعض الفقهاء أن يخرجوا البنك الإسلامي من هذا الإشكال بما يلي:[٨]

أولا : أن يعد العميل البنك الإسلامي بالشراء، والبنك يعد العميل بالبيع، ويوقع الطرفان على (الوعد). ومعنى هذه الورقة الموقعة بين الطرفين بالوعد، أي: البيع لم يتم بعد، لكن وعدناك بالبيع بعدما نشتري السلعة، وأنت وعدتنا بالشراء منا.

ثانيا : يجعل البنك هذه الورقة ملزمة؟ فأنت عندما تأتي البنك الإسلامي، وتوقع على الوعد بالشراء، فأنت ملزم بإتمام العملية، ويقولون هي ليست ببيع، حتى لا نقع في إشكال بيع مالا يملك البائع، وإنما هي وعد، والمسلم مسؤول عن وعده، ملزم بالوفاء به .

ثالثا : بعدها يعطي البنك الإسلامي للشركة، قيمة البضاعة نقدا، ويحولها إلى المشتري بالأقساط بربح معلوم، فيضمن بذلك عدم تراجع المشتري عن الصفقة، ويضمن أيضا ربحه فيها.[٩]

لكن المتحايلون أتوا بطريقة أخرى: وهي أن لا يقوم البنك الإسلامي بشراء السلعة، بعقد رسمي من الشركة التي يطلب العميل سلعة منها، ويكون العقد بمثابة الحيازة، بل يكفي الإيجاب والقبول عن طريق الهاتف، ثم يوقع مع العميل عقد البيع، ويبيع السلعة بالأقساط، ثم بعد ذلك يتم البنك الإسلامي العملية مع الشركة .

ولكن هذه العلمية أيضا غير شرعية، وإنما هو تحايل، أرادوا به أن يفارقوا في الصورة

فقط، بين ما تجريه شركات التسهيلات الربوية، ومعاملة البنك الإسلامي، وقد صح في الحديث أن صلى الله عليه وسلم (نهى أن تباع السلع حيث تبتاع حتى يحوزها التجار إلى رحالهم) رواه أبو داود من حديث زيد بن ثابت. (٣/ ٧٦٥ح ٣٤٩٩)

وهذا يعني أن التاجر (المصرف الإسلامي في حالتنا هذه) يجب عليه بعد التملك أن يحوز السلعة إذا أراد إعادة بيعها، وحيازة كل شيء بحسبه، وليس معناها بالضرورة نقل السلعة إلى مكان البائع في كل الأحوال، فقد تكون السلعة طائرات أو سفنا أو سيارات كثيرة لا يمكن البائع أن ينقلها، ولكن يجب أن تكون السلعة، انتقلت إليه وصارت في حوزته، مثل أن يكون ثمة أوراق رسمية لها قوة القانون تثبت أن السلعة هي في حوزة البنك ومسجلة باسمه، بحيث لو فرض أن تراجع المشتري، فالسلعة قد دخلت في ذمة البنك الإسلامي دخولا تاما.

بيع التورق:

التورق هو شراء سلعة ليبيعها إلى آخر غير بائعها الأول للحصول على النقد. مثال ذلك أن يشتري سلعة بثمن مؤجل ثم يبيعها لآخر نقداً ليحصل على ثمنها الحال لرغبته في الحصول على النقد. فإن باعها إلى نفس بائعها الأول فهي العينة الممنوعة، أما إن باعها إلى طرف ثالث فهي التورق.[١٠]

أما التورق المنظم فهو معاملة استخدمتها بعض المصارف الإسلامية على النحو التالي:

يقوم المصرف بعمل نمطي يتم فيه ترتيب بيع سلعة (ليست من الذهب أو الفضة) من أسواق السلع العالمية أو غيرها، على المستورق بثمن آجل، على أن يلتزم المصرف ـ إما بشرط في العقد أو بحكم العرف و العادة ـ بأن ينوب عنه في بيعها على مشتر آخر بثمن حاضر، و تسليم ثمنها للمستورق.[١١]

لكن ثمة مشكلة في بعض تطبيقاتها بالمصارف الإسلامية، و هي من صور بيع السلع قبل حيازتها، حيث تجد أحياناً من هو بحاجة إلى نقود، يذهب ليشتري كمية من الإسمنت مثلا بالأقساط، ويوقع على الشراء، ثم يبيعه مباشرة لمقاول بسعر أقل نقدًا، وذلك قبل الحيازة، بل إنه لا يعرف حتى أين بضاعته، وهذا بيع منهي عنه، وهو بيع التاجر السلعة قبل حيازتها.

المشتقات المالية (عقود الخيارات مثالاً)

ينظر الكثير من الباحثين في قضايا المال و الاستثمار إلى المشتقات المالية كأفضل ما استطاع الفكر الاستثماري انجازه إلى الآن.[١٢] و يقصد بالمشتقات المالية العقود التي تُشتق قيمتها من قيمة الأصول المعنية (أي الأصول التي تمثل موضوع العقد) و الأصول التي تكون موضوع العقد تتنوع ما بين الأسهم و السندات و السلع و العملات الأجنبية....و تسمح المشتقّات للمستثمر بتحقيق مكاسب أو خسائر اعتماداً على أداء الأصل موضوع العقد، و من أهم المشتقات: عقود الاختيار، العقود المستقبلية، عقود المبادلات...[١٣]

و قد أبهر التضاعف السريع لحجم أسواق المشتقات حتى الاقتصاديين حيث ارتفعت من أقل من ١٠٠ تريليون دولار سنة ١٩٩٨ إلى أكثر من ٣٣٠ تريليون دولار (نهاية ٢٠٠٥)، أي أنها تضاعفت ثلاث مرات في أقل من ٧ سنوات. و هذا النمو يتجاوز بمراحل نمو أي نوع من الأصول المالية الأخرى.[١٤]

حتى في الغرب، أثارت المشتقات منذ ظهورها قبل ١٥٠ عاماً تقريباً و لاتزال الكثير من الجدل حول مشروعيتها، سواء من الناحية القانونية أو الاقتصادية. فبحسب القانون فإن العقود المؤجلة التي لا يراد منها التسليم وإنما التسوية على فروق الأسعار تعد من الرهان والقمار الذي لا يعترف به القانون العام.

ومن ناحية اقتصادية فإن هذا التعامل لا يختلف عن القمار لأنه لا يولد قيمة مضافة بل مجرد مبادلة يربح منها طرف ويخسر الآخر، بل قد يكون أسوأ أثراً من القمار، لأنه يتعلق بسلع وأصول مهمة ومؤثرة في النشاط الاقتصادي ويتضرر من جراء تقلباتها الكثير من الناس ولهذا لم يكن غريباً أن أكثر مجموعات الضغط نشاطاً في السابق ضد المشتقات كان المزارعون، إذ كانوا أكثر الفئات تضرراً من هذه التقلبات. وقد جرت في الماضي عدة محاولات في الكونجرس الأمريكي لمنع المستقبليات، خاصة على السلع الزراعية، أخفقت كلها عدا المستقبليات على منتجات البصل، التي لا تزال ممنوعة إلى اليوم.

وقد كان من نتيجة ذلك أن انتشرت المقامرات بصورة مقننة وأصبحت المشتقات قنابل موقوتة يؤدي انهيارها إلي انهيار منشآت الأعمال بل إلى انهيار البورصات، وهذا ما دعا العديد من رجال المال الغربيين إلى وصفها بأنها: "نوع من المقامرة" و "بيت للعب للقمار" و

"تأثيرها على تقلب أسعار الأوراق المالية قد فاق كل التوقعات".[١٥]

وقد وجهت سهام الاتهام لأسواق المشتقات بأنها السبب الرئيس لأزمة يوم الاثنين الأسود في ١٩ أكتوبر ١٩٨٧م التي أصابت أسواق رأس المال في الولايات المتحدة الأمريكية، وترتب عليها انتقال عدواها إلى أسواق رأس المال في باقي دول العالم. بل إن المشتقات عصفت ببنك بارنج البريطاني(Baring Brothers and Company Bank) الذي كان تاريخه يمتد في أعماق الماضي إلى ٢٣٣ سنة حيث بلغت خسائره من المضاربة على المشتقات ما يقرب من ١,٥ مليار دولار.[١٦]

المدافعون عن المشتقات يرون أنها أدوات لنقل المخاطر من الوحدات المنتجة كالشركات والمؤسسات التي لا ترغب في تحمل مخاطر الأسعار إلى الوحدات القادرة على تحمل هذه المخاطر، وهي المؤسسات المالية وبيوت السمسرة الكبيرة، وبذلك ترتفع إنتاجية الوحدات الاقتصادية ومن ثم مستوى الرخاء الاقتصادي. وهذه العملية هي ما يسمى التحوُّط، أي أنها تقي الشركات والمؤسسات وتجنبها المخاطر. لكن المعارضين يقولون إن المشتقات هي نفسها أدوات المجازفة والرهان على تقلبات الأسعار والاسترباح من ذلك. وواقع الأمر أن المجازفة هي الغالبة على المشتقات، حيث تبلغ نسبة العقود المستخدمة بغرض المجازفة وفق الإحصائيات الرسمية أكثر من ٩٧ ٪ من إجمالي العقود، بينما تقتصر أغراض التحوُّط على أقل من ٣ ٪. فالمشتقات أدوات للمجازفة والرهان أكثر منها أدوات للتحوُّط كما أن تبادل المخاطر يعني أن العملية تصبح مبادلة صفرية، لأنه إذا تحقق الخطر كسب أحد الطرفين وخسر الآخر، وإن لم يتحقق انعكس الوضع. وهذا هو ما يجعل المشتقات أهم أدوات المجازفة والرهان على الأسعار، لأن المقصود ليس تبادل الملكية وإنما مجرد المخاطرة.[١٧]

ولا خلاف بين أهل الفن أن المشتقات مبادلات صفرية، لكنهم يقولون إنها وإن كانت صفرية على مستوى العقد لكنها على المستوى الكلي إيجابية لأنها ترفع مستوى الإنتاجية للاقتصاد عموماً ومن ثم ينتفع جميع الأطراف. وهذه الحجة يمكن أن تكون صحيحة لو كانت المشتقات تسير جنباً إلى جنب مع النشاط الحقيقي المنتج. لكن واقع الأمر أن أسواق المشتقات تسير في اتجاه بعيد عن النشاط الحقيقي. في السنوات الماضية تضاعف حجم المشتقات أكثر من ثلاث مرات، بحيث تجاوز حجمها الآن ٣٣٠ تريليون دولار، وهو

نمو غير مشهود في أي قطاع من قطاعات الاقتصاد الأخرى. والسبب هو أن المشتقات لا ترتبط تعاقدياً بالنشاط الحقيقي، بل تقتصر على تبادل المخاطر. وحيث إن تداول المخاطر لا يخضع لضوابط النشاط الحقيقي المولد للثروة، فيصبح نمو المشتقات أسهل بكثير من نمو الاقتصاد الحقيقي، وهذا هو الحاصل بالضبط. ويترتب على ذلك تدفق رؤوس الأموال إلى المجازفات غير المنتجة على حساب الاقتصاد الحقيقي المنتج، مما يعرض الاقتصاد للخسارة مرتين: مرة بحجب رؤوس الأموال عن النشاط الحقيقي ابتداء، ومرة عند انهيار السوق وانفجار فقاعة المجازفات غير المسؤولة وضياع الثروة تبعاً لذلك.

ومع التضخم الهائل لحجم سوق المشتقات فإن أي انهيار سيكون تهديداً مباشراً للاقتصاد بأكمله، وهذا ما يجعل الحكومات والبنوك المركزية تتدخل لمنع وقوع هذه الانهيارات، كما حصل في صندوق لونج تيرم كابيتال(LTCM) وغيره من مؤسسات المجازفة المالية. والتدخل الحكومي مصدر أساسي لربحية المجازفين، كما أكد ذلك جوزيف ستيجلتز الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد، وإلا فإن سوق المشتقات إجمالاً سوق صفرية كما سبق. ولكن تدخل الجهات الرسمية يعني أن الذي يدفع الثمن الفعلي لهذه المجازفات هو جمهور الأفراد والشركات الذين هم عماد الاقتصاد. فالجمهور في النهاية صار يتحمل مخاطر المجازفين التي تفوق بأضعاف مخاطر النشاط الحقيقي. فبدلاً من أن تكون المشتقات وسيلة لحماية الجمهور من المخاطر صارت وسيلة لتحميله مخاطر تفوق بأضعاف ما كان يسعى لتجنبه من خلالها.

و قد أصدر مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورة مؤتمره السابع بجدة في المملكة العربية السعودية من ٧-١٢ ذي القعدة ١٤١٢ الموافق ٩ - ١٤ أيار (مايو) ١٩٩٢م، القرار رقم: ٦٣ (١/ ٧) بشأن الأسواق المالية بشكل عام بما فيها عقود الاختيارات، و قد جاء في القرار ما يلي:

أ- صورة عقود الاختيارات: إن المقصود بعقود الاختيارات الاعتياض عن الالتزام ببيع شيء محدد موصوف أو شرائه بسعر محدد خلال فترة زمنية معينة أوفي وقت معين إما مباشرة أو من خلال هيئة ضامنة لحقوق الطرفين.

ب- حكمها الشرعي: إن عقود الاختيارات - كما تجري اليوم في الأسواق المالية العالمية

– هي عقود مستحدثة لا تنضوي تحت أي عقد من العقود الشرعية المسماة.

وبما أن المعقود عليه ليس مالاً ولا منفعة ولا حقاً مالياً يجوز الاعتياض عنه فإنه عقد غير جائز شرعاً. وبما أن هذه العقود لا تجوز ابتداءً فلا يجوز تداوله.[١٨]

و من الواضح أن سبب تحريم عقود الخيارات هو أنه ينتفي فيها الملك والقدرة على التسليم ويسوى الفرق ربحا أو خسارة أو يتم نقل المراكز ببيع ما اشترى أو شراء ما يبيع كل ذلك دون قبض، فهذه العقود من قبيل بيع الإنسان ما ليس عنده، وبيع ما لم يقبض، وبيع الكالئ بالكالئ. أما كونها من قبيل بيع الإنسان ما ليس عنده فهو ظاهر من أنها تتبادل فيها غالبا التزامات وليس سلع. وكونها من بيع ما لم يقبض فهو ظاهر من كونها تتم عادة على ما لا يملك، كما أنها في حقيقتها لا تهدف عادة إلى تسلم سلعة، حيث إن كل هدفها هو تحقيق أقصى ربح ممكن لأحد أطرافها من جراء الفروق في الأسعار. وكونها من قبيل بيع الكالئ بالكالئ، فهو ظاهر من كونها لا يسلم فيها سلعة ولا يدفع فيها ثمن إلا نسيئة فكلا طرفي المعاوضة نسيئة.

البيع على المكشوف:

البيع على المكشوف هو أن يبيع أسهما بسعر محدد مستقبلا وهو لا يملكها، وإنما يتلقى وعداً من السمسار بإقراضه الأسهم في موعد التسليم، فإذا جاء موعد التسليم، اقترض الأسهم وباعها واحتفظ السمسار بالثمن ضمانا لقرض الأسهم ـ وربما أودعه السمسار بفائدة لمصلحته بناء على موافقة العميل ـ فإذا انخفضت أسعارها، اشترى ذلك البائع الأسهم من السوق، وأعادها إلى السمسار، وقبض الفرق بين سعر الشراء وسعر البيع. أما إذا ارتفعت هذه الأسعار فسوف يخسر بمقدار ذلك الارتفاع.

ولتوضيح البيع بالمكشوف نتناول المثال التالي:

نفرض أن أحد المستثمرين يظن أن أسهم شركة ما، الذي سعره الآن ١٥ دولار، سينخفض خلال الفترة الزمنية القادمة، فيمكنه أن يبيع على المكشوف ١٠٠ سهم مثلا بسعر ١٥ دولارا للسهم الواحد في موعد معين، فيكون المجموع ١٥٠٠ دولار، ثم إذا حل

الموعد اقترض تلك الأسهم من السمسار وسلمها للمشتري في ذلك الموعد، فإذا كانت توقعاته دقيقة وانخفض السعر إلى ١٢ دولارا، يكون المجموع ١٢٠٠ دولار، فإنه يشتري أسهم تلك الشركة بالسعر المنخفض من السوق، ويعيدها إلى السمسار الذي اقترضها منه، فيكون قد حقق ربحا مقداره ٣٠٠ دولار.١٩

وقد أفتى مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة بأن هذا البيع لا يجوز، حيث اتخذ قرارا في دورته السابعة في عام ١٤١٢هـ جاء فيه: "لا يجوز أيضا بيع سهم لا يملكه البائع، وإنما يتلقى وعدا من السمسار بإقراضه السهم في موعد التسليم ؛ لأنه من بيع ما لا يملك البائع، ويقوى المنع، إذا اشترط إقباض الثمن للسمسار لينتفع به بإيداعه بفائدة للحصول على مقابل الإقراض".٢٠

مثال أزمة سوق المناخ بالكويت١٢

كان سوق الأسهم الكويتية خلال الفترة ١٩٦١ - ١٩٧٥م قناة استثمارية رئيسية لعائدات النفط الكويتي. كانت طبيعة التسوية المالية تتم، في معظمها، عن طريق شيكات مؤجلة وقابلة للتداول أدت لاحقا إلى نشأة سوق غير رسمية لعقود البيوع المستقبلية. اتجهت الأسهم إلى تسجيل أرقام قياسية غير مبررة مقارنة بقيمتها الدفترية، ومدعومة بتدفق مستمر للسيولة، ومحدودية كمية الأسهم المتداولة.

كان لا بد لعملية التصحيح أن تأخذ مكانها لتنشيط السوق على المدى الطويل.

أدت العملية في عام ١٩٧٦م إلى هبوط أسعار الأسهم بشكل تدريجي مدعومة بزيادة العرض بشكل كبير مقابل الطلب في سوق عقود البيوع المستقبلية. أنهار السوق في ١٩٧٦م مخلفا آثارا اقتصادية غير كبيرة بسبب تدخل الحكومة الكويتية.حيث لم تدعم الحكومة السوق بصرف قرابة نصف مليار لشراء أسهم الشركات المتعثرة فحسب، ولكن أيضا اتخذت عددا من التدابير السريعة لضمان عدم حدوث مثل هذه الأزمة. منها إصدار القرار الوزاري رقم (٦١) وتاريخ ١٩٧٦م والذي نص على تنظيم التعامل في الأوراق المالية الخاصة بالشركات المساهمة الكويتية وتشكيل أول لجنة للأوراق المالية.

و من الواضح أن أول أزمة كانت نتيجة عن الإخلال بشرط بيع الأصول قبل تملكها كان حتى قبل الأزمة الشهيرة، لكن تدخل الدولة كبت الأزمة

ورغم مساهمة التدابير السابقة في إعادة بناء السوق، إلا أنها لم تخل من السلبيات. حيث أدت إلى حدوث عجز في كمية الأسهم المتداولة نتيجة احتفاظ الحكومة بأسهم الشركات المتعثرة، واستمرار قرارها بمنع تأسيس شركات مساهمة خلال الفترة ١٩٧٦ إلى ١٩٨١م.

مع بداية الثمانينيات الميلادية، وقيام الحكومة الكويتية بتخفيض سعر الفائدة على الدينار الكويتي، والسماح بإنشاء شركات مساهمة تمهيدا لطرحها بشكل تدريجي في سوق الأسهم، نشأت طفرة اقتصادية جديدة عمت معظم جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية. استقطب كل من السوق الرئيسي وسوق المناخ جزءا ليس بالقليل من السيولة النقدية المتدفقة.

لم يكن سوق المناخ يخضع لرقابة السلطات المالية. وبالتالي اختلفت آلية عمله وطبيعة شركاته المتداولة عن تلك المدرجة في السوق الرئيسي. كان هناك قرابة تسعة صناع لسوق المناخ اعتمدوا على الثقة المتبادلة فيما بينهم ليس لتنسيق عمليات المضاربة فحسب، وإنما أيضا لاستقطاب رساميل آلاف من صغار المستثمرين إلى سوق المناخ.

كانت التسوية والمقاصة تتم، في معظمها، عن طريق شيكات مصرفية مؤجلة وقابلة للتداول. وهنا نشطت من جديد وبشكل غير رسمي، سوق عقود البيوع المستقبلية ذات المخاطرة العالية. ساعدت هذه العقود على إعادة تدوير الرساميل في سوق المناخ.

تميزت الشركات المتداولة في سوق المناخ بميزة خاصة. كانت نحو ٥٤ شركة خليجية معظمها شركات وهمية تأسست خلال الفترة من ١٩٧٩ إلى ١٩٨٠م لغرض يتيم هو الاستثمار في أسهم بعضها. حتى أن عددا كبيرا منها لم تكن لها منتجات أو عملاء حقيقيون.

شجعت جميع هذه العوامل عددا كبيرا من صغار المستثمرين إلى تحويل رساميلهم من السوق الرئيسي إلى سوق المناخ، رغبة في الربح السريع، ومدعومة بالشعور بأن الحكومة الكويتية سوف تدعمهم، كما دعمت أقرانهم عندما انهار السوق الرئيسي في عام ١٩٧٦م.

أدى التدفق السريع للرساميل إلى تضخم القيمة السوقية إلى أكثر من ستة أضعاف قيمتها الدفترية. ففي عام ١٩٨١م على سبيل المثال، ارتفعت أسعار الأسهم إلى ما معدله ٦٣ ٪، واحتلت القيمة السوقية الإجمالية لكلا السوقين المركز الثالث بين أسواق المال العالمية بعد سوقي نيويورك وطوكيو.

لم يكن الوضع الائتماني للمصارف الكويتية بمعزل عن هذا التضخم. حيث ارتفعت

نسبة الائتمان المصرفي إلى ١٧ ٪ خلال الربع الأول من عام ١٩٨٢م، مدعومة بمشاركة المصارف للمستثمرين في تنشيط سوق عقود البيوع المستقبلية غير الرسمي لتمويل صفقات جديدة.

بدأت المأساة في الربع الثاني من عام ١٩٨٢م وبالتحديد في منتصف شهر مايو عندما تزامن موعد استحقاق الدفعة الأولى من عقود البيوع المستقبلية مع حركة تصحيح كبيرة أدت إلى عجز في قيمة العقود المستحقة. عندها بدأت أسعار الأسهم بالنزول التدريجي واستمرت حتى منتصف شهر آب (أغسطس) من العام نفسه عندما نزل المؤشر بنسبة ٣٠٪، وانخفضت حركة التداول بنسبة ٦٠ ٪.

أصيب سوق عقود البيوع المستقبلية غير الرسمي بحالة من الكساد التام بتراكم نحو ٢٩ ألف شيك مؤجل غير قابل للدفع، وبقيمة إجمالية تقدر بنحو ٩٤ مليار دولار أمريكي، ومسحوبة لأمر نحو ستة آلاف مستثمر. كانت هذه المستويات كفيلة بانهيار السوق وذهابه إلى غير رجعة، محدثا أزمة سيولة نقدية في المصارف التجارية، وهزة في الاقتصاد الكويتي.

و كما أشرنا فيما سبق، فإن مصدر ربحية المضاربين و غيرهم هو التدخلات الحكومية، إذ بدأت الحكومة بتنفيذ خطة طوارئ لمعالجة الوضع، شمل ذلك تعويضات للمتضررين و مجموعة من الإجراءات و كذا الإصلاحات المالية و الاقتصادية.٢٢

الدروس المستفادة من أزمة سوق المناخ بالكويت:

يتضح أن أزمة سوق المناخ، إنما حدثت بسبب مخالفة شرط التعامل بالأصول بالبيع دون تملك، فقد كانت تباع كما أشرنا أسهم شركات -وهمية أو حتى حقيقية- بالأجل، طامعا من يشتريها أن يعيد بيعها ويحصل على الأرباح، ريثما يحين الأجل فيقدر على تسديد الدين الذي عليه، ولكن الذي حدث أن السوق الوهمي انهار وبقيت الديون على أصحابها، وتحملت الدولة معظم تكلفة الأزمة (حوالي ٩٠ مليار دولار أمريكي) و التي استمرت آثارها لعدة سنوات.

و ما قيل عن أزمة السوق الكويتية يقال عن كثير من الأزمات المالية التي حدثت و التي ستحدث مستقبلا بسبب عدم الالتزام بقاعدة تملك الأصول محل التعاقد قبل التعامل بها، و التي لا تفي بحوث مستقلة بها.

نتائج البحث والتوصيات

لقد اتضح لنا بما لا يدع لنا مجالا للشك أن الأخذ بحديث النهي عن بيع ما ليس عندك سيوفر لأسواق المال العالمية استقرارا لا يمكن تحقيقه من خلال كل القوانين و التنظيمات و التعليمات التي يتم إصدارها...وهي في النهاية ترجع إلى قاعدة النهي عن الغرر...

يتضح لنا أحد أوجه الإعجاز و التي تبدو من الأهم في النهي عن بيع ما ليس عندك، ما ذكرناه سابقا حول ما أورده الفقهاء عن معنى (ما ليس عندك)، و التي وصلنا إلى أنها تعني ما ليس في ملكك أو ما ليس في ملكك و لا تحت مقدرتك. إذا توضح لنا ذلك، فسنصل إلى أن عدم التملك (في كلتا الحالتين) يجعل البيع منهيا عنه بنص الحديث

و نود هنا أن نستذكر فقط الحديث التالي: (الضمان بالخراج) [حديث صحيح. أخرجه الشافعي، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وابن ماجه وابن حبان]

قال الفقهاء: معناه ما خرج من الشيء: من غلة،ومنفعة، وعين، فهو للمشتري عوض ما كان عليه من ضمان الملك؛ فإنه لو تلف المبيع كان من ضمانه؛ فالغلة له، ليكون الغنم في مقابلة الغرم.

إن قاعدة النهي عن بيع ما لم يملك، تؤدي إلى:

- **تمنع الفصل ما بين ملكية الأصل و المخاطر التابعة له**

فكما أن الفائدة (في الفكر الاقتصادي التقليدي) أدت إلى فصل الزمن عن الملكية، يؤدي التعامل بالأصول من دون تملك إلى الفصل بين المخاطر و الملكية. إذن فقاعدة النهي عن بيع ما لم يملك تمنع الفصل ما بين ملكية الأصل و المخاطر التابعة له (مخاطر الملكية اللازمة لتحقيق الربح و نمو الثروة)

و لعل الحكمة من ذلك أن الفصل بين الخطر و الملكية يؤدي إلى جعل المخاطر "سلعة" مستقلة، و هذا يؤدي إلى أن تصبح إدارة المخاطر تسير في اتجاه مغاير لمسار توليد الثروة، و تزاحمها من ثم على الموارد المتاحة.

يضاف إلى ذلك أن تحويل المخاطر إلى سلعة متداولة بهدف الربح يؤدي وفقا لآلية السوق إلى تفاقمها و ليس انحسارها، كما يؤدي إلى سوء توزيعها بسبب مشكلات تفاوت المعلومات و الانتقاء العكسي. النتيجة النهائية هي ارتفاع المخاطر و تزايد التقلبات الاقتصادية، و من ثم تراجع نمو الثروة.

و نود أن نذكر ها هنا بما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حول هذه النقطة:

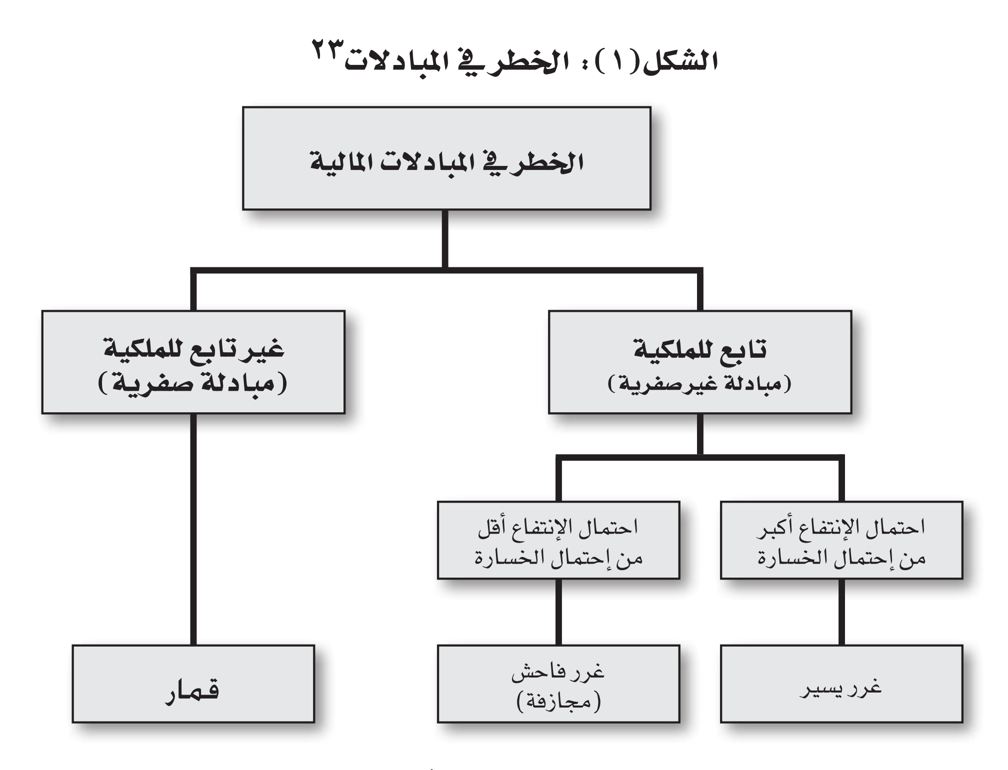
يقول رحمه الله: "الخطر خطران: خطر التجارة، وهو أن يشتري السلعة بقصد أن يبيعها بربح، ويتوكل على الله في ذلك، فهذا لابد منه للتجار (...). فالتجارة لا تكون إلا كذلك. والخطر الثاني: الميسر الذي يتضمن أكل مال الناس بالباطل، فهذا الذي حرمه الله ورسوله". [تفسير آيات أشكلت ٢/ ٧٠٠]

- **أثبت الواقع (من أسواق المال) أن التعامل في الأصول من دون تملكها يدفع إلى أن تستخدم نفس الأصول بعينها لتوليد ما لا يحصى من الديون،** فالعميل بمجرد شرائه سلعة يمكنه بيعها نقداً دون الحاجة إلى تملكها لكي يشتريها غيره (الذي لن يحتاج بدوره لتمكلها كذلك) ثم يبيعها نقداً، وهكذا، حتى يتولد من السلعة الواحدة جبال شاهقة من الديون... أما لو تملك المشتري السلعة (و أصبح ضمانها عليه أي مخاطر التملك) قبل أن يبيعها فإن ذلك يصبح متعذراً.

إن ما سبق يجعلنا نرجع إلى نظرية التمويل التي تقر بضرورة عدم فصل المخاطر عن الملكية و أن عائد الأصول و مخاطرها مرتبطان، و أن الفصل بينهما يؤدي إلى أن تصبح المخاطرة في ذاتها سلعة لها أسواقها و لها مشترون و بائعون (لكنها سلعة ضارة و ليست من الطيبات)...و هو ما يؤدي في النهاية إلى تعاظمها و تكون النتيجة الحتمية هي انفجار فقاعة المخاطر التي يدفع ثمنها في النهاية الأفراد و الدولة

يمكننا من خلال الشكل الموالي توضيح طبيعة العلاقة بين الملكية و المخاطرة، و نتائج الفصل بينهما:

الشكل(١): الخطر في المبادلات[٢٣]



المصدر: سامي إبراهيم السويلم، «التحوُّط في التمويل الإسلامي»، ص١٠٤.

بقي لنا في الأخير فقط أن نشير إلى أن بعض الجوانب التي ما تزال بحاجة إلى المزيد من البحث في مجال الاقتصاد الإسلامي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

تأصيل نظرية الغرر في الاقتصاد الإسلامي

تأصيل نظرية المخاطرة في الاقتصاد الإسلامي في ظل نظرية الغرر، خاصة في عصر أصبحت فيها المخاطر صفة ملازمة للنشاط الاقتصادي

ونشير ختاما إلى أن أهم خصائص الاقتصاد الإسلامي، هو الانطلاق من العقيدة أو الإيمان (و هما مترادفان) ولو نزعت منه هذه الخاصية لم ينجح، ومما يدل على ارتباط الاقتصاد بالإيمان: قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ

السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).[الأعراف: ٩٦]

ففي هذه الآية الكريمة، بيان أن الإيمان والتقوى أهم أسباب الازدهار في الاقتصاد الإسلامي، وهما سبب للبركات والرفاه. فالله تعالى يقول في هذه الآية، إذا أردتم اقتصادا سليما، يحقق الرفاهية، فعليكم بتقوى الله عز وجل والإيمان.٢٤

كما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القدر إلا الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) رواه ابن ماجه (ح ٤٠٢٢ بإسناد حسن)، وفي هذا تأكيد للعلاقة بين الإيمان والاقتصاد الإسلامي.

ومما يؤكد كذلك تأثير تقوى الله تعالى في الاقتصاد، قوله صلى الله عليه وسلم :(من باع دارا، ثم لم يجعل ثمنها في مثلها، لم يبارك له فيها) رواه الضياء المقدسي والطيالسي والبيهقي عن حذيفة رضي الله عنه (حسن)

لهذا وجب علينا الالتزام في كل معاملاتنا (سواء على المستوى الكلي أو الجزئي) بالضوابط الشرعية، فهي كفيلة أن تحقق للعالم الرفاهية بعيدا عن كل الأخطار التي يمكن أن تهددها.

والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء أمام كثير صوابه

و صلى الله و سلم على نبينا محمد و على آله و صحبه و سلم

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عبد الكريم أحمد قندوز الجزائري

الهوامش والمراجع

١ أنظر بهذا الخصوص: أ.د على أحمد السالوس، "موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة و الاقتصاد الإسلامي"، مكتبة دار القرآن، مصر، الطبعة السابعة، ٢٠٠٢. و كذا: مركز الدراسات الفقهية و الاقتصادية، "موسوعة فتاوى الإمام ابن تيمية في المعاملات و أحكام المال"، دار السلام، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص٦١-٦٢.

٢ سامي بن إبراهيم السويلم، "التحوُّط في التمويل الإسلامي"، ورقة مناسبات، رقم١٠، المعهد الإسلامي للبحوث و التدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، المملكة العربية السعودية، جانفي ٢٠٠٧، ص١٦.

٣ معظم ما يتعلق بالحديث موضوع البحث من مدلولاته و معانيه و حجيته و آراء فقهاء المذاهب بخصوصه مستمدة من دراسة أحمد محمد خليل الإسلامبولي، حيث فصل في ذلك تفصيلا (جزاه الله كل خير)، و قد اعتمدت على ذلك من مصدرين رئيسان، هما: مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، السنة ٩، العدد٢٦، ٢٠٠٥، ١١-٧٩. ندوة حوار الأربعاء بعنوان: "لا تبع ما ليس عندك" محاولة لقراءة النص، مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبدالعزيز، الأربعاء: ١٣/ ٢/ ١٤٢٦هـ = ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٥.

٤ أحمد محمد خليل الإسلامبولي، "الحاجة إلى فهم بعض النصوص الشرعية في المعاملات المعاصرة (مثال تطبيقي: لا تبع ما ليس عندك)"، مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، السنة ٩، العدد٢٦، ٢٠٠٥، ١١-٧٩.

د. أحمد محمد خليل الإسلامبولي، ندوة حوار الأربعاء بعنوان: "لا تبع ما ليس عندك" محاولة لقراءة النص، مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبدالعزيز، الأربعاء: ١٣/ ٢/ ١٤٢٦هـ = ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٥.

٥ قال الشيخ ابن باز رحمه الله: قوله: "ما ليس عندك" يشمل ما في ذمة غيره له حتى يستوفيه، و يشمل أيضاً الأعيان التي عند الناس فلا تبيعها حتى تشتريها و تكون عندك في قبضتك، فهو يشمل الأعيان و ما في الذمم.

٦ وليد بن راشد السعيدان، قواعد البيوع و فرائد الفروع"، ص٥٩

٧ د. سامي حمود، "بيع المرابحة للآمر بالشراء"، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد الخامس، الجزء الثاني، ص١٠٩٢.

٨ حامد بن عبد الله العلي، "تيسير بعض أحكام البيوع والمعاملات المالية المعاصرة"، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥

doc.hamed.books.googlepages.com /tayser-byo٣

٩ وقد ألف الشيخ محمد الأشقر رسالة بين فيها بطلان هذه المعاملة، وأن إلزام العميل بالبيع عند الوعد بالشراء لا يجوز، لأنه يجعل البنك كأنه قد باع مالا يملك وحرر هناك أن الوعد لا يلزم، وفصل القول فيه: هل يلزم الوعد بالشراء قضاء أم ديانة ؟

ومعنى ذلك أنني إذا وعدتك، ولم اشتر، فاشتكيت للقضاء فهل يلزمني القاضي بذلك ؟ ومعنى ديانة، أن القضاء إذا لم يلزمني، هل عليه إثم لو أخلفت وعدي، وعلي التوبة

وبين أن الوعد بالشراء هنا غير ملزم، وأن الواجب أن يشتري البنك الإسلامي السلعة من الشركة ويملكها بعقد رسمي يكون بمثابة حيازتها، ثم يبيعها للعميل مقسطة ويربح فيها، وليس للبنك الإسلامي أن يلزم العميل بمجرد الوعد بإتمام الصفقة، لأن ذلك في حقيقته بيع، وإن كانت صورته صورة وعد.

١٠ ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز شراء الرجل سلعة بالأجل وبيعها إلى غير بائعها نقداً وغرضه الحصول على النقود، وكلمة التورق من عبارات الحنابلة. أما المذاهب الأخرى فيعرض فقهاءها إلى التورق عند الحديث عن العينة فيفرقون بينها وهي ممنوعة وبين التورق وهو جائز عند جمهورهم. واستدلوا على القول بالجواز بالكتاب والسنة والقياس. أما الكتاب فقوله تعالى: "وأحل الله البيع" إذ يدل ذلك على إباحة كل بيع إلا ما دل دليل معتبر على حرمته ولا دليل هنا على حرمة التورق وقد اثبت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الأصل في العقود والشروط الإباحة إلا ما دل الدليل على حرمته. ومن السنة على الأحاديث في البيع وهي في نفس المعنى. أما القياس فلأن البيع توافرت فيه أركانه وشروطه وخلا من المفسدات كالغرر والجهالة والربا ونحو ذلك.

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية وكذا تلميذه ابن القيم إلى عدم جواز التورق مع أن المشهور عند الحنابلة الجواز. وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله لقوله هذا مستندين الأول انه من بيع المضطر وقد ورد النهي عن بيع المضطر، والثاني انه حيلة على الربا. وقد تضافرت الفتاوى المعاصرة على جواز هذا البيع، منها قرار مجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي في دورة مؤتمره الخامسة عشرة (رجب ١٤١٩هـ) حيث قرر جواز التورق، وكذا هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية واللجنة الدائمة فيها، كما أفتى بجوازه المفتى العام للمملكة العربية السعودية السابق الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله (مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ج١٩ ص٩٣) والمفتي العام الأسبق سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (فتوى رقم ١٥٦٩ المنشورة في المجلد السابع من فتاوى ورسائل).

و نشير هنا إلى هذا حكم التورق المعروف، أما في مثالنا فإنه يتعلق بالتورق المنظم و هو معاملة مالية نجريها بعض المصارف الإسلامية، حيث يقوم المصرف بعمل نمطي يتم فيه ترتيب بيع سلعة (ليست من الذهب

أو الفضة) من أسواق السلع العالمية أو غيرها، على المستورق بثمن آجل، على أن يلتزم المصرف ـ إما بشرط في العقد أو بحكم العرف و العادة ـ بأن ينوب عنه في بيعها على مشتر آخر بثمن حاضر، و تسليم ثمنها للمستورق.

١١ أنظر: د. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، "فقه المعاملات الحديثة"، شركة الراجحي المصرفية (المجموعة الشرعية)، دار ابن الجوزي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ص ٦١٠.

و كذا القرار الثاني لمجلس المجمع الفقهي الإسلامي (رابطة العالم الإسلامي)، الدورة ١٧، مكة المكرمة، ١٩-٢٣/ ١٠/ ١٤٢٤هـ حول موضوع "التورق كما تجريه بعض المصارف في الوقت الحاضر".

١٢ أسعد رياض، "الهندسة المالية"، الأكاديمية العربية للعلوم المالية و المصرفية، عمان، الأردن، ٢٠٠١، ص٧٢.

١٣ د. عبد العال حماد، "المشتقات المالية: المفاهيم-إدارة المخاطر- المحاسبة"، الدار الجامعية، الإسكندرية، مصر، ٢٠٠١، ص٥.

١٤ سامي بن إبراهيم السويلم، "التحوُّط في التمويل الإسلامي"، مرجع سابق، ص٣١

١٥ منير إبراهيم هندي، "الفكر الحديث في إدارة المخاطر"، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٢٤-٢٥.

١٦ أشرف دوابة، "نحو سوق مالية إسلامية"، سلسلة تبسيط الفكر الإسلامي في مجال التمويل والاستثمار، ٢٠٠٦، ص٢٧-٢٨.

١٧ د.سامي إبراهيم السويلم، "المشتقات المالية تعرض الاقتصاد للخسارة مرتين"، صحيفة الاقتصادية الالكترونية، الأحد٠٤ ذو الحجة ١٤٢٧ هـ الموافق ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٦ م، العدد ٤٨٢٢.

١٨ قرارات و توصيات مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، جدة، المملكة العربية السعودية، ص١٣٨.

١٩ لأحمد الخليل، "الأسهم والسندات وأحكامها في الفقه الإسلامي"، دار ابن الجوزي، الدمام . ص ٢٢٣ـ ٢٢٤،

٢٠ مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنعقد في دورة مؤتمره السابع بجدة في المملكة العربية السعودية من ٧-١٢ ذي القعدة ١٤١٢ الموافق ٩ - ١٤ أيار (مايو) ١٩٩٢م، القرار رقم: ٦٣ (١/ ٧) بشأن الأسواق المالية.

٢١ يقصد بـ"أزمة المناخ" الأزمة التي أصابت سوق الأوراق المالية الكويتية و التي تجلت في شيكات آجلة لحوالي ٥٥٠٠ شخص وشركة بعدد ٢٩ ألف شيك، وبقيمة ٢٧ مليار دينار (حوالي ٨٨ مليار دولار).

٢٢ أوقفت الحكومة التداول في سوق المناخ، وأوجبت تسجيل جميع الشيكات المؤجلة، وأسست بيتا

للمقاصة. كما أعادت تنظيم السوق كهيئة مستقلة ليشمل سوقا رئيسيا، وثانوياً، وعقود البيوع المستقبلية، إلى آخره من الإصلاحات المالية والاقتصادية.

وقد تدخلت الحكومة عبر "مؤسسة تسوية معاملات الأسهم التي تمت بالأجل" التي قامت بشراء تعويضي للأسهم من بعض المتضررين، بما قيمته ٢٠٠٠ مليون دينار موزعة ما بين تعويض الصغار وشراء أسهم للمحافظة على سعر أدنى لها وقروض للمتضررين. ثم عبر "برنامج تسوية التسهيلات الائتمانية الصعبة" لتسوية الديون المترتبة للجهاز المصرفي على العملاء. وفي نهاية ١٩٨٩، رؤى تسوية مديونيات العملاء الصغار (لغاية ٢٥٠ ألف دينار) والذين يشكل حجم مديونياتهم نسبة ٢٠٥ ٪ فقط من إجمالي مديونيات العملاء الخاضعين للبرنامج.

٢٣ سامي إبراهيم السويلم، "التحوُّط في التمويل الإسلامي"، و رقة مناسبات (١٠)، المعهد الإسلامي للبحوث و التدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جانفي ٢٠٠٧، ص ١٠٤.

٢٤ حامد بن عبد الله العلي، "تيسير بعض أحكام البيوع والمعاملات المالية المعاصرة"، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.



من وجوه الإعجاز التشريعي في القرآن والسنة تظافر أوجه الإلزام

بقلم: د. صالح عسكر

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية العلوم الإسلامية

جامعة باتنة / الجزائر



إن المجتمعات اليوم تدق ناقوس الخطر بسبب انتشار العدوان على الأنفس والأموال والأعراض وانتشار ترويع الآمنين من بسطاء الناس، مما ينطق بنفسه عن عجز الأنظمة القانونية عن الحد من الإجرام الذي أصبح ظاهرة متنامية يوما بعد يوم.

وليس الأمر مقصورا على المجتمعات والدول الفقيرة والضعيفة، بل للمدنيات والدول الكبرى منها نصيب وافر. جاء في موقع

"CRIME IN AMERICA":

- 159,000,000 MILLION CRIMES COMMITTED AGAINST AMERICANS IN THE 13-YEAR PERIOD ENDING 2002. 486,000 WERE MURDERS (USJD)
- OVER 570,000 INMATES RELEASED INTO SOCIETY ANNUALLY. MANY ARE TOTALLY MISPLACED. (USJD(
- DWI›S HAVE KILLED MORE PEOPLE THAN IN ALL OUR WARS COMBINED. THE REVOLVING DOOR CRIMINAL JUSTICE SYSTEM HAS RELEASED DWI›S WITH AS MANY AS 40 PRIOR ARRESTS. (NEW MEXICO)
- SWIFT AND SURE PUNISHMENT IS MISSING IN THE CRIMINAL JUSTICE SYSTEM IN AMERICA.
- DURING THE PERIOD FROM 9/11 TO YEAR-END 2006 APPROXIMATELY 8000 AMERICANS WERE KILLED IN OFFSHORE TERRORISM INCLUDING9/11.
- DURING THE PERIOD FROM 9/11 TO YEAR-END 2006 THERE WERE 80,000 MURDERS IN AMERICA-MANY MORE BRUTAL & HEINOUS THAN IN IRAQ.
- DURING THE PERIOD FROM 9/11 TO YEAR-END 2006 THE COST OF

OFFSHORE TERRORISM WAS APPROXIMATELY $1 TRILLION. DURING THE SAME PERIOD DIRECT AND INDIRECT COST OF "HOMEGROWN TERRORISM" OR CRIME IN AMERICA WAS APPROXIMATELY $3.5 TRILLION.

- HOMEGROWN TERRORISM (CRIME) IN AMERICA DIRECT AND INDIRECT COST NOW EXCEEDS $675 BILLION ANNUALLY..."(1).

وترجمة ذلك:

- **١٥٩,٠٠٠,٠٠٠** جريمة وقعت ضد الأمريكيين خلال ١٣ سنة المنتهية في ٢٠٠٢، منها ٤٨٦,٠٠٠ جريمة قتل.
- أكثر من ٥٧٠,٠٠٠ من خريجي السجون يطلقون في المجتمع كل عام، جزء منهم في أماكن غير سليمة.
- القيادة في حالة سكر قامت بقتل عدد من الناس أكبر من العدد الذي تعرض للقتل في جميع حروبنا مجتمعة. الباب المستدير لنظام العدالة الجنائية قام بإطلاق سراح سائق في حالة سكر في كل أربعين توقيف مسبق.
- السرعة والعقاب المؤكد مفقود في النظام القضائي الجنائي في أمريكا.
- خلال المدة ما بين ١١/ ٠٩ إلى نهاية ٢٠٠٦ نحو ٨٠٠٠ أمريكي تقريبا قتلوا بسبب الإرهاب الخارجي بما في ذلك ١١/ ٠٩.
- خلال المدة ما بين ١١/ ٠٩ إلى نهاية ٢٠٠٦ كان هناك نحو ٨٠٠٠ جريمة قتل تقريبا في أمريكا، والعديد منها أكثر عنفا وأكثر حقدا مما في العراق.
- خلال المدة ما بين ١١/ ٠٩ إلى نهاية ٢٠٠٦ كانت تكاليف الإرهاب الخارجي نحو

(1) CRIME IN AMERICA- WEB SITE BY UNITED CITIZENS FOR LEGAL REFORM

من ١ ترليون دولار أمريكي تقريبا، وخلال الفترة نفسها كانت التكاليف المباشرة وغير المباشرة لـ "الإرهاب الداخلي" أو الجرائم في أمريكا نحو من ٣,٥ ترليون دولار تقريبا.

- التكاليف المباشرة وغير المباشرة للإرهاب الداخلي (الجرائم) أصبحت الآن تتجاوز ٦٧٥ بليون دولار سنويا ... ".

هذه البيانات المسجلة في دولة يفترض أنها تقود ركب المدنية اليوم، يكشف أن التشريعات والقوانين -إذا لم تصاحبها أسباب تلزم الناس بالعمل بها- تظل حبرا على ورق، ولا يكون لها معنى حقيقي. وانطلاقا من ذلك، تحاول هذه الدراسة أن توازن بين أسباب الإلزام في التشريع الإسلامي الذي جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية والقوانين الوضعية، لتكشف النظام القانوني المعجز والفريد الذي جاء به الإسلام.

فكرة الإلزام في التشريع الإسلامي والقوانين الوضعية:

إن المتصفح لكتب القانون يجد أن أصحابها يثبتون لها خاصة تفرقها -على حد قولهم- عن القواعد الدينية والأخلاقية وقواعد الآداب والمجاملات، وتتمثل هذه الخاصة في ما تحمله القواعد القانونية من إلزام يترتب عنه جزاء. جاء مثلا في كتاب "نظريتا الحق والقانون":"وإلزام القاعدة القانونية هي الخصيصة التي تميزها عن قواعد الأخلاق والدين. ولهذا نقول بأن القواعد القانونية تكون دائما ملزمة للأشخاص، وتبرز خاصة الإلزام في الجزاء الذي يوقع على من يخالف تلك القاعدة القانونية"[١].

وجاء في موضع آخر:" والمقصود بالجزاء هو رد الفعل أو العقاب أو الإجبار على الالتزام والاحترام عن طريق استعمال القوة العامة المتمثلة في وظيفة السلطة العامة للدولة فيقوم بالتنفيذ رجال الدرك والشرطة عند اللزوم "[٢].

(١) د. إسحاق إبراهيم منصور، نظريتا القانون والحق وتطبيقاتها في القوانين الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ص٣٤.

(٢) المرجع نفسه ص٣٣

في المقابل يرى الدارسون والمختصون في علوم الفقه والتفسير والحديث وسائر علوم الشريعة أن هذه الخاصة –أي الإلزام– غير مقصورة على القانون، بل إن قواعد التشريع الإسلامي تدرج هذا الإلزام الجزائي العقابي ضمن مجموعة من الإلزامات –أو الالتزامات–الأخرى مما يجعل القاعدة التشريعية الإسلامية النموذج الأكمل للقانون المصلح للمجتمعات والحافظ للدماء والأنفس والأموال والأعراض.

بينما يرد آخرون بأن الدين مسألة علاقة روحية شخصية بين الإنسان وربه والجزاء الذي يحمله جزاء أخروي، وأنه يفقد صبغة "الروحية والطهارة" إذا أخرج من هذا الإطار....

فما مدى صحة كل من الطرحين؟ وهل تحمل النصوص التشريعية الإسلامية حقيقة إعجاز تشريعي لا يمكن أن يماثل أو يضاهى؟

أولا: طبيعة الإلزام في القانون الوضعي:

تقدم أن الإلزام في القانون الوضعي يكون بإيقاع الجزاء المتمثل في "رد الفعل أو العقاب أو الإجبار على الالتزام والاحترام عن طريق استعمال القوة العامة"، وتصنف الجزاءات إلى[1]:

١. جزاءات جنائية وهي العقوبات وتدابير الأمن.

٢. جزاءات مدنية متمثلة في إبطال التصرف.

٣. جزاءات إدارية ممثلة في إلغاء القرارات الإدارية.

ثانيا: طبيعة الإلزام في النصوص والتشريعات الإسلامية:

لم يقع فصل في الإسلام بين الغيب والشهادة، وبين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، وكما تضمنت شريعة الإسلام أحكام الصلاة والحج والصيام والكفارات ... تضمنت أحكام القضاء والشهادة والبيع والإجارة والفصل في الخصومات وغيرها ...، وإنه من الواضح مثلا أن الحدود التي تُتلى أحكامها في كتاب الله كحد السرقة والقذف

---

(١) المرجع السابق ص٣٤.

والقصاص تمثل عقوبات وإلزامات دنيوية عاجلة التنفيذ كالمنصوص على أنها من خصائص القانون الوضعي. ولكن رغم ذلك فإن التشريع الإسلامي تشريع إلهي يختلف عن أكمل تشريع بشري ولا بد أن يتفوق عليه، ولذلك وجب أن ننظر إليه نظرة أشمل وأعمق تستجلي تعدد أوجه الإلزام فيه وتنوعها، وقد وجدنا إشارة إلى شيء من ذلك في حديث مشهور للنبي صلى الله عليه وسلم وهو حديث الحلال والحرام.

فقد روى مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول :" **إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، إلا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** "[١].

وهذا الحديث عده العلماء من الأحاديث التي يدور عليها الإسلام حتى جعلوه ثلثه[٢]، وقد تضمن جملة من الأمور منها:

١- أن الأشياء ثلاثة أقسام:

أ- حلال بين واضح لا يخفى حله .

ب- حرام بين واضح لا تخفى حرمته.

---

(١) صحيح مسلم ج ٣ / ص ١٢١٩ ح ١٥٩٩.

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج٣/ ص١٢١٩، وفيه:" قال جماعة هو ثلث الإسلام وإن الإسلام يدور عليه وعلى حديث الأعمال بالنية وحديث "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، وقال أبو داود السجستاني: يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وقيل حديث:"ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".

قال العلماء وسبب عظم موقعه أنه صلى الله عليه و سلم نبه فيه على إصلاح المطعم والمشرب والملبس وغيرها وأنه ينبغي أن يكون حلالا وأرشد إلى معرفة الحلال وأنه ينبغي ترك المشتبهات فإنه سبب لحماية دينه وعرضه وحذر من مواقعة الشبهات وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب

فقال صلى الله عليه و سلم (ألا وإن في الجسد مضغة الخ) فبين صلى الله عليه و سلم أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد وبفساده يفسد باقيه ".

ج- مشتبهات لم يتبين لكثير من الناس حلها أو حرمتها، غير أن حكمها لا يخفى على العلماء، قال النووي:" وأما المشتبهات فمعناها أنها ليست بواضحة الحل ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يدركون حكمها، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب أو غير ذلك فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة ولم يكن فيه نص ولا إجماع اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي ... "[١].

٢- **أن من أراد سلامة دينه من الوقوع في الحرام**، وعرضه من أن يتحدث الناس فيه بسوء فيَسِموه بالفسوق والجرأة على حدود الله، فليتورع وليجتنب الشبهات، " قال حسان بن أبي سنان ما رأيت شيئا أهون من الورع دع ما يريبك إلى ما لا يريبك "[٢].

٣- **أن الواقع في الشبهات كحاطب الليل**؛ يأخذ مرة حطبا ويمسك مرة حية، ولذلك فسيقع في الحرام، وقد ضرب له النبي صلى الله عليه وسلم مثلا بالراعي الذي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، وإن المحارم هي حمى الله الملك الحق، والواقع في الشبهات حائم حول المحارم يوشك أن يقع فيها:" ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه": "ومعناه أن ملوك العرب وغيرهم يكون لكل ملك منهم حمى يحميه عن الناس ويمنعهم دخوله، فمن دخله أوقع به العقوبة ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفا من الوقوع فيه، ولله تعالى أيضا حمى وهي محارمه: أي المعاصي التي حرمها الله كالقتل والزنا والسرقة والقذف والخمر والكذب والغيبة والنميمة وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك؛ فكل هذا حمى الله تعالى من دخله بارتكابه شيئا من المعاصي استحق العقوبة، ومن قاربه يوشك أن يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه ولم يتعلق بشيء يقربه من المعصية فلا يدخل في شيء من الشبهات "[٣].

٤- أن الإنسان إذا حمل نفسه وعودها على ترك المشتبهات وألزمها ذلك كان أشد حذرا للحرام، وأن من استسهل الوقوع في المشتبهات أوشك أن يستسهل الوقوع في الحرام، وقد

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج٣/ ص١٢١٩.

(٢) صحيح البخاري - (ج ٢ / ص ٧٢٣) في ترجمة الباب معلقاً، انظر الفتح ٤/ ٢٩١

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ج٣/ ص١٢١٩

وقع ذلك صريحا في لفظ البخاري:"الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه "[١].

٥- أن القلب -على صغره- إذا صلح فكان تقيا خائفا من مواقعة الحرمات صلح بصلاحه سائر البدن والجوارح وصلحت أعمالها، وإذا فسد فكان فاسقا متجرئا على حرمات الله فسد بفساده سائر البدن والجوارح وفسدت أعمالها:" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ". قال النووي:"قال أهل اللغة: يقال: صلح الشيء وفسد بفتح اللام والسين وضمهما والفتح أفصح وأشهر، والمضغة القطعة من اللحم؛ سميت بذلك لأنها تمضغ في الفم لصغرها. قالوا: المراد تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسد مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان للقلب "[٢].

هذا عما تضمنه الحديث، وقد وقعت فيه الإشارة إلى المنهج الرباني الفريد في الإصلاح الفردي والجماعي وبناء الرقابة الذاتية والجماعية المانعة من الفساد؛ فلقد وضع الإسلام منهجا يتضمن ثلاثة أصناف من أسباب الإلزام:

أولها: الحاجز الديني ممثلا في التقوى والخوف من مواقعة الحرمات، وإليه الإشارة بـ **"ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "** بمعنى أن من كان له قلب صالح يخاف الله تورع عن بعض الحلال فضلا عن الحرام والشبهات فصلحت جوارحه وصلحت أعماله، ومن كان ذا قلب خاو من الإيمان لا يخاف الله اجترأ على الحرام البين فضلا عن الشبهات ففسدت جميع أعماله.

الثاني: الحاجز الاجتماعي: وإليه الإشارة ببراءة العرض -أي السمعة- في قوله صلى الله عليه وسلم:" استبرأ لدينه وعرضه".

الثالث: الحاجز العقابي ممثلا في الحدود والتعازير المنصوص عليها بالبيان والتفصيل (الحدود) أو على وجه العموم والإطلاق (التعازير).

---

(١) صحيح البخاري - (ج ٢ / ص ٧٢٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج٣/ ص١٢١٩

وفيما يأتي بيان لها بشيء من التفصيل:

الحاجز الإيماني:

يملك القانون الإسلامي (الشريعة الإسلامية) وجها فريدا من وجوه الإلزام يجعل الخاضعين له من المؤمنين برسالة الإسلام يلتزمونه التزاما تلقائيا، ويفرض عليهم فيه رقابة لا تنحصر في الزمان والمكان؛ فالأصل أن المؤمن بهذا التشريع يلتزمه ولو كان لا يخاف من سلطة عقابية، ومن نتائج ذلك أن الملايين من المؤمنين في كثير من البلدان ذات القوانين والتشريعات والثقافات والديانات المختلفة في جميع أنحاء العالم لا يشربون الخمر ولا يأكلون الربا ولا يعتدون على أموال الناس ولا يقعون في الزنا والفواحش رغم أن هذه الأشياء -أو جزءا منها على الأقل- لا تعتبر جرائم في تشريعات البلاد التي يعيشون فيها، بل المزينات والمرغبات فيها والمحفزات عليها كثيرة ومتعددة.

وحتى البلاد الإسلامية التي تجرم هذه الفواحش أو بعضها أو تفرض عليها عقابا، فإن عامة من يتورع عن الوقوع فيها من أهل هذه البلاد يفعله خوفا من الله لا خوفا من العقاب الدنيوي القضائي.

من هذا الباب، فإن السلطة المدنية في البلاد التي تتخذ الإسلام نظاما لحياتها وتشريعاته قوانين لها تخف مسؤوليتها من جهتين:

- فمن جهة، فهي تتعامل مع فئة قليلة شاذة بالنسبة لعموم المجتمع مما يجعل الأمر بالنسبة إليها أخف وأسهل.
- ومن جهة ثانية فإن الفئة الغالبة في المجتمع داعمة لها في هذا المسعى من منطلق الدين والقناعة، سواء بالدعم الفعلي المعين على كشف الجرائم والمعاقبة عليها، أو بالسند المعنوي الأدبي.

وفي هذا الباب أيضا نلحظ بعض القوانين والتشريعات التي لا يمكن أن تفرض في غير التشريع الإسلامي لأن الرقابة المدنية عليها غير ممكنة، ولنضرب لذلك مثلا بمسألة

تتعلق بالأحوال الشخصية. فقد جاء الإسلام بنظام فريد في مجال العلاقات الأسرية يبدأ من التفكير في إنشاء العلاقة الزوجية (الخطبة)، والأمور المفروضة ثم المستحبة في اختيار كل من الزوج والزوجة، ومن يقوم بإنشاء العلاقة الزوجية؟ والحقوق والواجبات المترتبة عنها، وانتهاء بحل العلاقة الزوجية أو انتهائها بالطلاق أو الوفاة وما يترتب على ذلك من أحكام (النسب، الميراث، العدة ...).

وعند إرادة إنهاء العلاقة الزوجية جاء الإسلام بشيء فريد وهو إلزام الزوج بألا يوقع الطلاق إلا في فترة محددة، وهي أن تطهر زوجته من الحيض وألا يمسها في ذلك الطهر وهي فترة تمنح الزوج فرصة أولى للتفكير وتقدير عواقب فعله فلا يكون طلاقه نزوة أو ردة فعل ناشئة من غضب ونحوه، كما بين ذلك حديث عبد الله بن عمر ففي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ "[١]

فإذا طلقها بقيت في البيت ثلاثة أشهر يراجع فيها نفسه متى شاء:" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا "سورة الطلاق الآية: ١.

وإذا أوشكت العدة أن تنتهي ربما فكر الزوج في إيذاء زوجته بأن يسد في وجهها باب زواج آخر فيراجعها بقصد حبسها وتعليقها لا رغبة في إمساكها، وهذه النية المبيتة لا يمكن أن يطلع عليها قاض أو شرطي. وهنا يتجلى التشريع الرباني الفريد الذي يفرض على الرجل الرقابة في شيء إن كتمه في نفسه لم يطلع عليه من البشر أحد، ولا سبيل لمخلوق للعلم به، وهو ما نص عليه قوله تعالى:" **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**

(١) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، بَاب قَوْلُ اللهِ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ } (ج ١٦ / ص٢٩١).

أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آَيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "سورة البقرة الآية ٢٣١.

وإننا نلاحظ هذا التكامل العجيب بين جملة هذه التشريعات التي تبدأ من التفكير في العلاقة الزوجية، ثم من نشوئها القانوني (العقد) ثم الفعلي (البناء) وما يصاحبها ويكفل سلوكها للمسلك الصحيح (الحقوق الزوجية)، وما يوصف من علاج للاضطرابات الطارئة (علاج النشوز) وحتى ما يتعلق بإنهائها انطلاقا من التفكير في إيقاع الطلاق "**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** "[١]، وانتهاء إلى ما يصاحب الطلاق:" وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا"–سورة النساء الآية ٢٠– أو ما يتفرع عنه (أحكام العدة، الرضاع، ...).

ونريد أن ندرس خاصة الإلزام الإيماني التي تخول التشريع الإسلامي إصدار تشريعات وأحكام لا يمكن أن تصدر في قوانين وتشريعات أخرى عبر المثل المشار إليه سابقا، وهو قرب انتهاء عدة المرأة المطلقة وما قد يبيته الزوج من إمساكها رغبة في تعليقها لا رغبة فيها، والذي وقع عنه النهي في الآية السالفة: :" **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آَيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** " قال ابن جرير في تفسير الآية:" يعني تعالى ذكره بذلك:"وإذا طلقتم"، أيها الرجال نساءكم "فبلغن أجلهن"، يعني: ميقاتهن الذي وقته لهن، من انقضاء الأقراء الثلاثة، إن كانت من أهل القرء، وانقضاء الأشهر، إن كانت من أهل الشهور، "فأمسكوهن"، يقول: فراجعوهن إن أردتم رجعتهن في الطلقة التي فيها رجعة ... وأما قوله:"بمعروف"، فإنه عنى: بما أذن به من الرجعة، من الإشهاد على الرجعة قبل انقضاء العدة .... "أو سرحوهن

---

(١) سورة النساء الآية ١٩

بمعروف"، يقول: أو خلوهن يقضين تمام عدتهن وينقضي بقية أجلهن الذي أجلته لهن لعدتهن، بمعروف. يقول: بإيفائهن تمام حقوقهن عليكم، على ما ألزمتكم لهن من مهر ومتعة ونفقة وغير ذلك من حقوقهن قبلكم ، "ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا": يقول: ولا تراجعوهن، إن راجعتموهن في عددهن، مضارة لهن، لتطولوا عليهن مدة انقضاء عدتهن، أو لتأخذوا منهن بعض ما آتيتموهن بطلبهن الخلع منكم، لمضارتكم إياهن، بإمساككم إياهن، ومراجعتكموهن ضرارا واعتداء. وقوله:"لتعتدوا"، يقول: لتظلموهن بمجاوزتكم في أمرهن حدودي التي بينتها لكم."[١]

والتشريع المتضمن في الآية يحمله الجزء الأول منها كما هو واضح:" وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ".

ومن العجيب أن الآية أتبعته بخمسة وصايا " : وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ "

أ- " وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا ".

ب - " وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ".

ج - " وَاتَّقُوا اللهَ ".

" وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ".

وتلك الوصايا الخمسة لم تخرج في مجملها عن الترهيب والتحذير والموعظة والتذكير، وجميعها تفرض في النفس رقابة شخصية وخوفا من مجاوزة الحد، فتنشئ التزاما من المؤمن بهذا الوحي لا يحتاج فيه إلى رقابة قضائية وقانونية.

ويلاحظ أيضا أن الإلزام في التشريع الإسلامي -خلافا للقوانين البشرية- غير ناشئ عن الخوف من العقاب فقط.

---

(١) تفسير الطبري - (ج ٥ / ص ٧-٨)

الإلزام والعقاب:

تقدم أن الجزاءات الجنائية في القوانين الوضعية هي العقوبات وتدابير الأمن، والأولى يتم إنزالها كعقوبات على الجرائم، والثانية كحرز ووقاية من وقوعها. وفكرة العقاب (الأخروي) على مجاوزة التشريعات الإسلامية (حدود الله) قائمة أيضا في نصوص القرآن والسنة كما هو بين وواضح، ولكن تجدر الإشارة إلى أن الجزاء في التشريع الإسلامي يَصُفُّ الجزاء الحسن على التزام التشريعات إلى جانب العقاب على مخالفتها، وهو ما لا يوجد في القوانين الوضعية، وأحيانا قد يكون سبب الإلزام ترغيبا فقط كما في قوله سبحانه وتعالى:"**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّه لَكُمْ وَاللَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ** "سورة النور الآية ٢٢. فقد شرعت الآية العفو وجعلت الحامل على فعله رغبة في جزاء لا خوفا من عقاب وهو أن يغفر الله للعبد كما يغفر لمن ظلمه ووقع في عرضه:" أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ " وهو " تمثيل وحجة؛ أي كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: **(من لا يرحم لا يرحم)** "[١].

وأكثر من ذلك، فإن الإلزام قد يتجاوز أحيانا الجزاء والعقاب إلى أمور أخرى منها:

- الإقناع بفائدة الالتزام للإنسان نفسه كفرد:"**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** "[٢]. فقوله سبحانه وتعالى:" ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ " فيه تنبيه على فائدة الالتزام للشخص نفسه؛ بمعنى أنه " أطهر من دنس الريبة أو أنفع من حيث الدين والدنيا فإن النظر بريد الزنا وفيه من المضار الدينية أو الدنيوية ما لا يخفى "[٣].
- الإقناع بفائدة الالتزام لعموم الناس:" مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ **يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**"سورة المائدة الآية ٦،

(١) تفسير القرطبي – (ج ١٢ / ص ٢٠٨)

(٢) سورة النور الآية ٣٠

(٣) تفسير الألوسي – (ج ١٣ / ص ٤٠٣)

" **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)** "سورة النساء الآيتان ٢٧-٢٨.

- التنبيه على مآلات الفعل الفاسد ووصية المنهي عنه بتقدير عواقبه وافتراض وصول مثل ضرره إليه أو إلى ذريته، وهذا من روائع أسباب الإلزام في كتاب الله، ومثاله قوله سبحانه وتعالى:" **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا** " سورة النساء الآية ٩..

روى ابن جرير بسنده عن قتادة في تفسيرها قال:" يقول: من حضر ميتًا فليأمره بالعدل والإحسان، ولينهه عن الحَيْف والجور في وصيته، وليخش على عياله ما كان خائفًا على عياله لو نزل به الموت "(١).

" وقال الكلبي: هذا الخطاب لولاة اليتامى يقول: من كان في حجره يتيم فليحسنْ إليه وليأت إليه في حقه ما يحب أن يفعل بذريته من بعده "(٢).

وفي تفسير القرطبي:" هذا وعظ للأوصياء، أي افعلوا باليتامى ما تحبون أن يفعل بأولادكم من بعدكم، قاله ابن عباس. ولهذا قال الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) "(٣).

تهويل الجرم والتنبيه على عظمته وخطره، ومثال ذلك قوله تعالى:"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا..."(٤). فتهويلا لجريمة القتل وبيانا لبشاعتها جعلت الآية من قتل نفسا واحدة بغير سبب موجب للقتل في حكم من قتل الناس جميعا، ونفس هذا الوصف يحمل تعظيما وترهيبا من هذا الجرم مهما كان تفسير ذلك. قال ابن عاشور:" على أنّ فيه معنى نفسانياً جليلاً ، وهو أنّ

---

(١) تفسير الطبري - (ج ٧ / ص ٢٠)

(٢) تفسير البغوي - (ج ٢ / ص ١٧١)

(٣) الجامع لأحكام القرآن - (ج ٥ / ص ٥١)

(٤) سورة المائدة الآية ٣٢.

الداعي الّذي يقدم بالقاتل على القتل يرجع إلى ترجيح إرضاء الداعي النفساني النّاشيء عن الغضب وحبّ الانتقام على دواعي احترام الحقّ وزجر النّفس والنظر في عواقب الفعل من نُظم العالم ، فالّذي كان من حيلته ترجيحُ ذلك الدّاعي الطفيف على جملة هذه المعاني الشّريفة فذلك ذو نفس يوشك أن تدعوه دَوْماً إلى هضم الحقوق ، فكلّما سنحت له الفرصة قَتل ، ولو دعته أن يقتل النّاس جميعاً لفعل "[1].

ويضاف إلى أسباب الالتزام شيء آخر ينفرد به التشريع الإسلامي وهو حصول العلم به والتذكير المستمر بأحكامه وبأسباب الإلزام به لعموم الناس خلافا للقوانين البشرية.

التشريع الإسلامي وانتشار المعرفة الواسعة بأحكامه:

لا يعرف قانون من القوانين البشرية يفترض تعلمه على نطاق واسع كقانون المرور لمن يريد أن يحصل على رخصة لقيادة سيارة ونحوها، ومع ذلك فقد وجدنا من تعلمه تعلما كاملا في فترة الامتحان سرعان ما ينسى كثيرا من تفاصيله، وكم من الناس يلقيه بعد الاختبار وراءه ظهريا لا يستذكر منه شيئا إلى قيام الساعة. وأما سائر القوانين الأخرى فإن المختصين فيها والمتعاملين معها تعاملا مستمرا كالقضاة والمحامين يحتاجون إلى مراجعة موادها وتفاصيلها مراجعة دائمة ومستمرة، وأما عموم الناس فبضاعتهم منها مزجاة، ولعل كثيرا من الناس لا يعلم عنها شيئا، مع أن استحضارها شيء أساسي في التزامها والعمل بها.

وأما التشريع الإسلامي فإنه ينفرد بخاصة الارتباط بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولذلك يسمعه العالم والأمي والمختص والعامي، يسمعونه يُتلى في محاريب الصلاة كل يوم وعلى المنابر بل وفي التلاوات الفردية وفي أحاديث الناس، وشخصيا تعاملت مع رجال ونساء لا يقرؤون حرفا ولا يحسنون كتابة أسمائهم ومع ذلك كانوا يعرفون تفاصيل كثير من الأحكام المتعلقة بالأحوال الشخصية أو الميراث -مثلا- مما يحتاج إلى مراجعة مثله المختصون في القانون في التشريعات الأخرى.

وهذا التعليم والتذكير الدائم والمستمر المقترن بأسباب الالتزام الإيمانية المذكورة سابقا

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير - (ج ٤ / ص ١٨٤).

ينتج شحنا وشحذا متجددا لعزيمة الملتزم وفرضا متواصلا للرقابة الذاتية النابعة من عمق القلب، وهو ما لا يتهيأ لأي تشريع من التشريعات الأخرى.

الحاجز الأدبي الاجتماعي:

تقدم أن أول سبب من أسباب الإلزام في التشريع الإسلامي هو الخوف من الله (الحاجز الإيماني)، ومن تجاوز هذا الحاجز فإنه يواجه حاجزا آخر وهو الحاجز الأدبي والاجتماعي، وقد وقعت الإشارة إليه في قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الحلال والحرام المذكور سابقا:"فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه". أي طلب سلامة دينه من الوقوع في الحرام وسلامة عرضه من أن يتحدث الناس فيه بسوء ويَسِمونه بالمعصية والجرأة على حدود الله.

وهذه الإشارة على صغرها واختصارها وقلة ألفاظها تحمل تنبيها على مسألة مهمة، وهي أن المخالف للتشريعات الإسلامية يحس بأنه منبوذ بين المؤمنين مما يجعله يقيم حسابا لعواقب فعله على المستوى الأدبي والاجتماعي حتى ولو كان لا يملك من التقوى والورع ما يجعله يلتزم هذه الأحكام، فهو يلتزمها خوفا من هذا الجزاء الاجتماعي إذا لم يلتزمها خوفا من الجزاء الأخروي.

ولعل الأمر قد يبدو من جهة ما غريبا، إذ أنه قد اشتهر عند الناس أن الدين مبني على إخلاص العمل لله، وإذا التزم الإنسان شيئا خوفا من الناس فقد جاء بتدين فاسد غير مقبول؟

غير أن المقام هنا ليس مقام تدين ولكنه مقام حفاظ على النظام العام، وهذا الذي يُشكل على كثير من الناس؛ فإن تشريعات الإسلام بالنظر إلى كونها علاقة بين العبد وربه هي تدين، وبالنظر إلى الإلزام الاجتماعي والعقابي أيضا هي أحكام قانونية متعلقة بالنظام العام. ولنضرب لذلك مثلا؛ فالزنا محرم، وتاركه يريد بتركه رضوان الله مأجور عند الله، وأما تاركه خوفا من الحد -ولو افترضنا كونه كافرا-، يكون قد تحقق للمجتمع المصلحة من تركه للفاحشة وإن لم يلتزم ذلك تدينا.

وبناء على هذا يظهر الخطأ والمغالطة المتكررة الصادرة عن فريقين متضادين من الناس:

الفريق الأول يريد أن يحشر الدين فيما يشبه الطقوس المسيحية الرهبانية التي لا علاقة لها بالدنيا.

والفريق الثاني يختصر تطبيق الشريعة الإسلامية في مجموعة الأحكام الجزائية (الحدود والتعازير).

- وهذا الجزاء الأدبي والاجتماعي قد يكون تلقائيا كالمشار إليه في الحديث وهو وقوع الناس في عرض المواقع للشبهات أو المحرمات.
- وقد يكون ناشئا عن سبب ديني وعلى هذا يحمل تغيير المنكر بالقلب الذي جاء في الحديث المشهور: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(١).
- وقد يكون عقوبة صادرة بأمر من ولي الأمر تأديبا، كالذي حدث لكعب بن مالك رضي الله عنه لما تخلف عن غزوة العسرة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بهجره، حتى اعتزلته زوجته، وأقام مدة من الدهر لا يكلمه أحد، ثم أنزل الله سبحانه وتعالى توبته.(٢)

وإننا نلحظ بعدا اجتماعيا آخر لا يوجد إلا في التشريع الإسلامي، وهو الاستعاضة عن التحكيم القضائي السلطوي بتحكيم اجتماعي أقرب إلى الإصلاح والإحاطة بحقائق الأشياء وأقدر على معرفة خبايا العلاقات الأسرية في حالة تنازع الزوجين ووقوع الشقاق بينهما، قال تعالى: " وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا "(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة بَاب بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ مِنْ الْإِيمَانِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ (ج ١ / ص ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، بَاب حَدِيثُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا } -(ج١٣/ ص٣٢٨)

(٣) سورة النساء الآية ٣٥

ومعنى الآية :"{ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا } يعني مشاقة كل واحد منهما من صاحبه ، وهو إتيان ما يشق عليه من أمور أما من المرأة فنشوزها عنه وترك ما لزمها من حقه ، وأما من الزوج فعدوله عن إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، والشقاق مصدر من قول القائل شاق فلان فلاناً إذا أتى كل واحد منهما إلى صاحبه بما يشق عليه ، وقيل لأنه قد صار في شق بالعداوة والمباعدة .{ فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا }"[١].

والحكمان هنا بصورة استثنائية ليسا قاضيين ولا وكيلي ولي الأمر، ولكن قرابتهما وقدرتهما على الاطلاع على ما لا يطلع عليه القاضي تخولهما الإصابة في الحكم فأعطيا صلاحية إمضائه قال ابن العربي:"قَوْله تَعَالَى : { حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا } : هَذَا نَصٌّ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي أَنَّهُمَا قَاضِيَانِ لَا وَكِيلَانِ ، وَلِلْوَكِيلِ اسْمٌ فِي الشَّرِيعَةِ وَمَعْنًى ، وَلِلْحَكَمِ اسْمٌ فِي الشَّرِيعَةِ وَمَعْنًى "[٢].

" وتفريقهما جائز على الزوجين، وسواء وافق حكم قاضي البلد أو خالفه، وكلهما الزوجان بذلك أو لم يوكلاهما. والفراق في ذلك طلاق بائن "[٣].

قال القرطبي:"فإن لم يوجد من أهلهما من يصلح لذلك فيرسل من غيرهما عدلين عالمين، وذلك إذا أشكل أمرهما ولم يدر ممن الإساءة منهما.

فأما إن عرف الظالم فإنه يؤخذ له الحق من صاحبه ويجبر على إزالة الضرر.

ويقال: أن الحكم من أهل الزوج يخلو به ويقول له: أخبرني بما في نفسك أتهواها أم لا حتى أعلم مرادك ؟ فإن قال: لا حاجة لي فيها خذ لي منها ما استطعت وفرق بيني وبينها، فيعرف أن من قبله النشوز.

وإن قال: إني أهواها فأرضها من مالي بما شئت ولا تفرق بيني وبينها، فيعلم أنه ليس بناشز، ويخلو الحكم من جهتها بالمرأة ويقول لها: أتهوي زوجك أم لا؟ فإن قالت: فرق بيني وبينه وأعطه من مالي ما أراد، فيعلم أن النشوز من قبلها.

---

(١) الماوردي، النكت والعيون – (ج ١ / ص ٢٩٦)

(٢) أحكام القرآن لابن العربي – (ج ٢ / ص ٣٤٧)

(٣) تفسير القرطبي – (ج ٥ / ص ١٧٦)

وإن قالت: لا تفرق بيننا ولكن حثه على أن يزيد في نفقتي ويحسن إلي، علم أن النشوز ليس من قبلها.

فإذا ظهر لهما الذي كان النشوز من قبله يقبلان عليه بالعظة والزجر والنهى، فذلك قوله تعالى: (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها)"[١].

وخاصة تحكيم الصالحين والفقهاء وأهل الإصلاح من الأقارب لها بعد اجتماعي انفرد به التشريع الإسلامي بما يتميز به من البعد الديني الروحي ومن المرونة والقدرة على الإصلاح.

الحاجز العقابي القانوني:

وإذا تجاوز الإنسان الحاجز الإيماني ثم الحاجز الأدبي فعند ذلك يواجه الحاجز الأخير وهو حاجز الخوف من العقاب الدنيوي العاجل، وهو ما عبر عنه الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه بقوله:"إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ".

وهذا الحاجز العقابي هو فقط ما يملكه القانون الوضعي البشري من إلزام، مما يجعله متخلفا بصورة كبيرة عن التشريع الإسلامي، وذلك أن العقوبات المادية لا تكفي وحدها في الإلزام بالتشريعات والأحكام. وللتدليل على ذلك أخذنا واقع الجرائم في أقوى دولة من الناحية التكنولوجية والمادية والتي صارت رمزا للتطور في هذا العصر، أعني الولايات المتحدة الأمريكية.

جاء في موقع

"Crime in America"

" In America, the crime clock continues to click: one murder every 22 minutes, one rape every 5 minutes, one robbery every 49 seconds, and one burglary every 10 seconds. Americans are scared, and they are angry. The increase in violent crimes has made average citizens afraid to walk the streets in front of their homes. And this fear has fueled a public cry to end the killing fields in America.

---

(١) المصدر نفسه – (ج ٥ / ص ١٧٥-١٧٦)

In recent months, even apathetic Americans have been shaken from their false sense of security as they have seen criminals invade nearly every sanctuary where they felt they were safe: their cars James Jordan; their public transit the Long Island Rail Road murders; and even their bedrooms the abduction of Polly Klaas.

Crime victims often find themselves ignored by law enforcement, and confused by the court system. Approximately thirteen million people in the United States are victims of crime every year. Approximately one and a half million are victims of violent crime.

Since 1960, we have seen our crime rate in America increase over 300%. Our police departments continue to arrest the crazies and our courts continue to release them. Many of these criminals are home grown terrorist. Many are illegal immigrants. From 1989 through 2002 our great nation witnessed a shameful 159,000,000 crimes on our citizens and many are not counted

because they go unreported.

" في أمريكا، ما زالت ساعة الجرائم في دوران: جريمة قتل كل ٢٢ دقيقة، اعتداء كل ٥دقائق، سرقة كل ٤٩ ثانية، وكسر وتسلل للبيوت كل ١٠ ثواني.

الأمريكيون خائفون، وقد أصبحوا غاضبين. لقد جعل الارتفاع في جرائم العنف نصف المواطنين يشعرون بالخوف من السير في الطرقات أمام بيوتهم، ولقد غذى هذا الخوف النداء لإنهاء مجال القتل في أمريكا.

في الأشهر الأخيرة، بعض الأمريكيين الغافلين تعرضوا لهزة عنيفة في شعورهم الخادع بالأمن حين رأوا مجرمين يكتسحون أمامهم كل مكان آمن حيث كانوا يحسون بأنهم سالمون: سياراتهم من نوع "جيمس جوردان"، وحتى في غرف نومهم.

ضحايا الجرائم يجدون أنفسهم متجَاهلين من طرف منفذي الأحكام، وتائهين في نظام المحاكم. نحو من ثلاثة عشر مليون شخص في الولايات المتحدة يتعرضون لجرائم كل سنة، ونحو من مليون ونصف تقريبا هم عرضة لجرائم عنيفة.

منذ سنة ١٩٦٠رأينا معدل الإجرام في أمريكا يتضاعف أكثر من ٣٠٠٪، وما زالت أقسام الشرطة تقوم باعتقال المجانين وتقوم المحاكم بإطلاق سراحهم. عدد كبير من هؤلاء

المجرمين إرهابيون نشؤوا داخل البلد، وعدد كبير هم مهاجرون غير شرعيين. في الفترة ما بين ١٩٨٩ إلى ٢٠٠٢ شهدت أمتنا العظيمة العدد المخجل المتمثل في ١٥٩,٠٠٠,٠٠٠ جريمة ضد مواطنينا والعديد من الجرائم غير معدودة ضمنها لأنه لم يتم التبليغ عنه ".

إن كاتب أو كتاب هذا النص يسجلون عجز النظام القانوني العقابي عن محاربة الإجرام ويدعون إلى تشديد الأحكام وتفعيل النظام القضائي. ولكننا نقول أن النظام العقابي لا يمكن أن يردع إلا فئة قليلة شاذة في المجتمع ولذلك وجدنا التشريعات العقابية في الإسلام، بل النص على تحريم بعض الجرائم لم يأت إلا في أواخر عهد النبوة بعد نشوء دولة الإسلام وتجذره في قلوب الناس وأعمالهم.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:" إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ [من القرآن] سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا "[١].

فهذا الأثر فيه تنبيه على أن النهي عن بعض الفواحش لم يأت مباشرة بعد الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما تأخر إلى أن استعد الناس لتلقي الأحكام الشرعية بالقبول بعد أن تجذر الإيمان في قلوبهم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لو أمر بتركها في أول الإسلام لقالوا لا ندعها أبدا.

وعامة آيات الحدود والعقوبات جاءت في السور المدنية وذلك يؤكد ما ذكر سابقا من أن مبنى التزام الأحكام الشرعية في الإسلام قائم على التقوى والورع، وإن كان لا يقف عند هذا الحد، ولكن يرد إلى الحق بالسلطان من لم يرتد إليه بالقرآن.

كما تجدر الإشارة إلى أن الحدود والعقوبات في الإسلام هي تتويج لجملة من الإجراءات الاحترازية الأخرى.

---

(١) صحيح البخاري، باب تأليف القرآن – (ج ١٥ / ص ٣٩٤)

النظام العقابي في الإسلام والإجراءات الاحترازية

كما تقدم، فعلاج الإسلام للإجرام لا يعتمد على العقوبة الحدية فقط، ولكنها جزء من منظومة كبرى، وفي الغالب يهيئ الإسلام للإنسان أسباب اجتناب الجرائم، ويوفر له بدائل، فإذا وقع في الجريمة أنزلت به العقوبة ردعا له ولغيره، وإذا لم تتوفر هذه البدائل لم ينفذ الحد. ولذلك جاء الأمر بدفع الحدود بالشبهات. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ادْفَعُوا الْحُدُودَ مَا وَجَدْتُمْ لَهُ مَدْفَعًا "(١).

ولنضرب مثلا بجريمة الزنا، فإن الإسلام حين حرمها حرم مقدماتها، فجاء في سورة الإسراء: " وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا "(٢). والنهي عن قربان الزنا يعني النهي عن مقدماته، وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقدمة باسم النتيجة كما في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ "(٣).

ومعلوم أن من نظر إلى امرأة لا تحل له بشهوة أو استمع إلى ما لا يحل فإن الحد لا يطبق عليه، ولكن تسمية المقدمة باسم النتيجة فيها تحذير مما يوصل إليها ويجعل اجتناب الجريمة أسهل.

ويصاحب هذا النهي منظومة كاملة من كواتم المثيرات من الأمر بضرب الخمار على

---

(١) سنن ابن ماجه، بَاب السِّتْرِ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَدَفْعِ الْحُدُودِ بِالشُّبُهَاتِ - (ج٧/ ص ٤٣٩)

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٢.

(٣) صحيح مسلم باب قُدِّرَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنْ الزِّنَا وَغَيْرِهِ- (ج ١٣ / ص ١٢٥)

الجيب ، وعدم إبداء الزينة ، وترك الخضوع بالقول ، والضرب بالأرجل ، وتحريم التبرج، والتعطر، والخلوة بالأجنبية ، والترغيب في الزواج ... فإذا اجتمعت هذه الأسباب كلها يكون الطالب للمعصية منحرفا مريض النفس لا يصلحه وأمثاله إلا العقاب.

والعقاب في الإسلام ذو بعدين: بعد تأديبي للجاني وبعد ردعي لغيره.

بعدا العقاب في التشريع الإسلامي:

يتجلى البعد التأديبي للعقاب في التشريع الإسلامي في أنه يشهر بالجاني وبجريمته، فقد جاء في حد الزنا:" وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ "(١). وقصد التشهير هنا جلي، وهو أيضا واقع في حد السرقة لأن اليد المقطوعة وصمة عار ملازمة لصاحبها وذلك كفيل بكتم المرغبات في الجريمة في نفسه وتقديره لعواقب فعله.

وأما البعد الردعي فهو تحذير غيره من مثل عقوبته، بل ونفس الحيلولة بينه وبين نقل عدوى الجريمة لغيره، وقد جاءت في القرآن الكريم إشارة طريفة لمثل هذا المعنى في قوله سبحانه وتعالى: " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "(٢).

وذلك أن القصاص في النفس قتل، ولكن الآية جعلته سببا للحياة لأنه وإن أدى إلى إزهاق نفس ظاهرا فإن تركه سيؤدي إلى إزهاق أنفس كثيرة.

---

(١) سورة النور الآية ٢.

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٩.

الخلاصة

نخلص من هذا البحث إلى النتائج الآتية:

١. إن انتشار العدوان على الأنفس والأموال والأعراض وانتشار ترويع الآمنين من بسطاء الناس، ينطق بعجز الأنظمة القانونية عن الحد من الإجرام الذي أصبح ظاهرة متنامية يوما بعد يوم.

٢. يزعم القانونيون أن إلزام القواعد القانونية هو الخصيصة التي تميزها عن قواعد الأخلاق والدين، وتبرز خاصة الإلزام في الجزاء الذي يوقع على من يخالف تلك القاعدة القانونية، والمقصود بالجزاء رد الفعل أو العقاب أو الإجبار على الالتزام والاحترام عن طريق استعمال القوة العامة المتمثلة في وظيفة السلطة العامة للدولة فيقوم بالتنفيذ رجال الدرك والشرطة عند اللزوم.

٣. دل حديث الحلال والحرام على أن للإلزام في التشريع الإسلامي أبعادا ثلاثة: أولها: البعد الديني ممثلا في التقوى والخوف من مواقعة الحرمات، وإليه الإشارة بـ" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ". والثاني: البعد الاجتماعي: وإليه الإشارة ببراءة العرض -أي السمعة- في قوله صلى الله عليه وسلم:" استبرأ لدينه وعرضه". والثالث: البعد العقابي ممثلا في الحدود والتعازير المنصوص عليها بالبيان والتفصيل أو على وجه العموم والإطلاق.

٤. البعد الإيماني يجعل ملايين من الناس في شتى أنحاء العالم يتورعون عن الجرائم حتى وهم لا يخافون العقوبة القانونية عليها لأنها غير مجرمة في قوانين بعض الدول، بل في ثقافات بعضها الترغيب فيها والحث عليها.

٥. بعض القوانين والتشريعات التي لا يمكن أن تفرض في غير التشريع الإسلامي لأن الرقابة المدنية عليها غير ممكنة.

٦. الجزاء في التشريع الإسلامي يَصُفُّ الجزاء الحسن على التزام التشريعات إلى جانب العقاب على مخالفتها، وهو ما لا يوجد في القوانين الوضعية، وأحيانا قد يكون سبب الإلزام ترغيبا فقط، قد يتجاوز أحيانا الجزاء والعقاب إلى أمور أخرى منها: الإقناع بفائدة الالتزام للإنسان كفرد وللجماعة والتنبيه على مآلات الفعل وعلى عظمة الجرم.

٧. ينفرد التشريع الإسلامي بخاصة الارتباط بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولذلك يعرفه العالم والأمي والمختص والعامي، ويسمعونه يُتلى في محاريب الصلاة كل يوم وعلى المنابر بل وفي التلاوات الفردية وفي أحاديث الناس.

٨. من تجاوز الحاجز الإيماني فإنه يواجه حاجزا آخر وهو الحاجز الأدبي والاجتماعي، وقد وقعت الإشارة إليه في قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الحلال والحرام المذكور سابقا:"فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه". إذ أن المخالف للتشريعات الإسلامية يحس بأنه منبوذ بين المؤمنين مما يجعله يقيم حسابا لعواقب فعله على المستوى الأدبي والاجتماعي حتى ولو كان لا يملك من التقوى والورع ما يجعله يلتزم هذه الأحكام، فهو يلتزمها خوفا من هذا الجزاء الاجتماعي إذا لم يلتزمها خوفا من الجزاء الأخروي.

٩. تشريعات الإسلام بالنظر إلى كونها علاقة بين العبد وربه هي تدين، وبالنظر إلى الإلزام الاجتماعي والعقابي أيضا هي أحكام قانونية متعلقة بالنظام العام.

١٠. هذا الجزاء الأدبي والاجتماعي قد يكون تلقائيا كالمشار إليه في حديث الحلال والحرام وهو وقوع الناس في عرض المواقع للشبهات أو المحرمات. وقد يكون ناشئا عن سبب ديني وعلى هذا يحمل تغيير المنكر بالقلب الذي جاء في الحديث المشهور:"**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**"، وقد يكون عقوبة صادرة بأمر من ولي الأمر تأديبا، كالذي حدث لكعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنه لما تخلف عن غزوة العسرة.

١١. هناك بعد اجتماعي آخر لا يوجد إلا في التشريع الإسلامي، وهو الاستعاضة عن التحكيم القضائي السلطوي بتحكيم اجتماعي أقرب إلى الإصلاح والإحاطة

بحقائق الأشياء وأقدر على معرفة خبايا العلاقات الأسرية في حالة تنازع الزوجين ووقوع الشقاق بينهما.

١٢. إذا تجاوز الإنسان الحاجز الإيماني ثم الحاجز الأدبي فعند ذلك يواجه الحاجز الأخير وهو حاجز الخوف من العقاب الدنيوي العاجل وهو فقط ما يوجد في القوانين البشرية، مما يجعل التشريع الإسلامي متفوقا في هذا المجال بما لا وجه فيه للمقارنة.

١٣. النص على تحريم بعض الجرائم لم يأت إلا في أواخر عهد النبوة بعد نشوء دولة الإسلام وتجذره في قلوب الناس وأعمالهم وعامة آيات الحدود والعقوبات جاءت في السور المدنية.

١٤. مبنى التزام الأحكام الشرعية في الإسلام قائم على التقوى والورع، وإن كان لا يقف عند هذا الحد، ولكن يرد إلى الحق بالسلطان من لم يرتد إليه بالقرآن.

١٥. الحدود والعقوبات في الإسلام هي تتويج لجملة من الإجـراءات الاحترازية الأخرى، وعلاج الإسلام للإجرام لا يعتمد على العقوبة الحدية فقط، ولكنها جزء من منظومة كبرى

١٦. للعقاب في التشريع الإسلامي بعدين: بعد تأديبي للجاني وبعد ردعي لغيره.

تم البحث ولله الحمد والمنة



إعجاز القرآن الكريم في الإخبار عن الغيبيات

أ.د.محمد أمحزون

كلية الآداب والعلوم الإنسـانيـة

مكـنـاس- المـغـرب

مقدمة

إن الكتاب العزيز حجة الله تعالى على عباده منذ أول لحظة من نزوله. ولئن كان إعجاز القرآن ظاهرا في فصاحته و بلاغته و أسلوبه ونظمه، وقد أذعن العرب لتحديه و سلموا له بذلك رغم أنهم كانوا أفصح الأمم و أقدرها على البيان، فهو ما يزال معجزا للعرب و غيرهم من الأمم، بل معجزا الإنس و الجن:} قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا{(الإسراء:٨٨).

وكيف لا يكون أمر القرآن الكريم كذلك، وهو كلام الله عز وجل العليم الحكيم الخبير المحيط بكل شيء: {ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام و البحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم{ (لقمان:٢٧).

و لذلك كان عطاء القرآن الكريم متجددا ومستمرا باستمرار البشرية على سطح هذا الكوكب، فاستعمل سبحانه وتعالى حرف السين(سنوريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) (فصلت:٥٣)، لبيان استمرارية العطاء وتجدده ومواكبته لكل تطور بشري. و لهذا وصف القرآن المجيد في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه:» ... ولا تنقضي عجائبه و لا يخلق عن كثرة الرد».[1]

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، ج ٢، ص ٤٣١. حديث ضعيف ولكن معناه صحيح .

الحرب بين الفرس والروم

كان نظام العالم في نهاية العصر القديم يقوم بصفة عامة على توازن قوتين عظيمتين هما: الإمبراطورية الرومانية التي كانت تضم كل حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة، و الأمبراطورية الفارسية التي كانت تمتد من نهر الفرات حتى حدود الهند من جهة أخرى. و كانت علاقة كل قوة بالأخرى بصفة عامة عدائية بسبب المناطق المتنازع عليها على تخوم الدولتين. و لهذا كانت العلاقات بينهما في الغالب علاقات نزاع و صدام و تداول.[١]

وكانت كفة الفرس هي الراجحة منذ عهد «جستنيان» إمبراطور بيزنطة. و كانت الدولة الفارسية وقتئذ في حالة انتعاش،فوجدت الفرصة مواتية للتوسع على حساب الدولة البيزنطية التي كانت في حالة تدهور و انحلال من كافة الوجوه و النواحي[٢].

إدالة الفرس على الروم

في سنة ٦١١م بدأ هجوم الفرس على الشام، حيث هزموا جيشاً بيزنطيا بالقرب من أنطاكية سنة ٦١٣ م.[٣] ونتيجة لهذا الانتصار اندفع الفرس في كل اتجاه، فبعد الاستيلاء على أنطاكية تقدموا جنوبا فاستولوا على دمشق، و توغلوا شمالا في إقليم قليقية، و استولوا على طرسوس، ونجحوا في طرد البيزنطيين من أرمينية [٤]. وبعد دمشق دخل الفرس إلى فلسطين فاستولوا على مدينة بيت المقدس بعد حصار دام ثلاثة أسابيع في سنة ٦١٤ م. و ظلت بيت المقدس لعدة أيام مسرحا لسفك الدماء و الحرائق و السلب و النهب، فسلبت كنوز الكنائس، و أصاب التدمير كنيسة القيامة التي شيدها قسطنطين العظيم [٥]. وزاد الفرس من إذلال البيزنطيين ، إذ حملوا الصليب المقدس أعظم أثر عند المسيحيين إلى بلاد فارس.[٦]

---

(١) وسام فرج : دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية،ص ١٤٧ .

(٢) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠١.

(٣) وسام فرج: دراسات في تاريخ و حضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠١.

(٤) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٢.

(٥) وسام فرج : دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٠.

(٦) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٢.

وكانت هذه الانتصارات حافزا للفرس على التوغل داخل حدود الدولة البيزنطية، حتى وصلت جيوشهم سنة ٦١٥م إلى شواطئ البوسفور، و عسكروا عند كريوبوليس المواجهة للقسطنطينية. ومن هذا المركز الحيوي بالنسبة لبيزنطة أملى كسرى شروطه على هرقل[(١)].

وزادت الكوارث التي أصابت بيزنطة، حيث بدأ الفرس سنة٦١٦م غزو مصر، أغنى ولايات الإمبراطورية، ومصدر إمداد العاصمة بالقمح. وهكذا أصبح الفرس يسيطرون على كل الشرق الأدنى[(٢)]. وأمام هذه الأخطار الخارجية، وبسبب ظروف الإمبراطورية الداخلية، وجد الإمبراطور البيزنطي «هرقل»(٦١٠-٦٤١م) نفسه مضطرا إلى خوض صراع مرير وطويل ضد الفرس بعد أن يئس من قبولهم لطلب الصلح الذي تقدم به إليهم لتهدئة الأوضاع. إذ كان الرد الوحيد الذي يلقاه من كسرى الثاني أبارويز(ت٦٢٨م) هو: «لن أدعك حتى تنبذ وتتبرأ من هذا المصلوب الذي تقول أنه الله، وحتى تخر ساجدا أمام الشمس»[(٣)]. أمام هذا الموقف، وقفت الكنيسة البيزنطية إلى جانب الإمبراطور، وقدمت كنوزها و نفائسها سلفة إلى الدولة لمواجهة نفقات الحرب. وكان لهذه الإجراءات أثرها في إنقاذ خزانة الدولة وإعداد الجيوش و الأساطيل لقتال العدو[(٤)].

إدالة الروم على الفرس

وفي خريف سنة٦٢٧م بدأ هرقل هجومه الكبير والحاسم جنوبا في اتجاه قلب الإمبراطورية الفارسية. ومع بداية كانون الأول(دجنبر) كان هرقل قد وصل أمام نينوى. وهناك دارت المعركة الفاصلة الهامة بين القوتين الكبيرتين، وحسمت نتيجتها لصالح الروم البيزنطيين. وفي هذه المعركة قضى هرقل على الجيش الفارسي و ألحق به أعنف هزيمة، وحقق لبيزنطة أعظم انتصاراً.ففي مطلع سنة٦٢٨م استولى على دستاجرد، وكانت المكان المفضل لإقامة الملك الفارسي، و اضطر كسرى للتراجع إلى عاصمته المدائن[(٥)]

---

(١) إسمنت غنيم : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٣٩.

(٢) وسام فرج : دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥١.

(٤) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٤-١٠٥.

(٥) وسام فرج: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٥.

وبعد ربيع سنة٦٢٨م وقعت أحداث هامة داخل مملكة الفرس وضعت نهاية للقتال الدائر، إذ قامت ضد كسرى ثورة داخلية وقبض عليه وقتل، فقام ابنه»كافاد شيرويه« الذي خلفه بعرض الصلح على هرقل.[١]

ونتيجة لانتصارات الروم و الانهيار الكامل للفرس، استطاع هرقل استرجاع كل الأقاليم التي استولى عليها الفرس وهي: أرمينية، و الجزيرة، و الشام، و فلسطين، ومصر. وبمجرد هزيمة الفرس أرسل هرقل إعلانا بالنصر إلى القسطنطينية وصف فيه نجاحه ضد الفرس، وأعلن نهاية الحرب[٢].

وبعد أن خرج الفرس من كل الأقاليم التي استولوا عليها، ذهب»هرقل« في ربيع سنة٦٣٠م إلى بيت المقدس و دخلها[٣].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الدائرة بين الفرس و الروم معلنا أن النصر سيكون حليفا للروم في النهاية بعد هزيمتهم من قبل الفرس. قال تعالى: {ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم}[الروم:١-٥].

ووجه الإعجاز ها هنا أنه لم يتوقع أحد أن يكون النصر حليفا للروم؛ فقد كانت فارس حينئذ قاهرة لهم، حيث بلغت دولة الروم من الضعف حدا يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها وهزمت في بلادها وفي أحب البقاع إليها: بيت المقدس، في المنطقة المحيطة بالبحر الميت، وعبر القرآن عن ذلك بقوله: {في أدنى الأرض}[الروم:٣].

و لما نزلت هذه الآيات، كذب المشركون بهذا الوعد الإلهي بنصر الروم في بضع سنين، وتراهنوا مع المسلمين على تكذيبه؛ إذ لم يكن أحد منهم يظن أن تقوم للروم قائمة بعد الغزو الذي حصل لها في عقر دارها من قبل الفرس. ولكن الله تعالى القادر المطلع على الغيب لا يخلف وعده، فتحقق النصر للروم على الفرس بعد بضع سنوات من تلك الحادثة، بل وتحققت النبوءة القرآنية بتحقق نصرين في وقت واحد: نصر الروم على الفرس، ونصر المؤمنين على المشركين يوم بدر طبقا لما جاء في قوله تعالى: {وهم من بعد غلبهم سيغلبون في

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٦.

بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله}[الروم:٣-٤].[١]

و هذا يستحيل أن يتنبأ به بشر؛ لأنه ربط لأمور في الغيب، ولحوادث لا صلة لإحداها بالأخرى؛ فلا توجد أسباب ووسائل تربط بين معركة المسلمين مع قريش ومعركة الفرس مع الروم. والعجيب أن الروم كانوا قد بلغوا من الضعف حدا كبيرا كما سبق ذكره، حتى غزوا و هزموا في عقر دارهم. وهذا يجعل المتنبأ يحجم عن الكلام في انتصارهم على الفرس، فسبحان العليم الخبير المحيط بكل شيء. و قد يسأل البعض : لماذا قال الله عز وجل { في بضع سنين}، ولم يحدد الوقت تحديدا أدق من هذا، في يوم كذا في شهر كذا في عام كذا، وهو سبحانه العليم الخبير؟ و الجواب على هذا الأمر يرجع إلى المتلقين للنبأ، فالناس في حساباتهم لا يجرون على وتيرة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس، ومنهم من يحسب بالقمر، ومنهم من يكمل الكسور، ومنهم من يلغيها. فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون أقطع للشبهة وأبعد عن الجدل. ثم إن الحرب امتدت بين الفرس والروم أياما وشهورا كما سلف. ولذلك لم يقل تبارك وتعالى"بعد بضع"، و إنما قال جل ثناؤه {في بضع}. وفي الآية الكريمة أيضا لمحة طريفة في قوله تعالى:{ في أدنى الأرض}، ويقصد بها المنطقة المحيطة بالبحر الميت. وقد ثبت علميا أنها أدنى بقعة، أي أخفض بقعة على اليابسة.[٢]

تجميع يهود الشتات في فلسطين

لقد رسم الكتاب العزيز خريطة مستقبل اليهود، و أنزل ذلك عليهم في كتابهم، وقصه علينا القرآن الكريم في أوائل سورة الإسراء، قال تعالى : {فإذا جاء وعد الآخرة ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا} [الإسراء: ٧]. وفي أواخر سورة الإسراء قال تعالى :{وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا}[الإسراء:١٠٤].

ونستطيع أن نفهم وجه الإعجاز في هذه الآيات الكريمة؛ إذ يكشف لنا القرآن الكريم عن مستقبل اليهود الذي ينبأ عن فساد آخر معه علو كبير. ويبدو أن الفساد الثاني المقرون بالعلو

(١)انظر الترمذي : السنن، رقم الحديث ٣١٩٢، ج ٥ ص ٢٥٢. وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ٣٠٣ – ٣٠٤. حديث حسن

(٢) زين محمد شحاتة : أسماء الله الحسنى من القرآن الكريم والحديث الصحيح، ص ٣٩١ -٣٩٢..

هو فسادهم الآن الذي ملأ الدنيا في هذا العصر، بعد أن أسسوا دولتهم في أرض فلسطين السليبة. فهم ينتظرون وعد المرة الثانية التي جاء التعبير عنها بوعد الآخرة (أي الثانية).

و نلاحظ في وعد المرة الآخرة هذا أن الله عز وجل يأتي بهم لفيفا من مواطن تقطيعهم في الأرض(أي من مواطن الشتات) إلى فلسطين في أرض الشام.و معنى اللفيف في اللغة: القوم يجتمعون من قبائل شتى فيهم الشريف و الدنئ و المطيع و العاصي والضعيف و القوي.[1] وهذه التعريفات لكلمة اللفيف تنطبق على الأخلاط اليهودية التي أتت بمئات الألوف من الشرق و الغرب من مختلف بلدان العالم، واجتمعت لإقامة الكيان الصهيوني، وتجتمع في عصرنا هذا لدعم دولة إسرائيل المحتلة بالرجال و العتاد، وذلك منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا. فالدلائل الواقعية تشير بقوة إلى أن اليهود في هذا العصر سعوا بكل ما أوتوا من قوة لتهيئة كل ما يلزم لتنفيذ وعد الآخرة(الثانية) عليهم. فقد خططوا بكل ما أوتوا من دهاء ومكر لتأسيس نواة لدولة يهودية كبيرة ذات علو في الأرض، أغرت ولا زالت تغري عددا كبيرا من يهود الشتات أن يهاجروا إليها. وتم ذلك بمساعدة أمم ذات قوى كبرى في الأرض. ففي عام ١٩١٧م (١٣٣٦هـ) لم تتفق الرأسمالية و الشيوعية- وهما قوتان متضادتان- إلا على مسألة واحدة وهي السماح لليهود بإقامة كيان ودولة في فلسطين[2] . فحين احتلت بريطانيا فلسطين و انتزعتها من الحكم العثماني بعد الحرب العالمية الأولى، كان اليهود وقتئذ يشكلون أقلية عددية بالنسبة لسكانها العرب، أي نسبة ١٠٪ فقط. وتحت الاحتلال البريطاني حدثت زيادة رهيبة في أعداد اليهود بسبب الهجرة الجماعية الضخمة إلى فلسطين، حيث نسقت بريطانيا مع الصهيونية لإغراق فلسطين باليهود القادمين من كل مكان. وكانت القنصليات البريطانية في أنحاء العالم تمنح اليهود تأشيرات دخول إلى فلسطين، كما أصدرت السلطات البريطانية في فلسطين قانونا لتيسير تدفق المهاجرين إليها، فأخذ يهود الشتات يأتون من كل حدب و صوب[3] .

ومنذ قيام دولة اليهود في فلسطين عام١٩٤٨ م (١٣٦٨هـ)، و اليهود يجتمعون فيها من كل أنحاء العالم.فمن مجموع٢ .٥٠٠٠٠٠ يهودي في فلسطين جاء: [4]

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، ج ٣ ، ص ٣٨١، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٢٠٧.

(٢) انظر كتاب المؤلف : تاريخ العلاقات الشيوعية الصهيونية، ص ٦٨.

(٣) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ٦٦١ – ٦٦٢.

(٤) إبراهيم الشريقي : دور الدول الاشتراكية في تكوين إسرائيل، ص ٦٠.

١,٥٦٠٠٠٠	من الاتحاد السوفياتي وبلدان أوربا الشرقية
٣٥٠,٠٠٠	من الأقطار الأسيوية و الإفريقية
٣٠٠,٠٠٠	من أوربا الغربية
٧٠,٠٠٠	من أمريكا الشمالية
٢٢٠,٠٠٠	يهود عرب

وكان الإتحاد السوفياتي مصدر أكبر عملية تهجير لليهود في عقد السبعينات عن طريق النمسا بالاتفاق مع رئيس وزرائها الهالك كرايسكي. و يكون بذلك عدد الذين أتوا من الاتحاد السوفياتي من اليهود منذ عام ١٩٧١م إلى عام ١٩٨٠م؛ ٢٥٥,٣٨٣ مهاجر، أي أكثر من ربع مليون، حسب الجدول الآتي(١):

السنة	عدد المهاجرين	عدد الذين وصلوا إلى فلسطين المحتلة
١٩٧١	١٣,٠٠٠	١١,٥٠٠
١٩٧٢	٣٢,٠٠٠	٣١,٦٥٢
١٩٧٣	٣٥,٠٠٠	٣٣,٤٧٧
١٩٧٤	٣٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠
١٩٧٥	١٣,٠٠٠	١١,٤٥٩
١٩٧٦	١٤,٣٨٣	١٤,٠٠٠
١٩٧٧	١٧,٠٠٠	٠٨,٣٨٣
١٩٧٨	٢٩,٠٠٠	١٢,٠٠٠
١٩٧٩	٥١,٠٠٠	١٧,٠٠٠
١٩٨٠	٢١,٠٠٠	١٢,٥٤٢

وتجدر الإشارة إلى أن إغراءات الظفر المؤقتة لليهود على المسلمين في عدة معارك حين انحرف هؤلاء عن منهج الله في عقيدتهم وسلوكهم رافعين لافتات جاهلية كالقومية

(١) صحيفة يدعوت أحرونت، ١٣ آذار (مارس) ١٩٨١ م.

و الاشتراكية و الليبرالية أغرى المزيد من شتات اليهود ليهاجروا إلى موطن المعركة القادمة، حتى يلاقوا مصيرهم المنتظر الذي هو قادم لا محالة بإذن الله تعالى، تحقيقا من الله عز وجل لوعيده في القرآن لهم:{ فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم و ليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة و ليتبروا ما علوا تتبيرا} [الإسراء:٧]

و يبدوا من سياق النص أن الذين يسؤون وجوه اليهود(أي يهينوهم ويقهروهم) وليتبروا ما علوا تتبيرا (أي يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه) هم المسلمون. ويشير قول الله عز وجل (وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة) ضمنا إلى أن المسلمين هم المعنيون في النص أيضا؛ لأنهم هم الذين يحرصون على دخول المسجد الأقصى معظمين له، ومطهرين ساحاته وجنباته من رجس الذين كفروا، كما دخلوه أول مرة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)،

ويدخلونه ثاني مرة حين يحكمون الإسلام في حياتهم عقيدة وشريعة، وفكرا وسلوكا.

بل هناك دليلا نصيا يبين بوضوح المعنيين بالمواجهة مع اليهود في (وعد الآخرة) وهم المسلمون، في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم)

قال : «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[1]

وهذه من الأمور الغيبية التي لم تقع بعد، وسيتحقق وقوعها بإذن الله كما أخبر الوحي. وقد رأينا المقدمات، و النتائج مبنية عليها لا محالة.

إنجاء بدن فرعون

قبيل خروج روح فرعون اللعين قال له الحق سبحانه و تعالى:{فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية}[يونس:٩٢].وفي عصر نزول القرآن الكريم على النبي (صلى الله عليه وسلم) كان كل شئ مجهولا عن هذا الأمر؛ فلم تكتشف جثث الفراعنة إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط والساعة، رقم ٢٩٢٢، ج ٤، ص ٣٩ – ٢٢.

و بالتالي فإن جثة فرعون موسى التي ما زالت ماثلة للعيان إلى اليوم شهادة مادية لجسد محنط لشخص طغى و تجبر وادعى الربوبية والألوهية، وعارض طلبات الرسول المرسل إليه، بل وطارده في هروبه ومات في أثناء تلك المطاردة، وأنقذ الله تعالى جثته من التلف لتصبح آية للناس كما ذكر القرآن الكريم.

فماذا حصل لفرعون بعد غرقه وإلقاء جثته على الشاطئ؟ لقد أخذ قومه جثته وحنطوها، ووضعوها في مدافن الأسرة الفرعونية بجانب جثث ملوك الفراعنة الذين ماتوا قبله[١].

وكان المصريون في العهد الفرعوني يتقنون فن التحنيط. والتحنيط هو : حفظ هيكل جسم الميت بتخليصه من المواد الرخوة من جلد وغشاء، و تطهير جوفه بمواد خاصة.[٢]

و هو مهارة متقدمة تسجل للمصريين زمن الفراعنة في ذلك الزمن السحيق، حيث كان يجهل التحنيط الأقوام الذين عاصروهم والذين جاءوا بعدهم. ولذلك حفظوا جثث فراعنتهم المحنطة في الأهرامات المعروفة، وفي المقابر الملكية. وبقيت تلك الجثث موجودة حتى عثر عليها علماء الآثار في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي و بداية القرن العشرين[٣].

وكان من الجثث التي عثروا عليها جثة هذا الفرعون الذي قال له الله تعالى قبل أن يموت غرقا:{فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية}[يونس:٩٢].

ومن وجوه الإعجاز في هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم ينج جثته لمعاصريه فقط لتكون لهم آية، و إنما أنجى جثته من الفناء، و بقيت محفوظة في مقابر وادي الملوك في «طيبا» بالضفة المقابلة للأقصر من النيل كما يقول علماء الآثار، حتى أخرجت من هناك ورآها الناس في عصرنا في حالة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة.

وقد جاء مفهوم إنجاء البدن على نحو واسع:

- فلم يترك بدنه يغوص في قعر البحر، ولم يترك طعاما للأسماك، وإنما ألقي على شاطئ البحر.

---

(١) صلاح الخالدي: القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث، ج ٢، ص١٠٦.

(٢) إبراهيم مصطفى و آخرون: المعجم الوسط،ج ١، ص ٢٠٢.

(٣) صلاح الخالدي: القصص القرآني: ج٢، ص١٠٦

- وعلم الله تعالى قومه فن التحنيط و ألهمهم تحنيطه و إزالة ما يسرع الفناء منه ودفنه في مقابر خاصة محفوظة.
- و أبقى جل علاه بدنه محفوظا آلاف السنين لم تصله عوامل الفناء و الذوبان و التلاشي الطبيعية (الحرارة، الهواء) و البشرية(اللصوص) والحيوانية(القوارض).
- ألهم جل ذكره علماء الآثار اكتشاف بدنه المحنط في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ووضع في متحف الآثار ليراه الناس[1] .

و بهذا المفهوم الواسع للانجاء يكون قوله تعالى: ﴾ لمن خلفك﴿ عبرة للناس:

- قومه معاصروه الذين كانوا يؤلهونه عندما يشاهدون بدنه لعلهم يتعضون.
- بنو إسرائيل معاصروه الذين شهدوا مصرعه فزدادوا شكرا لله تعالى.
- الناس القادمون بعد الآف السنين من مصرعه، سيشاهدون جثته المحنطة المحفوظة.[2]

ومن وجوه الإعجاز كذلك في هذه الآية الكريمة:

- أن اكتشاف جثة فرعون عام ١٩٩٨م على يد عالم الآثار الغربي»لوريت»،[3] و بقاؤها معروضة في متحف القاهرة يشاهدها الزائرون والسواح آية بينة واضحة على صدق نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ فالله تعالى هو الذي أخبره بتفاصيل غرق فرعون، وإنجاء جثته. ولو لم يكن رسولا نبيا لما علم بذلك؛ لأنه أمي لم يتعلم من أحد، ولم يتلق هذه المعلومات من أحد، لا سيما وأن كتب التاريخ و أهل الكتاب لا تتحدث عن هذه الجزئية المفصلة لغرق فرعون، حيث اختص بها القرآن الكريم.
- وأن القرآن المجيد هو كلام الله تعالى، وليس كلام البشر،ويعد ما ذكر آنفا آية على صحة وصدق الأخبار التاريخية التي أوردها و ذكرها. فقد ذكر القرآن الكريم أن

---

(١) صلاح الخالدي: القصص القرآني، ج ٢. ص١١٠.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١١١

(٣) موريس بوكاي: الثوراة و الإنجيل و القرآن والعلم، ص ٢٠٩.

الله عز وجل قد أنجى جثة فرعـون و أبـقــاها عبرة لمن خلفه، و اكتشفت هذه الجثة بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن، فجاء هذا الاكتشاف شاهدا على إعجاز ما أخبرت عنه الآيات.

تغيير لقب الحاكم من ملك إلى فرعون

لقد عاش النبي (صلى الله عليه وسلم) في أمة أمية منغلقة في شبه جزيرة العرب، تقوم أحيانا فيها دويلات صغيرة ثم تنهار بعد زمن يسير؛ لأنها تفتقد مقومات الدولة. و كان الحكم فيها لعادات و تقاليد القبيلة، لا تعرف إلا اليسير عن العالم الخارجي و أنظمة الحكم السائدة في عصرها، بله الكيانات السياسية الموغلة في القدم في العصور الخوالي. ومن الملفت للنظر أن آيات القرآن الكريم أشارت إلى تغيير نظام الحكم في مصر القديمة؛ فقد كان حاكم مصر زمن يوسف(عليه السلام) يلـقـب «بالملـك» كما جـاء فــي ســورة يـوسف: { وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي} [يوسف: ٥٤]. ولما أخبر الكتاب العزيز عن اضطهاد بني إسرائيل بعد ذلك أطلق على حاكم مصر لقب « فرعون» : { وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه} (الآية) [غافر:٢٦].

فما سر تغيير لقب حاكم مصر من الملك إلى فرعون؟ لقد ذكر المؤرخون أن قبائل عربية ذات أصل سامي قدمت من آسيا يطلق عليها الهكسوس[١]، احتلت مصر، ودام حكمها لهذا البلد عدة أجيال[٢] .

وقد عثر على أثر تاريخي لملك من عهد الهكسوس منقوش عليه إسم يعقوب حر (يعقوب آل) إشارة إلى تبوء أحد بني إسرائيل الملك في ذلك العصر. و هذا يتناسب مع دخول بني إسرائيل إلى مصر وقتئذ[٣].

---

(١) يقول إيمانويل فلا يكوفسكي أن الهكسوس هم العماليق و هؤلاء قبيلة عربية قديمة سادت جزيرة العرب من قديم الزمن. أنظر كتابه : عصور في فوضى: من الخروج إلى الملك أختاتون، ص٨٧، ١١٧.

(٢) جيمس هرني برستيد: تاريخ مصر من أقدم العصور إلى العصر الفارسي، ص١٨٠. ووفلايكوفسكي: عصور في فوضى، ص٨٣ ، ٩٣، ١١٥.

(٣) برستيد: تاريخ مصر منذ أقدم العصور،ص ١٨٢ (بتصرف).

ووفقا لهذا الاستنتاج، كان عبرانيو مصر عربا تابعين لسلطة إمبراطورية الهكسوس. ولا يستبعد أن يكون وجود هؤلاء العرب بمصر سببا في تلقيب تلك الامبراطورية دولة الرعاة[١].

و بناء على هذا، يكون بنو إسرائيل قد دخلوا مصر زمن الهكسوس العرب، و يكون حكام مصر وقتها ملوكا عربا، ويكون يوسف(عليه السلام) وزيرا للملك العربي الذي حكم مصر. ويكون هذا هو سر تكريم ملوك الهكسوس لبني إسرائيل، على إعتبار أن الفريقين جاءا من جنوب بلاد الشام، و أنهما ليس من أهل البلاد الأصليين[٢].ثم قام المصريون بثورة وطنية بقيادة»أحمس» أحد أفراد الأسرة الفرعونية الحاكمة من قبل، فطردوا الهكسوس من العرب، و أعادوا الحكم إلى الفراعنة[٣] .

و يستنتج من هذا أن ثورة الفراعنة بقيادة»أحمس» على الهكسوس ثورة على الإسرائيليين أيضا، حيث اعتبروا عملاء للمستعمرين الهكسوس، و يكون هذا هو سر اضطهاد الفراعنة للإسرائيليين بعد طرد الهكسوس[٤] .

ووجه الإعجاز ها هنا أن القرآن الكريم فرق بين حقبتين مختلفتين، إحداهما كان فيها الحكم»للملك» وهي كلمة عربية أصيلة، ولعل إطلاقها على حاكم مصر زمن يوسف (عليه السلام) دليل على أن حكام مصر وقتها كانوا عربا.

أما «فرعون» فإنها كلمة أعجمية ليست مشتقة[٥]. ولعل إطلاقها على حاكم مصر زمن اضطهاد بني إسرائيل دليل على عودة مصر إلى الفراعنة.

على أن الإجابة على هذا الإشكال لم يعرفها علماء الآثار إلا منذ عهد قريب بعد اكتشاف حجر رشيد ومعرفة الكتابة المصرية القديمة. فلقب «فرعون» اختص به الحكام المصريون الأصليون فقط، ومعناه الباب العالي. أما الحكام الجانب لقد كانوا يلقبون بلقب «ملك» .

---

(١) المرجع السايق، ص ١٨٢،(بتصرف) .

(٢) صلاح الخالدي: القصص القرآني، ج ٢ ، ص٢٦١-٢٦٢.

(٣) فلايكوفسكي: عصور في فوضى، ص ١٠٣ . ويرستيد: تاريخ مصر منذ أقدم العصور،ص١٨٧، و نبيلة محمد عبد الحليم: مصر القديمة: تاريخها و حضارتها، ص ٢٥٦..

(٤) صلاح الخالدي: القصص القرآني،ج٢، ص٢٦٢.

(٥) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٦٣٢.

وعندما جاء يوسف (عليه السلام) إلى مصر لم يكن حاكم مصر من المصريين وإنما كان من الرعاة الهكسوس، ولذلك لقب بالملك. أما في أيام موسى (عليه السلام) فقد كان الحاكم مصريا ولم يكن أجنبيا، ولذلك لقب بالفرعون.[١]

خاتمة

إن المهتم بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم لا بد أن يوقن بأن هذا الكتاب العظيم من علم الله عز وجل الذي أحاط بكل شئ علما. وهو معجزة خالدة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) النبي الأمي الذي كان يعيش وقت نزول القرآن في قوم لا يعرفون الكتابة إلا ما ندر، لا علم لهم بأخبار و تاريخ القرون الخالية، فكيف بمد البصر نحو المستقبل واستكشاف كنهه.

على أن العلم و التاريخ ليقدمان شهادات مستمرة على صدق وصحة ما ورد في القرآن الكريم من أخبار ومعلومات علمية. و هذه الشهادات سواء كانت ذات صلة بعلم الغيب وما سيحدث في المستقبل مما يعزب عن علم البشر، أم كانت ذات صلة بأخبار الماضي السحيق وقصص الأمم الخوالي،لهي آيات وبراهين جديدة تثبت قطعا أن القرآن الحكيم كلام الله تعالى، وكل ما فيه معجز حقا، وصدق و صواب، و أن محمدا رسول الله أوحى الله تعالى له بهذا الكتاب و النور المبين.

(١) زين محمد شحاته: أسماء الله الحسنى، ص ٣٨٧.

كشف المصادر والمراجع

أمحزون، محمد
تاريخ العلاقات الشيوعية الصهيونية، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

برستيد، جيمس هنري
تاريخ مصر من أقدم العصور إلى العصر الفارسي، ترجمه إلى العربية حسن كمال، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

بوكاي ، موريس
التوراة و الإنجيل و القرآن و العلم، ترجمه إلى العربية: مجلة الفكر الصادرة عن دار الفتوى بلبنان، بيروت: دار الكندي، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة(ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)
السنن، تحيق أحمد محمد شاكر، بيروت، دار إحياء التراث العربي؟

الخالدي، صلاح عبد الفتاح
القصص القرآني، عرض وقائع و تحليل و أحداث، دمشق: دار الفكر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

الدارمي، أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد السجستاني(ت ٢٨٠هـ)
السنن،دار الكتب العلمية؟.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)
المفردات في غريب القرآن، بيروت: دار المعرفة للطباعة و النشر؟.

شحاته، محمد زين
أسماء الله الحسنى من القرآن الكريم و الحديث الصحيح، بيروت: دار خضر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

عبد الحليم، نبيلة محمد
مصر القديمة تاريخها و حضارتها، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، كلية التربية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

عمر، عبد العزيز عمر
دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر، بيروت: دار النهضة العربية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

غنيم، إسمت
تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت ٣٩٥هـ)
معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الفكر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٤م

فرج، وسام عبد العزيز
دراسات في تاريخ و حضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

فلايكوفسكي، إيما نويل
عصور في فوضى: من الخروج إلى أخناتون، ترجمه إلى العربية رفعت السيد، القاهرة: سينا للنشر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥ م.

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر البصري الدمشقي(ت ٧٧٤هـ)
تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، الرياض: دار طيبة للنشر و التوزيع، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨ م.

مسلم بن الحجاج(الإمام)، أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)
الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م.

مصطفى، إبراهيم(و آخرون)
المعجم الوسيط بيروت: دار الفكر؟

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري المصري(ت ٧١١هـ)
لسان العرب، إعداد يوسف خياط،، بيروت: دار لسان العرب؟

يدعوت أحرونوت،(صحيفة) ١٣، آذار (مارس) ١٩٨١م.



المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

ملامح الإعجاز الإعلامي في قوله تعالى"يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا"

للدكتورة / رحيمة الطيب عيساني
أستاذ محاضرة بقسم الإعلام
جامعة الحاج لخضر- باتنة-

مقدمة

تركّز معظم الكتابات التي تتحدّث عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة النبوية الشريفة على المجال العلمي والطبّي والبياني(اللّغوي)، وقلّ ما تتحدّث عن المجال الإنساني النفسي والاجتماعي، إلّا في بعض البحوث والدّراسات المتفرّقة في هذا المجال. وهي في هذا محجمة -ربما-بسبب أنّ القوانين الاجتماعية والنفسية المفسّرة للظواهر الاجتماعية متغيرة، غير ثابتة وغير مطردة، لأنّ الدّارس والمدروس إنسان كذلك، بعكس الظواهر الطبيعية والعلمية التي تحكمها قوانين ثابتة وأزلية.

لذلك وجدنا أنّه تكاد تنعدم الدّراسات المهتمّة بالإعجاز الإعلامي في القرآن والسنّة، ذلك أنّ معظم الكتابات التي تناولت مصطلح»الإعلام الإسلامي« بالتأليف والدّراسة انطلقت من العمل على محور أسلمة المعرفة في مجال الإعلام والاتصال، مغفلة العمل على محور إسلامية المعرفة، مع أنّ المصطلح يوحي مضمونه في اتجاه المحور الثاني وليس الأول، وهي معذورة في ذلك كون أكثر الباحثين في المجال(الإعلام الإسلامي) ذوي تخصص بعيد(الإعلام والاتصال)، ليس لهم خلفيات كبيرة في مجال العلوم الإسلامية، خاصة علوم القرآن والسنّة، مصدري التنظير لمثل هذا العمل، إضافة إلى السبب الأول.

لذلك بقي الحديث عن الإعلام في القرآن والسنّة، وقواعده وأسسه، وكذا الإعجاز الإعلامي فيهما؛ حديثا محتشما تتناوله بعض الكتابات التي لم تصل أصواتها العميقة إلى الباحثين والمهتمّين، ناهيك عن عامّة الناس. فقد أكّدت القراءة المتأنّية لعديد من الآيات القرآنية الكريمة أنّها تتناول العمل الإعلامي بكل أبعاده وأساسياته وأخلاقياته وأهدافه تفصيلا لم تعهده الدّراسات الإعلامية من قبل، بل وقد أشارت هذه الآيات إلى نظرات مخالفة، وقواعد مغايرة كلّية لما في هذه الدّراسات والأعمال في جمل قصيرة معجزة لذوي الكفاءات البيانية والعلمية على أن تختزلها في مثل هذه الجمل والكلمات.

وكمثال على ذلك وفي آية واحدة فقط، في قوله تعالى:»يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم

فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»(٦)الحجرات. وبالعودة إلى التفاسير، وكتب شروح السنّة، والمعاجم العربية، وجد أنّ الآية الكريمة قد قعّدت لمكونات العملية الإعلامية في صورة إعجازية كبيرة، تجيب على كثير من التساؤلات المحيّرة تفسيرا للعملية، في تساؤلات:

١. لماذا وجّه المولى عزّ وجلّ النداء للمؤمنين،ولم يوجهّه للناس؟فقال:»يا أيها الذين ءامنوا «،ولم يقل» يا أيها الناس «،مع أنّ العملية الإعلامية والاتصالية ليست مقتصرة على المؤمنين فقط؟ وما وجه الإعجاز في ذلك؟

٢. لماذا وصف المولى(عزّ وجلّ) المرسل»بالفاسق»؟

٣. لماذا وصفت الرسالة»بالنبأ» ولم تكن»الخبر»،وما وجه الإعجاز في ذكر»الأول»وعدم ذكر»الثاني»؟

٤. ما سمات الجمهور المستقبل لهذه الرسالة؟

٥. ما دور ردود الأفعال في توجيه العمليات الإعلامية والاتصالية؟ وما مدى فعاليتها وأهميتها؟

٦. ثم في إعجاز بياني وبلاغي واضح استطاعت الآية في(١٨)كلمة مكوّنة لجملة واحدة في السورة أن تستجمع العناصر الأساسية المكوّنة للعملية الإعلامية، وشروط كل عنصر، في حين فشلت كثير من الكتابات المقتدرة في المجال أن تفعل ذلك؟

ومن أجل الإجابة على هذه التساؤلات لاستجلاء ملامح الإعجاز الإعلامي في الآية، تأتي هذه المداخلة محاولة للوقوف بالألباب والأفئدة الواعية عند هذه الملامح.

أولا: سورة الحجرات(١) وأسس البناء الاجتماعي :

سميت السورة بسورة الحجرات تبعاً لما جاء في الآية الرابعة منها في قوله تعالى:»إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون». والمراد بالحجرات حجرات أزواج النبي(صلى الله عليه وسلم) رضوان الله عليهن. جاء في البرهان للزركشي أن: هذا الأسلوب في تسمية السور متبع شامل لسور القرآن تسمى كل سورة باسم أو كلمة تدور عليها قصة في موضوع من موضوعاتها البارزة ؛أو تسمى السورة بمضمونها كسورة الإخلاص ، وهذه دقيقة من دقائق القرآن ولطائفه –الله أعلم بها- في تطابق اسم السورة مضمونها كلياً و جزئيا ؛ وتسميته بكلام الله وغيره من الأسماء التي بلغت ، كما أحصاها بعض العلماء خمسة وخمسين(٥٥) اسماً ، وكلها تطابق مضمون هذا الكتاب العزيز. وفي ذلك تعليم للمؤمنين بهذا القرآن أن تطابق تسميتهم بالمسلمين حقيقتهم الكونية والشرعية فلا يتناقضون ولا يتوزعون بين الإيمان والنفاق والكفر...!(٢)

وقال في الإتقان:»سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب به كلامهم على الجملة والتفصيل، فقد سمى كلامه جملة قرآناً، وسمى بعضه سورة، وأجزاء السورة آية، وسمى العلماء أواخر الآيات فواصل.»وأما العرب فسموا كلامهم ديواناً وبعضه قصيدة، وبعض القصيدة البيت، ونهاية البيت القافية»(٣)

وقد وقفت عديد من التفاسير على سر ترتيب سورة الحجرات بعد سورة الفتح مؤشرة على أن(٤):

(١) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير أنها :"سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير"سورة الحجرات"وليس لها اسم غيره. ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ"الحجرات"، ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من وراء حجرات، فعرفت بهذه الإضافة، وهي مدنية باتفاق أهل التأويل،...وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السُّور، نزلت بعد سورة المجادلة، سنة تسع للهجرة،... وعدّ جميع العادين آيها ثمان عشرة آية". انظر تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطَاهر بن عاشور(تونس: دار سحنون للنشر ولتوزيع، ١٩٩٩)، م(١٢)، ج(٢٦)، ص(٢١٣).

(٢) بدر الدِّين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج(١)، ص(٢٧٠- ٢٧٢).

(٣) جلال الدِّين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج(١)، ص(١٤٣).

(٤) أنظر: الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج(٢٨)، ص(١١٠)، النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج(٢٦)، ص(٥٥)، الألوسي: روح العاني، ج(٢٦)، ص(١٣٣)، الخطيب الشربيني: تفسير القرآن الكريم، ج(٤)، ص(٥٩)..

١. السورتين مدنيتان ومشتملتان على أحكام تشريعية للمؤمنين، فسورة الفتح تناولت أحكام قتال الكفار، فيما تناولت سورة الحجرات أحكام قتال البغاة من المسلمين.

٢. ختمت سورة الفتح بذكر أوصاف الذين ءامنوا «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم»، وافتتحت سورة الحجرات حديثها بتوجيه «للذين ءامنوا» تأديباً لهم مع الله ورسوله(صلى الله عليه وسلم).

٣. تضمنت سورة الفتح تشريفاً وتعزيزاً وانتصاراً لرسول الله(صلى الله عليه وسلم) فيما تضمنت كذلك سورة الحجرات في مطلعها توقيراً وتبجيلاً له(صلى الله عليه وسلم)، وكيفية التأدب في حضرته ومع حرماته.

٤. في آخر سورة الفتح ذكر الله تعالى الصالحين وما وعدهم من الثواب فقال:»وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما»، وربما صدر من المؤمنين الصالحين هؤلاء بعض الشيء ما ينكر ويستهجن، وينهى عنه كرفع الصوت فوق صوت النبي(صلى الله عليه وسلم)، ومسابقته في الكلام والعمل أو مسابقة القرآن وسنته المطَّهرة، فقال(عزّ وجلّ) ناهياً عن ذلك في أول سورة الحجرات: « يا أيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله» إلى آخر السورة.

وتتفق معظم التفاسير التي تناولت السورة بالحديث المستفيض أنها من السور الجليلة التي نتلمس بوضوح من خلال آيّها المعالم الأساسية لبناء المجتمع الفاضل؛ المجتمع الذي طمحت كثير من النظريات البشرية أن تصله عبر تعقيدات وتنظيرات بُذلت من أجلها الجهود البحثية المضنية، لتفرز قواعد لم تستطع أن تؤسس لمثل هذا المجتمع وبمثل هذه الأحكام والحكمة المتناهية في إسعاد البشر، والحفاظ على وجودهم واستمراريتهم كما فعلت آي وسور القرآن الكريم.

كما تتفق على أن السورة تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها

مئات المرات[١]، والسورة في منهجها الفريد لبناء المجتمع المؤمن وتقوية روابطه بالله وبرسوله(صلى الله عليه وسلم) وبالوحي من الكتاب والسنة ثم بالمؤمنين بعضهم ببعض، يتجلى منهجها في أمرين عظيمين لمن يتدبر ويفكر[٢]:

الأول: أنها خاصة بوضع منهج كامل متكامل في الحياة الإسلامية لمجتمع فاضل كريم سليم من العيوب ونظيف من كل شوائب الجاهلية، وهو المجتمع المؤمن الذي تستقل شخصيته ومنهجه في الحياة عن غيره وله قواعده وأصوله ومبادئه ومناهجه التي يقوم عليها.

الثاني: أن هذا المجتمع المؤمن نتيجة جهد ضخم ثابت صابر، وهو ما تمثله» توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة... فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية، ولا حلماً طائراً عيش في الخيال»[٣].

فالسورة إذاً ترشد إلى مكارم الأخلاق وجلائل الآداب، وروائع النظم لجماعة المؤمنين، وكل آية فيها تستقل بمكرمة من ذلك أو مكرمات وتوجيه وتوجيهات تكون لبنة من لبنات مجتمع الدعوة الإسلامية لهذا المجتمع الرّفيع ذي فريدة وحياة كريمة.

فهي"فصول تأديبية وتعليمية وأخلاقية واجتماعية وسياسية وسلوكية فيما يجب على المسلمين تجاه النبي (صلى الله عليه وسلم) وتجاه بعضهم، وفيها مشهد من مشاهد الأعراب في عهد النبي(صلى الله عليه وسلم) وتبجحهم بالإسلام، وميزان لصدق إيمان المؤمنين، وإفساح المجال للأعراب لدخولهم في حظيرة الإسلام والدّولة الإسلامية»[٤].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن(القاهرة: دار الشروق، ط(٤)، ١٣٩٨ه

(٢)محمد الأنصاري: منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي على ضوء ما جاء في سورة الحجرات(الرياض: مكتبة الأنصار، ط(١)، ١٤٠٤ه/ ١٩٨٤م)، ص(١٧).

(٣)سيد قطب: في ظلال القرآن، ص(٣٣٣٦).

(٤) محمد عزة دروزة: التفسير الحديث(دمشق: دار الحلبية، ط١٣٨٣ه)، ج(١٠)، ص(١١٨).

وقد تحدثت السورة في ثمانية عشرة آية عن[١]:

١. الأدب الرفيع الذي أدّب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله، وأمر رسوله(صلى الله عليه وسلم)، وألاّ يرموا أمراً، أو يبروا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة النبي الكريم حتى يستشيروه، ويستعصموا بإشاداته الحكيمة.

٢. التأدب في حضرة النبي(صلى الله عليه وسلم) حين الحديث إليه، فيجب خفض الصوت تعظيماً لقدره الشريف، واحتراماً لمقامه السَّامي، فإنه ليس كعامة الناس، بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال.

٣. تقرير دعائم المجتمع الفاضل، فتأمر المؤمنين بعدم السماع للإشاعات، والتثبت من الأنباء والأخبار التي تصلهم، لاسيما إن صدرت عن أشخاص غير موثوق فيهم وفي صدقهم وأمانتهم.

٤. الإصلاح بين المتخاصمين، ودفع عدوان الباغين.

٥. التحذير من السّخرية والهمز واللمز، والغيبة والتجسس والظن السيئ بالمؤمنين ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية.

٦. وختمت السورة بالحديث عن الأعراب الذين ظنوا كلمة تقال باللسان، وجاءوا يمنون على النبي(صلى الله عليه وسلم)إيمانهم، فبينت حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص والجهاد والعمل الصالح.

وقال الفخر الرّازي في تفسيره: هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله أو مع رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين: إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة ، أوخارجين عنها وهو الفسوق. والداخل في طائفتهم: إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام. قال: فذكر الله في هذه السورة خمس مرات»ياأيها الذين ءامنوا» وأرشد بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة[٢].

---

(١)محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير(الجزائر: قصر الكتاب، ط(٥)، ١٤١١ه/ ١٩٩٠م)، ج(٣)، ص(٢٣٠-٢٣١).

(٢)فخر الدِّين الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب(بيروت: دار الكتب العلمية، ط(١)، ١٤١١ه/ ١٩٩٠)،

سبب نزول الآية: قال ابن كثير[١] ذكر كثير من المفسرين أنها نزلت في الوليد بن عقبة رضي الله عنه حين بعثه رسول الله(صلى الله عليه وسلم) على صدقات بني المصطلق ، وقد روي ذلك من طرق ومن أحسنها مارواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٧٩ بإسناد ضعيف، ويرتقي إلى الحسن بشواهده) عن الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه، قال:»قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يارسول ارجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته فيرسل إلى رسول الله(صلى الله عليه وسلم) لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله(صلى الله عليه وسلم) أن يبعث إليه احتبس عليه السول، فدعا بسروات قومه فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله عز وجل ورسوله، فدعا ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله(صلى الله عليه وسلم) الخلف ولا أرى حبس رسوله إلاَّ من سخطة كانت فانطلقوا فنأتي رسول لله(صلى الله عليه وسلم). وبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وقال: يا رسول الله إن الحارث، منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله(صلى الله عليه وسلم) البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البعث ، وفصل من المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتهم؟ قالوا: إليك قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته وما أتاني. فلما دخل الحارث على رسول (صلى الله عليه وسلم) قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني وما أقبلت إلاَّ حين احتبس على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) خشيت أ ن تكون كانت سخطة من الله عزّ وجلّ ورسوله قال: فنزلت الحجرات»يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» إلى هذا المكان «فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم».

م(١٤)، ج(٢٧)، (٢٨)، ص(١٠٢).

(١)تفسير ابن كثير، ج(٤)، ص(٢٠٨).

وقال ابن عبد البر[١]:»ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عزَّ وجلَّ:» إن جاءكم فاسق بنبأ» «نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله عليه الصلاة ووالسلام إلى بني المصطلق مصدقاً فأخبر عنهم أنهم ارتدوا وأبوا من أداء الصدقة، وذلك أنهم خرجوا إليه فهابهم، ولم يعرف ما عندهم فانصرف عنهم وأخبر بما ذكرنا فبعث إليهم رسول الله(صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد رضي الله عنه، وأمره أن يتثبت فيهم فأخبروه أنهم متمسكون بالإسلام.

هذا ما ذكروه من سبب النزول، ولا إشكال فيه لو صحت الروايات، وذلك من وجوه[٢]:

- **أولاً:** ليس من الضروري ولا من منطوق الآية أو مفهومها أن المعنى بالفاسق هو الوليد رضي الله عنه.
- **ثانياً:** أن الفسق له اطلاقات في القرآن يطلق و يراد به الكفر، ويذكر مقروناً بالكفر، ويذكر مقروناً بالعصيان، ويبدو - والله أعلم - أن لأية تعني مثل ما يذكره الفقهاء لكلمة الفاسق ، وهو من ارتكب بعض المحظور من المسلمين ، وهم في هذا درجات حسب مخالفتهم.
- **ثالثاً:** أن الروايات التي ذكرت أن الوليد هو السبب لنزول الآية قد ذكرها ابن كثير واختار أقربها وأحسنها وإن لم تصح ولم يكن اختياره لها بسبب أنها ثابتة صحيحة من كلام الحارث بن ضرار الخزاعي المصطلقي رضي الله عنه فإن صحت فهي رأي صحابي في حادثة وقعت لصحابي- إن صح أنها وقعت من الوليد رضي الله عنه.ومع هذا فإن الرواية يقول ابن حجر:»فيها من لا يعرف».
- **رابعاً:** أن ابن عبد البر وهو محدث كبير وحافظ وثقة يشعر كلامه بأن هذه الروايات ليس منها ما هو مرفوع إلى النبي(صلى الله عليه وسلم) (ول إلى أحد من الصحابة

---

(١)ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب على هامش الإصابة في معرفة الصحابة، ج(٣)، ص(٦٣٢).

(٢)محمد الأنصاري: منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي، ص(٣٢٥-٣٣١).

رضي الله عنهم، لذلك اكتفى بقوله لا خلاف بين أهل العلم بالتأويل بالقرآن فيما علمت أن الوليد هو السبب في نزول الآية) فلم يعتمد على رواية مرفوعة إلى النبي(صلى الله عليه وسلم) ولم يعتمد على إجماع قطعي وإنما قال فيما علمت، وكم من غلط اشتهر عند الناس وكم من صحيح خفي على جل الناس...؟؟

- **خامساً:** وإذا تعلق خصوم الوليد رضي الله عنه ومن تأثر بهم واقتدى في ترويج الكذب، بما أشيع من أنه شرب الخمر ليستدلوا بذلك على فسقه–حاشاه رضي الله عنه– فتلك قصة لفقها بعض أهل الكوفة عليه، ممن أقام الوليد عليه الحد وعلى أبنائه ووقف في وجه باطلهم، فلم يجدوا وسيلة للانتقام منه إلاَّ بتلفيق الكذب عليه عند الخليفة عثمان فشهد بعض هؤلاء عند الخليفة بأنه رآه يقيء الخمر. فأمر عثمان رضي الله عنه علياً أن يقيم عليه ، وثبوت الحد بتقيّؤ الخمر مسألة خلافية بين الفقهاء ، وإقامة الحد عليه لا تدل على أنه شرب الخمر حقيقة؛ وإنما أقيم عليه الحد بناء على شهادة الشهود لا سيما وأن الأذى لم يقتصر على الوليد حتى تجاوزه إلى عثمان على أيدي دعاة الفتنة حتى قتلوه.. وقد كان الوليد رضي الله عنه موضع الثقة عند الخلفاء الثلاثة أبي بكر الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم، كل استعمله وقربه ولا يمكن ،كما أنه لا يعقل أن تكون له هذه المنزلة عندهم بالفسق في حياة النبي(صلى الله عليه وسلم)..
- **سادساً:** وإن ثبتت قصة الوليد رضي الله عنه واندرجت في عموم الآية فهل معنى ذلك أنه فاسق ، كما تزعم الشيعة في هذيانهم الذي لا ينبني على دليل واضح ومنهج صادق يعتمد عليه..؟
- **يقول ابن العربي:** "وكيف يفسق رجل بمثل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد(صلى الله عليه وسلم)؟". ويعجبني ما ذكره الفخر الرازي: "إن الله تعالى لم يقل إني أنزلتها لكذا، والنبي(صلى الله عليه وسلم) لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت ، وهو مثل التاريخ لنزول الآية، ونحن نصدق ذلك ، ويتأكد ما ذكرنا

أن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سيئ بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ؛ والمخطئ لا يسمى فاسقاً".

وجاء في الروايات ما يدعم ويساند ما ذكره الفخر الرازي من توهم وظن وهي رواية:"فلما سمعوا بدنو الوليد خرج منهم عشرون رجلاً يتلقونه بالجزر والغنم فرحاً به، فلما رآهم ولّى راجعاً إلى المدينة فأخبر النبي(صلى الله عليه وسلم)، أنهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة".

- **سابعاً**: وليس معنى قولهم سبب نزول الآية في كذا"أنه هو السبب المباشر، وإنما هو من باب الاستدلال على الحكم بالآية لا من باب النقل، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية" وقولهم نزلت هذه في كذا"يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما نقول عنى بهذه الآية كذا".

ثم ذكر شيخ الإسلام تنازع العلماء في قول الصحابي"نزلت هذه الآية في كذا" هل يجري مجرى المسند، كالسبب الذي أنزلت لأجله أو مجرى التفسير الذي ليس بمسند.فبعض العلماء يدخله في مجرى المسند كالبخاري، وبعضهم لا يدخله في المسند"وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند".

والذي يتلخص أن الآية ذكرت حكم قبول خبر الفاسق مطلقاً، ويصعب أن يخصص هذا ويصدق على رجل صحب النبي (صلى الله عليه وسلم) ووثق به النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ابن رجل كان شديد المناوأة للإسلام ورسوله فانفصل عن دين أبيه ودخل في دين الله، ومن الصعب كذلك أن يرسل الرسول(صلى الله عليه وسلم) جابياً إلى قوم بينه وبينهم عداء، ومما تجدر الإشارة إليه أن الإطلاق في الآية، وقد جاءت بعد الآيات التأديبية والتعليمية السابقة لها يشير إلى صلة بينها وبين سابقتها، صلة نزول، ووحدة سياق وموضوع ويسوغ التخمين أن الحادث قد وقع قبل نزول السورة فكان وسيلة للتنبيه والتحذير في سياق فصول التعليم والتأديب التي احتوتها السورة.

- **ثامناً:** ونحن لا نقول في الوليد رضي الله عنه شيئاً مع أننا لا نقول بعصمة غير النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولا نبرئ الوليد من الخطأ فإذا صحت هذه الحادثة فكل ما يقال إنها وافقت نزول الآية، وأسلوب الشرط أن المفيد للتوقع لا يدل على أن حدثاً وقع لأحد الصحابة، وإنما يطلب من المسلمين أن يلتزموا منهج التثبت والصدق و عدم العجلة، على افتراض مجيء من يغير الحقائق إن عمداً أو خطأً، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى يحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة لاستقامة أحوالهم ورسوخ إيمانهم وثبات عدالتهم، فكأن حسابهم في الدنيا فقط وراحتهم في الآخرة رضي الله عنهم.

ثانياً: ملامح الإعجاز الإعلامي في الآية :

فالآية بهذا نداء ثالث في السورة ابتدئ به غرض آخر وهو آداب جماعات المؤمنين فيما بينهم، وهي كما قال محمد سيد طنطاوي:"ترشيد المؤمنين في كل مكان وزمان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالاً سليماً، وإلى كيفية التصرف معها تصرفاً حكيماً، فتأمرهم بضرورة التثبت من صحة مصدرها، حتى لا يصاب قوم بما يؤذيهم بسبب تصديق الفسق في خبره، دون تأكد أو تحقق من صحة ما قال"[١]. في إعجاز علمي وإعلامي لم يتحدث عنه أحد من المفسرين المتقدمين والمتأخرين-فيما اطلعت عليه من كتبهم- تتبين ملامح هذا الإعجاز في الآتي:

(أ)عناصر العملية الإعلامية من خلال الآية :

بدأت فكرة عنصرة مكونات العملية الإعلامية والاتصالية مع تساؤلات هارولد لاسويل (H.Lasswel) الخمسة الشهرة، من ?Who يقول ماذا ? Says What بأي وسيلة (?In Which Channel) لمن (?To Whom) وبأي أثر(?With What Effect)

(١)محمد السيد طنطاوي: التفسير٠٠ الوسيط للقرآن الكريم(القاهرة: مطبعة السعادة، ١٤٠٦ه/ ١٩٨٦م)، ج(٢٥)، ص(١٧٩).

سنة(١٩٤٨)، ظهرت عديد من الرؤى والنظريات المحددة لهذه العناصر، سميت فيما بعد»بنماذج الاتصال»، انتقد بعضها انتقاداً شديداً، وعدّل البعض الآخر تعديلات متتالية لتبرز إلى اليوم نماذج متعددة لمكونات العملية الإعلامية والاتصالية؛ تجمع معظمها أن لهذه العملية عناصر خمسة أساسية: المرسل، المستقبل، الرسالة، الوسيلة، والأثر المترتب على هذه الرسالة أو العملية برمتها.

ولئن كان عمر هذه النظريات والرؤى والنماذج قصيراً جداً إلاّ أنها استطاعت أن تؤكد أن هذه العناصر الأساسية الخمسة لا تخلوا منها أي عملية إعلامية أو اتصالية مهما كانت بسيطة أو عشوائية وعابرة.

وهي تؤكد بالمقابل أن الدِّراسات الاجتماعية والإنسانية قد تكبدت الكثير من الجهود والأوقات لتصل إلى مثل هذه النتائج بعد قرون متطاولة جداً من البحث والدِّراسة المتتالية لمظاهر العمل الإعلامي والاتصالي كأحد المكونات الأساسية في الحياة الاجتماعية والثقافية على مر العصور والأزمنة، شأنها في ذلك شأن كثير من النظريات والأفكار المفسرة للعمليات الاجتماعية والثقافية والمشكلات والقضايا والأحداث التي نشأت وتنشأ مع بروز المدنيات والحضارات والدول، والمجتمعات الإنسانية المتعاقبة.

فالنماذج التي قدمت ، وما زالت تقدم لعنصرة العملية الإعلامية والاتصالية عبارة عن:»محاولات لتقديم العلاقات الكامنة التي يفترض وجودها بين المتغيرات التي تصنع حدثاً أو نظاماً معيناً في شكل رمزي»[١]

وقد رأت الدكتورة جيهان رشتي أن أغلب نماذج الاتصال تخدم أربع وظائف أساسية هي[٢]:

١. تنظيم المعلومات: فالنموذج عبارة عن محاولة لإعادة خلق العلاقات التي يفترض وجودها بين العناصر التي ندرسها في شكل مادي أو رمزي. فالباحث لا يستطيع وصف عملية الإعلام والاتصال لأنها عملية متغيرة بينما يوفر النموذج إطاراً يسمح

---

(١)جيهان رشتي: الأسس العلمية لنظريات الاتصال(القاهرة: دار الفكر العربي،د.ت)، ص(٧٠).

(٢)المرجع نفسه، ص(٧٥-٧٨).

بعزل المتغيرات الهامة ، ووصف دورها في العملية كلها لأنه يجمد هذه العملية مما يمكن من وصفها وتحديد عناصرها.

٢. تطوير البحوث العلمية: فعلم الاتصال والإعلام من أحدث العلوم، التي انفصلت عن العلوم الاجتماعية؛ ما زالت المعلومات المتوفرة حول كثير من مواضيعها وأساسياتها قليلة وغير موفية بغرض التأسيس لنظريات مستقلة في العلم، مما يدفع إلى المحاولة الدائمة والدائبة لزيادة هذه المعلومات، وتبرز النماذج في هذا الصدد لتسهل عملية الحصول على هذه المعلومات أول بأول، لأنها تجعل نظريات الإعلام والاتصال أبسط وأسهل في فهمها مما يساعد الباحث في تحديد الأمور والعناصر التي يرغب في دراستها، ومن ثم المساهمة في تطوير البحوث والدِّراسات الإعلامية.

٣. التنبؤ:والتنبؤ عملية تصورية لنتائج أوسع تترتب على استخدامنا للمعلومات التي توصلنا إليها في مواقف جديدة، فإذا ثبتت صحة تنبؤاتنا فإن معنى ذلك أن المعلومات التي أقمنا عليها الفهم والتنبؤ معلومات صحيحة فنحن حين نتنبأ نقيم في الواقع علاقات جديدة ليس من السهل التحقق من وجودها فعلاً بناء على معلوماتنا الماضية وحدها.

٤. التحكم: فالنماذج بصيغها البسيطة تساعد الباحث على تطوير المعارف الإعلامية والاتصالية في محاولات للسيطرة على الظواهر الإعلامية والقضايا والمشكلات من أجل حل أمثل ومعالجة وافية لها، والتحكم في آثارها السّلبية وتضاعيفها التي قد تتجاوز حدود وقدرات الباحثين في التحكم فيها أو السيطرة عليها.

وقد احتلت النماذج مكانا بارزا في العلوم الاجتماعية لما تحققه من وظائف متعددة كما سبق الإشارة إليها، ولذلك اتجه الباحثون في علوم الإعلام والاتصال لعرض النظريات والتعميمات من خلال النماذج التي تعمل على تبسيط المعرفة وتسهيل إدراكها بالنسبة للقارئ.

ولكن مهما كانت دقة النموذج وصحته فإنه يؤخذ عليه أنه يعرض أو يقدم عملية الاتصال في الحالة الساكنة. أي أنه حتى في النماذج الوظيفية لا تجسد حركة العناصر وتفاعلاتها مع بعضها، حيث لا تزيد عن مجرد شكل أو صورة تحتاج إلى مزيد من الشرح

والتفسير لتجسيد العلاقات بين المتغيرات وحركتها، وترتيب أهميتها. وذلك تجنبا لإغفال أي من العناصر أو المتغيرات أو إغفال تأكيد أهميتها[1].

وفي(١٨)كلمة في جملة واحدة من السورة استطاعت الآية أن تحدد عناصر العملية الإعلامية الأساسية، وشروط كل عنصر في عملية تفاعلية تتحرك فيها الأحداث في ذهن المتلقي للخطاب الإلهي كأنه يعايش الواقعة بعيدا عن التجريد للعملية أو التجميد لها. في إعجاز بياني واضح تتحدى من خلاله ذوي الكفاءات البيانية والبلاغية على أن يوجزوها بهذه الطريقة. فتحدثت عن:

١. **المرسل:** «إن جاءكم فاسق» بطريق مفهوم المخالفة؛ وشروطه من الصدق والثقة، والمهنية عالية المستوى.

٢. **المستقبل:** «يا أيها الذين ءامنوا»، وشروطه؛ من الفطنة، التمحيص، عدم التسرع في الأحكام وتصديق كل ما يبث إليه(هم)، وحسن اختيار مصادره، ومشاركته في الحفاظ على مهنية العمل الإعلامي.

٣. **الرسالة:** "بنبأ" وشروطها:الأهمية،الصدق،وحاجة الجمهور إليها أو مدى أهميتها بالنسبة للجمهور المستقبل لها.

٤. **الوسيلة:** «إن جاءكم» تضميناً للكلمة بأي وسيلة كانت شفاهية، أو مكتوبة ولم تذكر الوسيلة صراحة ولا شروطها، لأن الوسيلة في الأصل محايدة، وإن استوحيت شروطها من سياق الحديث عن المرسل والمستقبل، وأنها كذلك يجب أن تكون مشروعة.

٥. **الأثر:** المترتب على مثل هذه الرسائل وغيرها، وحساب عواقبه الوخيمة، وبالمقابل الحسنة في مفهوم المخالفة ممن سياق الآية.

---

(١)محمد عبد الحميد: نظريات الإعلام واتجاهات التأثير(القاهرة: عالم الكتب، ط(٢)، ٢٠٠٠)، ص(٥٨).

(ب) نداء المؤمنين ونظرية السياق الاتصالي:

تنبه بعض الباحثين إلى الظروف التي تتم فيها عملية الإعلام والاتصال ، وتأثيرها على مسار العملية ، وتأثيراتها في الجمهور المستقبل لرسائلها،بعد التعديلات المتتالية التي حدثت لنموذج هارولد لاسويل، فقد قدم برادوك(R.Braddock) سنة(١٩٥٨) إضافة جديدة على نموذج لاسويل، تؤكد على ضرورة أن يوضع في الاعتبار حقيقتان في عملية الاتصال؛

- **الأولى:** الظروف التي تتم فيها بث الرسالة وإرسالها، وهي ترتبط بالدرجة الأولى بالمناخ أو التأثير الاجتماعي والثقافي المحيط به في اختياره للفكرة أو الرأي أو الخبر الذي يريد إيصاله إلى الجمهور في هذه البيئة.
- **الثانية:** الأهداف التي يهدف إلى تحقيقها المرسل أيضاً، لذلك أعاد صياغة نموذج هارولد لاسويل في العبارة الآتية: من؟ يقول ماذا؟ بأي وسيلة؟ لمن؟ تحت أي ظروف(Under whatcircumstances?) ولأي هدف(For what? Purpose) وبأي تأثير؟[1]

بعد أن كان قد استقر لسنوات طويلة في الفكر الاتصالي مفهوم العزلة الاجتماعية في تعريف جمهور وسائل الإعلام، وبالتالي التأثير المباشر لوسائل الإعلام على الأفراد المنعزلين من هذا الجمهور، وما صاحب المفهوم من نظريات في التأثير مثل نظرية الطلقة السحرية(magic Bullit) أو الحقنة تحت الجلد والتي سادت خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. حتى كانت البحوث التي قام بها لازار سفيلد وبيرلسون كاتز ومورتون. وغيرهم والتي نمت بعد الحرب العالمية الثانية وخلال الخمسينات ، وأشارت إلى تدفق المعلومات إلى الجمهور على مرحلتين. وأهمية دور قادة الرأي، وتأثرهم بوسائل الإعلام، والأفراد الآخرين، وتأثير شبكة العلاقات الاجتماعية على اتخاذ القرارات الاتصالية، وأهمية التباين والاتفاق داخل الجماعات...وغيرها من النتائج التي أكدت على أن الأفراد في جمهور المتلقين ليسوا ذرات منفصلة أو وحدات منعزلة ، ولكنهم ينتمون بشكل أو بآخر إلى شبكة من البناءات

---

(١)المرجع نفسه، ص(٦١).

الاجتماعية التي تؤثر على قراراتهم واتجاهاتهم نحو مخرجات عمليات الإعلام والاتصال.

هذه البحوث كان لها تأثير كبير في اتجاه الباحثين في الاتصال على تأكيد الانتماء الاجتماعي لأطراف عملية الإعلام والاتصال. في سياق هذه العملية ونتائجها، ليس فقط بالنسبة لإدراك المستقبل أو المتلقي وتعرضه لوسائل الإعلام، ولكن أيضاً في التأثير على المرسل أيضاً، من خلال تأثير شبكة العلاقات الاجتماعية على اتجاهات الأفراد نحو عملية الاتصال وعناصرها ونتائجها.

فأعضاء جمهور المتلقين هم أعضاء متفاعلون مع أفراد الجماعات، يناقشونهم، ثم يتفاعلون مع الرسالة الإعلامية، وبذلك يكون التأثير من خلال الأفراد في علاقتهم ببعضهم البعض. وكذلك أكد الباحثان جون ريلي، ومارتيلداريلي على تأثير الجماعات الأولية والبناءات الاجتماعية الأخرى في المجتمع على كل من المرسل والمستقبل، وكذلك تأثير السياق الاجتماعي العام على عملية الإعلام والاتصال.

وقد اعتمد الباحثان ريلي على نموذج لازويل في مناقشتهم لعملية الاتصال وعناصرها. واهتم الباحثان بصفة خاصة بتأثير الجماعات الأولية -كالعائلة مثلاً- كجماعات مرجعية لكل من المرسل والمستقبل. وتقوم رؤيتهم على تحليل الاتصال الجماهيري في إطار اجتماعي على اعتبار أن الاتصال الجماهيري نظام اجتماعي بين أنظمة أخرى في السياق الاجتماعي العام[١]

وفي السِّياق نفسه، وفي إطار مفهوم البيئة الاتصالية وتأثيراتها يشير بركو إلى التأثيرات البيئية في عملية الاتصال؛ حيث يرى أن الأفراد هم نتاج خبراتهم وتأثيرات بيئتهم. وبيئة الأفراد وهي التي تفرض عليه نمط الاتصال، وهي التي تقوم بتشكيل الاتجاهات والقيم والمعتقدات، والفرد يتأثر بمن حوله(مثل العائلة والأصدقاء، ووسائل الإعلام)، ثم بالمجتمع ككل.

هذه هي النظريات التي توصلت إليها البحوث الإعلامية مع بدايات النصف من القرن

---

(١) نقلاً عن؛ محمد عبد الحميد: نظريات الإعلام، واتجاهات التأثير، ص(٧٨).

العشرين لتؤكد أن للبيئة الاتصالية أثراً كبيراً في توجيه العمليات الإعلامية الاتصالية. وكانت الآية السادسة من سورة الحجرات التي نزلت قبل سنة ١٤٢٠)سنة ماضية الآن، أي قبل(١٣٧٠ سنة) سابقة تنبه علماء الاتصال لدور السياق الاتصالي في عملية الإعلام والاتصال، والتي ابتدأت النداء للمؤمنين فقال تعالى: « يا أيها الذين ءامنوا »، ولم تبدأ بتوجيهه للناس كافة فلم تقل « يا أيها الناس»، مع أن العمل الإعلامي الاتصالي نشاط اجتماعي تمارسه كل الجماعات البشرية على اختلاف أعراقها ودياناتها وأعرافها. في إعجاز علمي ينبه إلى أهمية الانتماء الاجتماعي في توجيه العمل الإعلامي والاتصالي.

وفي هذا السياق جاءت بعض الإشارات التفسيرية التي تؤكد هذا المعنى.فقد قال الألوسي في روح المعاني:» ولما كان رسول الله(صلى الله عليه وسلم) والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلاّ في الندرة قيل: «إن جاءكم» بحرف الشك...وفي النداء « يا أيها الذين ءامنوا» دلالة على أن الإيمان إذا اقتضى التثبت في نبأ الفاسق، فأولى أن يقتضي عدم الفسق، وفي إخراج الفاسق عن الخطاب ما يدل على تشديد الأمر عليه من باب (لا يزني الزاني وهم مؤمن)، والمؤمن لا يكذب»[١].

وقال صاحب التفسير الوسيط:»والتعبير «بإن» المفيدة للشك للإشعار بأن الغالب في المؤمن أن يكون يقظاً، يعرف مداخل الأمور ، وما يترتب عليها من نتائج، ويحكم عقله فيما يسمع من أنباء، فلا يصدق خبر فاسق إلاّ بعد التثبت من صحته»[٢].

وقال الفخر الرازي:»إن جاءكم فاسق بنبأ» إشارة لطيفة، وهي أن المؤمن كان موصوفاً بأنه شديد على الكافر غليظ عليه، فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ، فإن تمكن منه يكون نادراً، فقال:« إن جاءكم» بحرف الشرط الذي لا يذكر إلاَّ مع التوقع، إذا لا يحسن أن يقال: إن احمر البسر، وإن طلعت الشمس»[٣].

---

(١) شهاب الدِّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ج(٢٥)، ص(١٤٥).

(٢) محمد السيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ج(٢٥)، ص(١٧٨).

(٣) الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج(٢٧– ٢٨)، م(١٤)، ص(١٠٣).

(ج) الرسالة الإعلامية ومبدأ أهمية الخبر:

وصفت الرسالة في الآية «بالنبأ» فقال تعالى:« يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبنوا». والنبأ: كما جاء في»لسان العرب»: الخبر، والجمع أنباء، وإن لفلان نبأ أي خبراً»[١]وقال في تاج العروس: النبأ محركة الخبر وهما مترادفان، وفرّق بينهما البعض.وقال الراغب: النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علمٍ أو غلبة ظن ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، ويكون صادقاً، وحقه أن يتعرى عن الكذب، كالمتواتر، وخبر الله، وخبر الرسول(صلى الله عليه وسلم). ولتضمنه معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا، ولتضمنه معنى العلم يقال: أنبأته كذا. قال وقوله تعالى: « إن جاءكم فاسق بنبأ» الآية، فيه تنبيه على أن الخبر إذا كان شيئاً عظيماً فحقه أن يتوقف فيه. وإن علم وغلب على صحته الظن، حتى يعاد النظر فيه ويتبين»[٢]

وفي قراءة لبعض المعاجم العربية الأخرى تبين أنها لم تفرق بين»النبأ والخبر» وقالت:بأنهما مترادفان، فالنبأ هو الخبر والجمع أنباء، والخبر هو النبأ والجمع أخبار.في حين نبَّه الزبيدي في تاج العروس وعزا الكلام للراغب أن اللفظين بينهما فرق واضح؛ فالنبأ عنده الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي نستفيد منه علماً أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة.

وبالعودة إلى القرآن الكريم نجد أن كلمة»نبأ» ومشتقاتها قد وردت(٨٠) مرة،(١٥) منها لكلمة «نبأ»، و(١) لكلمة «نبأه» للمفرد الغائب، ومرة لكلمة»نبأهم» لجمع الغائبين، وعشر(١٠) مرات لكلمة «أنباء»، ومرة لكلمة»أنبائكم» لجمع المخاطبين ومرة لكلمة»أنبائها» لجمع غير العاقل وهي(القرى).. والباقي وعدده (٥١) للمشتقات؛ نبأت(١)، نبأتكما(١)، نبأني(١)، نبأها(١)، أنبئوني(١)، أنبئكم(٨)، لتنبئهم(١)، ينبئك(١)، ينبئكم(٩)، ينبئهم(٦)، نبئ(١)، نبئنا(١)، نبئهم(٢)، نبئوني(١)، لتنبئون(١)، ينبأ(١)، أنبأك(١)، أنبأهم(١)، أنبئهم(١)، أنبئوني(١)، يستنبئونك(١).

---

(١) ابن منظور: لسان العرب(بيروت: دار الفكر، ١٣٠٠ه)، م(١)، ص(١٦٢).

(٢) الزبيدي؛ محمد مرتض: تاج العروس من جواهر القاموس(القاهرة: ط(١)،١٣٠٦ه)، ج(١) فصل النون من باب الهمزة، ص(١٢١).

وإذا تتبعنا الآيات التي وردت فيها كلمة «نبأ» نجد أنها قد جاءت في خمس عشرة آية، جاءت العشرة منها لتتحدث عن:

١. قال تعالى: « واتل عليهم نبأ ابني ءادم بالحق» (٢٧)المائدة.

٢. قال تعالى: « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين» (٣٤)الأنعام.

٣. قال تعالى: « واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها»(١٧٥)الأعراف.

٤. قال تعالى: « ألم ياتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والموتفكات أتتهم رسلهم بالبينات»(٧٠)التوبة.

٥. قال تعالى: « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه»(٧١)يونس.

٦. قال تعالى: « ألم ياتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود»(٩) إبراهيم.

٧. قال تعالى: « واتل عليهم نبأ إبراهيم»(٦٩)الشعراء.

٨. قال تعالى: « نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يومنون»(٣)القصص.

٩. قال تعالى: « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب»(٢١)ص.

١٠. قال تعالى: « ألم ياتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم»(٥)التغابن.

والملاحظ أن كلمة «نبأ» قد جاءت في كل تلك الآيات السَّابقة بمعنى الخبر الصحيح الهام الذي له بشأن من الفائدة والجدارة بالاهتمام، كما استعمل في الإخبار عن أحداث بعيدة، تاريخها موغل في القدر ضارب في شعاب الزمن[١] .

وجاءت الخمسة منها المتبقية لتستعمل كلمة «نبأ» للحديث عن الأخبار الهامة ذات الفائدة العظيمة، وهي على النحو الآتي:

١. قال تعالى: « لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون»(٦٧)الأنعام، فالنبأ هنا الخبر الذي له

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار(القاهرة:١٩٧٢)، ج(٦)، ص(٢٨٢).

شأن يهتم به، والمعنى أن لكل شيء ينبأ عنه مستقرا تظهر فيه حقيقته ، ويتميز حقه من باطله، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه، وسوف تعلمون مستقر ما أنبأ به القرآن الذي كذبتم به من وعد ووعيد[١]

٢. قال تعالى: « فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين»(٢٢)النمل.

٣. قال تعالى: « قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون»(٦٧)،(٦٨)ص.أي قل لهم يا محمد: إن هذا القرآن الذي جئتكم به هو نبأ هام وأمر عظيم الشأن، أنتم عنه غافلون لا تلتفتون إليه، ولا تعلمون قدره[٢].

٤. قال تعالى: « يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»(٦) الحجرات.

٥. قال تعالى: « عم يتساءلون عن النبأ العظيم». قال صاحب الظلال في تفسير الآية:»عما يتساءلون؛ تفخيم بالإبهام، يعني عن أي شيء يتساءلون؟ وهذا التفخيم بالإبهام دلالة على تعظيم المسؤول عنه، وحين يعظم الحق تبارك وتعالى المسؤول عنه، دلالة على أن ذلك أمر عظيم حتى يقول الحق عنه إنه عظيم، وتعظيمه على قدر علمه سبحانه وتعالى. ونحن نعلم أن(النبأ) ليس مطلق خبر، وإنما هو الخبر الخطير الشأن الذي يتعلق بأمر عظيم، ولا شك أن غايات التدين كلها إنما تؤول إلى معرفة سر ذلك اليوم لأنه الحصيلة، ولأنه الحصاد الذي سيأتي في نهاية الدنيا، ليحاسب فيه كل إنسان عما قدّم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فلا بد أن يكون أعظم حدث يتعلق بالإنسان[٣].

هذا إضافة إلى أن كلمة(نبأه) جاءت مرة واحدة، وهي بمعنى الخبر العظيم كذلك فقد قال تعالى: « ولتعلمن نبأه بعد حين»(٨٨)ص، أي ولتعلمن خبره وصدقه عن قريب، فهذا النبأ العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم، وليعلمن نبأه يوم الوقت المعلوم، عندما يحق وعد الله اليقين[٤].

---

(١) المرجع نفسه، ج(٧)، ص(٤١٨).

(٢) محمد على الصابوني: صفوة التفاسير، ج(٣)، ص_٦٤-٦٥).

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج(٣٠)، ص(٣٨٠٣).

(٤) المرجع نفسه، ج(٢٣)، ص(٣٠٢٩).

ووردت كذلك كلمة « **نبأهم** » بمعنى الخبر العظيم أيضاً، مرة واحدة في قوله تعالى: « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية ءامنوا بربهم وزدناهم هدى» (١٣) الكهف. أي نحن نقص عليك يا محمد هؤلاء الفتية العجيب على وجه الصدق، دون زيادة أو نقصان، فهم مجموعة شبان ءامنوا بالله، فثبتناهم على الدِّين وزدناهم يقيناً وهدى على يقينهم واعتقادهم.

فالنبأ هو الخبر العظيم، وقد وصفت الرسالة الإعلامية في الآية "بالنبأ"، ولم توصف بالخبر تدليلاً على أن الرسالة الإعلامية يجب أن تتصف بالأهمية وتلبيتها لحاجات الجمهور، فإن كانت بهذه الصفة وجب التثبت في تلقيها من مصادر أخرى غير الفاسق الذي جاء بها. لأن نتائج تصديق خبر الفاسق ستكون وخيمة على الجمهور المتلقي. فهي تقول للمؤمنين: «يا من ءامنتم بالله حق الإيمان، إن جاءكم فاسق بخبر من الأخبار، ولاسيما الهامة؛ فلا تقبلوه بدون تبيين أو تثبت، بل تأكدوا وتيقنوا من صحته قبل قبوله منه»[(١)].

وفي هذا تحدثت التنظيرات الإعلامية المتتالية أنه حتى تكون الرسالة الإعلامية فعالة وناجحة في التأثير في الجمهور المستقبل وإقناعه يجب أن تتوافر فيها الشروط الآتية[(٢)]:

١- أن تصمم الرسالة بحيث تجذب انتباه المستقبل؛ وحتى يتحقق ذلك ينبغي مراعاة الآتي:

* أن يتناسب موضوع الرسالة مع حاجة المستقبل؛ فالرسالة التي يجد فيها المستقبل مصلحته أو تحقق له حاجات معينة يهتم بها تلقى استجابة كبيرة من جانبه ويتجاوب معها. وقد توصل فرانك لوثر إلى قاعدة مؤداها أن: اختيار المستقبل لرسالة ما متوقف على العلاقة بين الفائدة التي ينتظرها من جهة، والجهد المبذول في الحصول على هذه الرسالة من جهة أخرى؛ **ويعبر عن ذلك بالمعادلة التالية :**

---

(١) محمد السيد طنطاوي: التفسير الوسيط، ج(٢٥)، ص(١٩٧).

(٢) انظر في ذلك؛سلوى عثمان الصديقي:أبعاد العملية الاتصالية، ص (٣٩،٤٠).

$$\textbf{الاختيار} = \frac{\text{الفائدة المرجوة من الرسالة}}{\text{الجهد المبذول في الحصول عليها}}$$

والأكيد أن المستقبل يفضل الحصول على المتيسّر له، القريب منه عن الذهاب إلى مكان بعيد للحصول عليه، إلاّ أن يكون الاهتمام منصبا على خبر بعينه فيتحتم على المستقبل حينئذ الاستعداد لبذل جهود مضاعفة لكي يعرف هذا الخبر أو الرسالة.

* صياغة الرسالة بحيث تحتوي على مثيرات تضمن استمرار انتباه المستقبل وتشوقه لمتابعتها.

* اختيار الوقت المناسب لإرسال واستقبال الرسالة، فلكي تلقى الرسالة استجابة من المستقبل ينبغي أن توجه إليه في أوقات وأزمنة وأماكن تتناسب مع ظروفه.

٢ - يجب أن يصوغ المرسل رسالته صياغة تناسب المستقبل، فلا يستعمل إلاّ الرموز أو اللغة التي يفهمها هذا المستقبل؛ فالرمز الذي يستخدمه المرسل في رسالته يدل على معنى معين. وكي تتحقق عملية الاتصال ينبغي أن يتماثل المعنى الذي يثيره الرمز عند المستقبل مع المعنى الذي قصده المرسل عند صياغته.

ونستطيع أن ندرك أهمية ذلك لنجاح عملية الاتصال إذا تصورنا أن شخصين يتحدثان بلغتين مختلفتين؛ فإنهما لا يقدران على التفاهم عن طريق الكلام أو الكتابة بسبب عجز كل منهما عن الربط بين الألفاظ التي يسجلانها ومعاني هذه الألفاظ، ويتوقف تماثل المعنى للرمز بين المرسل والمستقبل على وجود الخبرات المشتركة بينهما أو الإطار الدلالي المشترك.

٣ - ينبغي أن تصاغ الرسالة بما يتناسب مع وسائل الاتصال المتاحة للمرسل؛ فالرسالة التي تبذل جهود مضنية في إعدادها مع عدم توفر الوسيلة التي تناسبها لنقلها تصبح عديمة الجدوى.لذلك يرى جورج كلير توافر خمسة متغيرات أسلوبية حددها في[١]

- القابلية للاستماع(الانسماعية)أو القابلية للقراءة (الانقرائية): وهي صفات ترتبط

---

(١)نقلا عن؛ حسن عماد مكاوي:الاتصال ونظرياته المعاصرة ، ص(٥٥،٥٦).

بفعل الرسالة إذ يجب أن تحتوي الرسالة على كلمات سهلة وبسيطة وجمل قصيرة.

- أن تتضمن الرسالة اهتمامات المتلقي ومصالحه.
- تنوع المفردات؛ ويعني ذلك تجنب تكرار الكلمات.
- الواقعية؛ أي التعبير عن الواقع وتجنب استخدام التجريد سواء في الأحداث أو الظروف.
- القابلية للتحقق؛ ومعناها اشتمال الرسالة على جمل وعبارات علمية يمكن اختبارها والتأكد منها في الواقع.

ويورد تان-في الصدد-تعميمات لبعض النتائج المستخلصة من البحوث التي أجريت حول خصائص الرسالة الفعالة هي[1]:

- إن الرسائل ذات النتائج الواضحة أكثر فعالية من الرسائل ذات النتائج الضمنية في تغيير آراء المتلقين؛ ذلك أن المتلقي لا يدرك غالبا الهدف من الرسالة مالم يكن واضحا أمامه.
- تزداد قابلية التغيير في الآراء عندما تناقش الرسالة معلومات سارة، ومتفق عليها عند المرسل والمتلقي، أكثر من مناقشة معلومات خلافية وغير سارة بينهما.
- المواد التي تبدأ بها الرسالة هي التي يتم تعلمها بشكل أفضل،ويتلوها بعد ذلك المواد التي تأتي في النهاية، أما التي تأتي في الوسط فإنها الأقل منزلة من حيث التعلم.
- ترتبط فعالية الرسالة–بعرضها لجانب الموضوع أو جانبي الموضوع– بالجمهور والمصدر والخصائص الأخرى للرسالة. فعرض وجهة نظر واحدة للموضوع يكون فعالا إذا كان الجمهور يتفق مع نتائج القائم بالاتصال، وإذا كان ذكاء المتلقين محدودا، أو تعليمهم بسيطا،وكانت معرفتهم بالموضوع ضئيلة، وكان المتلقون لا

(١) انظر؛ حسن عماد مكاوي:الاتصال ونظرياته المعاصرة،ص(٥٥،٥٦)

يتعرضون لوجهة النظر الأخرى، وإذا كان الموضوع غير مثير للجدل. وأما عرض وجهتي النظر(دحض آراء الخصم)فيكون أكثر فعالية عندما يكون المتلقون ذوي ذكاء مرتفع، أو تعليم عال، وإذا كان الموضوع مثار الجدل وموضع المعارضة، وإذا كان المتلقون على معرفة بالموضوع ويمكنهم أن يتعرضوا للآراء المعارضة.

- تتساوى الفعالية في الإعلانات التي تقارن بين سلعتين والإعلانات غير المقارنة،ويمكن أن تكون الإعلانات المقارنة أكثر فعالية في الأحوال الآتية:

  عندما تكون السلعة المعلن عنها لها سوق ضئيل أو كانت جديدة.

  إذا كانت خاصية التفوق وذات معنى يمكن استعراضه وإثباته.

  إذا لم يكن للجمهور المستهدف أفضليات سلعية ثابتة.

  إذا كان للإعلان المقارن ابتكارية مميزة من حيث صنف السلعة.

- تكرار التعرض للرسالة يؤدي إلى زيادة الموافقة على ما تطرحه من أفكار، والتكرار الزائد جدا قد يقلل الموافقة حيث يؤدي إلى التبرم والتخمة،وعموما يؤدي التكرار الزائد إلى موافقة أكثر من عدم التعرض، ويمكن أن تعمل فترة عدم التعرض على تحييد أي تأثيرات مرتدة تنتج عن التعرض الزائد.
- لا يوجد اختلاف بين تأثير الاستمالات العاطفية والعقلية في الإقناع.
- الاستمالة المتوسطة للخوف تكون أكثر تأثيرا في تحقيق الإذعان من استمالات الخوف المرتفعة أوالمنخفضة.

(د)الإعلامي؛ خصائصه وشروطه:

في دراسات راجعها ألكسيس تان(A.tan) سنة(١٩٨١) توصل إلى أنه توجد ثلاثة عوامل أساسية تجعل مرسل الرسالة الإعلامية والاتصالية(المصدر) مؤثر في إقناع جمهوره هي:

١-**المصداقية:** تشير معظم نتائج البحوث إلى درجة الارتباط العالية والوثيقة بين الصدر والثقة فيه من جانب الجماهير، ودرجة الاستقبال والتصديق التي تلقاها الرسالة الاتصالية التي يقدمها هذا المصدر. وترتبط هذه النتائج بما يسمى «بمصداقية المصدر» أو قابلية المصدر للتصديق أوالثقة فيه، والتي تشير في مجملها إلى أن الرسائل الاتصالية التي يتم بثها من مصادر عالية التصديق تزيد من درجة إقناعية الرسالة ذاتها.

ويعتمد قياس مصداقية المرسل أو القائم بالاتصال على عنصرين أساسيين هما[١]: الخبرة (Expertise) وزيادة الثقة في القائم بالاتصال (Trustwarthiness). ويفسر مفهوم الخبرة بمدركات المتلقي عن معرفة المصدر للإجابة الصحيحة عن السؤال أو القضية المطروحة وموقفه السليم منها، وهذه تعتمد على: التدريب، التجربة والقدرة، الذكاء، الإنجاز المهني، والمركز الاجتماعي. والشخص الخبير هو الذي يملك المعلومات الصادقة والحقيقية عن الموضوع الذي يتحدث فيه أو يناقشه مع المتلقي.

ويشير عنصر الثقة إلى إدراك المتلقي عن المرسل أو المصدر بأنه يشارك في الاتصال بشكل موضوعي ودون تحيز. والمصدر الموثوق فيه هو الذي يميل إلى تقديم معلومات موضوعية عما يمكن أن يحدث في العالم الحقيقي، وبالتالي فإن التوصيات التي تنتج عن هذه المعلومات يمكن تصديقها. إلا أن المشكلة عادة ما تكمن في أن الشخص الخبير قد لا يكون موثوقا به.

لذلك على المصدر أو المرسل أن يحاول دائما الوصول إلى ثقة المستقبل لأن هذه الثقة هي الأساس الذي يبني عليه المستقبل تصديقه الرسالة فالناس يؤمنون عادة بذوي الكفاءات الكبيرة، ويتأثرون بالشخصيات المحبوبة.

وقد أجريت عدة دراسات حول تأثير المرسل أو المصدر على المستقبلين؛ ومنها التجارب العلمية التي أجراها هوفلاند ونايس؛ حيث اختارا مجموعتين من مستقبلين رسائل اتصالية؛ عرضا الأولى لمصدر موثوق به إلى حد كبير، والثانية لمصدر أقل ثقة من الأولى بكثير فكانت النتائج كالتالي[٢]:

---

(١) انظر؛محمد عبد الحميد: نظريات الإعلام واتجاهات التأثير (القاهرة : عالم الكتب، ط(٢)، ٢٠٠٠)، ص(٩٦).

(٢)نقلا عن؛محمد السيد فهمي:تكنولوجيا الاتصال في الخدمة الاجتماعية،ص(٨٩).

- إن المصدر الموثوق به تستطيع أن تقتنع بوجهة نظره إلى درجة تبلغ ثلاثة أضعاف ونصف الدرجة التي يبلغها المصدر الأقل ثقة. ونشير إلى أنه ليس المقصود بالثقة مطلقها، ولكن ما يتصور المستقبل نفسه وفكرته عن المصدر. وفي هذا الإطار أسفرت مجموعة من الدراسات فيما يتعلق بأمانة المصدر وجدارته بالثقة من جانب الجمهور عن ما يأتي[١]:
- أنه على الرغم من الجمهور يكتسب أولا الكمية نفسها من المعلومات بغض النظر عن درجة مصداقية المصدر، إلا أنه يحكم على هذه المعومات بعد ذلك من حيث صحتها أوخطئها، ملاءمتها له أوعدم ملاءمتها طبقا لمعيار الثقة من جانبه في المصدر.فإذا كانت المعلومات منسوبة إلى مصدر منخفض المصداقية انخفضت درجة ثقة الجمهور فيها، بعكس الحال بالنسبة للمعلومات المنسوبة إلى مصدر عالي التصديق والثقة، والتي يتم استقبالها بدرجة عالية، وعلى أساس أنها أكثر صحة ومنطقية فيما تخلص إليه من نتائج وتفسيرات.
- أن التغير في الاتجاه الذي يستهدفه المصدر يكون عاليا عندما يكون المصدر موثوقا به،ومنخفضا إذا كان المصدر غير موثوق به،وهذا يؤكد أن أمانة المصدر وجدارته بالثقة يمثلان جانبا مهما من جوانب قابلية المصدر للتصديق.

٢ - **الجاذبية:** وتتحقق حين يكون المرسل قريبا من الجمهور من النواحي النفسية والاجتماعية والإيديولوجية، إذ أننا نحب المرسل الذي يساعدنا على التخلص من القلق والضغط والتوتر وعدم الأمان، ويساعدنا على اكتساب القبول الاجتماعي والحصول على ثواب شخصي لأنفسنا.

ونظرا لصعوبة قياس هذه الخاصية موضوعيا، فقد ركز كثير من الباحثين على محددات خاصة لهذا المفهوم تتمثل في[٢]: التشابه والتماثل(Similarity)، المودة(Familiarity)،

---

(١)منى سعيد الحديدي وسلوى إمام على: الإعلام والمجتمع، ص(٧٩).

(٢)انظر؛ محمد عبد الحميد: نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، ص(٩٧-٩٩).

والحب(Liking). وذلك بناء على الفرض القائل بأن المصدر أو المرسل ذو الجاذبية سيكون أكثر تأثيرا عن الشخص المحايد أو الذي ليس له جاذبية في عملية الاتصال أو الإقناع.

- فنحن ننجذب إلى الأشخاص الذين يشبهونا ونتأثر بهم عن الأشخاص الذين يختلفون عنا، وتشمل عملية التشابه أو التماثل؛ التشابه في الخصائص الديمغرافية والخصائص الفكرية أو العقائدية، فالمتلقي يميل إلى التأثر بالمرسل الذي يشاركه خصائصه العامة مثل: العمر، درجة التعلم، المهنة مستوى، الدخل الدين، مقر الإقامة،...حيث يرى المتلقي أنه يمكن التوحد معه لأنه غالبا ما يكون له الحاجات والأهداف نفسها.

وكذلك يميل المتلقي إلى المصدر الذي يشاركه في الآراء والاتجاهات. ويرى الباحثون أن عنصر الخصائص الفكرية والعقائدية أكثر قوة من التشابه الديمغرافي.

- وتزيد المودة من التفاعل بين الأشخاص مما يدفعهم إلى هذا الانجذاب.
- ومن جانب آخر فإن التشابه والمودة يقودان إلى الحب.ويعتبر التدعيم مدخلا لأن نحب الآخرين، حيث نحب من يثيبنا ونكره من يعاقبنا، وقد يتزايد الحب مع زيادة العائد الذي يتمثل في تخفيف التوتر والضغط والعزلة والخوف. وبالإضافة إلى تخفيف التوتر فنحن نميل إلى اكتساب تقدير الآخرين والقبول الاجتماعي ونحب من يساعدنا على ذلك.

وتشير النتائج العامة لبحوث الجاذبية إلى أن الحب والمودة والتشابه ذات علاقة إيجابية بتغيير الآراء، وإن لم يكن هناك تأكيد كاف على ما إذا كانت الجاذبية تسبب تغيير الآراء أم أن تشابه الآراء هو الذي يحقق الجاذبية.

٣ - **قوة المصدر:** فقد لا يمتلك المرسل أو القائم بالاتصال المصداقية أو الجاذبية، ولكن يظل له التأثير في تغيير اتجاهات الأفراد وسلوكياتهم، مثل هذا تكون له القوة التي يمكن إدراكها من خلال سيطرته وضبطه للأمور، وكذا أهميته، بالإضافة إلى قدرته على التدقيق والتمحيص. وإدراك المتلقي للضبط والسيطرة يظهر في قدرة المرسل ، أو المصدر على تقديم

الثواب والعقاب ، وهذا يعادل تماما التأثير بالإذعان، وإدراكه لأهميته يظل مرهونا بقدر اهتمام المصدر برضا المتلقي من عدمه، وإدراكه للتدقيق يكون امتدادا لقدرة المرسل على ملاحظة تكيف أو رضا المستقبل.

والإذعان يشمل توقعات الجمهور لتوصيات المصدر دون تعهدات خاصة منه. وبذلك فإن التأثير قد يظهر في دافعية المتلقي للحصول على الثواب أو تجنب العقاب الذي يمكن أن يفرضه المصدر. وإضافة إلى ما تقدم نقول: تؤدي مصداقية المصدر إلى تفاعلنا الداخلي مع الأفكار الجديدة، وتحقق جاذبيته الشعور بالتوحد، وتؤدي القوة إلى الحصول على الموافقة أو الإذعان. ومن خلال الدراسات التي راجعها الكسيس تان **توصل إلى النتائج التالية بشأن فعالية المصدر:**

١. تؤدي المصداقية العالية للمصدر إلى تغيير فوري لدى المتلقي أسرع من المصادر ذات المصداقية المنخفضة.

٢. لا تؤثر مصداقية المصدر على تذكر الرسالة،وإن كان تقييم الرسالة يتم من ذوي المصداقية المرتفعة بشكل أفضل من ذوي المصداقية المنخفضة.

٣. تؤثر الرسالة ومصداقية المصدر على الإقناع،ولكن يظهر الاختلاف للتأثير الإقناعي بين المصداقية العالية والمصداقية المنخفضة عندما يكون هناك تدعيم ضعيف لاستنتاجات الرسالة، أما الرسائل التي تتضمن حجج قوية، فيمكن أن تكون فعالة بغض النظر عن مصداقية المصدر.

٤. المصادر المتحيزة في الغالب أقل تأثيرا من المصادر غير المتحيزة، ولكنها تكون أكثر فاعلية في تعزيز الآراء، وكذلك إذا كان المصدر جذابا وذا نفوذ.

٥. المصادر الجذابة غالبا ما تكون أشد تأثيرا من المصادر غير الجذابة.

٦. القائم بالاتصال يكون أكثر إقناعا عندما يعد المتلقي بالثواب أو المكافأة أكثر مما يعده بالتهديد أو العقاب.

٧. مصداقية المصدر لها تأثير أكبر من جاذبيته،ونحن نتأثر أكثر إذا كان المصدر خبيرا أكثر من كونه واحدا من رفاقنا

ووصف الإعلامي في الآية(بالفاسق) فقال تعالى:"يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا"، والفسق: كما قال أهل التفسير الخارج عن الحدود الشرعية التي يجب مراعاتها والتزامها. قال الألوسي: "وصف الإنسان به-عما قال ابن الأعرابي- لم يسمع به في كلام العرب؛ والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشيء من أحكام الشرع أو المروءة بناء على ما قابلته بالعدل. وقد اعتبر في العدالة عدم الإخلال بالمروءة، والمشهور الاقتصار في تعريفه على الإخلال بشيء من أحكام الشرع"[١]

والسؤال: لماذا قال المولى(عزّ وجلّ): «إن جاءكم فاسق بنبأ»، ولم يقل:»إن جاءكم أحد بنبأ» أو»مؤمن بنبأ»؟. في إشارة لطيفة أشار إليها الفخر الرازي في تفسيره قال:»وذكر ما لو كان حاضر لتأذي، وهو في غاية الحسن من الترتيب، فإن قيل: لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله ثم المؤمن الحاضر ثم المؤمن الغائب، ثم الفاسق؟.نقول: قدّم الله ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جانب الله، ثم ذكر جانب الرسول ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور، وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتل، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال»[٢].

وقال صاحب الكشّاف:»وفي تنكير الفاسق والنبأ»، شياع في الفساق والأنباء، كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر، وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا على قول الفاسق»[٣]، فمفهوم المخافة لمدلول(فاسق) يشير إلى صدق وعدالة وثقة

---

(١)شهاب الدِّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج(٢٥)، ص(١٤٥).

(٢)الفخر الرازي: التفسير الكبير، م(١٤)، ج(٢٧)، (٢٨)، ص(١٠٢).

(٣)الزمخشري:

المصدر أو المرسل أو الإعلامي الذي ينقل الأخبار إلى الجمهور، لذلك كانت الآية أحد الأصول التي أخذ منها السّلف الصالح قبول خبر الواحد فير الفاسق لأمرين»[١]:

الأول: أنه علل قبول خبر الواحد بالفسق لا لكونه خبر الواحد، وإلا لزم توارد العلتين على معلول واحد، والعلة الثانية تحصيل الحاصل لأن خبر الواحد معلل رده بذاته قبل الفسق.

الثاني: أن الأمر بالتبين يشترط فيه مجيء الفاسق بالخبر ، وهذا مفهوم الشرط ، وهو معتبر على القول الصحيح، فالعمل بخبر الواحد واجب إذا لم يكن فاسقا.

بل وقد استدل بعض العلماء بالآية على قبول خبر مجهول الحال وهو الذي لا تعلم عدالته ولا فسقه، فلا يلزم التثبت فيه، لأن الفسق شرط وقد انتفى ظاهرا، ورفض من طرف آخرين لاحتمال فسقه، لأن انتفاء العلم بالفسق لا يدل على عدم الفسق[٢].

ولذلك قال تعالى:»فتبنوا« ومعناه كما قال ابن عاشور: تبينوا الحق، أي من غير جهة ذلك الفاسق، فخبر الفاسق يكون داعياً إلى التتبع والتثبت...وإنما كان الفاسق معرضاً خبره للريبة والاختلاف لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور ، وبما يخبر به في شهادة ، أو خبر يترتب عليهما أضرار بالغير، أو بالصالح العام ويقوي جرأته على ذلك دوماً إذا لم يتب ، و يندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله»[٣].

---

(١)محمد الانصاري: منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي على ضوء ماجاء في سورة الحجرات، ص(٣٣٩).

(٢)الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج(٢٨)، ص(١٢٠).

(٣)انظر تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، ص(٢٣١).



من حكم التشريع لمسائل علم المواريث

الدكتور: نجيب بوحنيك

أستاذ مادة المواريث بكلية الشريعة،جامعة باتنة – الجزائر

الأستاذة: سلاف القيقط

أستاذة القراءات بكلية الشريعة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،قسنطينة – الجزائر –

- **قال تعالى :** { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا } [النساء : (٧)]

- **وقال تعالى :** { يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٠ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ٠ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٠ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ٠ } [النساء : (١١، ١٢، ١٣، ١٤)]

- **وقال تعالى :** { يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [النساء : (١٧٦)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلا هادي له ،والصلاة والسلام على أشرف الخلق الذي بعث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فنظرا للمعاني القرآنية العميقة والحكم التشريعية الأصيلة، التي تضمنتها نصوص الميراث في شريعة الإسلام الحنفية السّمحة ارتأينا -بعون الله- من خلال هذا البحث تجلية بعض الأسرار واللّطائف واللمسات التي احتواها هذا التّشريع المعجز لفريضة الميراث من خلال تتبع ما استنبطه هؤلاء الجهابذة من علمائنا الأفذاذ أثناء بيانهم وتفسيرهم لآيات الفرائض، ووقفاتهم الفاحصة المتأملة لتلك السياقات القرآنية من سورة النّساء، وهي تعرض للأمّة مقادير وأنصبة وسهام الورثة وشروط استحقاقهم لها بدقّة فائقة، تتجلى فيها حكمة الباري -عز وجل- وعلمه المطلق بأحوال عباده .

وقد عقب على آيات الميراث فقال عن نفسه.. { إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } ..{ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } ...

{ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.

وبعد جمع المادة العلمية وتهذيبها وترتيبها ،جاءت خطة هذا البحث متضمنة أحد عشر فرعا ، حسب التفصيل والترتيب الآتي :

- **الفرع الأول :** علم الميراث بين التعبد والتعليل .
- **الفرع الثاني :** الحكمة من إجمال الميراث في بداية تشريعه .
- **الفرع الثالث:** الحكمة في مجيء آيات الميراث الثلاث بهذا الترتيب وهذا التوالي .
- **الفرع الرابع :** الحكمة في مجيء الحقوق المتعلقة بالتركة بهذا الترتيب .
- **الفرع الخامس:** الحكمة من تصدير آيات الميراث بلفظ : يوصيكم و أولادكم
- **الفرع السادس:** الحكمة من تضعيف حظ الذكر على حظ الأنثى في الميراث .
- **الفرع السابع :** الحكمة من تقديم البنوة على الأبوة في الميراث .

- **الفرع الثامن** : الحكمة في حجب الأب للإخوة دون الأم .

- **الفرع التاسع** : الحكمة في أن الإخوة لأم يتساوى ذكرهم وأنثاهم في الميراث .

- **الفرع العاشر** : الحكمة من تذييل آيات المواريث الثلاث بأسماء الله الحسنى .

- **الفرع الحادي عشر** : الحكمة من ترتب الوعد والوعيد بعد بيان مقادير الميراث .

ثم جاءت في أعقاب هذه الفروع خاتمة أوجزنا فيها أهم ما انتهينا إليه من نتائج بعد رحلتنا مع هذا البحث.

وبعد معرفة المحاور العامة للبحث من خلال هذه التوطئة الموجزة، سنشرع الآن ـ بعون الله ـ في عرض المادة العلمية التي حواها كل فرع من الفروع السابقة :

الفرع الأول :علم الميراث بين التعبد والتعليل

عند استقراء مسائل الميراث وأحكامه نتبيّن أنّ هذا العلم الغالب فيه التعبد خاصّة من ناحية المقادير والأنصبة : قال ابن حجر :» الفرائض الغالب عليها التعبد وانحسام وجوه الرأي والخوض فيها بالظن لا انضباط له بخلاف غيرها من أبواب العلم فان للرأي فيها مجالا والانضباط فيها ممكن غالبا... وعلم الفرائض يؤخذ غالبا بطريق العلم. "([1])

ولكن في الوقت نفسه نجد أيضا ثلّة من مسائله بنيت في الحقيقة على القياس والرّأي والاجتهاد، وكانت حقلا واسعًا في إمعان الفكر والنّظر والتعليل ... فبرزت مذاهب عدّة في مثل هذه المسائل الجزئية من زمن الصّحابة إلى عهد الأئمة وتدوين الفقه..ومن بين ما يذكر في هذا .. تلك المناظرة التي كانت بين زيد – رضي الله عنه– وابن عباس – رضي الله عنه– .. في مسألة الغراوين ، والتي اعتمد فيها سيدنا زيد على اجتهاده ، قال القرطبي: « روى عكرمة قال: أرسل ابن عباس إلى زيد بن ثابت يسأل عن امرأة تركت زوجها وأبويها،قال: للزوج النصف، وللأم ثلث ما بقي ، فقال: تجده في كتاب الله أو تقول برأي؟ قال: أقوله برأي؛ لا أفضل أما على أب. قال أبو سليمان: فهذا من باب تعديل الفريضة إذا لم يكن فيها نص؛ وذلك أنه اعتبرها بالمنصوص عليه، وهو قوله تعالى:{ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ }. فلما وجد نصيب الأم الثلث، وكان باقي المال هو الثلثان للأب، قاس النصف الفاضل من المال بعد نصيب الزوج على كل المال إذا لم يكن مع الوالدين ابن أو ذو سهم؛ فقسمه بينهما على ثلاثة، للأم سهم وللأب سهمان وهو الباقي." ([2])

– وفي هذا يقول ابن العربي : « اعلموا علمكم الله أن هذه الآية – آية المواريث – ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الأحكام ، وأم من أمهات الآيات : فإن الفرائض عظيمة القدر ...وكان جل علم الصحابة وعظم مناظرتهم ، ولكن الخلق ضيعوه ... ولو لم يكن من فضل الفرائض والكلام عليها إلا أنها تبهت منكري القياس وتخزي مبطلي النظر في

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (١٢/ ٤–٥) .

(٢) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٥٦) .

إلحاق النظير بالنظير ، فإن عامة مسائلها إنما هي مبنية على ذلك ؛ إذ النصوص لم تستوف فيها ، ولا أحاطت بنوازلها " (١)

– وقال في موضع آخر مبيّنًا أن آيات المواريث كانت حافزًا لتحريك همم المجتهدين ومسالك النّظر عندهم .. عند تعقيبه على قوله تعالى في آخر آية المواريث في ختام سورة النساء : { يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } وهذا هو البيان الموعود به ؛ لأن الله سبحانه لم يجعل طرق الأحكام نصا يدركه الجفلى ، وإنما جعله مظنونا يختص به العلماء ليرفع الله تعالى الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، ويتصرف المجتهدون في مسالك النظر ، فيدرك بعضهم الصواب فيؤجر عشرة أجور ، ويقصر آخر فيدرك أجرا

واحدا ، وتنفذ الأحكام الدنيوية على ما أراد الله سبحانه ، وهذا بين للعلماء ، والله أعلم." (٢)

– وأرجع –رحمه الله– أنّ السرَّ في سكوت الباري –عز وجل– عن مقدار ميراث البنتين،لتتبين درجة العلماء في استنباط حكمهما وترتفع منزلة المجتهدين فيهما ، حيث قال:» إن الله سبحانه وتعالى لو كان مبينا حال البنتين بيانه لحال الواحدة وما فوق البنتين لكان ذلك قاطعا ، ولكنه ساق الأمر مساق الإشكال ؛ لتتبين درجة العالمين ، وترتفع منزلة المجتهدين في أي المرتبتين في إلحاق البنتين أحق ؟ ... فحمل العلماء البنتين على الأختين في الاشتراك في الثلثين ، وحملوا الأخوات على البنات في الاشتراك في الثلثين ، وكان هذا نظرا دقيقا وأصلا عظيما في الاعتبار ، وعليه المعول ، وأراد الباري بذلك أن يبين لنا دخول القياس في الأحكام ." (٣)

– وقال الشعراوي ، مبينا الحكمة أيضا من عدم التصريح بميراث البنتين:»...وأنا أريد أن نستجمع الذهن هنا جيدا لنتعرف تماما على مراد الحق ومسالك القرآن في تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله . فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، والعقل لا بد له من رياضة . ومعنى

---

(١) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٣٠-٣٣١) .

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٥٢١) .

(٣) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٣٦،٣٤١) .

الرياضة هو التدريب على حل المسائل ، وإن طرأت مشكلات هيأ نفسه لها بالحل ، وأن يملك القدرة على الاستنباط والتقييم ، كل هذه من مهام العقل... وبقي شيء لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك ابنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للاثنتين في إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلثين من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم ينص على ذلك بوضوح؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما ترث مع الذكر تأخذ ثلث التركة، وعندما تكون مع ابنة أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث .

فإذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، ولذلك فمن المنطقي أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك ابنتين . وهناك شيء آخر ، لتعرف أن القرآن يأتي كله كمنهج متماسك ، فهناك آية أخرى في سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر ليترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه :{ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الكلالة إِنِ امرؤ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثنتين فَلَهُمَا الثلثان مِمَّا تَرَكَ وَإِن كانوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } لقد جاء الحق هنا بأختي المورث وأوضح أن لهما الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد – ابن أو بنت – فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما ألصق بالمورث ، البنتان أم الأختان؟ إن ابنتي المورث ألصق به من أختيه ، ولذلك فللبنتين الثلثان ، فالابنة إن كانت مع أخيها فستأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فستأخذ النصف . وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن كانتا اثنتين فستأخذ كل منهما الثلث ، لماذا؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثي ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد .

ومن العجيب أنه جاء بالجمع في الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالمثنى في الآية التي تورث الأخوات ، لنأخذ المثنى هناك– في آية توريث البنات– لينسحب على المثنى هناك .

لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى نأخذ الأحكام بشغف وحسن فهم ، وعندما يقول سبحانه :{ يَسْتَفْتُونَكَ } فمعنى يستفتونك

أي يطلبون منك الفتوى ، وهذا دليل على أن المؤمن الذي سأل وطلب الفتيا قد تعلق بالتكليف، فهو يجب أن يعرف حكم الله ، حتى فيما لم يبدأ الله به الحكم . وقد سأل المؤمنون الأوائل وطلبوا الفتيا محبة في التكليف . " [١]

- وقال سيد قطب :"... هذه الآيات الثلاث تتضمن أصول علم الفرائض - أي علم الميراث - أما التفريعات فقد جاءت السّنة ببعضها نصاً واجتهد الفقهاء في بقيتها تطبيقاً على هذه الأصول ." [٢]

- وقال السهيلي : «... قد أتينا على ما تتضمنه الآية من أصول الفرائض وقال السلف من العلماء قد أبقى القرآن موضعا للسنة وأبقت السنة موضعا للاجتهاد والرأي ثم إن القرآن قد أحال على السنة ... وأحال الرسول عليه السلام بعد ما بين من أصول الفرائض ما بين على زيد بن ثابت بقوله في الحديث : « وأفرضهم زيد بن ثابت» ، فصار قول زيد أصلا عول عليه الفقهاء واستقر العمل به . »[٣]

- وقال أيضا : « وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ...حين أشكلت عليه مسألة الجد مشى بنفسه إلى منزل زيد بن ثابت يستفهمه عن رأيه فيها فانتهى إلى قوله واستحسن ما سمع من قياسه فيها ونظره رضي الله عنهم أجمعين فإنهم اجتهدوا للمسلمين وتفقهوا في الكتاب المبين وتحروا الصدق فيما نقلوه من وحي رب العالمين

حتى استقامت قناة الإسلام « [٤]

· مما سبق عرضه يمكن استخلاص الآتي:

١/ - أن الفرائض وإن كان الغالب عليها التعبّد، إلاّ أنّه وقع في العديد من مسائلها التي لم يرد فيها نص الأخذ بالقياس والاجتهاد والرّأي من عهد الصحابة إلى زمن الأئمة ومن بعدهم ، حتى إن ابن العربي أعتبر أن من فضل علم الفرائض أنّها تبهت منكري القياس،

---

(١) الشعراوي : تفسير الشعراوي (١/ ١٣٨١) .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٦١) .

(٣) السهيلي : الفرائض (٧٧) .

(٤) السهيلي : الفرائض (٢٦) .

وتخزي مبطلي النّظر في إلحاق النّظير بالنّظير، ثم قرّر أن عامّة مسائل علم الميراث وأغلبها مبنية على «القياس والنّظر»، إذ النّصوص لم تستوف فيها، ولا أحاطت بنوازلها .. وإن كنّا نرى أنّ في هذا مبالغة منه -رحمه الله- والله أعلم- .

٢/ - أن الباري -عز وجل- سكت عن بعض المسائل في علم الفرائض وساقها مساق الإشكال، ولم يبيّن الحكم فيها بصراحة ووضوح، بل ترك ذلك لأصحاب النّظر والعقول حتّى يشحذ هممهم فينظروا ويتأملوا ويجتهدوا لاستنباط ما خفي من أحكام في مثل هذه المواضع، ومن ثمّة تتبيّن درجة العاملين، وترتفع منزلة المجتهدين.

٣/ - وإن من حكمته تعالى أيضا في عدم بيان أحكام بعض المسائل أنّه أراد أن يجعل للعقل مهمّة وهي : البحث والاستقصاء والتتبع .. فإذا أدركنا بعد هذا الجهد مراد الشارع وحكمه في مثل هذه المسائل المسكوت عنها .. فإننّا نفرح بهذه الأحكام المستنبطة ونأخذها ونعمل بها .. لأن من تعب في إدراك شيء وحصّله فإنّه يحرص عليه .. وفي مثل هذا المقام أنّه يستلزم الحكم التكليفي الذي طلب الفتيا عنه .. ومن ثمّ ينقاد ويأتمر به إن كان أمرًا، وينتهي عنه إن كان نهيًّا ..

- **وإجمالا :** نلحظ أن فريضة الميراث وإن كان الأصل فيها والغالب عليها التعبّد المحض، إلاّ أن فيها ما هو معقول المعنى، ظاهر القصد، جليّ الحكمة .. وذلك لدورانها حول موضوع المال الذي اهتمت به الشريعة الإسلامية أيّما اهتمام، وقنّنته أحسن تقنين .. وهذا وغيره كان حافزًا للعلماء أن يمعنوا نظرهم وتأملاتهم لاستنباط بعض الحكم والمقاصد والأسرار لهذا التّقنين المالي الدقيق .. وهذا التّوزيع العادل للثّروة .. وهذا ما سيتجلى أكثر من خلال ما سنعرضه من حكم ومقاصد في الفروع الآتية من هذا البحث- إن شاء الله- .

الفرع الثاني : الحكمة من إجمال الميراث في بداية تشريعه

أجمل الله الحكيم العليم الكلام عن الميراث في بداية تشريعه في قوله تعالى : { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا } لحكم عديدة :

- قال الرازي : " كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال ، ويقولون لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة ، فبين تعالى أن الإرث غير مختص بالرجال ، بل هو أمر مشترك فيه بين الرجال والنساء ، فذكر في هذه الآية هذا القدر ، ثم ذكر التفصيل بعد ذلك ولا يمتنع إذا كان للقوم عادة في توريث الكبار دون الصغار ودون النساء ، أن ينقلهم سبحانه وتعالى عن تلك العادة قليلا قليلاً على التدريج ، لأن الانتقال عن العادة شاق ثقيل على الطبع ، فاذا كان دفعة عظم وقعه على القلب ، وإذا كان على التدريج سهل ، فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذا المجمل أولا ، ثم أردفه بالتفصيل." [(١)]

- قال ابن العربي : « كان أهل الجاهلية يمنعون النساء الميراث ويخصون به الرجال، حتى كان الرجل منهم إذا مات وترك ذرية ضعافا وقرابة كبارا استبد بالمال القرابة الكبار ... فنزلت هذه الآية... وكان هذا من

الجاهلية تصرفا بجهل عظيم ؛ فإن الورثة الصغار الضعاف كانوا أحق بالمال من القوي ؛ فعكسوا الحكم وأبطلوا الحكمة ؛ فضلوا بأهوائهم وأخطئوا في آرائهم ... وكان نزول هذه الآية توطئة للحكم وإبطالا لذلك الرأي الفاسد ، حتى وقع البيان الشافي بعد ذلك على سيرة الله وسنته في إبطال آرائهم وسنتهم ." [(٢)]

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٠١) .

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٢٨)، القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤٦) .

- وقال ابن عاشور : "استئناف ابتدائي، وهو جار مجرى النتيجة لحكم إيتاء أموال اليتامى، ومجرى المقدمة

لأحكام المواريث التي في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾ ومناسبة تعقيب الآي السابقة بها:

أنهم كانوا قد اعتادوا إيثار الأقوياء والأشداء بالأموال، وحرمان الضعفاء، وإبقاءهم عالة على أشدائهم حتى يكونوا في مقادتهم، فكان الأولياء يمنعون عن محاجيرهم أموالهم، وكان أكبر العائلة يحرم إخوته من الميراث معه فكان أولئك لضعفهم يصبرون على الحرمان، ويقنعون بالعيش في ظلال أقاربهم، لأنهم إن نازعوهم طردوهم وحرموهم، فصاروا عالة على الناس.وأخص الناس بذلك النساء فإنهن يجدن ضعفا من أنفسهن، ويخشين عار الضيعة، ويتقين انحراف الأزواج، فيتخذن رضا أوليائهن عدة لهن من حوادث الدهر، فلما أمرهم الله أن يؤتوا اليتامى أموالهم، أمر عقبه بأمرهم بأن يجعلوا للرجال والنساء نصيبا مما ترك الوالدان والأقربون.فإيتاء مال اليتيم تحقيق لإيصال نصيبه مما ترك له الوالدان والأقربون، وتوريث القرابة إثبات لنصيبهم مما ترك الوالدان والأقربون، وذكر النساء هناك تمهيدا لشرع الميراث، وقد تأيد ذلك بقوله{ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى} [النساء:٨] فإن ذلك يناسب الميراث ... وكانوا في الجاهلية لا يورثون بالبنوة إلا إذا كان الأبناء ذكورا، فلا ميراث للنساء لأنهم كانوا يقولون إنما يرث أموالنا من طاعن بالرمح، وضرب بالسيف ... فلما جاء الإسلام... شرع الله الميراث بالقرابة، وجعل للنساء حظوظا في ذلك فأتم الكلمة، وأسبغ النعمة، وأومأ إلى أن حكمة الميراث صرف المال إلى القرابة بالولادة وما دونها.وقد كان قوله تعالى{ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ} أول إعطاء لحق الإرث للنساء في العرب.ولكون هذه الآية كالمقدمة جاءت بإجمال الحق والنصيب في الميراث وتلاه تفصيله، لقصد تهيئة النفوس، وحكمة ورود الأحكام المراد نسخها إلى أثقل لتسكن النفوس إليها بالتدريج... وقوله: { مِمَّا تَرَكَ } بيان لما ترك لقصد تعميم ما ترك الوالدان والأقربون وتنصيص على أن الحق متعلق بكل جزء من المال، حتى

لا يستأثر بعضهم بشيء.. وقوله } نَصِيباً مَفْرُوضاً{ ...ومعنى كونه مفروضا أنه معين المقدار لكل صنف من الرجال والنساء ... وهذا أوضح دليل على أن المقصود بهذه الآية تشريع المواريث." (١)

– وقال الشعراوي : " ولم يحدد النصيب بعد هذه الآية مباشرة إلا بعد ما جاء بحكاية اليتامى وتحذير الناس من أكل مال اليتيم ، لماذا؟ لأن ذلك يربي في النفس الاشتياق للحكم، وحين تستشرف النفس إلى تفصيل الحكم ، ويأتي بعد طلب النفس له ، فإنه يتمكن منها . والشيء حين تطلبه النفس تكون مهيأة لاستقباله ، لكن حينما يعرض الأمر بدون طلب ، فالنفس تقبله مرة وتعرض عنه مرة أخرى . " (٢)

– وقال الألوسي : " قوله : } مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ {...وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال ، وبهذا يرد على الإمامية لأنهم يخصون أكبر أبناء الميت من تركته بالسيف والمصحف والخاتم واللباس البدني بدون عوض عند أكثرهم ، وهذا من الغريب كعدم توريث الزوجة من العقار مع أن الآية مفيدة أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جل ودق ، وتقديم القليل على الكثير من باب } لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا {[الكهف : ٤٩] ." (٣)

– وقال سيد قطب :"...وهكذا كان المنهج الرباني ينسخ معالم الجاهلية في النفوس والمجتمعات ويثبت معالم الإسلام؛ ويمحو سمات الجاهلية في وجه المجتمع ويثبت ملامح الإسلام . وهكذا كان يصوغ المجتمع الجديد ومشاعره وتقاليده وشرائعه وقوانينه في ظلال تقوى الله ورقابته ويجعلها الضمان الأخير لتنفيذ التشريع...

ولقد كانوا في الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصبية – في الغالب – إلا التافه القليل. لأن هؤلاء وهؤلاء لا يركبون فرساً ولا يردون عادياً! فإذا شريعة الله تجعل الميراث – في أصله –

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٤٧-٢٥٠)

(٢) الشعراوي : تفسير الشعراوي (١/ ١٣٧٧)

(٣) الألوسي : تفسبرالألوسي (٤/ ٢١١)

حقاً لذوي القربى جميعاً – حسب مراتبهم وأنصبتهم المبينة فيما بعد – وذلك تمشياً مع نظرية الإسلام في التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة وفي التكافل الإنساني العام ... لما كان الأمر كذلك جعل الإسلام التكافل في محيط الأسرة هو حجر الأساس في بناء التكافل الاجتماعي العام . وجعل الإرث مظهراً من مظاهر ذلك التكافل في محيط الأسرة . فوق ما له من وظائف أخرى في النظام الاقتصادي والاجتماعي العام ... لأن التكافل في محيط الأسرة أو في محيط الجماعة الصغيرة يخلق مشاعر لطيفة رحيمة تنمو حولها فضائل التعاون والتجاوب نمواً طبيعياً غير مصطنع ... فشعور الفرد بأن جهده الشخصي سيعود أثره على ذوي قرابته – وبخاصة ذريته – يحفزه إلى مضاعفة الجهد فيكون نتاجه للجماعة عن طريق غير مباشر . لأن الإسلام لا يقيم الفواصل بين الفرد والجماعة . فكل ما يملك الفرد هو في النهاية ملك للجماعة كلها عندما تحتاج . . وهذه القاعدة الأخيرة تقضي على كل الاعتراضات السطحية على توريث من لم يتعب ولم يبذل جهداً – كما يقال! –...ثم إن العلاقة بين المورث والوارث – وبخاصة الذرية – ليست مقصورة على المال . فإذا نحن قطعنا وراثة المال فما نحن بمستطيعين أن نقطع الوشائج الأخرى والوراثات الأخرى بينهما. إن الوالدين والأجداد والأقرباء عامة لا يورثون أبناءهم وأحفادهم وأقاربهم المال وحده . إنما يورثونهم كذلك الاستعدادات الخيرة والشريرة والاستعدادات الوراثية للمرض والصحة والانحراف والاستقامة والحسن والقبح والذكاء والغباء . . إلخ . وهذه الصفات تلاحق الوارثين وتؤثر في حياتهم ولا تتركهم من عقابيلها أبداً . فمن العدل إذن أن يورثوهم المال . وهم لا يعفونهم من المرض والانحراف والغباء . ولا تملك الدولة – بكل وسائلها – أن تعفيهم من هذه الوراثات .من أجل هذه الواقعيات الفطرية والعملية في الحياة البشرية – ومن أجل غيرها وهو كثير من المصالح الاجتماعية الأخرى – شرع الله قاعدة الإرث :{للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً } ..هذا هو المبدأ العام الذي أعطى الإسلام به « النساء » منذ أربعة عشر قرناً حق الإرث كالرجال – من ناحية المبدأ – لأن الجاهلية كانت تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية في الحرب والإنتاج . أما الإسلام فجاء بمنهجه الرباني ينظر إلى «

الإنسان » – أولاً – حسب قيمته الإنسانية . . "[١])

بعد هذا العرض نرى أن حكم إجمال الميراث في مطلع تشريعه تتلخص فيما يأتي :

١/ – إن أهل الجاهلية ألفوا أن يورثوا الرّجال الكباردون النّساء والصّغار، وكانت هذه عادة عندهم ، ومخالفة

العادات عند الخلق دفعة واحدة يشق ويثقل على النفوس، وإذا كان على التدرج فإنّه يسهل عليها، فلكي ينقلهم ويصرفهم الله –عز وجل– عن هذه العادة التي ألفوها، تدرّج بهم، فأجمل الكلام عن الميراث ثم فصله فيما بعد.

٢/ – أجمل الله الميراث في هذه الآية توطئة ومقدّمة لحكم تشريع الميراث ومقاديره وأنصبته المختلفة ، وإبطالا لذلك الحكم المعكوس والرّأي الفاسد ـ من استبداد الكبار الأقوياء بالمال دون الصّغار الضعاف ـ ، وتهيئة للنّفوس لإنفاذ حقّ الميراث للنّساء على حد سواء مع الرجال ممّا قلّ منه أو كثر نصيبا مفروضا.

٣/ – عدم تحديد الأنصبة وتفصيل أحكامها في بداية تشريع الميراث، يربي في النفس الشوق إلى الحكم وإلى التّكليف، فالشّيء الذي تستشرفه النّفس وتطلبه تكون مهيّأة لاستقباله، أمّا إن عرض عليها دون طلب أو شوق فقد تقبله مرّة وتُعرض عنه مرّة أخرى، فلأجل تنمية هذا الشوق لفريضة الميراث أجمل الله حكمه في بداية تشريعه.

٤/ – إنّ العلاقة بين المورث والوارث، وخاصّة ذرّيته، ليست مقصورة على المال فحسب .. إذْ أنّ الوالدين والأجداد والأقرباء عامة لا يورثون أبناءهم وأحفادهم المال وحده، إنّما يورثونهم كذلك الاستعدادات الخيّرة والشريرة، والاستعداد الوراثية للمرض والصحّة، والانحراف والاستقامة، والحسن والقبح، والذّكاء والغباء .. فمن العدل إذن أن يورثوهم جميعا المال ـ بما في ذلك النساء ـ كما ورثوهم جميعا تلك الاستعداد المختلفة، وهذا مما أومأ الله إليه بهذا الإجمال ، وقوله : "مما قلّ منه أو كثر" يدلّ على عدم اختصاص

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٥٧-٢٥٨)

بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب والعقار والأراضي فإنّها في نظر البعض مقصورة على الرّجال فقط .. وكذا حلية الميّتة من الذهب والفضة مخصوصة بالنّساء دون الرّجال .. فللرّجال والنّساء الحق في الأخذ من كل ما جلّ ودقّ أو كثر وقلّ ممّا ترك الميّت على حدّ سواء.

- · **وإجمالا نقول :** إنّ الحكمة تقتضي أن الضعيف أولى بالميراث من الغنّى، وهذا عكس ما كان عليه الحال على عهد الجاهلية العمياء، فجاء نور الإسلام فأعطى كلّ ذي حقٍّ حقه بصورة عادلة لا يشوبها أدنى ظلم أو ضيم، وعليه أجمل الله –عز وجل– الكلام عن الميراث في هذه الآية تمهيدا وتهيئة لنفوس أولئك الصّفوة من المؤمنين حتّى يكونوا على أتمّ استعداد لما سيشرعه من أحكام جزئية وتفصيلية في هذه المنظومة العادلة للرّجال وللنّساء، وللكبار، وللصّغار، وللأقوياء والضّعفاء، على حدّ سواء..تنفيذًا لقاعدة شعار الإسلام في ذلك قوله –جلّ في علاه– : "ممّا قلّ منه أو كثر نصيبا مفروضا"، وتفنيدًا لقاعدة شعار الجاهليّة : "لا يرث أموالنا إلاّ من طاعن بالرّمح وضرب بالسّيف " .. نعم ! ذاك هو بيان الله الشافي، وكلمته الماضية ، وحكمه النافذ .. في عباده وخلقه إلى يوم بعثهم

الفرع الثالث: الحكمة في مجيء آيات الميراث الثلاث بهذا الترتيب وهذا التوالي

اقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن رتب آيات الميراث في سورة النساء وفق ترتيب الورثة ، وذلك باعتبار

مدى القرب أو البعد من مورثهم ، فبدأ بالقريب وانتهى بالبعيد ، وقد ذكر العلماء عدة لطائف في ذلك منها :

– قال ابن العربي : « قال قتادة : وذكر لنا أن أبا بكر قال : ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء من شأن الفرائض نزلت في الولد والوالد ، والآية الثانية أنزلها الله سبحانه في الزوج والزوجة والإخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء في الإخوة والأخوات من الأب والأم ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها الله سبحانه في ذوي الأرحام ، وما جرت الرحم من العصبة ." (١)

– وقال الرازي :» اعلم أنه تعالى أورد أقسام الورثة في هذه الآيات على أحسن الترتيبات، وذلك لأن الوارث إما أن يكون متصلا بالميت بغير واسطة أو بواسطة ، فان اتصل به بغير واسطة فسبب الاتصال إما أن يكون هو النسب أو الزوجية ، فحصل هاهنا أقسام ثلاثة، أشرفها وأعلاها الاتصال الحاصل ابتداء من جهة النسب ، وذلك هو قرابة الولادة ، ويدخل فيها الأولاد والوالدان فالله تعالى قدم حكم هذا القسم. وثانيها : الاتصال الحاصل ابتداء من جهة الزوجية ، وهذا القسم متأخر في الشرف عن القسم الأول لأن الأول ذاتي وهذا الثاني عرضي ، والذاتي أشرف من العرضي ، وثالثها : الاتصال الحاصل بواسطة الغير وهو المسمى بالكلالة ، وهذا القسم متأخر عن القسمين الأولين لوجوه : أحدها : أن الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية ، وأما الكلالة فقد يعرض لهم السقوط بالكلية. وثانيها : أن القسمين الأولين ينسب كل واحد منهما إلى الميت بغير واسطة ، والكلالة تنسب إلى الميت بواسطة والثابت ابتداء أشرف من الثابت بواسطة.

---

(١) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٥١٩) .

وثالثها : أن مخالطة الانسان بالوالدين والأولاد والزوج والزوجة أكثر وأتم من مخالطته بالكلالة. وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة ، وذلك يوجب شدة الاهتمام بأحوالهم ، فلهذه الأسباب الثلاثة وأشباهها أخر الله تعالى ذكر مواريث الكلالة عن ذكر القسمين الأولين فما أحسن هذا الترتيب وما أشد انطباقه على قوانين المعقولات "(١)

– وقال ابن حجر :»... قال المازري مراتب التعصيب البنوة ثم الأبوة ثم الجدودة ، فالابن أولى من الأب وان فرض له معه السدس وهو أولى من الإخوة وبنيهم لأنهم ينتسبون بالمشاركة في الأبوة والجدودة ، والأب أولى من الإخوة ومن الجد لأنهم به ينتسبون فيسقطون مع وجوده ، والجد أولى من بني الإخوة لأنه كالأب معهم ومن العمومة لأنهم به ينتسبون ، والإخوة وبنوهم أولى من العمومة وبنيهم لأن تعصيب الإخوة بالأبوة ، والعمومة بالجدودة .. هذا ترتيبهم وهم يختلفون في القرب فالأقرب أولى. "(٢) .

وبهذا يتجلّى أن ترتيب الورثة كان مبنيًا على أساس حكمة بالغة ونظر دقيق : فالقريب إلى الميّت أولى بالميراث من البعيد عنه، ومن انتسب إلى القريب من الميّت كان أولى بالميراث ممّن انتسب إلى البعيد منه، وكل من أدلى إلى الميّت بواسطة فإنّ تلك الواسطة أولى بالميراث منه.. فالوارث يتصل بالميّت من ثلاث جهات : أشرفها وأعلاها جهة النّسب والقرابة ويدخل فيها الأولاد والوالدان، وثانيها : جهة الزوجية، وهي متأخرة عن الجهة السابقة في الشرف والعلوّ، لأنّ الأولى ذاتية، أمّا هذه فهي عرضيّة ، والذّاتي أشرف من العرضي .. وثالثها : جهة الواسطة بالغير والمسمّاة بالكلالة .. وقد جاءت بهذا الترتيب : لأن الأولاد والوالدين والأزواج لا يعرض لهم السّقوط بالكليّة، وينتسبون إلى الميّت بغير واسطة، بخلاف الكلالة فإنّه يعرض لها السقوط بالكليّة، وتنسب إلى الميّت بواسطة .. وزيادة على هذا أنّ مخالطة الإنسان بالأولاد والوالدين والأزواج أكثر وأتمّ من مخالطته بالغير وهم الكلالة .. وكما هو معلوم أنّ كثرة المخالطة مظنّة الألفة والشّفقة، فكان اهتمام الشارع الحكيم بأحوال القسم الأول والثّاني أكثر من القسم الثالث، وهكذا يجري ترتيب الورثة والعصبة حسب هذا التسلسل العادل وفق هذه القواعد المنضبطة التي لا تحابي أحدًا على حساب آخر.

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٢٧) .

(٢) ابن حجر : فتح الباري (١٢/ ٣٥) .

الفرع الرابع : الحكمة في مجيء الحقوق المتعلقة بالتركة بهذا الترتيب

كانت من حكمة الله -عز وجل- أن رتب الحقوق المتعلقة بالتّركة ترتيبا بديعا أيضا، حسب المنوال الآتي :

١/ التجهيز، ٢/ الدين، ٣/ الوصيّة، ٤/ الميراث . وقد جمع بعضهم هذه الأربعة حسب ترتيب حروف لفظة «تدوم» ، وقد استنبط علماؤنا الأفذاذ عدّة حكم تشريعية لهذا الترتيب:

- قال ابن العربي : « قوله :{ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } قال علماؤنا : هذا فصل عظيم من فصول الفرائض ، وأصل عظيم من أصول الشريعة ؛ وذلك أن الله سبحانه جعل المال قواما للخلق ؛ ويسر لهم السبب إلى جمعه بوجوه متعبة ، ومعان عسيرة ، وركب في جبلاتهم الإكثار منه والزيادة على القوت الكافي المبلغ إلى المقصود ، وهو تاركه بالموت يقينا، ومخلفه لغيره ، فمن رفق الخالق بالخلق صرفه عند فراق الدنيا ؛ إبقاء على العبدوتخفيفا من حسرته على أربعة أوجه :

الأول : ما يحتاج إليه من كفنه وجهازه إلى قبره .

الثاني : ما تبرأ به ذمته من دينه .

الثالث : ما يتقرب به إلى الله من خير ليستدرك به ما فات في أيام مهلته .

الرابع : ما يصير إلى ذوي قرابته الدانية وأنسابه المشتبكة المشتركة .

فأما الأول فإنما قدم ؛ لأنه أولى بماله من غيره ، ولأن حاجته الماسة في الحال متقدمة على دينه ، وقد كان في حياته لا سبيل لقرابته إلى قوته ولباسه ، وكذلك في كفنه .

وأما تقديم الدين فلأن ذمته مرتهنة بدينه ، وفرض الدين أولى من فعل الخير الذي يتقرب به .

فأما تقديم الصدقة على الميراث في بعض المال ففيه مصلحة شرعية وإيالة دينية ؛ لأنه

لو منع جميعه لفاته باب من البر عظيم ، ولو سلط عليه لما أبقى لورثته بالصدقة منه شيئا لأكثر الوارثين أو بعضهم ؛ فقسم الله سبحانه بحكمته المال وأعطى الخلق ثلث أموالهم في آخر أعمارهم ، وأبقى سائر المال للورثة ...فظهرت المسألة قولا ومعنى وتبينت حكمة وحكما ." [(١)]

- وقال ابن القيم : " أن الكفنَ مقدَّم على الميراث، وعلى الدَّيْن ...فكما أن كِسوته فى الحياة مقدَّمة على قضاء دَينه، فكذلك بعد الممات، هذا كلامُ الجمهور، وفيه خلاف شاذ لا يُعَوَّلُ عليه." [(٢)]

- فالحكمة من تقديم حقّ الكفن والتّجهيز لأنّه أولى بماله من غيره، ومادامت حاجته ماسّة إليه، فهي متقدّمة على الدّين بعد وفاته كما كانت متقدّمة عليه حال حياته، ثمّ قدّم الدّين على الوصيّة لأنّه قد تعلقت به ذمّته، وصرف المال للمداينين مقدّم على صرفه في أبواب الخير الأخرى، رعاية لحقّ الآدميين في استرجاع مالهم، ثم قدّمت الوصيّة على الميراث حتّى يستدرك ما فاته من الخير والبرّ حال حياته يشرط أن تكون في حدود ثلث المال، حتى ينفع نفسه ولا يؤذي غيره .. وما بقي من مال فهو حقّ خالص للورثة يقسّم بينهم كما أراد الله وحكم ، قال ابن العربي : « ... فتولى الله سبحانه قسمها بعلمه ، وأنفذ فيها حكمته بحكمه ، وكشف لكل ذي حق حقه، وعبر لكم ربكم عن ولاية ما جهلتم ، وتولى لكم بيان ما فيه نفعكم ومصلحتكم ، والله أعلم . » [(٣)]

ـ بقي أن نشير إلى أن القرآن الكريم عند كلامه عن الدّين والوصيّة، قد قدّم الوصيّة وأخّر الدّين، فقال تعالى : { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } ـ وقد تقرّر أن الدّين مقدّم على الوصيّة كما مرّ عرضه ـ فما السّر في ذلك ؟ ذكر العلماء عدّة حكم بالغة في هذا التقديم، نذكر منها الآتي :

---

(١) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٤١-٣٤٢)

(٢) ابن القيم : زاد المعاد (٢/ ٢٤٠-٢٤١)

(٣) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٤٥)

- قال ابن العربي : " فإن قيل : فما الحكمة في تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين ، والدين مقدم عليها ؟ قلنا ؛ في ذلك خمسة أوجه :

الأول : أن " أو " لا توجب ترتيبا ، إنما توجب تفصيلا ، فكأنه قال : من بعد أحدهما أو من بعدهما ، ولو ذكرهما بحرف الواو لأوهم الجمع والتشريك ؛ فكان ذكرهما بحرف " أو " المقتضي التفصيل أولى .

الثاني : أنه قدم الوصية ؛ لأن تسببها من قبل نفسه ، والدين ثابت مؤدى ذكره أم لم يذكره

الثالث : أن وجود الوصية أكثر من وجود الدين ؛ فقدم في الذكر ما يقع غالبا في الوجود .

الرابع : أنه ذكر الوصية ، لأنه أمر مشكل ، هل يقصد ذلك ويلزم امتثاله أم لا ؟ لأن الدين كان ابتداء تاما مشهورا أنه لا بد منه ، فقدم المشكل ؛ لأنه أهم في البيان .

الخامس : أن الوصية كانت مشروعة ثم نسخت في بعض الصور ، فلما ضعفها النسخ قويت بتقديم الذكر ؛ وذكرهما معا كان يقتضي أن تتعلق الوصية بجميع المال تعلق الدين.لكن الوصية خصصت ببعض المال ؛ لأنها لو جازت في جميع المال لاستغرقته ولم يوجد ميراث ؛ فخصصها الشرع ببعض المال ؛ بخلاف الدين ، فإنه أمر ينشئه بمقاصد صحيحة في الصحة والمرض ، بينة المناحي في كل حال ؛ يعم تعلقها بالمال كله .ولما قام الدليل وظهر المعنى في تخصيص الوصية ببعض المال قدرت ذلك الشريعة بالثلث ، وبينت المعنى المشار إليه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سعد ؛ قال سعد للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لي مال ولا يرثني إلا ابنة لي ، أفأ تصدق بثلثي مالي، إلى أن قال له النبي صلى الله عليه وسلم:{الثلث والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياءخير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس }فظهرت المسألة قولا ومعنى وتبينت حكمة وحكما ." [(١)]

- وقال الجصاص : « الدين مؤخر في اللفظ وهو مبتدأ به في المعنى على الوصية لأن " أو" لا توجب الترتيب وإنما هي لأحد شيئين فكأنه قيل من بعد أحد هذين وقد روي عن

(١) الجصاص : أحكام القرآن (٢/ ٨٢)

على كرم الله وجهه أنه قال ذكر الله الوصية قبل الدين وهي بعده يعني أنها مقدمة في اللفظ مؤخرة في المعنى " (١)

– وقال ابن كثير : « وقوله: { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } أجمع العلماء سلفًا وخلفًا: أن الدَّيْن مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فَحْوَى الآية الكريمة. وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة وأصحاب التفاسير، من حديث أبي إسحاق، عن الحارث بن عبد الله الأعور، عن على بن أبي طالب –رضي الله عنه – قال: إنكم تقرءون {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالدين قبل الوصية "(٢)

وقال السهيلي : « وقوله : { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } وإخراج الدين لا شك قبل إخراج الوصية وبعد الكفن لأن الغرماء في حيَاته لَم يكن لهم سبيل على كفنه وما يجهز به وبدئ به في العمل قبل الوصية لأن أداءه فرض والفرض مقدم على الندب .. فإن قيل: لم بدأ الله بالوصية قبل ذكر الدين ؟ قلنا : في حكم البلاغة أن يقدم ما يجب الاعتناء بشرحه وبيانه ، وأداء الدين معلوم وأمره بين لأنه حق للغرماء ومنعهم منه ظلم ظاهر فبدأ بما يحتاج إلى بيانه . ووجه آخر وهو : أن الوصية طاعة وخير وبر يفعله الميت والدين إنما هو لمنفعة نفسه وهو مذموم في غالب أحواله وقد تعوذ رسول الله صلى الله عليه و سلم من الكفر والدين فبدأ بالأفضل وما يقدم في ترتيب الكلام فقد يكون لقبلية الفضل نحو قوله وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ونحو قوله من النبيين والصديقيين وقد يكون لقبلية الزمان نحو قوله نوحا وإبراهيم وقد يكون لقبلية الترتيب نحو تقديم اليهود على النصارى في الذكر لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في الدار وقد يكون تقديمهم في اللفظ لقبلية الزمان لأن التوراة قبل الإنجيل وموسى قبل عيسى وقد يكون تقديم الصلاة قبل الزكاة من قبلية الرتبة لأنها حق البدن والزكاة حق المال والبدن في الرتبة قبل المال .. فاجعل هذه القبليات أصلا في معرفة الحكمة والإعجاز في كتاب الله فإنه لا تقدم فيه صفة على أخرى ولا شيء على شيء

(١) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٤٤)

(٢) ابن كثير : تفسيرابن كثير (٢/ ٢١٥)

إلا بقبلية من هذه القبليات فترتب الألفاظ في اللسان على حسب ترتيب المعاني في الجنان فتدبره والله المستعان » [(١)]

- وقال ابن عاشور : « والمقصد هنا التنبيه على أهمية الوصية وتقدمها. وإنما ذكر الدين بعدها تتميما لما يتعين تقديمه على الميراث مع علم السامعين أن الدين يتقدم على الوصية أيضا لأنه حق سابق في مال الميت، لأن المدين

لا يملك من ماله إلا ما هو فاضل عن دين دائنه. فموقع عطف {أو دين} موقع الاحتراس، ولأجل هذا الاهتمام كرر الله هذا القيد أربع مرات في هذه الآيات.» [(٢)]

- وقال الزرقاني :« وأجاب من أخرها بأنها قدمت لئلا يتهاون بها»[(٣)]

ممّا سبق عرضه يتبيّن أن حرف : « أو « في قوله : {أودين} لا يفيد الترتيب وإنّما يفيد التّفصيل والاحتراس، وقد قدّمت الوصية على الدّين في هذا السّياق القرآني لفظا لا معنى للتّنبيه على أهميتها والتأكيد على تنفيذها وبيانها وإيصالها لأهلها .. ففي حكم البلاغة أنّه يقدّم ما يجب الاعتناء بشرحه وبيانه على غيره، فالوصيّة في حاجة إلى شرح وبيان وتفصيل، أمّا الدين فمعلوم وبيّن .. فبدأ بما يحتاج إلى بيان وتفصيل .. وكذا أن الباري -عز وجل- علم أنّ أداء الوصية سيكون شاقًا على الورثة، لأنّها تؤخذ من غير عوض، فأولاها الاهتمام بهذا التقديم ، ولأنّ الدّين عادة له أصحابه يطالبون به، بخلاف الوصيّة فقد لا يسمع بها أصحابها .. فجاء هذا التّقديم ليقرع أسماع الورثة على وجوب تأدية وصيّة ميّتهم على الوجه الذي سمعوه منه، تأديّة للأمانة ووفاء للعهد والميثاق.

---

(١) السهيلي : الفرائض (٥٠)

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٣٦١) .

(٣) الزرقاني :شرح الزرقاني (١٤/ ٤١٤) .

الفرع الخامس: الحكمة من تصدير آيات الميراث بلفظ: «يوصيكم» ولفظ: «أولادكم»

صدّر الله -عز وجل- آية المواريث الأولى بقوله (**يوصيكم**).. وهي المرّة الوحيدة في القرآن الكريم كلّه أنّه سبحانه وتعالى يوصي الآباء بالأبناء، إذ الغالب أنّه يوصي الأبناء بالآباء وقد كرّر ذلك مرارًا في العديد من آيات القرآن .. **وقد استنبط العلماء كثيرًا من الحكم لهذا التصدير:**

- قال ابن كثير : «فقوله تعالى: { يُوصِيكُمُ اللهُ} أي: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث... وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللهُ} أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح : وقد رأى – عليه السلام- امرأة من السَّبْي تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألْصَقَتْه بصَدْرها وأرضعته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: « أتَروْن هذه طارحةَ ولدهافي النار وهي تَقْدِرُ على ذلك؟ » قالوا: لا يا رسول الله: قال: «فَوَاللهِ للهُ أَرْحَمُ بعبادِهِ من هذه بِوَلَدِهَا...» (١)

- وقال ابن حجر :»... وأضاف الفعل إلى اسم المظهر تنويها بالحكم وتعظيما له وقال [في أولادكم] ولم يقل بأولادكم إشارة إلى الأمر بالعدل فيهم ...وأضاف الأولاد إليهم مع أنه الذي أوصى بهم إشارة إلى أنه أرحم بهم من أبائهم "(٢)

- وقال الألوسي : " قوله {يوصيكم} فالمراد يأمركم الله ويفرض عليكم ... وعدل عن الأمر إلى الإيصاء لأنه أبلغ وأدل على الاهتمام وطلب الحصول بسرعة . " (٣)

---

(١) ابن كثير : تفسيرابن كثير (٢/ ٢١٣)

(٢) ابن حجر : فتح الباري (١٢/ ٣- ٤)

(٣) الألوسي : تفسبر الألوسي (٤/ ٢١١)

– وقال ابن عاشور : " ومن الاهتمام بهذه الأحكام تصدير تشريعها بقوله :{ يوصيكم} لأن الوصاية هي الأمر بما فيه المأمور وفيه اهتمام الآمر لشدة صلاحه ولذلك سمي ما يعهد به الإنسان فيما يصنع بأبنائه وبماله وبذاته بعد الموت وصية . "(١)

– وقال الشعراوي : "... ونعم الرب خالقنا؛ إنه يوصينا في أولادنا ، سبحانه رب العرش العظيم ، كأننا عند ربنا أحب منا عند أبائنا . وقوله الكريم : { يُوصِيكُمُ الله في أَوْلَادِكُمْ } توضح أنه رحيم بنا ويحب لنا الخير . ومادة الوصية إذا ما استقرأناها في القرآن نجد – بالاستقراء – أن مادة الوصية مصحوبة بالباء ، فقال سبحانه : { ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام : ١٥٣] وقال سبحانه :{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً } [الشورى : ١٣] وقال الحق أيضا : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ} [لقمان : ١٤] كل هذه الآيات جاءت الوصية فيها مصحوبة بالباء التي تأتي للإلصاق .لكن عندما وصّى الآباء على الأبناء قال : { يُوصِيكُمُ الله في أَوْلَادِكُمْ } فكأن الوصية مغروسة ومثبتة في الأولاد ، فكلما رأيت الظرف وهو الولد ذكرت الوصية " (٢)

– وقال سيد قطب :«... والآن نجيء إلى نظام التوارث . حيث يبدأ بوصية الله للوالدين في أولادهم; فتدل هذه الوصية على أنه – سبحانه – أرحم وأبر وأعدل من الوالدين مع أولادهم; كما تدل على أن هذا النظام كله مرده إلى الله سبحانه; فهو الذي يحكم بين الوالدين وأولادهم وبين الأقرباء وأقاربهم . وليس لهم إلا أن يتلقوا منه سبحانه وأن ينفذوا وصيته وحكمه . . وأن هذا هو معنى « الدين »...إن الله هو الذي يوصي وهو الذي يفرض وهو الذي يقسم الميراث بين الناس – كما أنه هو الذي يوصي ويفرض في كل شيء وكما أنه هو الذي يقسم الأرزاق جملة – ومن عند الله ترد التنظيمات والشرائع والقوانين وعن الله يتلقى الناس في أخص شؤون حياتهم – وهو توزيع أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم – وهذا هو الدين . فليس هناك دين للناس إذا لم يتلقوا في شؤون حياتهم كلها

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٥٦)

(٢) الشعراوي : تفسير الشعراوي (١/ ١٣٨٠)

من الله وحده; وليس هناك إسلام إذا هم تلقوا في أي أمر من هذه الأمور – جل أو حقر – من مصدر آخر... وإن ما يوصي به الله ويفرضه ويحكم به في حياة الناس... لهو أبر بالناس وأنفع لهم مما يقسمونه هم لأنفسهم ويختارونه لذرياتهم . . فليس للناس أن يقولوا : إنما نختار لأنفسنا . وإنما نحن أعرف بمصالحنا . . فهذا – فوق أنه باطل – هو في الوقت ذاته توقح وتبجح وتعالم على الله وادعاء لا يزعمه إلا متوقح جهول!" ([1])

· مما سبق عرضه يتبيّن أنّ الحكمة من تصدير آيات الميراث بلفظ : ﴿يوصيكم﴾ تتمثل في الآتي :

١/ – أن قـوله : { يوصيكم } يدلّ على أنّ الله هو الذي يوصي ويفرض ويقسّم الأرزاق والميراث .. فمنه ترد التنظيمات والشرائع والقوانين، فهو مصدر التلقي في أيّ أمر من أمور الحياة جلّ أو حقر.

٢/ – أن الله تعالى يريد أن يبيّن أنّه أرحم وأبرّ وأعدل بخلقه من الوالد بولده، ولذلك أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنّه أرحم بهم منهم، وأنّه يحب لهم الخير.

٣/ – أنّه عدل عن "الأمر" إلى "الإيصاء"، لأنّه أبلغ وأدلّ على الاهتمام، وطلب الحصول بسرعة.

٤/ – لفظة الوصيّة بالاستقراء في القرآن الكريم كلّه وردت مصحوبة "بالباء" التي تفيد الإلصاق، لكن عندما وصى الله الآباء على الأبناء في هذه الآية جاء بلفظ الوصيّة دون "باء"، وهذا يدلّ على أنّ الوصيّة مغروسة ومثبتة في الأبناء ابتداء، فكلما رأيت أيّ ولد ذكرت الوصيّة به مباشرة.

- وإجمالا نقول : الحكمة من تصدير أحكام الميراث بلفظ { يوصيكم } لبيان أن الله أعدل وأرحم بخلقه، حتى من الوالدين بأولادهم .. فهو الذي يوصي وهو الذي يفرض وهو الذي يقسم، فليس لأحد أن يتعالى على الله ويقول : قسمتي أعدل وأنفع، وأنا أعرفُ بمصالح وشؤون أبنائي من غيري ... فلفت الله قلوب المؤمنين

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٦٠– ٢٦٢)

بهذا اللفظ "يوصيكم" ليتيقنوا أن ما أوصى به الله من قسمة في المال هو الخير كلّه والنّفع كلّه، وما وراءه من قسمة فهي باطلة مرجوحة، لا تفي بالعدل الذي ارتضاه المولى -عز وجل- لعباده المؤمنين في أموالهم وأرزاقهم.

– أما فيما يخص حكمة الله ـ عز وجل ـ في التعبير بلفظ : « أولادكم » دون لفظ «أبنائكم» فقد بينها العلماء على النحو الآتي :

– قال ابن حجر :«... ولكن بين التعبير بالولد والابن فرق ولذلك قال تعالى : {يوصيكم الله في أولادكم ولم يقل في أبنائكم } ـ ولفظ الولد يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع بخلاف الابن، وأيضا فلفظ الولد يليق بالميراث بخلاف الابن تقول ابن فلان من الرضاعة ولا تقول ولده وكذا كان من يتبنى ولد غيره قال له ابني وتبناه ولا يقول ولدي ولا ولده ومن ثم قال في آية التحريم : { وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم } إذ لو قال وحلائل أولادكم لم يحتج إلى أن يقول من أصلابكم لأن الولد لا يكون إلا من صلب أو بطن "(١)

– وقال السهيلي : « {وقال في أولادكم} ولم يقل في أبنائكم لأن لفظ الولادة هو الذي يليق بمسألة الميراث... فإن الأبناء من الرضاعة لا يرثون لأنهم ليسوا بأولاد وكذلك الابن المتبنى فقد كان رسول الله – صلى الله عليه و سلم – تبنى زيدا قبل النسخ للتبني فكان يقول أنا ابن محمد ولا يقول أنا ولد محمد ولذلك قال سبحانه : { وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم } لأن الولد لا يكون إلا من صلب أو بطن ، غير أن لفظ الأولاد يقع على الذكور والإناث حقيقة فلذلك عدل عنه إلى لفظ الأبناء في آية التحريم ، وأما في آية المواريث فجاء بلفظ الأولاد تنبيها على المعنى الذي يتعلق به حكم الميراث ؛وهو التولد فالماء حياة البشر... وهو يسري من الأصل إلى الفرع المتولد منه أشد من سريان الماء من الفرع إلى الأصل ، ولذلك كان سبب الولد في الميراث أقوى من سبب الوالد لأن الولد فرع متولد فإليه يسري المال أقوى من سريانه إلى الأب ، والولد يقع على الذكر والأنثى والواحد والجمع بخلاف الابن. » (٢)

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (١٢/ ٢٦)

(٢) السهيلي : الفرائض (٣٤)

- وقال ابن عاشور : "والولد اسم للابن ذكرا كان أو أنثى ويطلق على الواحد وعلى الجماعة من الأولاد " [١]

- ممّا سبق تفصيله يتبيّن أن الحكمة من التّعبير بلفظ : "أولادكم" دون لفظ "أبنائكم" تتمثل في الآتي :

١/ - أن لفظ "الولد" أعمّ من لفظ "الابن"، فهو يقع على الذّكر والأنثى والواحد والجمع بخلاف لفظ"الابن".

٢/ - لفظ "الولد" أليق بالميراث من لفظ "الابن"، لأنّ الميراث لا يثبت إلاّ إذا كان الولد من صلب أبيه، أمّا لفظ "الابن" فإنّه يقع على الابن من الرّضاع، والابن المتبنى .. وكما هو معلوم أنّ الميراث لا يثبت لمثل هؤلاء لأنّهم ليسوا من صلب الرّجل ..

٣/ - أن لفظ "الولد" فيه معنى "التولّد" الذي يتعلّق به حكم الميراث .. فالماء - مثلا - يسري من الأصل إلى الفرع المتولّد منه أشدّ من سريانه من الفرع إلى الأصل، وكذا المال فإنّه يسري إلى الولد أقوى من سريانه إلى الأب، لأنّ الولد فرع متولّد من والده .. ولهذا كان سبب الولد في الميراث أقوى من سبب الوالد.

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٥٧)

الفرع السادس: الحكمة من مضاعفة حظ الذكر لحظ الأنثى في الميراث

إن الله -عز وجل- في منظومة المواريث حكم أنّ للذّكر مثل حظّ الأنثيين إذا كان من نفس الدرجة وقد بيّن العلماء في هذه المسألة أمرين :

- الأمر الأول : أن الباري -عز وجل- جعل ميراث الذّكر مساوياً لميراث انثيين من نفس درجته، وهذا يقتضي وكأن ميراث الأنثى معلوم ومعروف ، ولذلك أخذ كوحدة في التّقدير، بخلاف ميراث الذّكر، إذ لم يقل الباري : ميراث الأنثى مساوٍ لنصف ميراث الذّكر.. فما الحكمة في هذا التقديم ؟ :

- قال ابن عاشور : " وقوله { للذكر مثل حظ الأنثيين} جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر ولم يكن قد تقدم تعيين حظ للأنثيين حتى يقدر به فعلم أن المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منهم ، وقد كان هذا المراد صالحا لأن يؤدى بنحو : للأنثى نصف حظ ذكر أو للأنثيين مثل حظ ذكر إذ ليس المقصود إلا بيان المضاعفة . ولكن قد أوثر هذا التعبير لنكتة لطيفة وهي الإيمان إلى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر إذ كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهلية فصار الإسلام ينادي بحظها في أول ما يقرع الأسماع قد علم أن قسمة المال تكون باعتبار عدد البنين والبنات "[1]

- وقال محمد رشيد رضا : " قوله : {لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} واختير فيها هذا التعبير للإشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء كما تقدم ، فكأنه جعل إرث الأنثى مقررا معروفا ، وأخبر أن للذكر مثله مرتين ، أو جعله هو الأصل في التشريع، وجعل إرث الذكر محمولا عليه يعرف بالإضافة إليه ، ولولا ذلك لقال : للأنثى نصف حظ الذكر، وإذا لا يفيد هذا المعنى ، ولا يلتئم السياق بعده كما ترى ; أقول : ويؤيد هذا ما تراه في بقية

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٥٧)

الفرائض في الآيتين من تقديم بيان ما للإناث بالمنطوق الصريح مطلقا ، أو مع مقابلته بما للذكور كما ترى في فرائض الوالدين ، والأخوات ، والإخوة "(١)

- فالحكمة من جعل حظّ الأنثيين هو المقدار الذي يعرف به حظّ الذّكر هو إبطال لما كانت عليه الجاهليّة من منع توريث النّساء، وذلك أنّه جعل مقدار ميراث الأنثى معروفا مقرّرا بل اعتبر الأصل في تشريع هو مقدار ميراث الذّكر بخلاف ما كان عليه الحال في الجاهلية إذ كانت لا تأخذ من التركة شيئًا، فلتعلية شأنها جُعل حظّها هو المعيار في تقدير ميراث الذّكر، وهذا فيه دلالة واضحة أن شريعة الإسلام أعطت للمرأة حقها في الميراث، بل جعلت ميراث الذّكر محمولاً على ميراث الأنثى ولا يعرف إلاّ بالإضافة إليه .. وفي هذا كلّه بيان للنّاس أن المال هو قسمة بين الذكور والإناث حسب قاعدة : "للذّكر مثل حظ الأنثيين" .

- الأمر الثاني : أنّه لما أعطى الذّكر مثل حظّ الأنثيين، هذا لا يعني أنّ في هذا عدم مساواة بين جنس الذّكر وجنس الأنثى، بل راعى الشّرع في ذلك عدّة حكم ومقاصد بيّنها العلماء منها :

– قال الرازي:" لا شك أن المرأة أعجز من الرجل ...وإذا ثبت أن عجزها أكمل وجب أن يكون نصيبها من الميراث أكثر ، فان لم يكن أكثر فلا أقل من المساواة ، فما الحكمة في أنه تعالى جعل نصيبها نصف نصيب الرجل والجواب عنه...: أن خرج المرأة أقل ، لأن زوجها ينفق عليها ، وخرج الرجل أكثر لأنه هو المنفق على زوجته ، ومن كان خرجه أكثر فهو إلى المال أحوج. " (٢)

– وقال ابن كثير : " فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشُّم المشقة، فناسب أن يُعْطَى ضِعْفَيْ ما تأخذه الأنثى." (٣)

---

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (٤/ ٤٠٦)

(٢) الرازي :تفسير الرازي (٥/ ٢١٤)

(٣) ابن كثير : تفسيرابن كثير (٢/ ٢١٣)

– وقال ابن القيم : " وقد أعطى الله سبحانه الزوج ضعف ما أعطى الزوجة تفضيلا لجانب الذكورية . "[١]

– وقال الرازي:" أنه تعالى لما جعل في الموجب النسبي حظ الرجل مثل حظ الانثيين كذلك جعل في الموجب السببي حظ الرجل مثل حظ الانثيين " [٢]

– وقال الشنقيطي : " قوله تعالى: { يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} ، لم يبين هنا حكمة تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث مع أنهما سواء في القرابة. ولكنه أشار إلى ذلك في موضع آخر وهو قوله تعالى: { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} [النساء :٣٤]؛ لأن القائم على غيره المنفق ماله عليه مترقب للنقص دائما، والمقوم عليه المنفق عليه المال مترقب للزيادة دائما، والحكمة في إيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة جبرا لنقصة المترقبة ظاهرة جدا. "[٣]

– وقال الدهلوي : " الذكر يفضل على الأنثى إذا كانا في منزلة واحدة أبدا لاختصاص الذكور بحماية البيضة والذب عن الذمار ، ولأن الرجال عليهم انفاقات كثيرة ، فهم أحق ما يكون شبه المجان ، بخلاف النساء فإنهن كَلُ على أزواجهن أو آبائهن أو أبنائهن "[٤]

- وقال الشعراوي : « لقد أراد الله أن يكون المقياس ، أو المكيال هو حظ الأنثى ، ويكون حظ الرجل هنا منسوبا إلى الأنثى...والذين يقولون : هذا ظلم يصيب المرأة ، نريد المساواة . نقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا . فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها ، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذي يخصها سيبقى لها ، وسيكون لها زوج يعولها . إذن فأيهما أكثر حظا في القسمة؟ إنها الأنثى . ولذلك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال : { لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين } فهل في هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة؟ والجواب : أن في هذا القول

---

(١) ابن القيم : أعلام الموقعين (١/ ٣٦٣)

(٢) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٢٧)

(٣) الشنقيطي : أضواء البيان (١/ ٣٠٨)

(٤) الدهلوي : حجة الله البالغة (٢١٧)

محاباة للمرأة؛ لأنه جعل نصيبها المكيال الذي يُرد إليه الأمر؛ ثم طلب من الرجل أن ينفق على الأنثى ...إذن فما تأخذه من نصف الذكر يكون خالصا لها ، وكان يجب أن تقولوا : لماذا حابى الله المرأة؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عرض ، فصانها ، فإن لم تتزوج تجد ما تنفقه ، وإن تزوجت فهذا فضل من الله »[١]

- **وقال سيد قطب** " قوله : { للذكر مثل حظ الأنثيين } ... وليس الأمر في هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس . إنما الأمر أمر توازن وعدل بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في التكوين العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي : فالرجل يتزوج امرأة ويكلف إعالتها وإعالة أبنائها منه في كل حالة وهي معه وهي مطلقة منه . . . أما هي فإما أن تقوم بنفسها فقط وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء . وليست مكلفة نفقة للزوج ولا للأبناء في أي حال . . فالرجل مكلف – على الأقل – ضعف أعباء المرأة في التكوين العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي . ومن ثم يبدو العدل كما يبدو التناسق بين الغنم والغرم في هذا التوزيع الحكيم . ويبدو كل كلام في هذا التوزيع جهالة من ناحية ، وسوء أدب مع الله من ناحية أخرى ، وزعزعة للنظام الاجتماعي والأسريّ . "[٢]

- **فمن خلال ما سبق يتبين أن لهذا التفضيل عدة أسرار وحكم :**

١/ – الرّجل محتاج إلى مؤنة النفقة والكلفة، فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى .. فالذّكر مطلوب له زوجة ينفق عليها، والأنثى مطلوب لها زوج ينفق عليها ويعولها .. وبالتأمل يظهر أن الأنثى أكثر حظّا في القسمة من الذّكر.

٢/ – الرّجل منفق والمرأة منفق عليها، والمنفق مترقب للنقص دائما، والمنفق عليه مترقّب للزيادة دائما، فراع الشّارع الحكيم في إيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة، فأعطى الرّجل ضعف ما أعطى الأنثى، ومن هنا يبدو العدل الرباني جليّا، كما يبدو التناسق البديع بين الغنم والعرم في هذا التّوزيع الحكيم العادل.

٣/ – أن خرج المرأة أقلّ لأنّ زوجها ينفق عليها، وخرج الرّجل أكثر لأنّه هو المنفق على

---

(١) الشعراوي : تفسير الشعراوي(١/ ١٣٨٠)

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٦٠– ٢٦٢)

زوجته، وعليه من كان خرجه أكثر فهو إلى المال أحوج على من كان خرجه أقّل.

٤/ – أخذ الذّكر ضعف ما تأخذه الأنثى ليس فيه محاباة لجنس على حساب جنس، وإنّما هي حالة توازن وعدل بين أعباء الذكر المتعدّدة، وأعباء الأنثى المحدودة ...كما هو مقرّر في النّظام الاجتماعي الإسلامي، والمتتبع لأحوال الرّجل والمرأة في الحياة يدرك أنّ الرّجل أحوج من المرأة إلى المال لما عليه من أعباء ومسؤوليات ومهام.

٥/ – أعطى الله الزوج ضعف ما أعطى الزوجة تفضيلا لجانب الذكورية.

٦/ – إن الله تعالى لما جعل في الموجب النّسبي حظّ الذّكر مثل حظّ الأنثيين، كذلك جعل في الموجب السببي (الزوجيّة) حظّ الزوج ضعف حظّ زوجته.

٧/ – أن الرجل أقدر من المرأة على تنمية المال والإفادة منه، وذلك أمر مطلوب في الإسلام.

٨/ – أن مال الرجل مستهلك ومال المرأة موفور.

الرد على الذين يزعمون أن الإسلام ظلم المرأة بتفضيل الرجل عليها في الميراث.

تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث من القضايا التي تثار للنيل من التشريع الإسلامي، بدعوى أنه ظلم المرأة، ولم ينصفها، وفضل الرجل عليها، وهي دعوى مغرضة وحجة واهية وذلك: أن الإسلام أنصف المرأة ورفع من شأنها، فقد عانت قبل الإسلام حيث كانت لا تنال شيئا من الإرث بل تورث كما يورث المتاع. قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا } [النساء :١٩] : [كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية] (١)

فلما جاء الإسلام أنصفها ورفع الظلم عنها، وجعلها تزاحم الرجل في الميراث بنصيب مفروض، كما قال تعالى: { لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا }...(٢).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب «ولكم نصف ما ترك أزواجكم» ٣ / ٢١٦

(٢) عبد الكريم اللاحم : الفرائض (٢-٣) .

بقي أن نشير إلى أن المقرر في علم الميراث أن الفروض تتعدد بتعدد البنات أو الأخوات،و لكن لا تتعدد بتعدد الزوجات : - قال الرازي:« قوله : {وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ } وقوله {فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ}...اعلم أن الواحد والجماعة سواء في الربع والثمن »[(١)] - وقال السهيلي ـ في حكمة التعبير بضمير الجمع في " ولهن " ـ: " وقوله في الزوجات :{ ولهن الربع}..{ ولهن الثمن } ".. أيضا يقتضي أن الثمن مشترك بين الزوجات وهن كن أربعا كما اقتضى اشتراك إخوة الكلالة في الثلث في قوله : { فهم شركاء في الثلث } لأنه لفظ جمع ولو ذكر الزوجة على انفرادها لكان الثمن لها ثم يكون للضرة الأخرى ثمن آخر هكذا إلى الأربع ، ولكنه جاء بلفظ الجمع فلأربع زوجات الثمن بينهن . "[(٢)]

- وقال ابن عاشور : "... قوله : { ماترك أزواجكم }...والمعنى : ولكل واحد منكم نصف ما تركت كل زوجة من أزواجه ، وكذلك قوله: { فلكم الربع مما تركن }،وقوله: {ولهن الربع مما تركتم } أي : لمجموعهن الربع مما ترك زوجهن وكذلك قوله : { فلهن الثمن مما تركتم } وهذا حذق يدل عليه إيجاز الكلام. "[(٣)].

والسر في عدم تعدد فرض الزوجية بتعدد الزوجات ، مابينه ابن عاشور حيث قال : " قد اتفقت الأمة على أن الرجل إذا كانت له زوجات ، يشتركن في الربع أو في الثمن من غير زيادة لهن لأن : تعدد الزوجات بيد صاحب المال فكان تعددهن وسيلة لإدخال المضرة على الورثة الآخرين ، بخلاف تعدد البنات والأخوات فإنه لا خيار فيه لرب المال"[(٤)]

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٢٧) .

(٢) السهيلي :الفرائض (٦٨) .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٣)

(٤) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٣)

الفرع السابع : الحكمة من تقديم البنوة على الأبوة في الميراث

عند توزيع التّركة على الورثة وجدنا الشّارع الحكيم قد فضّل فروع الميّت وقدّمهم على أصوله وذلك لعدّة حكم بيّنها علماؤنا الأفاضل نذكر منها الآتي :

– قال ابن العربي : « إذا اجتمع الآباء والأولاد قدم الله الأولاد ؛ لأن الأب كان يقدم ولده على نفسه ، ويود أنه يراه فوقه ويكتسب له ؛ فقيل له : حال حفيدك مع ولدك كحالك مع ولدك . "[1]

– وقال الرازي:" اعلم أنه تعالى بدأ بذكر ميراث الأولاد وإنما فعل ذلك لأن تعلق الإنسان بولده أشد التعلقات ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : "فاطمة بضعة مني" فلهذا السبب قدم الله ذكر ميراثهم... ولا شك أن حق الوالدين على الإنسان أعظم من حق ولده عليه ، وقد بلغ حق الوالدين إلى أن قرن الله طاعته بطاعتهما فقال :

{وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا } [الإسراء : ٢٣] وإذا كان كذلك فما السبب في أنه تعالى جعل نصيب الأولاد أكثر ونصيب الوالدين أقل ؟

والجواب عن هذا في نهاية الحسن والحكمة : وذلك لأن الوالدين ما بقي من عمرهما إلا القليل فكان احتياجهما إلى المال قليلا ، أما الأولاد فهم في زمن الصبا فكان احتياجهم إلى المال كثيرا فظهر الفرق. "[2]

– وقال الجصاص:" وإن كان الولد ذكرا فللأبوين السدسان بحكم النص والباقي للابن لأنه أقرب تعصيبا من الأب "[3]

---

(١) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٣٨)

(٢) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢١٩– ٢٢٠)

(٣) الجصاص: أحكام القرآن (١/ ٨١)

- وقال السهيلي : «... لأنه يقال للأب كما كنت تحب لابنك من الغنى والخير أكثر مما تحب لأبيك فكذلك حال ابنك مع ولده كحالك مع ولدك لأن الوالد أحب الناس غنى لابنه وأعزهم فقرا عليه ، كما قال الصديق لابنته عائشة رضي الله عنهما عند موته وكان أبوه حيا فقال لها : [ما من أحد أحب إلي غنى منك ولا أعز فقرا على بعدي منك] ، ولم يستثن أباه ولا غيره ، ثم إن الولد يؤملون من النكاح والحياة وغيرها لحداثة سنهم ما لا يؤمله الأبوان ثم قيل للأب إن فريضتك لا تنقص بكثرة الورثة وإن كان الولد عشرين وفريضة ولد ابنك الهالك قد تنقص بكثرة الأولاد حتى تكون أقل من العشر فيرضى الأبوان بقسم الله تعالى لهما ، ويريان العدل من الله بينا فيما قسم فإنه لم يحجب بالبنين فيعطي الأب نصفا ولا ثلثا ولا حجب بالأب فأعطاه عشرا ولا تسعا بل جعل له أوسط الفرائض وهو السدس ولا يزاد بقلة الولد ولا ينقص بكثرتهم والحمد لله »[١]

- وقال ابن حجر : « الابن أقوى من الأب ، لأن الابن ينفرد بالمال ويرد الأب إلى السدس ولا كذلك الأب... فالبنوة أقوى من الأبوة في الإرث "[٢]

- وقال محمد رشيد رضا : " وإنما كان حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع معظم حقهما على الولد ; لأنهما يكونان في الغالب أقل حاجة من الأولاد إما لكبرهما ، وقلة ما بقي من عمرهما ، وإما لاستقلالهما ، وتمولهما ، وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء ، وأما الأولاد فإما أن يكونوا صغارا لا يقدرون على الكسب ، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقة الزواج ، وتربية الأطفال ، فلهذا ، وذاك كان حظهم من الإرث أكثر من حظ الوالدين . "[٣]

- وقال سيد قطب : «... وهو نظام يراعي طبيعة الفطرة الحية بصفة عامة وفطرة الإنسان بصفة خاصة، فيقدم الذرية في الإرث على الأصول وعلى بقية القرابة . لأن

---

(١) السهيلي : الفرائض (٥٣)

(٢) ابن حجر : فتح الباري (١٢/ ٢٩)

(٣) محمد رشيد رضا : : تفسير المنار (٤/ ٣٤٠)

الجيل الناشئ هو أداة الامتداد وحفظ النوع . فهو أولى بالرعاية - من وجهة نظر الفطرة الحية - ومع هذا فلم يحرم الأصول ولم يحرم بقية القرابات . بل جعل لكل نصيبه . مع مراعاة منطق الفطرة الأصيل . »(١)

- وقد بيّن علماؤنا السرّ في تساوي الوالدين في الميراث عند وجود الفرع الوارث،إذْ يأخذ كلّ منهما السدس:

- قال ابن العربي : « قال علماؤنا : سوى الله سبحانه وتعالى بين الأبوين مع وجود الولد، وفاضل بينهما مع عدمه في أن جعل سهميهما للذكر مثل حظ الأنثيين،والمعنى فيه أنهما يدليان بقرابة واحدة وهي الأبوة ، فاستويا مع وجود الولد . " (٢)

- وقال القرطبي : " والذي يظهر أنه إنما حرم السدس في حياته إرفاقا بالصبي وحياطة على ماله؛ إذ قد يكون إخراج جزء من مال إجحافا به. أو أن ذلك تعبد، وهو أولى ما يقال. والله الموفق." (٣)

- وقال محمد رشيد رضا :{ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ }... فهما سواء في هذه الفريضة لا يتفاضلان فيها كما يتفاضل الذكور والإناث من الأولاد ، والأخوات ، والأزواج ، وذلك لعظم مقام الأم بحيث تساوي الأب بالنسبة إلى ولدهما...وإنما تساويا مع وجود الأولاد ليكون احترامهم لهما على السواء ، على أن الأب لا يفضل الأم هنا بالفريضة بل له السدس فرضا ويأخذ الباقي بالتعصيب إذ لا عصبة هنا سواه (٤)

- وقال المراغي : « والسر في تساوي الوالدين في الميراث مع وجود الأولاد الإشارة إلى وجوب احترامهما على السواء. » (٥) .. فحتّى مع وجود الفرع الوارث المؤنث فحسب، فله السُّدُس فرضاً، مثله مثل الأم، ويأخذ الباقي -إن وجد- بالتّعصيب،إذْ لا عصبة غيره،

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٦٠- ٢٦٢)

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٣٨) .

(٣) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧١)

(٤) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (٤/ ٤١٥)

(٥) المراغي : تفسير المراغي (٤/ ١٩٧)

لقوله صلى الله عليه وسلم: « ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر».

- **ثم بينوا أيضاً السر في مضاعفة حظ الأب لحظ الأم عند عدم وجود الأبناء :**

– قال ابن العربي : « فإن عدم الولد فضل الأب الأم بالذكورة والنصرة ووجوب المؤنة عليه ، وثبتت الأم على سهم لأجل القرابة »[١].

– وقال القرطبي : « إن قيل: ما فائدة زيادة الواو في قوله: { وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ }، وكان ظاهر الكلام أن يقول: فإن لم يكن له ولد – ورثه أبواه – قيل له: أراد بزيادتها الإخبار، ليبين أنه أمر مستقر ثابت فيخبر عن ثبوته واستقراره، فيكون حال الوالدين عند انفرادهما كحال الولدين، للذكر مثل حظ الأنثيين. ويجتمع للأب بذلك فرضان السهم والتعصيب إذ يحجب الإخوة كالولد. وهذا عدل في الحكم، ظاهر في الحكمة والله أعلم. » [٢]

– وقال ابن تيميه : « ومحض القياس أن الأب مع الأم ؛ كالبنت من الابن والأخت مع الأخ لأنهما ذكر وأنثى من جنس واحد هما عصبة . وقد أعطيت الزوجة نصف ما يعطاه الزوج ؛ لأنهما ذكر وأنثى من جنس... فدل القرآن على أنه إذا لم يرثه إلا الأم والأب... فلأمه الثلث ؛ وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ؛ وأما الابن فإنه أقوى من الأب؛ فلها معه السُّدُس » [٣]

- **مما سبق عرضه يتبيّن أنّ حكمة الباري -عز وجل- في تقديم البنوّة على الأبوّة ، وفي التّسوية بين الوالدين حال وجود الأولاد، وفي مضاعفة حظّ الأب لحظّ الأم عند عدم وجود الأبناء ، تتمثل في الآتي :**

١/ – قدّم الله ميراث الأولاد على ميراث الوالدين، لأنّ تعلق الإنسان بولده أشدّ من تعلّقه بوالديه من ناحية المال لا من ناحية البرّ.

---

(١) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٣٨)

(٢) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٢)

(٣) ابن تيميه : مجموع الفتاوى (٣١/ ٣٤٤

٢/ – إذا اجتمع الوالدين مع الأولاد في التركة، قدم الله -عز وجل- الأولاد، لأن العادة والعرف جرى بأنّ الأب يودّ لابنه من الغنى والخير أكثر مما يحبه لوالده، فلذلك قيل للأب : إنّ حال حفيدك مع والده كحالك مع ولدك .. فالأب أحبّ النّاس غنى لابنه وأعزهم فقرًا عليه.

٣/ – جعل الله -عز وجل- نصيب الأولاد أكثر من نصيب الوالدين ، لأننا إذا قارنا مدى احتياج كلّ واحد منهما إلى المال، فإننا سنجد أنّ الأبناء قد يكونون في زمن الصّبا ويحتاجون إلى النفقة من كسوة وتعليم..فإذا اشتدّ عودهم وشبّوا فإنّهم يؤملون إلى نكاح وتكوين أسرة .. فاحتياجهم إلى المال أشدّ وأكثر .. بخلاف الوالدين فهما أقل حاجة لهذا المال، إمّا لكبرهما وقلة ما بقي من عمرهما، وإمّا لاستقلالهما وتموّلهما من قبل أولادهم الأحياء .. فالمقارنة تقتضي أن حاجة الأولاد للمال أكثر من حاجة الوالدين، والجيل الناشئ أولى بالرّعاية من غيره من وجهة منطق الفطرة الأصيل.

٤/ – شعور الفرد بأنّ جهده الشخصي سيعود أثره على ذوي قرابته -وبخاصّة ذرّيته- يحفزه إلى مضاعفة الجهد .. وهذا من أبرز مظاهر التكافل في محيط الأسرة خاصة ، والجماعة عامّة.

٥/ – وحكمة الله -عز وجل- في التّسوية بين الوالدين بوجود الفرع الوارث ؛ وذلك إرفاقا بحال الأبناء وزيادة إشفاقٍ عليهم لمسيس حاجتهم إلى المال -كما نصّ على ذلك القرطبي- والذي يظهر لي في هذه الحالة أيضا -والله أعلم- أنّه لما تقرّر في أصول علم الميراث : أنّ البنوّة أقوى من الأبوّة وتفضل عليها ..فإنه لو فرضنا جدلا أننا أعطينا الأب مثلا ضعف ما تأخذه الأم بوجود الولد ، لأخذ الأبوان : السدس[للأم] + الثلث[للأب]= نصف التركة. وبقي نصف التركة [للأبناء].. ومنه : يتساوى ميراث الأبوّة مع البنوّة .. وهذا خلاف الأصل الذي تقرّر سابقا .. ولأجل إبقاء القاعدة على اطرداها وهي : تقديم البنوّة على الأبوّة .. أعطى الشارع الحكيم الأب السدس وساواه بالأم التي أعطيت السدس أيضا .. وقد صدق حين قال -جلّ في علاه- : { والله يعلم وأنتم لا تعلمون }.

٦/ – والسرّ في مضاعفة حظّ الأب لحظّ الأم عند عدم وجود الأبناء أنّ حالهما : كحال الولدين، أو الأخويين، أو الزوجين .. فهما من جنس واحد، فللذّكر مثل حظّ الأنثيين .. وهذا عدل في الحكم، ظاهر في الحكمة –كما قال القرطبي–، وهو محض القياس، ومن باب التّنبيه بالأدنى [يعني : الولدين أو الأخوين أو الزّوجين]. على الأعلى [يعني : الوالدين] –كما صرّح بذلك ابن تيمية–.

إجمالا نقول : السّر في تقديم الأبناء على الآباء في الميراث، أن البنوّة أقوى من الأبوّة، لأننا إذا نظرنا إلى معيار الحياة ومدى احتياج الطرفين إلى المال، وجدنا : أنّ الأبناء جاءوا إلى هذه الدّنيا وهم يستقبلون الحياة ومن ثمّ فاحتياجهم إلى المال كبير، بخلاف الآباء فإنّهم في الغالب يستدبرون الحياة ومن ثمّ فحاجتهم إلى المال أقل من حاجة أبنائهم .. هذا هو سر التقديم والتّفضيل وهو في نهاية الحسن والحكمة ،كما قال ذلك الرازي سابقا

الفرع الثامن : الحكمة في حجب الأب للإخوة دون الأم

- إذا اجتمع الأب مع الإخوة – مطلقا – فإنه يحجبهم ،ويأخذ الباقي بعد أخذ الأم نصيبها ،لحكمة بينها العلماء :
- قال ابن حجر :»عن قتادة عن بعض أهل العلم أن الأب حجب الإخوة وأخذ سهامهم لأنه يتولى إنكاحهم والإنفاق عليهم دون الأم . وفضل الأب على الأم عند عدم الولد والإخوة لما للأب من الامتياز بالإنفاق والنصرة ونحو ذلك ، وعوضت الأم عن ذلك بأمر الولد بتفضيلها على الأب في البر في حال حياة الولد "([1])
- **وبين العلماء أيضا السر في أخذ الأب السدس الذي كان نتيجة حجب الإخوة الأم عنه ، إذ كان من باب النظر والقياس أن يكون من نصيبهم ـ كما ذهب إلى ذلك ابن عباس في إحدى الروايتين عنه ـ :**
- قال الرازي:" الإخوة إذا حجبوا الأم من الثلث إلى السدس فهم لا يرثون شيئا البتة ، بل يأخذ الأب كل الباقي وهو خمسة أسداس ، سدس بالفرض ، والباقي بالتعصيب ، وقال ابن عباس : الإخوة يأخذون السدس الذي حجبوا الأم عنه ، وما بقي فللأب ، وحجته أن الاستقراء دل على أن من لا يرث لا يحجب ، فهؤلاء الإخوة لما حجبوا وجب أن يرثوا ، وحجة الجمهور أن عند عدم الإخوة كان المال ملكا للأبوين ، وعند وجود الإخوة لم يذكرهم الله تعالى إلا بأنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، ولا يلزم من كونه حاجبا كونه وارثا ، فوجب أن يبقى المال بعد حصول هذا الحجب على ملك الأبوين ، كما كان قبل ذلك والله أعلم. "([2])

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (١٢/ ٣٠)

(٢) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٢٣)

- وقال ابن رشد : " واختلفوا من هذا الباب فيمن يرث السدس الذي تحجب عنه الأم بالإخوة ، وذلك إذا ترك المتوفى أبوين وإخوة فقال الجمهور ذلك السدس للأب مع الأربعة الأسداس.وروي عن ابن عباس أن ذلك السدس للإخوة الذين حجبوا وللأب الثلثان لأنه ليس في الأصول من يحجب ولا يأخذ ما حجب إلا الإخوة مع الآباء وضعف قوم الإسناد بذلك عن ابن عباس وقول ابن عباس هو القياس." [(١)]
- وقال القرطبي : " قوله تعالى: { فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ } الإخوة يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، وهذا هو حجب النقصان، وسواء كان الإخوة أشقاء أو للأب أو للأم، ولا سهم لهم. وروي عن ابن عباس أنه كان يقول: "السدس الذي حجب الإخوة الأم عنه هو للإخوة". وروي عنه مثل قول الناس "إنه للأب". قال قتادة: وإنما أخذه الأب دونهم؛ لأنه يمونهم ويلي نكاحهم والنفقة عليهم." [(٢)]
- وقال ابن كثير : " من أحوال الأبوين: اجتماعهما مع الإخوة، وسواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئًا، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي لقوله:{ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ} أضروا بالأم ولا يرثون...وكان أهل العلم يَرون أنهم إنما حجبوا أمهم من الثلث أن : أباهم يلي إنكاحهم والنفقته عليهم دون أمهم ، وهذا كلام حسن. " [(٣)]

– وقد أضاف ابن القيم حكمة أخرى ـ عند عدم وجود الأب معهم ـ فقال :" فإن الإخوة إنما حجبوها إلى السدس لزيادة ميراثهم على ميراث الواحد ولهذا لو كانت واحدة أو أخا واحدا لكان لها الثلث معه " [(٤)]

– وقال ابن عاشور : " ولو كان الإخوة مع الأم ولم يكن أب لكان للأم السدس

(١) ابن رشد : بداية المجتهد (٢/ ٣٩٧)

(٢) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٢)

(٣) ابن كثير : تفسيرابن كثير (٢/ ٢١٥)

(٤) ابن القيم : أعلام الموقعين (٣/ ٣٥٩

وللأخوة بقية المال باتفاق، وربما كان في هذا تعضيد لابن عباس." [١] .

فالسرّ في تفضيل الأب عن الأم عند عدم الولد والإخوة وحجبه لهم [الإخوة] لامتياز ترتب النفقة ووجوبها على الأب دون الأمّ، وهذا من عدل الشّريعة وقسطها، فالأب مأمور بالنفقة وبتجهيز أخوات الميّت الإناث خاصّة وكذا الإخوة الذّكور فيما جرى به العرف عند احتياجهم له وقدرته على ذلك، بخلاف الأم، إذْ قد يصرف ما في يد الأب ويبقى نصيب الأم كما هو، وهذا فيه من حسن الشّريعة ما فيه، كما بيّنه ابن كثير –رحمه الله– سابقا بقوله : "وهذا كلام حسن"، وأضاف ابن القيم إلى أن الإخوة حجبوا الأم من الثلث إلى السدس لزيادة ميراثهم وتكثيره حال عدم وجود الأب .. فهم أولى بالميراث وأولى بهذه الزيادة في هذه الحالة.

- **وقد بين العلماء نكتة عدم بيان مقدار ميراث الأب عند أخذ الأم لسدس أو ثلث التركة :**

– قال ابن العربي : « قوله : { فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ }... تقدير الكلام : فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، والباقي للأب ، وإن كان له إخوة فلأمه السدس ، والباقي للأب ، وهكذا يزدوج الكلام ويصح الاشتراك الذي يقتضيه العطف ." [٢]

– وقال القرطبي : " فأخبر جل ذكره أن الأبوين إذا ورثاه أن للأم الثلث. ودل بقوله: {وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ} وإخباره أن للأم الثلث، أن الباقي وهو الثلثان للأب. وهذا كما تقول لرجلين: هذا المال بينكما، ثم تقول لأحدهما: أنت يا فلان لك منه ثلث؛ فإنك حددت للآخر منه الثلثين بنص كلامك؛ ولأن قوة الكلام في قوله: { وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ } يدل على أنهما منفردان عن جميع أهل السهام من ولد وغيره، وليس في هذا اختلاف." [٣]

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٦١)

(٢) ابن العربي : أحكام القرآن (١/ ٣٣٨)

(٣) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧١)

- وقال ابن عاشور : " وقد علم أن للأب مع الأم الثلثين وترك ذكره لأن مبنى الفرائض على أن ما بقي بدون فرض يرجع إلى أصل العصابة عند العرب " ([١]) .

النكتة هنا أن الباقي بعد أصحاب السهام يكون لأقرب عاصب وهو للأب في هذه الحالة اسنادا لقوله ـ عليه السلام ـ : [ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر]

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٠)

الفرع التاسع : الحكمة في أن الإخوة لأم يتساوى ذكرهم وأنثاهم في الميراث

الإخوة لأم يخالفون بقية الورثة من وجوه عديدة ، قال ابن كثير : " وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه :

أحدها : أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم.

الثاني: أن ذكرهم وأنثاهم سواء.

الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد .

الرابع: أنهم لا يزادون على الثلث، وإن كثرذكورهم وإناثهم." (١)

– وقال القرطبي : " قوله : { وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ }... فأما هذه الآية فأجمع العلماء على أن الإخوة فيها عني بها الإخوة للأم ... وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ "وله أخ أو أخت من أمه"... فدل إجماعهم على أن الإخوة المذكورين في آخر السورة هم إخوة المتوفى لأبيه وأمه أو لأبيه ...وأن الإخوة كلهم جميعا كلالة ." (٢)

– وقال محمد رشيد رضا : " وقالوا : إن القراءة الشاذة أي غير المتواترة تخصص ; لأن حكمها حكم أحاديث الآحاد ."(٣)

– وقال ابن عاشور ـ مبينا بالدليل العقلي أن الإخوة هنا مراد بهم الإخوة لأم ـ : «وقوله: { وله أخ أو أخت } يتعين على قول الجمهور في معنى الكلالة أن يكون المراد بهما الأخ والأخت للأم خاصة لأنه إذا كان الميت لا ولد له ولا والد وقلنا له أخ أو أخت وجعلنا لكل واحد منهما السدس نعلم بحكم ما يشبه دلالة الاقتضاء أنهما الأخ للأم لأنهما

(١) ابن كثير : تفسيرابن كثير (٢/ ٢١٧-٢١٨)

(٢) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٨)

(٣) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (٤/ ٤٢٤)

لما كانت نهاية حظهما الثلث فقد بقي الثلثان فلو كان الأخ والأخت هما الشقيقين أو الذين للأب لاقتضى أنهما أخذا أقل المال وترك الباقي لغيرهما وهل يكون غيرهما أقرب منهما فتعين أن الأخ والأخت مراد بهما اللذان للأم خاصة ليكون الثلثان للإخوة الأشقاء أو الأعمام أو بني الأعمام . »(١)

- **وقد ذكر العلماء حكما عديدة في تميز الإخوة لأم عن بقيّة الورثة في تساوي ذكرهم وأنثاهم في الميراث، خلافًا لما عليه الحكم في باب البنوّة والأبوّة والأخوة والزوجيّة، إذْ للذّكر مثل حظّ الأنثيين :**

– قال القرطبي : « قوله : { فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ } هذا التشريك يقتضي التسوية بين الذكر والأنثى وإن كثروا. وإذا كانوا يأخذون بالأم فلا يفضل الذكر على الأنثى. وهذا إجماع من العلماء، وليس في الفرائض موضع يكون فيه الذكر والأنثى سواء إلا في ميراث الإخوة للأم." (٢)

– وقال السهيلي : "وقوله تعالى : { فهم شركاء في الثلث } يدل على تساوي الذكر والأنثى في الحظ لأن لفظ الشركة إذا أطلق فإنما يتضمن التساوي حتى يقيد بنصيب مخصوص لو أن رجلا ابتاع سلعة فسأله رجل آخر أن يشركه فيها فقال له قد أشركتك فيها ثم قال بعد ذلك لم أرد نصفا وإنما أردت ثلثا أو ربعا لم ينفعه ذلك إلا أن يقيد لفظه في حين الشركة ، وإنما أخذ الفقهاء هذا من قوله تعالى : { فهم شركاء في الثلث } أي للذكر مثل حظ الأنثى ونكتة المسألة والله أعلم أن الأخوة للأم إنما ورثوا الميت بالرحم وحرمة الأم، وأن الأم تحب لولدها ما تحب لنفسها ، ويشق عليها أن يحرموا من أخيهم وقد ارتكضوا معه في رحم واحدة فأعطوا الثلث ، ولم يزادوا عليه لأن الأم التي بها ورثوا لا تزاد عن الثلث وكأن هذه الفريضة من باب الصلة والبر والصدقة فمن ثم سوي الذكر مع الأنثى كما لو وصى بصدقة أو صلة لأهل بيت لشركوا فيها على السواء ذكورهم وإناثهم ألا ترى أن الثلث

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٥)

(٢) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٧٩)

مشروع في الوصية التي يبتغي فيها ثواب الله العظيم قال النبي عليه السلام لسعد حين أراد أن يوصي بأكثر من الثلث الثلث والثلث كثير الحديث كأنه نظر عليه السلام إلى فرض الله تعالى للأخوة بسبب الرحم وحرمة الأم وأنه لم يزدهم على الثلث وإن كثروا فكيف يزاد من هو أبعد منهم في حكم الوصية بل الثلث في حقهم كثير والقرآن والسنة نوران من مشكاة واحدة فينظر بعضه إلى بعض ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . " (١)

– وقال ابن القيم :« وقد أعطى الله سبحانه الزوج ضعف ما أعطى الزوجة تفضيلا لجانب الذكورية وإنما عدل عن هذا في ولد الأم لأنهم يدلون بالرحم المجرد ويدلون بغيرهم وهو الأم وليس لهم تعصيب بخلاف الزوجين والأبوين والأولاد فإنهم يدلون بأنفسهم وسائر العصبة يدلون بذكر كولد البنين وكالإخوة للأبوين أو للأب فإعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين معتبر فيمن يدلي بنفسه أو بعصبة وأما من يدلي بالأمومة كولد الأم فإنه لا يفضل ذكرهم على أنثاهم وكان الذكر كالأنثى في الأخذ وليس الذكر كالأنثى في باب الزوجية ولا في باب الأبوة ولا البنوة ولا الأخوة .» (٢)

– وقال ابن عاشور" وقد أثبت الله بهذا فرضا للاخوة للأم إبطالا لما كان عليه أهل الجاهلية من إلغاء جانب الأمومة أصلا لأنه جانب نساء. "(٣)

– وقال محمد رشيد رضا : « قوله : { فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ } ... يدل على أنهم إنما يأخذون فرض الأم ، فإنه إما السدس ، وإما الثلث.... والحاصل أن الأخ من الأم يأخذ في الكلالة السدس ، وكذلك الأخت لا فرق فيه بين الذكر والأنثى ; لأن كلا منهما حل محل أمه فأخذ نصيبها . وإذا كانوا متعددين أخذوا الثلث وكانوا فيه سواء لا فرق بين ذكرهم ، وأنثاهم لما ذكرنا من العلة » (٤)

---

(١) السهيلي : الفرائض (٧٤)

(٢) ابن القيم : أعلام الموقعين (٣/ ٣٦٣)

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير (٤/ ٢٦٥)

(٤) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (٤/ ٤٢٤)

بهذا هذا العرض تبيّن، أن حكمة الشّارع الحكيم في جعل مقدار ما يأخذه الذّكر يتساوى مع ما تأخذه الأنثى من الإخوة لأم تمثّلت في الآتي :

١/ - أنّ الإخوة لأم يدلون إلى الميّت بواسطة الأمومة -الأنوثة- فلم يفضل ذكرهم على أنثاهم، بخلاف غيرهم من الأبناء والأبوين والزّوجين والإخوة ، فإنّهم يدلون إلى الميّت بأنفسهم أو بالذكورة ، فكان عطاؤهم للذّكر مثل حظ الأنثيين باعتبار إدلائهم إلى الميّت إمّا بأنفسهم أو بعصبتهم.

٢/ - إنّ الإخوة لأم ما داموا أنّهم ورثوا من ميّتهم باعتبار واسطة الأمومة لذلك أخذوا مثل ما أخذت الأم وهو : السّدس عند الانفراد ، والثّلث عند التعدّد ، وقال الألوسي : "والحكمة في تسوية الشّارع بينهما تساويهما في الإدلاء إلى الميت بمحض الأنوثة".

٣/ - لمّا لم يضاعف الله حظ الذكر عن حظ الأنثى في الإخوة لأمّ حال الانفراد حيث قال : { فإن كان له أخ أو أخت فلكل واحد منهما السّدس } ... فكذا حال الاجتماع، فبقي حظّهما متساوياً على الأصل الأوّل، وفي هذا يقول سيد قطب : " ... والقول المعمول به هو أنّهم يرثون في الثّلث على التّساوي ... لأنّه يتفق مع المبدأ الذي قرّرته الآية نفسها في تسوية الذّكر بالأنثى : { فلكلّ واحد منهما السّدس }.

- **وإجمالا نقول :** إن توريث الإخوة لأم بشكل عام فيه انتصار لجانب الأمومة التي كانت ملغاة على العهد الجاهلي قبل الإسلام، وهذا يدلّ على مدى اهتمام الشريعة الإسلامية، بجانب المرأة والحرص على إعلاء شأنها وتثبيت حقّها المالي في الميراث .. وكذا أن الإخوة لأم في الغالب محتاجون بالنّسبة لوضعهم في الأسرة الجديدة خاصّة عند وفاة والدهم، فجعل الله لهم هذا الميراث من إخوتهم من طريق أمهم حتّى يتقووا على مصاعب الحياة .. وفي هذا إعجاز تشريعي لمنظومة الميراث التي لم تهمل هذه الفئة الضّعيفة الجانب، فضمنت لهم هذا الحقّ من المال حتّى يعيشوا كُرماء، إذْ يعتبر الإخوة لأم أضعف الورثة : فهم يُحجبون ولا يَحْجُبون غيرهم حجب حرمان وفي هذا يبيّن ابن القيم الحكمة من عدم إيراد قوله: { غير

مضار} في قوله : { مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ } عند كلامه عن ميراث الأبناء والآباء وإيرادها عند كلامه عن ميراث الزوجين والإخوة لأم في قوله: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غير مضار} فقال -رحمه الله- : "... قال في آية الإخوة من الأمّ ، والزّوجين" : "غير مضار" ، ولم يقل ذلك في آية العمودين [الأبناء والآباء]، فإنّ الإنسان كثيرًا ما يقصد ضرار الزّوج وولد الأمّ، لأنّهم ليسوا من عصبته، بخلاف أولاده وآبائه ، فإنّه لا يضارّهم في العادة"[1] ، وقال في موضع آخر : " وتأمل كيف ذكر سبحانه وتعالى الضرّار في هذه الآية دون التي قبلها، لأنّ الأولى تضمّنت ميراث العمودين، والثانية تضمّنت ميراث الأطراف من الزوجين، والإخوة ، والعادة أن الميّت قد يضّار زوجته وإخوته لا يكاد يضارّ والده وولده"[2] .. وحمدًا لله الذي أسدى إليهم هذا الحق وهذا المعروف !.

(١) ابن القيم : إعلام الموقعين (١/ ٣٥٦) .

(٢) ابن القيم : الضوء المنير على التفسير (٢/ ١٨-١٨٢) .

الفرع العاشر : الحكمة من تذييل آيات المواريث الثلاث بأسماء الله الحسنى

ختم الباري ـ عز وجل ـ آية المواريث الأولى [الآية : ١١] بقوله : { آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }.. والثانية [الآية : ١٢] بقوله :{ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } .. والثالثة [الآية : ١٧٦] بقوله : { يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ، وقد ذكر العلماء لهذا التذييل عدة لمسات ومقاصد ولطائف نذكر منها الآتي :

١ / [**الآية : ١١**: { آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } :

– قال الرازي:« إنه تعالى لما ذكر أنصباء الأولاد وأنصباء الأبوين ، وكانت تلك الأنصباء مختلفة والعقول لا تهتدي إلى كمية تلك التقديرات ، والإنسان ربما خطر بباله أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه كانت أنفع له وأصلح ، لا سيما وقد كانت قسمة العرب للمواريث على هذا الوجه ، وانهم كانوا يورثون الرجال الأقوياء ، وما كانوا يورثون الصبيان والنسوان والضعفاء ، فالله تعالى أزال هذه الشبهة بأن قال : إنكم تعلمون أن عقولكم لا تحيط بمصالحكم ، فربما اعتقدتم في شيء أنه صالح لكم وهو عين المضرة وربما اعتقدتم فيه أنه عين المضرة ويكون عين المصلحة ، وأما الإله الحكيم الرحيم فهو العالم بمغيبات الأمور وعواقبها ، فكأنه قيل : أيها الناس اتركوا تقدير المواريث بالمقادير التي تستحسنها عقولكم ، وكونوا مطيعين لأمر الله في هذه التقديرات التي قدرها لكم ، فقوله : {وَأَبْنَآؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً} إشارة إلى ترك ما يميل اليه الطبع من قسمة المواريث على الورثة ، وقوله : { فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ} إشارة إلى وجوب الانقياد لهذه القسمة التي قدرها الشرع وقضى بها ... وقوله تعالى: { فَرِيضَةً مِّنَ الله } ... أي فرض ذلك فرضا ، وقوله تعالى :{ إن الله كان عليما حكيما} ، والمعنى : أن قسمة الله لهذه المواريث

أولى من القسمة التي تميل إليها طباعكم ، لأنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، فيكون عالما بما في قسمة المواريث من المصالح والمفاسد ، وأنه حكيم لا يأمر إلا بما هو الأصلح الأحسن، ومتى كان الأمر كذلك كانت قسمته لهذه المواريث أولى من القسمة التي تريدونها ، وهذا نظير قوله للملائكة : { إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ } [البقرة : ٣٠]. "[١]

– وقال محمد رشيد رضا : " قوله : { آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا} جاءت هذه الجملة بين بيان ما فرض الله للأولاد ، والوالدين من تركة الميت ، وما اشترط فيه من كونه فاضلا عن الوصية ، والدين وبين قوله : { فَرِيضَةً مِنَ اللهِ } ، أي فرض ما ذكر من الأحكام فريضة من الله لا هوادة في وجوب العمل بها ، ومعنى هذه الجملة المعترضة: إنكم لا تدرون أي الفريقين أقرب نفعا لكم . أآباؤكم أم أبناؤكم فلا تتبعوا في قسمة تركة الميت ما كانت عليه الجاهلية من إعطائها للأقوياء الذين يحاربون الأعداء ، وحرمان الأطفال والنساء لأنهم من الضعفاء . بل اتبعوا ما أمركم الله به فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعا لكم ، مما تقوم به في الدنيا مصالحكم ، وتعظم به في الآخرة أجوركم .... وقوله : { إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } فهو لعلمه المحيط بشئونكم ، ولحكمته البالغة التي يقدر بها الأشياء قدرها ، ويضعها في مواضعها اللائقة بها ، لا يشرع لكم من الأحكام إلا ما فيه المصلحة ، والمنفعة لكم ; إذ لا يخفى عليه شيء من وجوه المصالح ، والمنافع ، وهو منزه عن الغرض ، والهوى اللذين من شأنهما أن يمنعا من وضع الشيء في موضعه ، وإعطاء الحق لمستحقه . "[٢]

– وقال الشعراوي : " ويذيل الحق هذه الآية : { آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } فإياك أن تحدد الأنصباء على قدر ما تظن من النفعية في الآباء أو من النفعية في الأبناء ، فالنفعية في الآباء تتضح عندما يقول الإنسان : « لقد رباني أبي وهو الذي صنع لي فرص المستقبل » . والنفعية في الأبناء تتضح عندما يقول الإنسان : إن أبي راحل وأبنائي هم الذين سيحملون ذكري واسمي والحياة مقبلة عليهم.

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٢٣)

(٢) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (٤/ ٤١٩-٤٢٠)

فيوضح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم؛ فليس لك شأن بهذا الأمر : {لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً }. وما دمت لا تدري أيهم أقرب لك نفعا فالتزم حكم الله الذي يعلم المصلحة وتوجيهها في الأنصبة، كما يجب أن تكون .ونحن حين نسمع: { إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } أو نسمع: { إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيما }

فنحن نسمعها في إطار أن الله لا يتغير ، ومادام كان في الأزل عليما حكيما وغفورا رحيما فهو لا يزال كذلك إلى الأبد فالأغيار لا تأتي إلى الله ، وثبت له العلم والحكمة والخبرة والمغفرة والرحمة أزلا وهو غير متغير ، وهذه صفات ثابتة لا تتغير . لذلك فعندما تقرأ : { إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } أو { إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً } ، فالمسلم منا يقول بينه وبين نفسه: ولا يزال كذلك » (١)

– وقال سيد قطب : " وفي نهاية الآية تجيء هذا اللمسات المتنوعة المقاصد : { آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }.

واللمسة الأولى : لفتة قرآنية لتطييب النفوس تجاه هذه الفرائض . فهنالك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إيثار الأبناء على الآباء لأن الضعف الفطري تجاه الابناء أكبر . وفيهم من يغالب هذا الضعف بالمشاعر الأدبية والأخلاقية فيميل إلى إيثار الآباء . وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضعف الفطري والشعور الأدبي . . كذلك قد تفرض البيئة بمنطقها العرفي اتجاهات معينة كتلك التي واجه بها بعضهم تشريع الإرث يوم نزل وقد أشرنا إلى بعضها من قبل . . فأراد الله سبحانه أن يسكب في القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمر الله ولما يفرضه الله; بإشعارها أن العلم كله لله; وأنهم لا يدرون أي الأقرباء أقرب لهم نفعاً ولا أي القسم أقرب لهم مصلحة : { آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً } . .

واللمسة الثانية : لتقرير أصل القضية . فالمسألة ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة، إنما هي مسألة الدين ومسألة الشريعة : { فريضة من الله} . .فالله هو الذي خلق الآباء والأبناء . والله هو الذي أعطى الأرزاق والأموال . والله هو الذي يفرض وهو الذي يقسم

(١) الشعراوي : تقسير الشعراوي (١/ ١٣٨٣)

وهو الذي يشرع . وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم ولا أن يحكموا هواهم كما أنهم لا يعرفون مصلحتهم! { إن الله كان عليماً حكيماً } وهي اللمسة الثالثة : في هذا التعقيب. تجيء لتشعر القلوب بأن قضاء الله للناس – مع أنه هو الأصل الذي لا يحل لهم غيره – فهو كذلك المصلحة المبنية على العلم والحكمة . فالله يحكم لأنه عليم – وهم لا يعلمون – والله يفرض لأنه حكيم – وهم يتبعون الهوى .

وهكذا تتوالى هذه التعقيبات قبل الانتهاء من أحكام الميراث لرد الأمر إلى محوره الأصيل، محوره الاعتقادي الذي يحدد معنى « الدين » فهو الاحتكام إلى الله، وتلقي الفرائض منه، والرضى بحكمه: { فريضة من الله . إن الله كان عليماً حكيماً }. "[١]

٢ / [الآية : ١٢ : { وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ }.

– قال الرازي: "... { وَصِيَّةً مِّنَ الله } : أنه مصدر مؤكد أي : يوصيكم الله بذلك وصية، كقوله : { فَرِيضَةً مِّنَ الله }...ثم قال : { وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ } أي عليم بمن جار أو عدل في وصيته { حَلِيمٌ } على الجائر لا يعاجله بالعقوبة وهذا وعيد والله أعلم."[٢]

– وقال محمد رشيد رضا : " قوله : { وَصِيَّةً مِنَ اللهِ} أي يوصيكم بذلك ، وصية منه – عز وجل – فهي جديرة بالإذعان لها ، والعمل بموجبها والله عليم بمصالحكم ، ومنافعكم وبنيات الموصين منكم حليم لا يسمح لكم بأن تعجلوا بعقوبة من تستاءون منه ، ومضارته بالوصية...وإذا كنا نعلم أنه – تعالى شأنه – أعلم منا بمصالحنا ، ومنافعنا فما علينا إلا أن نذعن لوصاياه ، وفرائضه ، ونعمل بما ينزله علينا من هدايته ، وكما يشير اسم " العليم " هنا إلى وضع تلك الأحكام على قواعد العلم بمصلحة العباد ومنفعتهم يشير أيضا إلى وجوب مراقبة الوارثين ، والقوام على التركات لله – تعالى – في علمهم بتلك الأحكام ; لأنه عليم لا يخفى عليه حال من يلتزم الحق في ذلك ، ويقف عند حدود الله – عز وجل – ، وحال من يتعدى تلك الحدود بأكل شيء من الوصايا ، أو الدين ، أو حق صغار الوارثين ، أو النساء

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٦٥– ٢٦٧)

(٢) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٣٤)

الذي فرضه الله لهم كما كانت تفعل الجاهلية ; ولذلك قال في الآية السابقة : إن الله كان عليما حكيما فللتذكير بعلمه – تعالى – هنا فائدتان : فائدة تتعلق بحكمة التشريع ، وفائدة تتعلق بكيفية التنفيذ . وقد يخطر في البال أن المناسب الظاهر في هذه الآية أن يقرن وصف العلم بوصف الحكمة كالآية الأخرى ، فيقال : { والله عليم حكيم } ، فما هي النكتة في إيثار الوصف بالحلم على الوصف بالحكمة ، والمقام مقام تشريع ، وحث على اتباع الشريعة ; لا مقام حث على التوبة فيؤتى فيه بالحلم الذي يناسب العفو والرحمة ؟ والجواب عن ذلك: أن التذكير بعلم الله – تعالى – لما كان متضمنا لإنذار من يتعدى حدوده تعالى فيما تقدم من الوصية ، والدين ، والفرائض ، ووعيده ، وكان تحقق الإنذار ، والوعيد بعقاب معتدي الحدود وهاضم الحقوق قد يتأخر عن الذنب ، وكان ذلك مدعاة غرور الغافل ، ذكرنا – تعالى – هنا بحلمه لنعلم أن تأخر نزول العقاب لا ينافي ذلك الوعيد والإنذار ، ولا يصح أن يكون سببا للجراءة ، والاغترار ، فإن الحليم هو الذي لا تستفزه المعصية إلى التعجيل بالعقوبة ، و ليس في الحلم شيء من معنى العفو والرحمة ، فكأنه يقول : لا يغرن الطامع في الاعتداء ، وأكل الحقوق تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل ، فينسى علم الله – تعالى – بحقيقة حالهم ، ووعيده لأمثالهم ، فيظن أنهم بمفازة من العذاب فيتجرأ على مثل ما تجرءوا عليه من الاعتداء ، ولا يغرن المعتدي نفسه تأخر نزول الوعيد به ، فيتمادى في المعصية بدلا من المبادرة إلى التوبة ، لا يغرن هذا ولا ذاك تأخير العقوبة ، فإنه إمهال يقتضيه الحلم ، لا إهمال من العجز أو عدم العلم ، وفائدة المذنب من حلم الحليم القادر أنه يترك له وقتا للتوبة والإنابة بالتأمل في بشاعة الذنب وسوء عاقبته ، فإذا أصر المذنب على ذنبه ، ولم يبق للحلم فائدة في إصلاح شأنه ، يوشك أن يكون عقاب الحليم له أشد من عقاب السفيه على البادرة عند حدوثها ، ومن الأمثال في ذلك : " اتقوا غيظ الحليم " ذلك بأن غيظه لا يكون إلا عند آخر درجات الحلم إذا لم تبق الذنوب منه شيئا ، وعند ذلك يكون انتقامه عظيما .نعم إن حلم الله لا يزول ، ولكنه يعامل به كل أحد بقدر معلوم:{ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ }[الرعد: ٨] فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بحلمه– تعالى–،كما أنه لا ينبغي له أن يغتر بكرمه."[١]

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (٤/ ٤٢٥–٤٢٧)

– قال سيد قطب :" ثم يجيء التعقيب في الآية الثانية – كما جاء في الآية الأولى – : {وصية من الله والله عليم حليم} .. وهكذا يتكرر مدلول هذا التعقيب لتوكيده وتقريره. . فهذه الفرائض {وصية من الله} صادرة منه; ومردها إليه . لا تنبع من هوى، ولا تتبع الهوى . صادرة عن علم . . فهي واجبة الطاعة لأنها صادرة من المصدر الوحيد الذي له حق التشريع والتوزيع . وهي واجبة القبول لأنها صادرة من المصدر الوحيد الذي عنده العلم الأكيد . توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية في هذه العقيدة . قاعدة التلقي من الله وحده ."(١).

وقد بين الرازي النكتة من تذييل الآية الأولى بقوله : {فريضة من الله} ، والآية الثانية بقوله :{وصية من الله}.. فقال : " لم جعل خاتمة الآية الأولى : {فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ} وخاتمة هذه الآية {وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ} ؟ الجواب : أن لفظ الفرض أقوى وآكد من لفظ الوصية، فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة ، وختم شرح ميراث الكلالة بالوصية ليدل بذلك على أن الكل ، وان كان واجب الرعاية إلا أن القسم الأول وهو رعاية حال الأولاد أولى." (٢)

٣/ [**الآية : ١٧٦** ؛ {يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

– قال الرازي:" قال تعالى :{يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا} وفيه وجوه : الأول : قال البصريون : المضاف ههنا محذوف وتقديره : يبين الله لكم كراهة أن تضلوا...وقال الكوفيون : حرف النفي محذوف ، والتقدير : يبين الله لكم لئلا تضلوا... الثالث : قال الجرجاني... يبين الله لكم الضلالة لتعلموا أنها ضلالة فتجنبوها.

ثم قال تعالى : {وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُ} فيكون بيانه حقاً وتعريفه صدقاً.

واعلم أن في هذه الصورة لطيفة عجيبة ، وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى فإنه قال : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء : ١] وهذا دال على سعة القدرة ، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم وهو قوله {وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُ} وهذان الوصفان هما اللذان بهما تثبت الربوبية والإلهية والجلالة والعزة ، وبهما

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٦٩)

(٢) الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٣٤)

يجب على العبد أن يكون مطيعاً للأوامر والنواهي منقاداً لكل التكاليف."[١]

– قال محمد رشيد رضا : " قوله : { يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } أي يبين الله لكم أمور دينكم ، ومن أهمها تفصيل هذه الفرائض وأحكامها ، كراهة أن تضلوا ، أو تفاديا منها من أن تضلوا ، والمراد لتتقوا بمعرفتها والإذعان لها الضلال في قسمة التركات وغيرها ، هذا هو التوجيه المشهور زدناه بيانا بالتصرف في التقدير ، وهو على هذا مفعول لأجله . وقدم البيضاوي عليه وجها آخر ، فقال : " أي يبين الله لكم ضلالكم الذي من شأنكم، إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه "... وتكرر في القرآن { والله بكل شيء عليم } فما شرع لكم هذه الأحكام وسواها ، إلا عن علم بأن فيها الخير لكم وحفظ مصالحكم، وصلاح ذات بينكم ، كما هو شأنه في جميع أحكامه وأفعاله ، كلها موافقة للحكمة الدالة على إحاطة العلم وسعة الرحمة. "[٢]

– قال سيد قطب : "... وتختم آية الميراث ، وتختم معها السورة ، بذلك التعقيب القرآني الذي يرد الأمور كلها لله ، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات والأموال وغير الأموال بشريعة الله :{ يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم } . .صيغة جامعة شاملة { بكل شيء} من الميراث وغير الميراث . من علاقات الأسر وعلاقات الجماعات . من الأحكام والتشريعات . . فإما إتباع بيان الله في كل شيء ، وإما الضلال . . طريقان اثنان لحياة الناس لا ثالث لهما : طريق بيان الله فهو الهدى . وطريق من عداه فهو الضلال . "[٣]

- **الملاحظ على التذييلات الثلاثة التي ختمت بها آيات المواريث، أن:** الآيات الثلاثة اشتملت على اسم الله : «العليم»، وأيضا : اشتملت الآية الأولى على اسم الله : «الحكيم»، والثانية على اسم الله : «الحليم» .. وحكمة الباري في ذلك كأنّه يريد أن يقول لعباده بعد تشريعه لمنظومة الميراث أن الله : «عليم»

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (٦/ ١٢٣-١٢٤)

(٢) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (٦/ ١١١)

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٦٢١-٦٢٢)

بمصالحكم المالية التي من أجلها جمعتم هذا المال ونميتموه سواء في محياكم أم في مماتكم، وإذا كان الأمر كذلك فاعلموا أن قسمته لهذا المال على مستحقيه من ورثتكم بعد هلاككم كانت وفق اسمه : «الحكيم» الذي لا يحابي بِهِ أحدًا على أحدٍ فلكلّ نصيبه -سواء كان رجلا أو امرأة- مقدرا تقديرًا بالغًا لا يمكن أن يبلغه علمكم.. الذي لا يقال عنه علم ابتداء إذا ما قورن بعلم الله ! واقرأمعي إن شئت قوله : { وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة : (٢١٦)] فإذا علمت أيّها المخلوق أنّ هذا هو قدر علمك إلى علم الله وحكمته ، فسلّم له بالقسمة التي اختارها فيما تملك من مال سمعا وطاعة له فيما شرّع .. ورضا وقبولا بما قسّم وقدّر .. لأنّه حقًا هو : « **العليم** » ، « **الحكيم** » ، « **الحليم** ».

الفرع الحادي عشر : الحكمة من ترتب الوعد والوعيد بعد بيان مقادير الميراث

ختم الله -عز وجل- مقادير وأنصبة الورثة بآيتين تضمنت الأولى وعدا بالجنة وفوزا عظيما لمن رضي بقسمة الله في مال كلّ ميّت، وتضمّنت الثانية وعيدا بالنّار والعذاب المهين لمن اعترض على قسمة الله وعصى وتعدّى على ما حدّ وحكم به فقال : -جلّ في علاه- : {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ·وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } [النساء :١٣- ١٤].

وفي هاتين الآيتين إعجاز تشريعي بديع نبيّنه بعدما نعرض لما ذكره علماؤنا من لطائف ولمسات تضمنها هذا الوعد وهذا الوعيد :

- قال الرازي: "ذكر الوعد والوعيد ترغيبا في الطاعة وترهيبا عن المعصية فقال : {تِلْكَ حُدُودُ الله }... وقوله : { تِلْكَ }... إشارة إلى أحوال المواريث... وأن المراد بحدود الله : المقدرات التي ذكرها وبينها . " الرازي: التفسير الكبير (٥/ ٢٣٥) .

- وقال ابن كثير : « أي: هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قُربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها؛ ولهذا قال: { وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ } أي: فيها، فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضًا بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته { يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} أي، لكونه غيَّر ما حكم الله به وضاد الله في حكمه. وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.»[1]

- قال سيد قطب : " القاعدة الأساسية في هذه العقيدة ، قاعدة التلقي من الله وحده...

(١) ابن كثير : تفسيرابن كثير (٢/ ٢٢٠)

وهذا ما تقرره الآيتان التاليتان في السورة تعقيباً نهائياً على تلك الوصايا والفرائض، حيث يسميها الله بالحدود :(**تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**).

تلك الفرائض وتلك التشريعات التي شرعها الله لتقسيم التركات وفق علمه وحكمته ولتنظيم العلاقات العائلية في الأسرة والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع (**تلك حدود الله**) . . حدود الله التي أقامها لتكون هي الفيصل في تلك العلاقات ولتكون هي الحكم في التوزيع والتقسيم، ويترتب على طاعة الله ورسوله فيها الجنة والخلود والفوز العظيم، كما يترتب على تعديها وعصيان الله ورسوله فيها النار والخلود والعذاب المهين.

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يشير إليها هذا التعقيب الذي يربط بين توزيع أنصبة من التركة على الورثة وبين طاعة الله ورسوله أو معصية الله ورسوله . وبين جنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها; ونار خالدة وعذاب مهين! وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي تتكىء عليها نصوص كثيرة في هذه السورة وتعرضها عرضاً صريحاً حاسماً لا يقبل المماحكة ولا يقبل التأويل. وهذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يتبينها الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام في هذه الأرض ليروا أين هم من هذا الإسلام وأين حياتهم من هذا الدين!... وهذه هي الحقيقة التي ينبغي أن يتبينها الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام في هذه الأرض ليروا أين هم من هذا الإسلام وأين حياتهم من هذا الدين!

إن هذا النظام في التوريث هو النظام العادل المتناسق مع الفطرة ابتداء; ومع واقعيات الحياة العائلية والإنسانية في كل حال . يبدو هذا واضحاً حين نوازنه بأي نظام آخر عرفته البشرية في جاهليتها القديمة أو جاهليتها الحديثة في أية بقعة من بقاع الأرض على الإطلاق. إنه نظام يراعي معنى التكافل العائلي كاملاً ويوزع الأنصبة على قدر واجب كل فرد في الأسرة في هذا التكافل . فعصبة الميت هم أولى من يرثه – بعد أصحاب الفروض كالوالد والوالدة – لأنهم هم كذلك أقرب من يتكفل به ومن يؤدي عنه في الديات والمغارم . فهو نظام متناسق ومتكامل.

وهو نظام يراعي أصل تكوين الأسرة البشرية من نفس واحدة . فلا يحرم امرأة ولا صغيراً لمجرد أنه امرأة أو صغير . لأنه مع رعايته للمصالح العملية – كما بينا في الفقرة الأولى – يرعى كذلك مبدأ الوحدة في النفس الواحدة . فلا يميز جنساً على جنس إلا بقدر أعبائه في التكافل العائلي والاجتماعي.

وهو نظام يراعي طبيعة الفطرة الحية بصفة عامة وفطرة الإنسان بصفة خاصة . فيقدم الذرية في الإرث على الأصول وعلى بقية القرابة . لأن الجيل الناشىء هو أداة الامتداد وحفظ النوع . فهو أولى بالرعاية – من وجهة نظر الفطرة الحية – وهو نظام يتمشى مع طبيعة الفطرة كذلك في تلبية رغبة الكائن الحي – وبخاصة الإنسان – في أن لا تنقطع صلته بنسله وأن يمتد في هذا النسل . ومن ثم هذا النظام الذي يلبي هذه الرغبة ويطمئن الإنسان الذي بذل جهده في ادخار شيء من ثمرة عمله إلى أن نسله لن يحرم من ثمرة هذا العمل وأن جهده سيرثه أهله من بعده . مما يدعوه إلى مضاعفة الجهد ومما يضمن للأمة النفع والفائدة – في مجموعها – من هذا الجهد المضاعف . مع عدم الإخلال بمبدأ التكافل الاجتماعي العام الصريح القوي في هذا النظام . وأخيراً فهو نظام يضمن تفتيت الثروة المتجمعة على رأس كل جيل وإعادة توزيعها من جديد . فلا يدع مجالاً لتضخم الثروة وتكدسها في أيد قليلة ثابتة ... وهذا التفتيت المستمر والتوزيع المتجدد; فيتم والنفس به راضية لأنه يماشي فطرتها وحرصها وشحها! وهذا هو الفارق الأصيل بين تشريع الله لهذه النفس وتشريع الناس!!![1].

وبعد تأمّل طويل ... هدانا الله بحكمته وعلمه إلى أن هاتين الآيتين تضمّنتا إعجازًا تشريعيا بديعا وحكمة بالغة من الله الحكيم العليم .. فيما نرى –والله أعلم–، وهو : أن الذين خوطبوا بهاتين الآيتين أساسا على عهد زمن نزول الوحي : هم الرّجال خاصّة، لأنّ الأحكام التي تضمنتها آيات المواريث كانت لصالح النّساء ... ولذلك لم يكن الاعتراض منهنّ، بل كان الاعتراض من الرّجال لأنّهم رأوا أن حظهم من الميراث قد نقص .. لذلك

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن (٢/ ٢٦٩ ، ٢٧١–٢٧٣)

كانت عليهم شديدة، فخاطبهم الباري -عز وجل- بهذا الوعد وهذا الوعيد .. وهذا ما بيّنه ابن عبّاس -رضي الله عنه- : قال ابن كثير : "وقال العوفي عن ابن عبّاس ... وذلك أنّه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين، كرهها النّاس أو بعضهم، وقالوا : تعطى المرأة الرّبع أو الثمن، وتعطى الابنة النّصف، ويعطى الغلام الصغير، [الاعتراض على فئة النّساء والصّغار] وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة، اسكتوا عن هذا الحديث لعلّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينساه، أو نقول له فيغيّره، فقالوا : يارسول الله : تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها، وليست تركب الفرس ولا تقاتل القوم، ويعطى الصّبي الميراث وليس يغني شيئا، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية لا يعطون الميراث إلاّ لمن قاتل القوم ويعطونه الأكبر فالأكبر "رواه ابن أبي حاتم وابن جرير أيضا "[1]

ولّما استقرّت الأحكام وثبتت المقادير والأنصبة للورثة من الرّجال والنّساء .. رضي الرّجال بهذه الأحكام باعتبار أنّ قسمتها وتفصيلها كان من الباري -عز وجل- لأنّ شعار المؤمن من أحكام الله -عز وجل- هو : القبول والتسليم، لقوله تعالى : { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [البقرة/ ٨٥]، وقوله : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب : ٣٦].

ولكن يستدار الزّمان كهيئة يوم جاء هذا الدّين .. ويصبح الاعتراض من جهة النّساء لا الرّجال .. حيث نادت كثير من الجمعيات النسويّة في البلاد العربيّة والإسلاميّة بتغيير منظومة الميراث بدعوى أن الله -عز وجل- ظلم المرأة بعدم تسوية ميراثها بميراث الرّجل.. فيكون هذا الوعد والوعيد موجّه بصورة أدقّ في هذا الزمان إلى هؤلاء النسوة اللاّتي أنكرن جميل خالقهنّ عندما سوّى بينهن في أصل الميراث، فقال : {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا }، ولعلّ هذا من الإعجاز التشريعي في توالي هاتين الآيتين المتضمنتين للوعد والوعيد لآيتي الميراث- والله أعلم بالصواب -

(١) ابن كثير : تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٣)

- **وفي الأخير نختم بهذه الكلمات التي تخص هذا الفن :**

– قال الماوردي " حقيق بمن علم أن الدنيا منقرضة وأن الرزايا قبل الغايات معترضة، وأن المال متروك لوارث ، أو مصاب بحادث ، أن يكون زهده فيه أقوى من رغبته ، وتركه له أكثر من طلبته ، فإن النجاة منها فوز ، والاسترسال فيها عجز ، أعاننا الله على العمل بما نقول ، ووفقنا لحسن القبول إن شاء الله." الماوردي : الحاوي (٢/ ٢١٣)

الخاتمة

بعد رحلتنا مع هذا البحث انتهينا إلى النتائج الآتية

١/ فريضة الميراث وإن كان الأصل فيها والغالب عليها التعبّد المحض، إلاّ أن فيها ما هو معقول المعنى، ظاهر القصد، جليّ الحكمة .. وذلك لدورانها حول موضوع المال الذي قنّنته الشريعة أحسن تقنين .

٢/ أجمل الله –عز وجل– الكلام عن الميراث تمهيدا وتهيئة لنفوس المؤمنين حتّى يكونوا على أتمّ استعداد لما سيشرعه من أحكام جزئية وتفصيلية في هذه المنظومة العادلة للرّجال وللنّساء، وللأقوياء والضّعفاء، على حدّ سواء .

٣/ ترتيب الورثة كان مبنيًا على أساس حكمة بالغة ونظر دقيق : فالقريب إلى الميّت أولى بالميراث من البعيد عنه فجاء ترتيب الورثة حسب هذا التسلسل العادل وفق هذه القواعد المنضبطة التي لا تحابي أحدًا على حساب آخر.

٤/ رتب الله الحقوق المتعلقة بالتّركة ترتيبا بديعا ، فقدم حقّ التّجهيز لأنّ الميت أولى بماله من غيره، ثمّ قدّم الدّين على الوصيّة لأنّه قد تعلقت به ذمّته،ثم قدّمت الوصيّة على الميراث حتّى يستدرك ما فاته من الخير والبرّ .

٥/ صدر الله أحكام الميراث بلفظ «يوصيكم»لبيان أن الله أعدل وأرحم بخلقه حتى من الوالدين بأولادهم ، فلفت الله قلوب المؤمنين ليتيقنوا أن ما أوصى به الله من قسمة في

المال هو الخير كلّه والنّفع كلّه، وما وراءه من قسمة فهي باطلة مرجوحة،وجاء التّعبير بلفظ: «أولادكم» دون لفظ «أبنائكم» لأن لفظ «الولد» أعمّ من لفظ «الابن».

٦/ أخذ الذّكر ضعف ما تأخذه الأنثى ليس فيه محاباة لجنس على حساب جنس، وإنّما هي حالة توازن وعدل بين أعباء الذكر المتعدّدة، وأعباء الأنثى المحدودة ، ولأن المنفق مترقب للنقص دائما، والمنفق عليه مترقّب للزيادة دائما، فراع الشّارع الحكيم في إيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة،ومن هنا يبدو العدل الرباني جليّا، كما يبدو التناسق البديع بين الغنم والعرم في هذا التّوزيع الحكيم العادل.

٧/ قدم الله الأبناء على الآباء في الميراث، لأن البنوّة أقوى من الأبوّة، بالنسبة إلى مدى احتياج الطرفين إلى المال: فالأبناء جاءوا إلى هذه الدّنيا وهم يستقبلون الحياة ومن ثمّ فاحتياجهم إلى المال كبير، بخلاف الآباء فإنّهم في الغالب يستدبرون الحياة ومن ثمّ فحاجتهم إلى المال أقل من حاجة أبنائهم .

٨/ فضل الله الأب عن الأم لامتياز ترتب النفقة ووجوبها على الأب دون الأمّ، وهذا من عدل الشّريعة وقسطها، إذْ قد يصرف ما في يد الأب ويبقى نصيب الأم كما هو، وهذا فيه من حسن الشّريعة ما فيه .

٩/ جعل الشّارع الحكيم مقدار ما يأخذه الذّكر يتساوى مع ما تأخذه الأنثى من الإخوة لأم لأنهم يدلون إلى الميّت بواسطة الأمومة -الأنوثة- فلم يفضل ذكرهم على أنثاهم، بخلاف غيرهم من الأبناء والأبوين والزّوجين والإخوة ، فإنّهم يدلون إلى الميّت بأنفسهم أو بالذكورة .

١٠/ ختمت آيات المواريث باسماء الله الحسنى ، وحكمة الباري في ذلك كأنّه يريد أن يقول لعباده بعد تشريعه لمنظومة الميراث أن الله : عليم بمصالحكم المالية التي من أجلها جمعتم هذا المال ونميتموه ، وإذا كان الأمر كذلك فاعلموا أن قسمته لهذا المال على مستحقيه من ورثتكم بعد هلاككم كانت وفق حلمه البالغ وحكمته العادلة، فسلّم له بالقسمة التي اختارها فيما تملك من مال سمعا وطاعة له فيما شرّع لأنّه هو:»العليم»، «الحكيم»، «الحليم».

قائمة المصادر والمراجع

رتبنا قائمة المصادر والمراجع وفق الحروف الهجائيّة دون مراعاة "ال" التعريف في البداية مبتدئين بعنوان الكتاب.

١ / – أحكام القرآن : محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٥٤٢هـ)، دار المعرفة –بيروت–.

٢/ – أحكام القرآن : أحمد بن على الرازي الجصاص ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – (١٤٠٥ هـ)

٣/ – أضواء البيان : محمّد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣هـ)، عالم الكتب –بيروت–

٤/ – إعلام الموقعين: محمد أبو عبد الله ابن قيم الجوزيّة (٧٥١هـ)، تحقيق : طه عبد الرءوف،دار الجيل – بيروت – (١٩٧٣)

٥/ – بداية المجتهد ونهاية المقتصد : محمد بن أحمد بن رشد الحفيد (٥٩٥هـ)، دار الكتب الحديثة – القاهرة–

٦ / –التفسيرالكبير(مفاتيح الغيب):محمّدبن عمرالرّازي (٦٠٦هـ)،دارإحياء التّراث العربي – بيروت–

٧/ – تفسير ابن كثير : الحافظ إسماعيل بن كثير (٧٧٤هـ)، دار الأندلس ،ط (٣) : (١٤٠١هـ)

٨/ – تفسير التحرير والتنوير : محمّد الطّاهر بن عاشور (١٢٨٤هـ)،المؤسّسة الوطنيّة للكتاب الجزائر– (١٤٠٤هـ–١٩٨٤م).

٩/ – تفسير المنار : محمّد رشيد رضا (١٣٥٥هـ)، مطبعة القاهرة ط (٤): (١٣٨٠هـ)

١٠/ – تفسير الألوسي (روح المعاني) : شهاب الدين محمود بن الله الحسيني الألوسي ، دارإحياء التّراث العربي – بيروت–

١١/ –تفسير المراغي :أحمد مصطفى المراغي ، دارإحياء التّراث العربي – بيروت–

١٢/ – تفسير الشعراوي : مأخوذ من المكتبة الشاملة .

١٣/ – الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ)، دار الكتاب العربي –بيروت– ط (٢): (١٣٧٢هـ).

١٤/ – الحاوي الكبير : أبو الحسن على الماوردي (٤٥٠هـ)، تحقيق : د/ محمود مطرجي، دار الفكر –بيروت– (١٤١٤هـ).

١٥/ – حجّة الله البالغة : الشيخ أحمد المعروف بشاه وليّ الله الدّهلوي (١١٧٦هـ)، دار التّراث–القاهرة–.

١٦/ – زاد المعاد في هدي خير العباد : محمدشمس الدين ابن قيم الجوزية ، مؤسسة الرسالة –بيروت – ط:

٧ (١٤١٥هـ) ١٧/ - شرح الزرقاني على موطأمالك : محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت: ١١٢٢) ،دار الكتب العلمية - بيروت -

١٨/ - صحيح البخاري : أبو عبد اللهإسماعيل البخاري(٢٥٦هـ)، - مطبوع مع فتح الباري - دار المعرفة -بيروت-.

١٩/ - صحيح مسلم : أبو الحسن مسلم النيسابوري (٢٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي -بيروت

٢٠/ - فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد على بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، دار المعرفة - بيروت-.

٢١/ - الفقه الإسلامي وأدلّته : د/ وهبة الزّحيلي، دار الفكر -سوريا- ط (١) : (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).

٢٢/ - الفرائض:عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي(ت:٥٨١)،تحقيق : د. محمدإبراهيم البنا المكتبة الفيصليةط: (٢) : ١٤٠٥هـ

٢٣/ - الفرائض: عبد الكريم اللاحم ، وزارة الشئون الإسلامية -المملكةالسعودية - ط : (١) : (١٤٢١هـ).

٢٤/ - في ظلال القرآن : سيد قطب دار المعرفة - بيروت- ط : (٧) : (١٣٩١هـ).

٢٥/ - مجموع الفتاوى : تقي الدّين أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)، جمع:عبد الرحمن بن قاسم،مكتبة المعارف -الرّباط-.



إعجاز القرآن في دلالة الفطرة على الإيمان

د. سعد بن على الشهراني

عضو هيئة التدريس بقسم العقيدة جامعة أم القرى

المقدمة

الحمد لله فاطر السموات والأرض، فطر عباده على توحيده ومعرفته، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلهم يشكرون، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد:-

فقد عظم الإسلام أمر الفطرة وأعلى شأنها، حيث وصف الله تعالى في القرآن الكريم الدين بها، وأمر باتباعها وحذّر العباد من تغييرها مبينًا أن اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه الله وجعله مستقيمًا قيّمًا لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم، قال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:٣٠] ومن تعظيم الإسلام للفطرة أنه جعلها الأساس السابق لأي دليل شرعي أو عقلي. فرسالة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكرة بها، وهذا ما بينه الله تعالى في كتابه الكريم في مواضع عدّة، منها قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾[الغاشية:٢١] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[ق:٣٧]

قال الإمام ابن تيمية ~ في هذا المعنى: « الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفيً المغير للفطرة، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة »[(١)].

إن معرفة الله تعالى فطرية، والمراد بهذا أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقًا مدبرًا، وتستوجب معرفته إياه، وتألّهه له. وهذه الصفة ذاتها هي القوة المغروزة في

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٤٨).

الإنسان، التي تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وإذا كان قد عُلم بالبراهين اليقينية القاطعة، أن وجود الخالق هو أعظم الحقائق، وأن معرفته والتألّه له أعظمُ المنافع، فإنه يتعين بذلك أن يكون في الفطرة ما يقتضيه معرفة الصانع والإيمان به[1].

والقرآن الكريم كلام رب العالمين يجلي هذه الحقيقة ويقررها بأبدع البيان، وأوضح البرهان، غير أنه مما يؤسف له إعراض بعض المسلمين عن هذه الحقائق الربانية، وإنكارهم لهذه المعرفة الفطرية. فجماهير المتكلمين على اختلاف طوائفهم يقررون أن معرفة الله نظرية، وأنها إنما تدرك بالنظر والاستدلال، ويجعلون الطريق إلى معرفته تعالى النظر، فأوجبوه على كل مكلف وجعلوا لهذا النظر طرقًا وأدلة كلامية وفلسفية صعبت على نُظَّارهم فضلًا عن عامة المسلمين، وقولهم يتناقض مع القول بفطرية معرفة الله، لأن المعارف الفطرية لا تحتاج إلى نظر واستدلال، وإنما تكون معلومة بالبداهة والفطرة.

إن حديث القرآن الكريم عن هذه المعرفة الفطرية كافٍ شافٍ شامل لحقيقتها وبيان المراد منها، ولو رجعنا للقرآن الكريم بفهم سلفنا الصالح لوجدنا فيه غنية عن المناهج والمدارس الكلامية والفلسفية التي أشغلت المسلمين بمسائل لا تبني اليقين والإيمان بل تؤسس للشك والحيرة والاضطراب، ومما يؤسف له أن هذه المسائل والدلائل البدعية لا تزال تشغل حيزًا في مناهجنا التعليمية معرضة عن المنهج القرآني الرباني ذلكم الوحي المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة التي أجريت على فئات مختلفة من الناس في مناطق متعددة وبواسطة علماء من جامعات أكاديمية مشهورة: (أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة)، وقد سبقهم القرآن العظيم بتقرير هذه الحقيقة التي لا ينازع فيها إلا مكابر!.

والله تعالى أسأل أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همومنا وهادينا إلى الصراط المستقيم.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: (٨/ ٤٥٨)، وشفاء العليل لابن القيم: ص(٥٠٠).

المطلب الأول : الفطرة في لغة العرب

الفطرة في لغة العرب تطلق على معانٍ متعدّدة تدور حول: الشق، والخلقة، والابتداء، والاختراع، والخلق، والقبول. وشواهد هذه المعاني متوافر في معاجم اللغة العربية[١]، وكتب غريب القرآن والحديث[٢]، كما يشهد لبعض معان الفطرة آيات كثيرة في القرآن الكريم. فالفطرة بمعنى الشق، مثل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ [الشورى:٥] ، والفطرة بمعنى الابتداء والاختراع والخلق، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[فاطر:١] ، وجاءت أيضًا بمعنى القبول في قوله تعالى: **(السماء منفطر به)**[المزمل:١٨]، فقوله: **(منفطر به)** إشارة إلى قبولها ما اقتضاه خلقه وإبداعه لها [٣].

أما كلمة "فطرة" على وزن "فِعْلة" فلم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة الروم في قوله تعالى: **(فطرت الله التي فطر الناس عليها)**[الروم:٣].

ويذكر المطهري [٤] إلى أن أحدًا لم يستعمل هذه الكلمة قبل ورودها في القرآن، واستدلّ بحادثة ابن عباس { مع الأعرابيين وفيه: "أنا فطرتها"، وذلك أن ابن عباس وهو حبر الأمة وهو العربي القرشي لم يعرف معنى هذه الكلمة من قبل سماع الأعرابي، فدلّ ذلك على أن هذه الكلمة لم يسبق لها أن استعملت قبل القرآن الكريم، ويمكن الاعتراض عليه بقول عنترة:

وسيفي كالعقيقة وهو كمعي ... سلاحي لا أفلّ ولا فطــار [٥]

---

(١) انظر: مادة (ف ط ر) في كتاب العين للفراهيدي: (٧/ ٤١٧-٤١٨)، تهذيب اللغة للأزهري: (١٣/ ٣٢٥-٣٣٠)، الصحاح للجوهري: (٢/ ٧٨١)، لسان العرب: (٥/ ٥٥-٥٩).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني: ص(٥٧٥)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (٣/ ٤٥٧)، غريب الحديث لأبي عبيد: (٣/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني: ص(٥٧٥).

(٤) الفطرة للمطهري: ص(٥).

(٥) انظر: لسان العرب (٨/ ٣١٣).

المطلب الثاني: أقوال علماء أهل السنة والجماعة في معنى الفطرة

تعددت أقوال العلماء في بيان معنى الفطرة، وسأجمل ذكر أبرز هذه الأقوال دون ذكر أدلتها ومناقشتها طلبًا للاختصار.

القول الأول: أنّ الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود من المعرفة بربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، وهي السلامة من المعرفة والإنكار أو الكفر والإيمان، وأبزر من نصر هذا القول ابن عبدالبر(١)، وبه قال ابن الأثير(٢)، وتقي الدين السبكي(٣)، وغيرهم من العلماء.

القول الثاني: الفطرة هي البداءة التي ابتدأ الله الخلق عليها من الحياة والموت والشقاء والسعادة، وكل ما سبق في علم الله مما يصيرون إليه عند البلوغ أو عند العاقبة(٤).وممن قال بذلك من السلف: عبدالله بن المبارك(٥)، والإمام أحمد في إحدى الروايات عنه(٦).

القول الثالث: بأن الفطرة هي ما فطر الله عليه بني آدم من الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان، وذلك حين أخذ من ذرية آدم الميثاق، وممن قال به: إسحاق بن راهويه، وصححه الأزهري(٧).

القول الرابع: القول بأن الفطرة هي الميثاق، الذي أخذه الله تعالى من ذرية آدم قبل أن يخرجوا إلى الدنيا، فأقروا له جميعًا بالربوبية، ونسب هذا القول إلى الأوزاعي، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وغيرهم(٨).

---

(١) انظر: التمهيد: (١٨/ ٦٨-٦٩)، وعقيدة الإمام ابن عبدالبر في التوحيد والإيمان، للغصن: ص(٤٢٦-٤٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث: (٣/ ٤٥٧).

(٣) كل مولود يولد على الفطرة، للسبكي: ص(١٦).

(٤) انظر: التمهيد: (١٨/ ٧٨).

(٥) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٢/ ٢٢).

(٦) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ص(٤٩٩)، وقد ذكر أن للإمام أحمد ثلاث روايات في الفطرة، لكن هذا القول قد تركه الإمام، انظر: درء التعارض: (٨/ ٣٨٩)، التمهيد: (١٨/ ٧٦).

(٧) انظر: التمهيد: (١٨/ ٨٣)، تهذيب اللغة للأزهري: (١٣/ ٣٢٨).

(٨) انظر: التمهيد: (١٨/ ٩٠-٩١)، تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ص(٩٥).

وقد ذكر ابن عبدالبر أن أصحاب هذا القول يفسرون الفطرة بمجموع أمرين: أخذ الميثاق يوم استخراج ذرية آدم من ظهره، ثم إخراجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على معرفة الله والإقرار بربوبيته، وحينئذٍ يكون هذا عين مذهب السلف، لا قولاً مستقلاً، كما ذكره أثناء عرض الأقوال في الفطرة[(١)].

القول الخامس: وهو أن المراد بالفطرة: الإسلام، وهذا الذي عليه أكثر الصحابة والتابعين، و غيره من علماء السلف، ومنهم: معاذ بن جبل، وعمر بن الخطاب، وأبو هريرة، وابن عباس، والقاضي شريح، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن البصري، والباقر، وقتادة، وابن شهاب، وجعفر الصادق، والأوزاعي، وحماد بن زيد[(٢)]، وأحمد بن حنبل، والبخاري[(٣)]، وابن جرير، وأبو بكر الخلال، وأصحاب أبي حنيفة، وابن حزم[(٤)]، والبيهقي[(٥)]، وابن تيمية[(٦)]، وابن القيم[(٧)]، وابن كثير[(٨)]، وابن حجر[(٩)]، والشوكاني[(١٠)] وغيرهم.

قال ابن عبدالبر: خلق الطفل سليمًا من الكفر مؤمنًا مسلمًا، على الميثاق الذي أخذه الله

---

(١) انظر: التمهيد: (١٨/ ٩٠-٩٤)، وميثاق الإيمان، د.عيسى السعيدي، ص (٣٩)..

(٢) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٣-١٨٤) ، وصحيح البخاري كتاب الجنائز: (١/ ٤٥٤)، والدرء لابن تيمية: (٨/ ٣٦٧-٣٧٧)، والتمهيد لابن عبدالبر: (١٨/ ٧٢)، وأحكام أهل الملل للخلال: ص(١٤-١٥)، والنكت والعيون للماوردي: (٤/ ٣١٢).

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه: (١/ ٤٥٤)، وكتاب التفسير/ سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله: (٤/ ١٧٩٢)، تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٣-١٨٤)، و الدرء لابن تيمية: (٨/ ٣٦٧-٣٧٧)، وأحكام أهل الملل للخلال: ص(١٤-٢٥).

(٤) انظر: الإحكام لابن حزم: (٥/ ١٠٤).

(٥) انظر: الاعتقاد للبيهقي: ص(١٠٧).

(٦) انظر: مؤلفاته مثل: درء التعارض: (٨/ ٣٥٩-٤٦٨)، ومجموع الفتاوى: (٤/ ٢٤٣-٢٤٩)، ومجموعة الرسائل الكبرى: (٢/ ٣٣٣-٣٤٩) و غيرها.

(٧) انظر: مؤلفاته: كشفاء العليل: ص(٤٨٦-٥٢٠)، وأحكام أهل الذمة: (٢/ ٥٢٣-٦٠٩) وغيرها.

(٨) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠-٣٢٣).

(٩) انظر: فتح الباري، لابن حجر: (٣/ ٢٩٤).

(١٠) انظر: فتح القدير، للشوكاني: (٤/ ٢٢٤).

على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم [١].

وهذه الخلقة على الإسلام والتوحيد هي الفطرة بمعناها الشرعي، ولهذا فسرها أئمة السلف بالإسلام، قال ابن عبدالبر: هو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل، وقد أجمعوا في قول الله عز وجل:

﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم:٣] على أن قالوا: فطرة الله دين الإسلام... وذكروا عن عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة في قول الله عزوجل: **فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾** [الروم:٣]، قالوا: دين الله الإسلام[٢]

وقال ابن حجر: الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام [٣]. ولهذا قال البخاري: الفطرة: الإسلام. قال ابن حجر: جزم المصنف بأن الفطرة الإسلام[٤]. وجزم به أيضًا كثير من الأئمة، كالطبري والبيهقي وأبي العباس القرطبي وابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب وابن أبي العز الحنفي وابن حجر والشوكاني وغيرهم[٥].

ولا بدّ من تقرير أنه ليس المراد بقول السلف: ولد المولود على فطرة الإسلام: أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده، فإن الله تعالى يقول: **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾** [النحل:٧٨]، ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبته. فنفس فطرة المولود تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياته تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض[٦].

---

(١) التمهيد (١٨/ ٧٧).

(٢) التمهيد (١٨/ ٧٢).

(٣) فتح الباري (٣/ ٢٥٠).

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٤٨).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٠)، الاعتقاد للبيهقي ص (٨٨)، المفهم للقرطبي (٦/ ٦٧٦)، درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٧١)، أحكام أهل الذمة (٢/ ٥٣١)، تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٢)، جامع العلوم والحكم ص (٢١٣)، شرح الطحاوية ص (٨٣)، فتح الباري (٣/ ٢٤٨)، فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٢٤).

(٦) انظر: درء التعارض: (٨/ ٣٨٣-٣٨٤، ٤٦٠-٤٦١).

وذهب ابن تيمية وابن القيم إلى أن المراد بالفطرة على الإسلام خلق الطفل على معرفة الحق وإرادته بالقوة لا بالفعل، فكما يولد وفيه قوة النطق والعقل والفعل والمعرفة والإرادة حتى إذا قدر نطق بالفعل وعقل وفعل وعرف ما يلائمه من الأغذية والأشربة والمنافع وطلبه بمقتضى طبعه إلا لمانع من مرض ونحوه، فإنه كذلك يولد وفيه قوة معرفة الحق وإرادته، ثم تنمو فطرته بنموه حتى يعرف الإسلام ويريده بالفعل، ويطلبه ويؤثره بمقتضى طبعه وجبلته بحيث لو سلم المانع والمعارض وخلي وفطرته لكان بمقتضاها عارفًا بربه، موحدًا له محبًا له، ولا يحتاج في معرفة ربه ومحبته لسبب من خارج فطرته إلا في التذكير بما أودعه الله فيها من الحق أو تفصيله وتقويته وتكميله.

قال ابن القيم: المعرفة والمحبة لا يشترط فيهما وجود شخص منفصل وإن كان وجوده قد يذكر ويحرك، كما إذا خوطب الجائع بوصف الطعام والمغتلم بوصف النساء، فإن هذا مما يذكر ويحرك لكن لا يشترط ذلك لوجود الشهوة، فكذلك الأسباب الخارجة لا يتوقف عليها وجود ما في الفطرة من الشعور بالخالق والذل له ومحبته وإن كان ذلك مذكرًا ومحركًا ومزيلاً للمعارض المانع[١].

ومما يؤكد أن الله تعالى فطر عباده على توحيده ومعرفته قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾[الغاشية:٢١] ، وقوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[ق:٣٧] قال ابن القيم: هذا كثير في القرآن يخبر أن كتابه ورسوله مذكر لهم بما هو مركوز في فطرهم من معرفته ومحبته وتعظيمه وإجلاله والخضوع له والإخلاص له، ومحبة شرعه الذي هو العدل والمحض، وإيثاره على ما سواه [٢].

وستتضح أدلة رجحان هذا القول في بيان معنى الفطرة من خلال الأدلة التالية.

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٠٧)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٨٣).
(٢) شفاء العليل ص (٤٩٧)، وميثاق الإيمان ص (٥٢- ٥٣).

المطلب الثالث: حقيقة الفطرة من خلال الأدلة القرآنية

تقرر كثير من الأدلة الشرعية حقيقة معنى الفطرة وسأذكر أبرز وأجلى هذه الأدلة مركزًا على أدلة القرآن الكريم:

أولاً: قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠]

وهذه الآية الكريمة تبين بكل مفرداتها على أن مقتضى الفطرة التي أمر الله تعالى بإقامة الوجه لها ولزومها هي الدين الحنيف الإسلام، وأن خلق الناس على هذا المقتضى سُنة مطردة لا تتبدل ولا تتغير.

وسأذكر فيما يلي تفسير مفردات هذه الآية الكريمة.

* قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ قال ابن كثير ~ في تفسير هذه الآية: « فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملّة إبراهيم الذي هداك لها وكملها له غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره »(١).

* قوله: ﴿لِلدِّينِ﴾ : المقصود به دينٌ معيّن فأل فيه للعهد، وهو دين الإسلام(٢).

* قوله: ﴿حَنِيفًا ۚ﴾ : الحنف هو الميل، « وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق، أي عادلًا ومنقطعًا عن الشرك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة:١٣٥] »(٣).

ومن الآيات التي تشهد أن الحنيفية هي الإسلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ [النساء:١٢٥] ، وقوله: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (٢١/ ٨٩).

(٣) المصدر السابق: (٢١/ ٨٩).

وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام:٧٩]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام:161] ومن الأحاديث الدالة على ذلك أيضًا قوله صلى الله عليه وسلم: ((بعثت بالحنيفية السمحة))[١]

* قوله: **(فطرت الله)** أي: إن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وذلك مأمور باتباعه إما صراحةً وإما تلميحًا، لأنها جاءت مضافة إلى الله إضافة مدح لا إضافة ذم، وفي هذا ما فيه من تشريفها وتوكيد تمامها وكمالها وتمام الدين المعبّر بها عنه وكماله، وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام[٢].

وقد جاء التنزيل بنحو هذا في قوله تعالى: **(صبغت الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)** [البقرة:١٣٨]، قال مجاهد: « فطرة الله » [٣].

* قوله: **(فطر الناس عليها)**: بيان لمعنى الإضافة في قوله: **(فطرت الله)**، وتصريح بأن الله خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة، وكون الإسلام هو الفطرة وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية [٤].

وقد ذكر ابن عبدالبر إجماع أهل التأويل من السلف على أن المراد بـ **(فطرت الله)** في الآية دين الإسلام[٥]. قوله: **(لا تبديل لخلق الله)** : ذكر ابن كثير في تفسيره قولين هما:

أنه خبر بمعنى الطلب، ومعناه: لا تبدلوا خلق الله بإفساد الفطرة، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. أنه خبر على بابه، ومعناه: أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، فلا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٤٥، ٢٤٨٩٩، ٢٦٠٠٤)، والطبراني في الكبير برقم (٧٧١٥، ٧٨٦٨، ٧٨٨٣).

(٢) انظر: الدرء لابن تيمية: (٨/ ٣٧٢)، وفتح الباري لابن حجر: (٣/ ٢٩٣)، وتفسير القرطبي: (١٤/ ٢٤)، والمحرر الوجيز لابن عطية: (١١/ ٤٥٣)، ومنهج الاستدلال عثمان حسن: (١/ ٢٠٠).

(٣) انظر: تفسير البغوي: (١/ ١٢١).

(٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (٢١/ ٩٠)، والمعرفة في الإسلام للقرني: ص(٢٣٢-٢٣٣).

(٥) انظر: التمهيد لابن عبد البر: (١٨/ ٧٢)، وعقيدة الإمام ابن عبد البر في التوحيد والإيمان، للغصن: ص(٤٢٨).

في ذلك[١]. ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، في قوله: ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ أي لدين الله[٢].

وقال البخاري: « قوله: ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ : لدين الله، ﴿**خُلُقُ الأولين**﴾ : دين الأولين. والفطرة الإسلام »[٣].

ولا تعارض بين القول بأن (لا) في قوله: ﴿**لا تبديل**﴾ للنفي أو للنهي، فالنفي صحيح فلا يولد مولود إلا وهو على الفطرة لا يستطيع أحد أن يبدل ذلك، فيجعل بعضهم يولد على الفطرة، وبعضهم يولد على غير الفطرة، والنهي أيضًا صحيح فمعناه: لا تُغيّروا ولا تبدلوا دين الله وفطرته التي فطر الله الناس عليها.

قوله: ﴿**ذلك الدين القيم**﴾ : اسم إشارة هنا يدل على زيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه كالإشارة في قوله: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ [البقرة:٢]، والقيّم يعني: المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من الضلالات والبدع المحدثة[٤].

-وبهذا يظهر أن الفطرة في الآية تقتضي التوحيد، ولو أن الله قد خلق الناس خلقة قد تقتضي التوحيد، وقد لا تقتضيه لم يأمر بلزوم مقتضاها بإطلاق. فدلّ على أن الفطرة لا بدّ أن تقتضي التوحيد، وأن ذلك سنة لا يمكن أن تتبدل، وهذا مطابق للعموم في حديث الفطرة في قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((كل مولود يولد على الفطرة)).

ولذا أخبر تعالى أن الاستقامة على الدين الحنيف الذي هو مقتضى الفطرة هو الدين القيم. فلا يكون تحقيق التوحيد والدين القيم إلا بتحقيق مقتضى الفطرة[٥].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٣-١٨٤)، وتفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير/ سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/ ١٨٤)، والإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود لمتولي: ص(١٨).

(٥) المعرفة في الإسلام للقرني: ص(٢٣٣).

ثانياً: آية الإشهاد وهي قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:]

وهذه الآية آية مشكلة كما قال القرطبي[١] وأبو المظفر السمعاني[٢] والكلام في تفسيرها مرتبط بالروايات الواردة في الميثاق من حيث حقيقته وأقوال أهل العلم فيه[٣]، وقد اختلف أهل العلم في حقيقة استخراج ذرية آدم من صلبه إلى عدة أقوال:

- **القول الأول:**

أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام مسح على ظهره، فأخرج منه ذريته كأمثال الذر، فئة بيضاء نقية، وأخرى سوداء كالحمم، وهذا الإخراج كان لجميع الذريّة، وجعل لهم عقولًا يعقلون بها ما يعرض عليهم، ثم كلمهم الباري تعالى عيانًا، وأخذ عليهم العهد والميثاق بأنه ربهم المعبود، الذي لا إله غيره، وأنهم عبيده المربوبون، فأقروا بذلك، ووقعت الشهادة عليهم بذلك، قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:] حيث كان إقرارهم له سبحانه وتعالى بلسان المقال، وهذا هو مذهب جمهور الصحابة والتابعين وجمهور المفسرين، وعامة أهل الأثر والحديث، والصوفية.

وممن قال بذلك من الصحابة رضي الله عنهم : عمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وأبو سريحة الغفاري، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وذو اللحية الكلابي، وعمران بن حصين، وأم المؤمنين عائشة، وأنس بن مالك، وسراقة بن جعشم، وأبو موسى

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (٧/ ٣١٤).

(٢) انظر: تفسير أبي المظفر: سورة الأعراف: ٤٠٥ .

(٣) انظر للتوسع في تخريج هذه المرويات ونقدها: أخذ الميثاق في قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم)، لعبد العزيز العثيم. وفطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، لأحمد سعد حمدان: ص(٣٤-١٣٥).

الأشعري، وعبادة بن الصامت، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبدالله، وأبو ذر الغفاري، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبو عبدالله -رجل من الأنصار-، وعبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وأبو أمامة الباهلي، وأبو الطفيل، وعبدالرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- .

وأما من بعدهم فمنهم: محمد بن كعب، والضحاك بن مزاحم، والحسن البصري، وقتادة، وسعيد بن جبير والسدي، والكلبي، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، والطبري، والقرطبي، وفاطمة بنت الحسين، وأبو جعفر الباقر، وأبو حنيفة، والطحاوي، وابن الأنباري، وأبو جعفر النحاس، وابن الجوزي، وابن رشد، والألوسي، والشوكاني، والقنوجي، وملا على قاري، والمغنيساوي، والخازن، وابن المنير، والثعالبي، وابن الوزير، وغيرهم كثير[١] -رحمهم الله تعالى أجمعين- .

وأدلة هذا القول كثيرة جدًا، حتى قال عنها ابن القيم ~ : « الآثار في إخراج الذرية من ظهر آدم، وحصولهم في القبضتين، كثيرة لا سبيل إلى ردهاً وإنكارها، ويكفي وصولها إلى التابعين، فكيف بالصحابة؟ ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين »[٢].

وقد حكم بعض أهل العلم على هذه الروايات بالتواتر ومنهم:

المقبلي القائل: « ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الأحاديث والروايات الواردة في ذلك»[٣].وقال ابن عطية: « وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي صلى الله عليه وسلم » [٤]. وقال الألباني: « وجملة القول أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى » [٥]

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي: (١٥/ ٤٦)، وروح المعاني للألوسي: (٩/ ١٠٣)، وفتح البيان للقنوجي: (٥/ ٧٠)، والتمهيد لابن عبدالبر: (١٨/ ٧٢)، وشفاء العليل لابن القيم: ص(٣٤-٣٥)، وفطرية المعرفة لحمدان: ص(١٠٥-١٠٦)، والسلسلة الصحيحة للألباني: (٤/ ١٥٩).

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم: (٢/ ١٥٩-١٦٠).

(٣) فتح البيان للقنوجي: (٥/ ٧١).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية: (٦/ ١٣٤).

(٥) السلسلة الصحيحة للألباني: (٤/ ١٦٢).

وقال ابن رشد: غير مستنكر في لطيف قدرة الله تعالى أن يحييهم حينئذٍ، ويجعل لهم مع كونهم أمثال الذر عقولًا يعقلون بها خطابه، ويعلمون بها أنه ربهم وخالقهم، ويطلق ألسنتهم بالإقرار له بذلك[(١)].

ومن الأدلة التي استشهدوا بها في إثبات وقوع هذا الاستخراج إضافة إلى الأحاديث الواردة في بيان معنى الآية ما يلي:

١) **قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧] قال مجاهد: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ أي في ظهر آدم عليه السلام [(٢)]. وقال ابن كثير: « وقيل المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه السلام »).

٢) **قوله تعالى:** ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف:١٠٢] قال أبي بن كعب ومجاهد في تفسير هذه الآية: عهده الذي أخذه من بني آدم في ظهر آدم ولم يفوا به [(٣)].

٣) **قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف:١١].

قال القرطبي: « وقيل المعنى: خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم حيث أخذنا عليكم الميثاق هذا قول مجاهد رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال "ثم ذكر قول مجاهد" » [(٤)]. وقال بهذا أيضًا: قتادة، والربيع، والضحاك[(٥)].

٤) **قوله تعالى:** ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣].

---

(١) انظر: فتاوى ابن رشد: (١/ ٦٦١).

(٢) انظر: جامع البيان للطبري: (١٠/ ٢٦٢).

(٣) انظر: جامع البيان للطبري: (٦/ ١٤).

(٤) جامع أحكام القرآن للقرطبي: (٧/ ١٦٩). وانظر: معاني القرآن: (٣/ ١٣).

(٥) العواصم والقواصم لابن الوزير: (٧/ ٢٦٩).

فإنهم فسّروا إسلام الخلق كلهم بذلك، وقالوا: إن الله تعالى لمّا قال لهم: "ألست بربكم" قالوا كلهم "بلى" فأما أهل السعادة، فقالوا عن معرفة له طوعًا، وأما أهل الشقاوة فقالوه كرهًا [١].

- **القول الثاني:**

هو ما ذهب إليه بعض المفسرين ونصره -منهم خاصة- المنتسبون إلى التفسير بالرأي، وهو أن لا إخراج، ولا قول، ولا شهادة بالفعل، وإنما ذلك كله على سبيل المجاز، أو التمثيل، فيكون المراد بأخذ الميثاق أحد أمرين:

أ) ما فطرهم الله تعالى عليه من التوحيد، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[الروم:٣٠] . وكما قال صلى الله عليه وسلم : ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة ...)) الحديث، وقوله عليه الصلاة والسلام : ((خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم))، وقال بهذا القول طائفة من علماء السلف، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن أبي العز الحنفي، والسعدي، وغيرهم -رحمهم الله تعالى أجمعين- .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ~ : « وهذا الأخذ المعلوم المشهود الذي لا ريب فيه، هو أخذ المني من أصلاب الآباء ونزوله في أرحام الأمهات ... فهو يقول: اذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم، فهذا الإقرار حجة الله عليهم يوم القيامة، فهو يذكر أخذه لهم، وإشهاده إيّاهم على أنفسهم، إذ كان سبحانه خلق فسوى، وقدّر فهدى. فالأخذ يتضمن خلقهم، والإشهاد يتضمن هداه لهم إلى هذا الإقرار » [٢].

(١) انظر: التمهيد لابن عبدالبر: (١٨/ ٨٣)، والعواصم والقواصم لابن الوزير: (٧/ ٢٦٩).

(٢) الدرء لابن تيمية: (٨/ ٤٨٧). وانظر: جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية: (١/ ١١)، وأحكام أهل الذمة لابن القيم: (٢/ ٥٢٧)، وتفسير ابن كثير: (٣/ ٥٠٦)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز: ص(٣٠٢)، وتفسير ابن سعدي: (٢/ ١٧٠).

ب) أن المراد من أخذ الميثاق الأخذ من ظهور بني آدم على الترتيب الذي مضت به السنة، من لدن آدم إلى فناء العالم، ونصب الأدلة لهم في أنفسهم أو في الكون.

ومعنى ذلك أن الله عزوجل نصب هذه الدلائل، وأظهرها للعقول، لئلّا يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لآبائنا، لأن نصب أدلة التوحيد قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والإقبال على تقليد الآباء في الشرك.

قال الرازي حاكيًا هذا القول: « أخرج الذريّة -وهم الأولاد- من أصلاب آبائهم وذلك الإخراج: بأنهم كانوا نطفة، فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات، وجعلها علقة، ثم مضغة ثم جعلها بشراً سويًّا، وخلقًا كاملًا، ثم أشهدهم على أنفسهم، بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه، فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا: بلى، وإن لم يكن هناك قول باللسان، ولذلك نظائر منها:

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[فصلت:١١] [1].
وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب. فحين شهدت بهذه الأدلة عقولهم وبصائرهم صاروا بمنزلة من قيل لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. وهذه الشهادة منهم بالحال لا بالمقال. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾[التوبة:17] وعلى هذا القول يكون معنى الآية الكريمة: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف، الذي به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة[2].

وهذا القول هو مذهب المعتزلة كالزمخشري والقاضي عبدالجبار، ومن وافقهم من المفسرين كأبي السعود والزجاج وأبي حيّان والنسفي وغيرهم. سوكلا الأمرين -الفطرة

---

(١) التفسير الكبير للرازي: (١٥/ ٥٠).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (٤/ ٣١٤)، والنكت للماوردي: (٢/ ٢٧٨)، والروح لابن القيم: (٢/ ٥٤٩-٥٥١)، وتفسير أبي المظفر السمعاني: ص(٤١٠)، وتفسير السعدي: (٢/ ١٧٠)، وتفسير القاسمي: (٧/ ٢٨٩٧)، والكشاف للزمخشري: (٢/ ١٧٧)، وروح المعاني للألوسي: (٩/ ١٠٢)، والبحر المحيط لأبي حيان: (٤/ ٤٢٠)، وتفسير النسفي: (٢/ ١٥٩)، وتفسير أبي السعود: (٣/ ٢٩٠)، والبسيط للواحدي: (٣/ ٩١٥-٩١٧)، وغيرها.

أو نصب الأدلة- يشتركان في إنكار الإخراج من ظهر آدم والإشهاد بلسان المقال. وقد انتقد الشيخ الألباني ابن كثير وابن القيم في قولهما بهذا القول ووصفهما بأنهما شابها المعطلة والمبتدعة في تأويل هذه الآية، وردّهم للأحاديث الواردة في الميثاق[١].

ويمكن الجواب عن كلام الشيخ الألباني بأجوبة منها:

١) أن ابن القيم وابن كثير لم يردا الحديث، بل ذكروا عدم صحته بنقد سنده ولم يخرجا في ذلك عما قرره علماء الحديث في منهج النقد وعدم ثبوت الحديث كاف في رده. فهو لم يصح عندهما ومثل هذا لا يقال أنه رد للحديث.

٢) أنهما لم يؤولا الآية تأويلًا لا تحتمله وإنما ذكروا معنى تحتمله الآية.

٣) ابن القيم وابن كثير لم ينفردا بهذا الفهم وإنما قد سبقهما غيرهما ومن أشهرهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله والذي قد تقدم نقل بعض كلامه في الآية. ولعل الشيخ الألباني لم يقف عليه.

٤) أن موافقة بعض المبتدعة في بعض آرائهم لا يعني موافقتهم في بدعهم إذ أن أصل عقائدهم عقائد إسلامية فليس غريبًا أن تكون هناك موافقات بين ما ذهبوا إليه وما ذهب إليه علماء السلف، إذ الالتقاء في الجزئيات لا يعني الاتفاق في الكليات، كما أنه ليس كل ما يقول به المبتدعة يلزمنا أن نخالفه إلا إذا اتضح بطلانه بالدليل[٢].

وبتأمل أقوال العلماء في آية الميثاق سواءً الذين قالوا بإخراج الذرية وتحقق الإشهاد بلسان المقال أو الذين أنكروا ذلك وقالوا: إنه بلسان الحال، نجد أنهم متفقون على دلالة الآية على فطرية التوحيد.

ووجه دلالة الآية على فطرية التوحيد وأن المعرفة به ضرورية أن الله تعالى قد أخبر بأنه قد أشهد جميع بني آدم على أنفسهم أنه هو ربهم، وأنهم قد أقروا وشهدوا جميعًا على أنفسهم بذلك، كما أخبر تعالى أن هذا الإشهاد حجة على الناس جميعًا، فلا يمكن لأحد

---

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/ ١٥٩-١٦٢).

(٢) هذه الأجوبة منقولة من: فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، لشيخنا أ.د/ أحمد سعد حمدان: ص(١٣٧-١٣٨).

يوم القيامة أن يعتذر بالجهل بالتوحيد، وأنه لم تبلغه فيه حجة، لأن الحجة فيه قد قامت على كل أحد بذلك الإشهاد، وأنه لا يمكن لأحد تبعًا لذلك أن يعتذر إذا كان قد وقع في الشرك بمتابعة الآباء عليه، لأن عنده من العلم بالتوحيد وبطلان ما عليه الآباء من الشرك ما يدفع به ذلك، بحيث لا يقع في الشرك إلا بإرادته واختياره، مع العلم ببطلان الشرك، لا لمجرّد متابعة الآباء عليه.

ويلزم من ذلك أن يكون العلم بتوحيد الله تعالى من المعارف الضرورية التي لا يحتاج أحد أن يتعلمها، بل يكون ذلك الإشهاد على التوحيد وإقراره به كافيًا في العلم به وعدم الوقوع في الشرك[1].

وفي بيان وجه دلالة الآية على فطرية التوحيد وكونه من العلوم الضرورية يقول الإمام ابن تيمية: « ... هذا الإشهاد من لوازم الإنسان، فكل إنسان قد جعله الله مقرًا بربوبيته، شاهدًا على نفسه بأنه مخلوق والله خالقه، ولهذا جميع بني آدم مقرون بهذا شاهدون به على أنفسهم، وهذا أمر ضروريّ لهم لا ينفك عنه مخلوق، وهذا مما خلقوا عليه وجبلوا عليه، وجعل علمًا ضروريًا لهم لا يمكن أحدًا جحده.

ثم قال بعد ذلك: (أن تقولوا) أي: كراهة أن تقولوا، ولئلا تقولوا: **(إنا كنا عن هذا غافلين)** عن الإقرار لله بالربوبية، وعلى أنفسنا بالعبودية، فإنهم ما كانوا غافلين عن هذا، بل كان هذا من العلوم الضرورية اللازمة لهم التي لم يخل منها بشر قط. ... وقوله:

﴿ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ ﴾ [الأعراف] وهم آباؤنا المشركون، وتعاقبنا بذنوب غيرنا؟ وذلك لأنه لو قدر أنهم لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم، ووجدوا آباءهم مشركين وهم ذرية من بعدهم ... قالوا: نحن معذورون، وآباؤنا هم الذين أشركوا ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، اتبعناهم بموجب الطبيعة المعتادة، ولم يكن عندنا ما يبين خطأهم.

---

(١) المعرفة في الإسلام للقرني: ص(٢٣٦).

فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية »[١]

ثالثاً: ما جاء في جواب الرسل للكفار لما قالوا لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم:٩-١٠].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن قول الرسل: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ يحتمل أمرين:

الأول: أي في وجوده شك؟

الثاني: أي في تفرده باستحقاق العبادة دون غيره شك؟[٢]

ورغم أن السياق القرآني يدل على الثاني -لأن الشك متوجه فيه لمضمون دعوة الرسل، ومعلوم أن مضمون دعوتهم توحيد العبادة- إلا أن اللفظ يتناول الشك في الله تعالى من كل وجه، بما في ذلك الشك في وجوده، والعبرة بعموم اللفظ كما هو معروف[٣].

فيكون الرسل قد احتجّوا على الكفار بحجتين:

- **الفطرة، فإن قولهم:** ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ : استفهام تقرير مفاده النفي[٤]، أي أن الله تعالى فوق الشك، وأن الشك في إلهيته مما تنكره الفطرة، وهذه الحجة داخلية، نابعة من نفس الإنسان.
- **العقل، وذلك في قولهم:** ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، فإن هذا استدلال بالخلق على الخالق، وهذه الحجة خارجية، مأخوذة من دلالة الأثر على المؤثر.

---

(١) درء التعارض، لابن تيمية: (٨/ ٤٨٨-٤٩١).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٥٧٧).

(٣) انظر: الرسالة للشافعي: ص(٥١) فقرة (١٧٣) وما بعدها.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٣٩).

رابعاً: ما ورد من ذكر استيقاظ الفطرة عند الشدائد، وظهور أثرها، وبروز مقتضاها على النفوس، من اللجوء بالدعاء إلى الله تعالى، والتوجّه إليه دون غيره بالاستغاثة، فهي تُقبل عليه إقبال العارف بمن يملك نجاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[الزمر:٨]

وما في معناها من الآيات[١] التي تنبه إلى عودة الناس عند الشدائد إلى مقتضى الفطرة التي فُطروا عليها، وهذا من أعظم الشواهد الحسية على وجود المعرفة الفطرية واستقرارها في النفس.

خامساً: استفهامات التقرير بالربوبية، نحو قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[النمل]

فهذه الآيات وما شابهها تتضمن تقريرًا للناس بأمر تعرفه فطرهم، وهو ما غرسه الله فيها من معرفته[٢].

سادساً: وقد دلّت السنة النبوية على ما دلّ عليه القرآن، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من مولود إلا يولد على

---

(١) انظر مثلًا: (الأنعام: ٤٠-٤١)، و(يونس:١٢-٢٢)، و(الإسراء:٦٧)، و(العنكبوت:٦٥)، و(الروم:٣٣)، و(فصلت:٥١).

(٢) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي: ص(٢٥-٢٦).

الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)). ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية [١].

وروى مسلم بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال -فيما يرويه عن ربه أنه قال: ((وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا)) [٢].

المطلب الرابع: أسباب تغير الفطرة

الأصل في الإنسان هو التوحيد ومن أنكر وجحد الله تعالى فإنما أنكره لفساد فطرته بطارئ ما، حال بينها وبين مقتضاها، وقد جاء التصريح في القرآن بأن الكفار في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، وإن لم يذعنوا له، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال في أهل النار: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾([الأنعام:٢٨]، وقال عن كفار قريش: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأنعام:٣٣].

بل إن نفس كلمة "كفر" مأخوذة من الستر والتغطية، وهذا أصل معناها في اللغة[٣]، وأطلقت على الكافر؛ لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحُجُب الشبهات والشهوات، فإذا زالت هذه الحجب بالحجج والبينات ظهرت مقتضيات الفطرة، كما حصل لسحرة فرعون، حيث قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾[طه:٧٢]، فكان أسلوب القرآن في الاستدلال بالخلق على الخالق كثيرًا ما يأتي في صورة التذكير، لا في صورة إنشاء معرفة جديدة لم تكن مغروزة في النفس، وهذا هو شأن المعارف الأولية.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز (١/ ٤٥٦) برقم (١٢٩٢). ومسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة (٤/ ١٦٢٤) برقم (٢٦٥٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة ... ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: (٤/ ١٧٤١) برقم (٢٨٦٥).

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (٥/ ١٩١).

والفطرة على الحق لا يمكن تبديلها، ولكن يمكن تغييرها بأسباب تطرأ على الخلقة حتى تعوقها أو تمنعها من الإذعان لما تعرفه من الحق، وهي كثيرة أهمها ثلاثة أسباب:

١- الغفلة والنسيان:

وقد دلت النصوص على أن الغفلة والنسيان من أهم ما يطرأ على الفطرة حتى يترك العبد مقتضى الميثاق الأول والآخر.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه:١١٥]، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة:١٤]، وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر:١٩]، روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: (قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ .. الحديث، إلى قوله: فيلقى العبد، فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني)[١]، قال الترمذي: (ومعنى قوله: اليوم أنساك؛ يقول: اليوم أتركك في العذاب. هكذا فسروه) [٢].

٢- التربية على العقائد الباطلة وتقليد الأسلاف في الشرك والضلال.

وقد حكى الله عن المشركين أنهم يتبعون آثار آبائهم، وأنهم متمسكون بدينهم وعاداتهم بلا حجة ولا برهان.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزهد، ح(٥٢٧٠).

(٢) جامع الترمذي: صفة القيامة، ح(٢٣٥٢).

ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠]، وقال:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣]،: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات:٦٩-٧٠]؛ أي يسارعون في تقليد آبائهم، واتباع آثارهم وضلالاتهم، والاستمساك بدينهم وعاداتهم بلا حجة من كتاب أو أثارة من علم إلا اتباع أعوائهم، وإلف باطلهم[١].

٣- اجتيال الشياطين.

قال تعالى:﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف:٢٧]، وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨].

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عزوجل: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا)[٢]. والاجتيال هو الذهاب بالشيء وسوقه وإزالته عن مكانه وتحويله عن قصده[٣]، فالشيطان يجول بالعبد في مسالك الضلالة.

فاجتيال الشياطين وإضلالهم، والتربية على العقائد الباطلة، وتقليد الأسلاف في الشرك والضلال، والغفلة عن الحق ونسيانه كل ذلك وإن كان لا يبدّل أثر الميثاق في الفطرة إلا أنه يغشاه ويغيره؛ لأن الأصل هو التوحيد وبقاء الفطرة على سلامتها[٤].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٨٨)، تفسير ابن كثير (٤/ ١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٥٢٤)، النهاية لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٤) انظر: ميثاق الإيمان، د.عيسى السعدي، ص(٧٠-٧٢).

أما إنكار بعض المتكلمين والنظار، أو كثير منهم لدلالة الفطرة، فإن أول من عُرف به في الإسلام هم أهل الكلام، الذي اتفق السلف على ذمه وتضليل أهله، ومع ذلك فإن إنكارهم لها لا يعني أبدًا انتفاءها لديهم؛ فإن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه، وقيام الصفة بالنفس غيرُ شعور صاحبها بأنها قامت به، كما أن وجود الشيء في الإنسان غير علم الإنسان به، ومثال ذلك: صفات بدنه؛ فإن منها ما لا يراه مطلقًا، ومنها ما لا يراه إلا إذا تعمد، ومنها ما لا يراه لمانع في بصره، فكذلك صفات نفسه[١].

ويذكر ابن تيمية أن مما يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لا تُتصوّر إلا بإرادة تقوم بالفاعل، ويمتنع أن يفعلها وهو غير ناوٍ لها مريد، كالصلاة والصيام والحج والوضوء، ومع ذلك نجد كثيرًا من العلماء، فضلًا عن العامة، يستدعون النية بألفاظ يتكلفونها، ويشكون في وجودها مرة بعد مرة، حتى يخرجوا إلى ضرب من الوسوسة يشبه الجنون، وكذلك حب الله تعالى في قلب كل مؤمن، لا يندفع ذلك حتى يزول الإيمان بالكلية، ومع هذا فكثير من أهل الكلام أنكروا محبة الله، وقالوا: يمتنع أن يكون مُحبًا، أو محبوبًا، وجعلوا هذا من أصول الدين، فكذلك أنكروها، وقالوا: لا تحصل إلا بالنظر، كما قالوا في المحبة، ثم قد يكون ذلك الإنكار سببًا لامتناع معرفة ذلك في نفوسهم؛ فإن الفطرة قد تفسد وتزول، كما أنها قد تكون موجودة ولا ترى[٢].

وقد اعتذر بعض العلماء عن المتكلمين في موقفهم هذا من الفطرة؛ بأنهم إنما سلكوا طريق النظر مبالغة في تقرير الربوبية، وقطعًا لأطماع الملاحدة[٣]، وظاهرٌ أن هذا الاعتذار إنما هو في حق من أقرّ منهم بكفاية المعرفة الفطرية، أما من أنكر كفايتها فلا يصلح الاعتذارعنه.

والمتكلمون مع تعويلهم التام على النظر العقلي في إثبات الربوبية لم يستطيعوا تجاهل شهادة الفطرة بها كلية، فتجد في كلام بعض أئمتهم من الاعتراف بها وتقرير حجيتها ما يخالف موقفهم العام منها.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦/ ٣٤١-٣٤٤).

(٣) ذكر هذا القاسمي عن القزويني كما في دلائل التوحيد: ص(٢٥).

فهذا الراغب الأصفهاني يقول: « معرفة الله تعالى العامية -أي الإجمالية- مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلًا فعله، ونقله من الأحوال المختلفة»[(١)]

وهذا الشهرستاني يصرح بشهادة الفطرة على وجود الله تعالى، ويفضل دلالتها على دلالة الحدوث والإمكان، فيقول:

« ما شهد به الحدوث، أو دلّ عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات، دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج في ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات، فيُرغب إليه ولا يرغب عنه، ويُفزع إليه في الشدايد والمهمات؛ فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب، والحادث إلى المحدث » [(٢)].

وهذا الفخر الرازي -أكثر المتكلمين إغراقًا في المعقولات- يذكر في تفسيره عند قوله تعالى: **(أفي الله شك)** وجوه دلالة الفطرة على وجود الله تعالى، فيذكر لطمة الصبي، وما قال بعض العقلاء، من أنها تدلّ على وجود الصانع؛ لأن الصبي يصيح سائلًا عمن ضربه، فدلّ على أنه مفطور على أن كل حادث لا بدّ له من محدث، فإذا شهدت الفطرة بهذا فشهادتها بافتقار جميع الحوادث إلى الفاعل أولى، ثم ذكر دلالة هذه اللطمة على التكليف ووجوب الجزاء ووجود الرسول.

وذكر ثانيًا شهادة الفطرة باستحالة حدوث دار منقوشة متقنة البناء محكمة التركيب، إلا بوجود نقاش عالم، وبانٍ حكيم، فمن باب أولى أن تشهد الفطرة بافتقار العالم إلى الفاعل المختار الحكيم، ثم ذكر ظهور مقتضى الفطرة عند الشدائد، وغير ذلك مما جعله وجوهًا لشهادة الفطرة بوجود الله تعالى [(٣)].

بل وهذا الفيلسوف ابن رشد يقول بعد أن قرر دليلي الاختراع والعناية من القرآن على وجود الله تعالى: « فهذه الطريق هي الصراط المستقيم، التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم عليه بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى، وإلى هذه الفطرة الأولى

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص(١٩٩).

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام: ص(١٢٥).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: (١٩/ ٩١-٩٣).

المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾[1].

وقد نقل القاسمي عن القزويني أنه أقر بالمعرفة الفطرية، وأن أهل الكلام يعلمون أن شهادة الفطرة أقرب إلى الخلق، وأسرع تعقلًا من دلالة الإمكان والحدوث[2].

المطلب الخامس: فطرية التدين في الدراسات الحديثة

وتؤكد الدراسات الحديثة هذه المعرفة الفطرية، فقد توصّل الباحثون الغربيون إلى وجود عقيدة الخالق العظيم عند سائر الأمم والشعوب في القديم والحديث، وأنّ وثنية تلك الأمم ما هي إلا أمرٌ طارئ على تلك العقيدة.

فقد وجد هؤلاء الباحثون عقيدة الإقرار بخالق عظيم موجودة عند القبائل الهمجية في أستراليا وأفريقيا وأمريكا، ووجدوها عند الأجناس الآرية القديمة وعند الساميين قبل الإسلام، وعند قبائل البوشمان في جنوب أفريقيا، وعند الأقزام المنتشرين في أواسط أفريقيا الاستوائية وهم على درجة كبيرة من التخلف والهمجية ويعتقدون بوجود كائن أعلا يدعى "كانج" بمعنى السيد، ويسمى أيضًا "كوبة كاكانج تنج" بمعنى حامي الموجودات وهو عندهم يسكن السماء ولا يُرى وقادر على كل شيء، وعند قبائل "الهوتنتوت" الإفريقية ويسمونه "أبا الآباء"، وعند قبائل البانتو والهنود الحمر في الشمال الغربي للمحيط الهادي وفي أمريكا الجنوبية، وقد توصل هؤلاء الباحثون إلى أن فكرة -الإله الأعظم- توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية[3].

ويقول ماكس موللر في كتابه "أصل الدين وارتقاؤه" من خلال « النصوص الدينية

---

(١) مناهج الأدلة: ص(٦٢).

(٢) انظر: دلائل التوحيد: ص(٢٤-٢٥).

(٣) انظر: الدين، لدراز: ص(١٠٧-١٠٨)، والفطرة ووظائفها، لفرج: ص(١٤٢-١٤٧).

السنسكريتية، وهي أبعد الديانات عهدًا وأقدمها تاريخًا بأن الإنسان أول ما عَبَد عبد الخالق -جل وعلا- على صفته غير المحدودة، وأما هذه الأوثان والأصنام فليست إلا بنات الخيال استدعتها محبة الإنسان للمس كل ما يشعر به في نفسه »[(١)].

لقد خلق الله النفس البشرية على مقتضى هذه الضرورة النفسية، بحيث لا يمكن أن تطمئن إلاّ بمعرفة الله ومحبته والتقرب إليه، وهذا دليل من واقع النفس البشرية يمكن لكل إنسان أن يدركه، ولهذا كان الأصل في كل إنسان وفي كل مجتمع هو السعي في طلب الطمأنينة الدينية تحت أي ظرف وفي كل زمان ومكان.

وقد جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة »[(٢)].

وتطالعنا حديثًا بعض الأبحاث الطبية التجريبية على مخ الإنسان لتؤكد وجود مناطق في المخ هي بمثابة مراكز للإيمان، فقبل الثورة في مجا ل العلوم التجريبية وتوفر الأدوات اللازمة حديثًا لم يكن الإنسان على معرفة بآلية الوظائف العقلية العليا التي تميز الإنسان وتحديد مواقعها بالمخ، وشيئًا فشيئًا اكتشفت المناطق المتعلقة بالحواس والكلام والحركة، وبدأت تتضح معالم المنظومة العاطفية ومنظومة الأنشطة اللاإرادية والأساس الكيميائي والكهربي للنشاط العصبي، وأصبح في الإمكان تسجيل كهربية المخ من الخارج لتمييز مختلف الأنشطة الذهنية والتصوير الإشعاعي لتراكيبه، وعرفت بعض الفوارق التشريحية والوظيفية مع الحيوان، وأمكن تصور آلية بعض الوظائف العليا كالتذكر والتعلم، واليوم ونحن في مستهل قرن جديد يبشر بغزو المجال الفكري واكتشاف إمكانات المخ في التوجيه الفطري تفاجئنا تلك الأبحاث العلمية باكتشاف يجعل الإيمان بالله تعالى وعبادته نزوعًا فطريًا وملكةً مغروسة بالمخ لها آلياتها ومراكزها، وإذا لم يحسن الإنسان توظيفها فقد أهم ما يميزه عن الحيوان وتعرض لفقدان التوازن النفسي والبدني.

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء (٧)، المجلد (٩)، موضوع: العالم كله يتلمس دين الفطرة، لمحمد وجدي: ص(٤٣٤).

(٢) الدين: لدراز: ص(٨٣).

وخلاصة الأبحاث التي أجريت على المخّ بتقنية جديدة لأشعة إكس ونشرت عام ٢٠٠١م، وقام بها فريق علمي على رأس البروفيسور أندرو نيوبيرج[١] أستاذ علم الأشعة Radiology بكلية الطب بجامعة بنسلفانيا في فلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية هي أن "الإيمان بالله مقصد مصمم داخليًا Built-in Design في المخ"، وبهذا لا يمكن لأحد التخلص منه إلا تعاميًا عن الفطرة السوية التي جعلت الإنسان ينزع للتدين على طول التاريخ وتعطيلًا لقدرات هائلة وإمكانات بالغة التعقيد والتطور تمكنه من العلم بالله بالاستقراء والتفكر والتحليل والاستنتاج.

وكما أعلن البروفيسور نيوبيرج بأنه يمكن وصف الإنسان بأنه "مجبول على التدين Hard-wired for religion" وأن "التجربة العملية لا يمكنها أن تخبرنا بطريقة مباشرة عن ذات الله ولكنها تخبرنا كيف أعد الله الإنسان لكي يعرفه"، وهي تخبرنا أن "عبادة الله ووظيفة الإيمان به مطلب طبيعي يماثل الطعام والشراب"، و"المخ البشري ليس معدًا تشريحيًا ووظيفيًا فحسب للإيمان بالله وعبادته وإنما هو أيضًا مهيأ عند قيامه بوظيفة العبادة لحفظ سلامة النفس والبدن بتوجيه العمليات الحيوية خلال منظومة عصبية وهورمونية متشابكة".

يقول البروفيسور بليتريني من جامعة بيزا في إيطاليا: « إن كل شيء نفعله أو نستشعره من نشاط بسيط كحركة إصبع إلى أعمق الانفعالات العاطفية الخبيئة بالنفس أو البادية مثل الغضب والحب يرسم خريطة مميزة المعالم للمراكز المتأثرة بالمخ ويصاحب كل شعور نموذج محدد يمكن تسجيله وتحليله كالتحاليل الطبية العضوية تمامًا »، وهذا المجال الجديد لاستطلاع دخيلة الإنسان من عواطف ومشاعر وأفكار ومدى تأثره بالاعتقاد الديني يدخل فيه الباحثون اليوم بحذر حريصين على المنهج العلمي في البحث والتحليل كبقية مجالات العلوم التجريبية.

---

(١) انظر موقعه على الانترنت: http: / /www.andrewnewberg.com /default.asp

ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع الذي كُتبت عنه مئات الصفحات على الإنترنت انظر مثلاً:

report_children.html /٠١ /٢٠٠٥ /http: / /www.thenarrow.org /archives

god_part /index.html /٠١ /٠٢ /٢٠٠١ /http: / /dir.salon.com /books /feature

ويقول البروفيسور "مايكل ماكلوف" من جامعة دالاس بالولايات المتحدة الأمريكية: « يتأثر الوجدان النفسي الروحي بالعالم الخارجي ويؤثر في الجسد العضوي ويمثل الإيمان والعبادات صمام أمان لتلك التأثيرات الطبيعية »، وقد أفضت دراسته إلى أن الطبيعة البشرية مصممة بحيث تحفظها العبادات في توازن تام وتقيها الاضطراب، وفي تحليل شمل ٤٢ دراسة ميدانية واسعة وجد بروفيسور ماكلوف أن « معدل الوفيات يقل بالاستغراق في الصلاة وبقية العبادات، وهذا التأثير مستقل عن عوامل أخرى مضرة بالصحة كتناول الخمور والتدخين »، ولم يفت البروفيسور نيوبيرج أن يعلق على تلك النتيجة بقوله: « نحن لا ندري حتى الآن على وجه اليقين كيف يؤدي الإيمان العميق والاستغراق في العبادة إلى الحفاظ على سلامة النفس والبدن ومكافحة المرض وتأخير الموت، ولكن معرفتنا لآليات عمل الجسم وخاصة المخ تؤهلنا لتلمس آفاق جديدة من البحث لنثبت بحياد يوما ما وجود تأثيرات عضوية للإيمان والعبادة، وندرك منها اليوم الحفاظ على معدل طبيعي لضربات القلب وضغط الدم وتغير الهورمونات كمًّا ونوعًا والميل العصبي لتحقيق حالة من الهدوء نتيجة الخشوع.

وإذا كان البروفيسور نيوبيرج يقرر بأنه لا يدري كيف يؤدي الإيمان العميق إلى الحفاظ على سلامة النفس والبدن، فإننا نحن أهل الإسلام ندرك إدراكًا يقينيًا السبيل إلى الطمأنينة والاستقرار النفسي والبدني، إذا لم تتبدل فطرتنا وسرنا وفق ما أمرنا به خالقنا وفاطرنا ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد:٢٨]. وقال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾

وفي الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((يا بلال أرحنا بالصلاة)) .

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث أبين وجه الإعجاز وأهم ما توصلت إليه من نتائج سائلا الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا صوابًا، فأقول مستعينًا بالله:

لقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة التي أجريت على فئات مختلفة من الناس في مناطق متعددة وبواسطة علماء من جامعات أكاديمية مشهورة: (أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة).

وتلك النتائج العلمية الباهرة تتوافق مع ما جاء به الإسلام، وقرره علماء الإسلام قبل ألف وأربعمائة سنة!!.وفي ذلك دليل قاطع على صدق القرآن ومبلغه الذي هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، كما أنه دليل صريح على صحة عقيدة الإسلام، وانسجام ذلك مع طبيعة الإنسان وتكوينه الفطري.

وأنه حينما ينسجم عقديًا مع تلك الفطرة المركوزة فإن آثار ذلك لا ينعكس على مستقبله الأخروي فحسب، بل إن ذلك ينفعه في دنياه من الناحية النفسية والصحية.

وصدق الله القائل: (**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**) والقائل: (**أفلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**)، والقائل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

والآن أُجمل في هذه الخاتمة أهم ما توصّلت إليه من نتائج:

١. أن الفطرة في اللغة لها معانٍ عديدة، كالشق والخلقة والابتداء والاختراع وغيرها.

٢. أن العلماء اختلفوا في بيان معنى الفطرة إلى عدة أقوال، بيد أن الذي عليه أكثر السلف وجماهير العلماء هو تفسيرها بالإسلام.

٣. أنه ليس المراد بالقول أن المولود يولد على فطرة الإسلام: أنه يولد وهو يعلم هذا الدين ويريده، ولكن المراد أن فطرة المولود تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته،

وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض.

٤. أن في نصوص الكتاب والسنة غنية بالأدلة العقلية اليقينية على أصول الاعتقاد، خلافًا لمن زعم أنها مجرد أدلة سمعية تحتاج إلى براهين خارجية.

٥. أن معرفة الله تعالى فطرية خلافًا للمتكلمين الذين يقررون بأنها نظرية.

٦. أن الأدلة القرآنية قد جلت المراد بحقيقة الفطرة موضحة لمعناها وجاءت السنة النبوية مكملة لهذا المعنى مؤكدة عليه.

٧. إثبات الفطرة وتأصيلها فيه رد على العلمانيين الذين يريدون فصل الدين عن شتى مجالات الحياة، ذلك أن هذه الفطرة السليمة تجمع بين الأخذ بأسباب الحضارة دون إخلال بالقيم والمقاصد النبيلة.

٨. توجد أبحاث تجريبية يجريها علماء الغرب على المخ البشري تقرر أن الإيمان له مواضعه في المخ، وهذه الدراسات لا تزال نظريات ولعلّه يظهر لنا بعض ما كنا نجهله عن "المخ البشري" (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا). والدلائل النقلية والعقلية والحسّية تؤكد لنا فطرية المعرفة من قبل هذه الدراسات التجريبية الطبية.

وأوصي في ختام البحث:

٩. الاعتماد على المنهج القرآني في ترسيخ الإيمان واليقين.

١٠. إبراز الأدلة القرآنية في مخاطبة العقول، فإنه ما من أصل من أصول الاعتقاد يمكن الاستدلال عليه عقلًا، إلا وفي النقل التنبيه على ذلك، علمه من علمه وجهله من جهله.

١١. تنقية المناهج الدراسية مما علق بها من مسائل ودلائل المتكلمين والفلاسفة التي عطلت الفكر الإسلامي وأخرت المسلمين وأشغلتهم بالمسائل التي لا ينبني عليها علم نافع وعمل صالح.

١٢. المزيد من الدراسات المؤصلة التي تبرز عظمة وإعجاز القرآن التشريعي في مختلف المجالات، والملاحظ هو انشغال كثير من الباحثين بالإعجاز العلمي، وعدم إعطاء هذا المجال حقه الكافي من الدراسات.

١٣. دراسة "آية الميثاق" دراسة موضوعية مفصّلة تجمع أقوال المفسرين فيها، والروايات الحديثية وتمييز صحيحها من ضعيفها.

والله تعالى أعلم وأحكم والهادي إلى سواء السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس المراجع

- أخذ الميثاق في قوله تعالى:(وإذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم): لعبدالعزيز بن عبدالرحمن العثيم، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير الطبري المسمى "جامع البيان في تأويل القرآن" : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- تفسير القرآن العظيم: للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرين، دار الشعب، القاهرة، نسخة دار ابن حزم، تحقيق محمد البنا، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- التفسير الكبير: لفخر الدين أبي بكر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.
- تفسير النسفي المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" : للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي.
- حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي"، دار صادر، بيروت.
- درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- دلائل التوحيد: للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- الدين: بحوث مهمة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت، ١٤١٠هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة منقحة، ١٤١٥هـ.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: خالد السبع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: لأحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- كل مولود يولد على الفطرة: لتقي الدين أبي الحسن السبكي، تحقيق: محمد السيد أبو عمة، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها: عبدالله محمد القرني، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ



البحث في العلوم الإنسانية

شهادة الأناجيل بصدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

المقدم من الباحثة

أسماء عبد المجيد الزنداني



ملخص البحث

هذا البحث يثبت ما أخبر به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن حقيقة المسيح عليه السلام ، من أن الله أرسل معه الإنجيل وأنه رسول خاص ببني إسرائيل ، وأنه ليس الإله كما يزعم النصارى بل إنه عبد الله ورسوله ، فقد جاء في الأناجيل ما يثبت صدق ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم ويكذب ما تدعيه الكنيسة . ولأنه في السنوات الأخيرة زادت الدعوة إلى الحوار الإسلامي المسيحي ؛ لكن المسلمين لا يعرفون إلا الشيء القليل عن الدين النصراني ، بينما النصارى يدرّسون أبناءهم الإسلام في مدارسهم منذ الصغر ؛ ولكن بطريقة تشويه الإسلام ، مما جعل هذه الثقافة تنعكس على الرأي العام الغربي ؛ فترى المقالات والرسوم المهينة لديننا الإسلامي ، ولنبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد انتشرت بينهم ، استخدموا فيها أبشع العبارات ، وأقبح الصور، ثم ألصقوها بأعظم دين، وأفضل بشر، قد شهد له بالعظمة المنصفون من الغرب غير المسلمين .

باختصار هذا هو الوضع الشائع ؛ لذا شاركت بهذا الكتيب المدعّم بالأدلة من الأناجيل التي تشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ،مساهمة من المعهد في تقديم خدمة متواضعة لمن يراد أن يحاور، أو حتيلمن يريد أن يفهم شيئا عن الحقيقة.

كتب الأنبياء ومعجزاتهم

نجد أن كثيراً من كتب الأنبياء السابقين قد ضاعت واندرست ، فلم يبق لها أثر ، فمثلا: كتاب النبي نوح، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب عليهم السلام.....الخ.

ضاعت ، ولا وجود لها ، أمّا بعض كتب الأنبياء المنـزلة من عند الله والتي بقيت ، فقد حدث لها تغيير متعمّد في محتواها ، فلم تعد كما أنزلت ، وهذه الكتب هي : [التوراة والإنجيل] وهذا ليس ادعاء مني ، بل بشهادة علماء النصارى أنفسهم.

هذا بالنسبة للكتب السماوية السابقة ، أما بالنسبة لمعجزات الأنبياء السابقين ، فلا يستطيع أحد من الناس بعد ممات الأنبياء أن يرى معجزاتهم. فلو سألت يهودياً مثلا أن يريك تحوّل عصا موسى عليه السلام إلى حية ، أو يريك البحر الذي شقه الله لموسى عليه السلام طريقا له ولقومه، لأجابك اليهودي لا وجود لها. ولو سألت نصرانيا بأنك تريد أن ترى معجزات المسيح عليه السلام التي قام بها من شفائه للمرضى ، وإحيائه للموتى ، لما استطاع أن يريك إياها أيضاً ، ولكن الله عز وجل جعل معجزات آخر أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم قابلة بأن يشاهدها جميع الناس ، ليصلهم الدليل، والبرهان وتقوم عليهم الحجة.

وكما حفظ الله معجزات آخر أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم ، حفظ الله كتابه المنـزل على محمد صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأن الله ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم الرسالات والكتب جميعا ، وأرسله إلى جميع البشر ، قال تعالى :

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧

107. And We have not sent you, [O Muhammad], except as a mercy to the worlds.

(الأنبياء/١٠٧)

لذا حفظ الله كتاب ومعجزات آخر نبي أرسله لتشاهدها الأجيال المتعاقبة بعده ، وإلى يوم القيامة. فمثلا نحن الذين نعيش في هذا العصر ، نستطيع أن نشاهد كثيرا من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم التي أيده الله بها ، والتي يستطيع مشاهدتها أهل هذا العصر ،

والأجيال القادمة إلى يوم القيامة ، فالسماء تشهد، والأرض تشهد، والبحار، والشمس ، والقمر، والنجوم ، وأعضاء الإنسان، والحيوان، والنبات ، بل إن الذرة والمجرة وما بينهما تشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أنصف العلماء لكانت مراكز البحث العلمي في العالم تشهد بصدقه صلى الله عليه وسلم .ونحن في هذا الكتاب نقدم نوعاً جديداً من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وهي :

شهادة الأناجيل بصدق محمد صلى الله عليه وسلم

وإن كنا نعتقد بأن الأناجيل اليوم ليست هي الإنجيل الصحيح الذي كان مع المسيح عليه السلام ، بل وليست حتى الأناجيل التي كانت موجودة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا بشهادة علماء النصارى أنفسهم، فضلاً عن وجود مافيها من التناقضات مما ينفي أن مافيها لا يزال كله من كلام الله ، وإنك تجد بعض الأناجيل الموجودة اليوم بها تعليقات في الهامش على بعض النصوص ، تقول :هذا النص لم يكن موجوداً في النسخ القديمة ، أو تقول: هذا النص لا يوجد في نسخه كذا وكذا . ومع ذلك التغيير فإن الله عز وجل أبقى فيها بعض النصوص ذات المعاني الصحيحة ، والتي منها هذه النصوص التي تشهد بصدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

فعندما بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالم جاء واليهود يقولون عن عيسى عليه السلام : بأنه ابن زنى ، حيث كانت أمه متزوجة برجل طاعن في السن اسمه يوسف النجار، فخانته واضطجعت مع جندي روماني حملت منه بعيسى ، ثم بعد الولادة ذهبت به إلى مصر ، وعلمته فنون السحر ، فرجع إلى أورشليم مدّعياً أنه المسيح عليه السلام يخدع الناس بسحره ، فقتله اليهود وتخلصوا منه ، ومازال هذا معتقد اليهود في عيسى عليه السلام وأمه إلى يومنا هذا .ويقولون بأن المسيح عليه السلام المذكور في التوراة لم يأت بعد.

أما النصارى فجاء محمد صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: بأن المسيح عليه السلام هو الله، ومازال هذا هو معتقد النصارى إلى يومنا هذا. فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم ليس رسولاً من عند الله لأقرّ اليهود على ما يقولونه ؛ لكي يقبلوه ، ولأقرّ النصارى على

مايعتقدونه ؛ لكي يتبعوه ، لكنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل هو وحيٌ يوحى إليه من الله ، لذا رفض قذف اليهود لمريم عليها السلام، ورفض القبول بما يدعيه النصارى ، وقال القول الفصل والحق في مريم وعيسى عليهما السلام ، فأخبر محمد صلى الله عليه وسلم اليهود بأن مريم بريئة مما اتهموها به ، وأخبر بأن الله قد أقام دليل براءتها في حينه؛ وذلك بأن جعل وليدها ينطق ببراءة أمه وهو مازال في مهده . وأكد محمد صلى الله عليه وسلم لليهود بأن عيسى عليه السلام هو المسيحعليه السلام نبي الله.قال تعالى:

27. Then she brought him to her people, carrying him. They said, "O Mary, you have certainly done a thing unprecedented.	فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾
28. O sister of Aaron, your father was not a man of evil, nor was your mother unchaste."	يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾
29. So she pointed to him. They said, "How can we speak to one who is in the cradle a child?"	فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾
30. [Jesus] said, "Indeed, I am the servant of Allāh. He has given me the Scripture and made me a prophet.	قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾
31. And He has made me blessed wherever I am and has enjoined upon me prayer and zakāh as long as I remain alive	وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

(سورة مريم ٢٧-٣١)

فترك بنو إسرائيل مريم ولم يستطيعوا إقامة حد الزنا عليها ، لأن الله قد أثبت براءتها بمعجزة نطق وليدها عيسى عليه السلام ، ولو لم تثبت براءة مريم بهذه المعجزة لأقام قومها عليها الحد وهو القتل ،لأن حد الزنا عند اليهود هو القتل ،وهذا منصوص عليه في توراتهم، ومازال هذا النص باقياً إلى يومنا هذا ،جاء في سفر التثنية من توراة موسى عليه السلام :

سفر التثنية (٢٢ /٢٣-٢٤)

٢٣ إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها، ٢٤ فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا. الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه. فتنزع الشر من وسطك. ٢٥ ولكن

[23] If a man happens to meet in a town a virgin pledged to be married and he sleeps with her, [24] you shall take both of them to the gate of that town and stone them to death —the girl because she was in a town and did not scream for help, and the man because he violated another man's wife. You must purge the evil from among you.

أما إن كانت ابنة كاهن (عالم) مثل مريم عليها السلام فإنوالحكم في التوراة هي أن تحرق، لأنها جلبت العار لأبيها ، جاء في سفر اللاويين من توراة موسى عليه السلام :

[9] "If a priest's daughter defiles herself by becoming a prostitute, she disgraces her father; she must be burned in the fire.

٩ وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنى فقد دنست أباها. بالنار تحرق.

وهكذا برأ القرآن مريم وعيسى عليهما السلام بمعجزة يتلوها المسلمون ليلاً ونهارا ،بينما النصارى لا يملكون مثل هذا الدليل المعجز، فهذا ما رد به صلى الله عليه وسلم على اليهود . أما ما قاله للنصارى : فهو أن المسيح عليه السلام ليس إلا إنساناً ولد بمعجزة من الله ، مَثَلُهُ في ذلك مثل آدم عليه السلام، فإن كان المسيحعليه السلام ولد من أم بلا أب ، فآدم أوجده الله من دون أم ولا أب. قال تعالى في سورة (آل عمران / ٥٩)

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾	59. Indeed, the example of Jesus to Allah[108] is like that of Adam. He created him from dust; then He said to him, "Be," and he was.

وفي الصفحات الآتية نقرأ شهادة الأناجيل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم.

الأناجيل تشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم

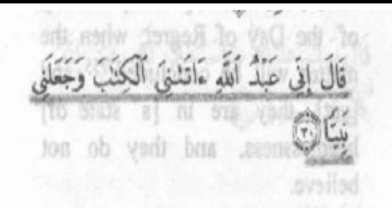
أولا : يخبر محمد صلى الله عليه وسلم بوجود إنجيل كان مع المسيح عليه السلام

قال تعالى في سورة(المائدة/ ٤٦)

46. And We sent, following in their footsteps,[237] Jesus, the son of Mary, confirming that which came before him in the Torah; and We gave him the Gospel, in which was guidance and light and confirming that which

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

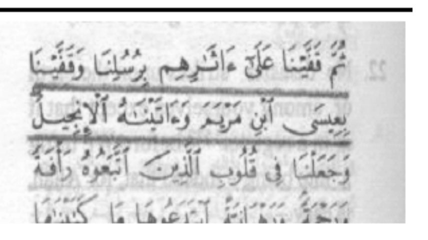
وقال سبحانه في سورة (مريم/ ٣٠)



Jesus] said, "Indeed, I am the ervant of Allāh. He has given me he Scripture and made me a rophet.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

وقال سبحانه في سورة (الحديد/ ٢٧)



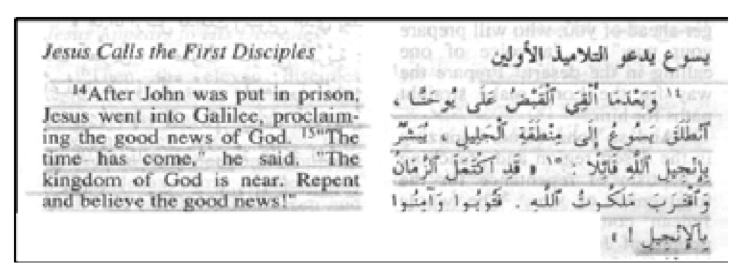
hen We sent following their ootsteps [i.e., traditions] Our essengers and followed [them] ith Jesus, the son of Mary, and ave him the Gospel. And We

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً

والكنيسة تنكر ذلك وتقول بأن الأناجيل وجدت بعد رفع المسيح عليه السلام بسنوات عدة، والأناجيل تشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم

* إن المسيح عليه السلام حين بعثه الله نبيا ورسولا إلى بني إسرائيل ، استهل دعوته لهم، بطلب التوبة إلى الله ، والإيمان بالإنجيل الذي أنزله الله إليه.

انظر إنجيل مرقس (١/ ١٤)



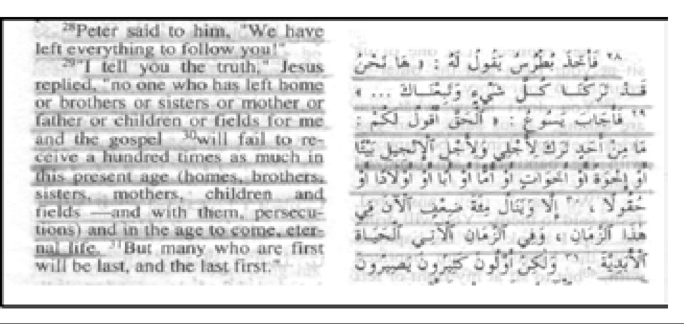
Jesus Calls the First Disciples

14After John was put in prison, Jesus went into Galilee, proclaiming the good news of God. 15"The time has come," he said. "The kingdom of God is near. Repent and believe the good news!"

يسوع يدعو التلاميذ الأولين

١٤ وبعدما ألقي القبض على يوحنا، انطلق يسوع إلى منطقة الجليل، يبشر بإنجيل الله قائلا: ١٥ «قد اكتمل الزمان واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالإنجيل!»

* في النص التالي يسأل بطرس رئيس الحواريين المسيح عليه السلام عما ينتظرهم من أجر ، فقد تركوا بيوتهم ، وحقولهم، وأهليهم؛ لأجل عيسى عليه السلام، ولأجل الإنجيل الذي كان مع المسيح عليه السلام انظر إنجيل مرقس (١٠/ ٢٨-٣١)



28Peter said to him, "We have left everything to follow you!"
29"I tell you the truth," Jesus replied, "no one who has left home or brothers or sisters or mother or father or children or fields for me and the gospel 30will fail to receive a hundred times as much in this present age (homes, brothers, sisters, mothers, children and fields —and with them, persecutions) and in the age to come, eternal life. 31But many who are first will be last, and the last first."

٢٨ فأخذ بطرس يقول له: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك...» ٢٩ فأجاب يسوع: «الحق أقول لكم: ما من أحد ترك لأجلي ولأجل الإنجيل بيتا أو إخوة أو أخوات أو أما أو أبا أو أولادا أو حقولا، ٣٠ إلا وينال مئة ضعف الآن في هذا الزمان، وفي الزمان الآتي الحياة الأبدية. ٣١ ولكن أولون كثيرون يصيرون

* وفي النص التالي أيضاً يؤكد فيه المسيح عليه السلامبأن الخلاص الحقيقي للنفس هو الإيمان بالمسيحعليه السلام، وبإنجيله ، ولكن النصارى لا يؤمنون بإنجيل المسيحعليه السلام ، لذا فإن خلاصهم غير محقق ،أما المسلمون فيؤمنون بالمسيح عليه السلام ،وبإنجيله.

انظر إنجيل مرقس أيضاً (٨/ ٣٥)

up his cross and follow me. [35]For whoever wants to save his life will lose it, but whoever loses his life for me and for the gospel will save it. [36]What good is it for a man to gain the whole world, yet forfeit his soul? [37]Or what can a man give in exchange for his soul? [38]If anyone is ashamed of me and my words in this adulterous and sinful

٣٥ فأي من أراد أن يخلص نفسه يخسرها ، ولكن من يخسر نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل ، فهو يخلصها . ٣٦ فماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ ٣٧ أو ماذا يقدم الإنسان فداء عن نفسه ؟ ٣٨

* في النص الأتي لوقا يعترف بأن إنجيله ليس كلام الله الذي أوحاه الله إليه كما يعتقد النصارى ، بل يقول هو سيرة المسيح عليه السلام.

فحين رأى لوقا أن كثيراً من الناس يكتبون سيرة المسيح عليه السلام، قرر هو أيضاً أن يؤلف كتابا في سيرة المسيح عليه السلام، ليرسلها إلى صديقه المبجل ثاوفيلس ، ليعرف ثاوفيلس من هو المسيح عليه السلام. ولأن لوقا لم ير المسيحعليه السلام في حياته ، فقد تحرى كتابة الأحداث من الذين شاهدوا المسيح عليه السلام، وآمنوا به، وبإنجيله ، وكانوا خادمين لكلام الله .

(انظر لوقا (١/ ١-٤)



Luke

Why Was This Gospel Written

1 Many have undertaken to draw up an account of the things that have been fulfilled among us, [2]just as they were handed down to us by those who from the first were eyewitnesses and servants of the word. [3]Therefore, since I myself have carefully investigated everything from the beginning, it seemed good also to me to write an orderly account for you, most excellent Theophilus, [4]so that you may know the certainty of the things you have been taught.

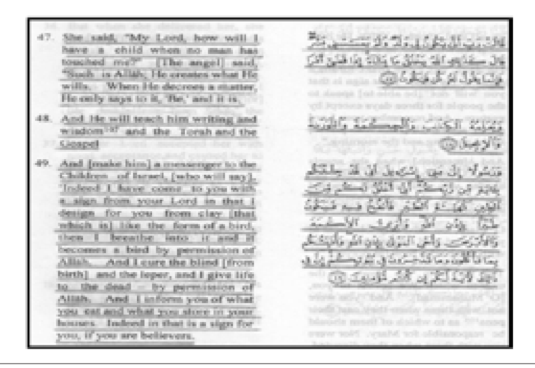
الإنجيل كما دونه لوقا

لماذا كتب هذا الإنجيل

١ لما كان كثيرون قد أقدموا على تدوين قصة في الأحداث التي تمت بيننا ، ٢ كما سلمها إلينا أولئك الذين كانوا من البداية شهود عيان ، ثم صاروا خداما للكلمة ، ٣ رأيت أنا أيضا ، بعدما تفحصت كل شيء من أول الأمر تفحصا دقيقا ، أن أكتبها إليك مرتبة يا صاحب السمو ثاوفيلس ، ٤ لتتأكد لك صحة الكلام الذي تلقيته .

ثانيا: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأن المسيح عليه السلام رسول إلى بني إسرائيل فقط

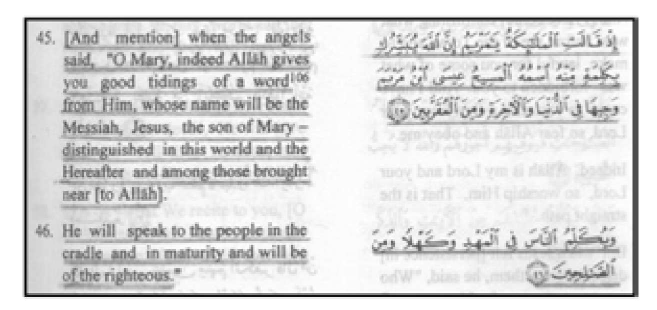
قال تعالى في سورة (آل عمران/ ٤٧-٤٩)


47. She said, "My Lord, how will I have a child when no man has touched me?" [The angel] said, "Such is Allāh; He creates what He wills. When He decrees a matter, He only says to it, 'Be,' and it is.

48. And He will teach him writing and wisdom and the Torah and the Gospel

49. And [make him] a messenger to the Children of Israel, [who will say], 'Indeed I have come to you with a sign from your Lord in that I design for you from clay [that which is] like the form of a bird, then I breathe into it and it becomes a bird by permission of Allāh. And I cure the blind [from birth] and the leper, and I give life to the dead - by permission of Allāh. And I inform you of what you eat and what you store in your houses. Indeed in that is a sign for you, if you are believers.

و قال تعالى في سورة (آل عمران/ (٤٥-٤٦)


إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴿٤٥﴾

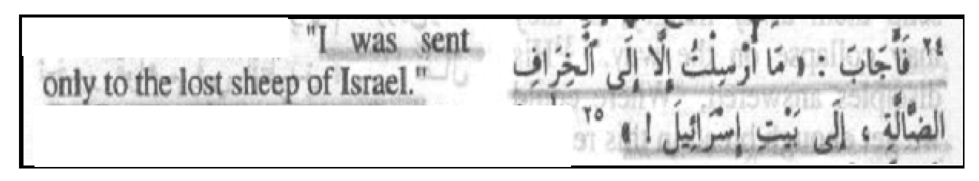
ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين ﴿٤٦﴾

45. [And mention] when the angels said, "O Mary, indeed Allāh gives you good tidings of a word[106] from Him, whose name will be the Messiah, Jesus, the son of Mary - distinguished in this world and the Hereafter and among those brought near [to Allāh].

46. He will speak to the people in the cradle and in maturity and will be of the righteous."

والكنيسة تقول بأن المسيح جاء إلى العلم، ولكن الأناجيل الموجودة الآن تشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم

يقول عيسى في إنجيل متى (١٥/ ٢٤)


٢٤ فأجاب: «ما أرسلت إلا إلى الخراف الضالة، إلى بيت إسرائيل!» ٢٥

"I was sent only to the lost sheep of Israel."

فهو يؤكد بأنه رسول خاص ببني إسرائيل.

* والمسيح عليه السلام يوصي حوارييه (تلاميذه) في النص التالي بعدم الذهاب إلى المدن غير الإسرائيلية ، فقط إلى بيت إسرائيل.

أنظر متى(١٠/ ٥-٦)

يسوع يرسل الرسل

٥ هؤلاء الاثنا عشر رسولا ، أرسلهم يسوع وقد أوصاهم قائلا : « لا تسلكوا طريقا إلى الأمم ، ولا تدخلوا مدينة سامرية . ٦ بل اذهبوا بالأحرى إلى الخراف الضالة ، إلى بيت إسرائيل .

Jesus Sends Out the Apostles

5 These twelve Jesus sent out with the following instructions: "Do not go among the Gentiles or enter any town of the Samaritans. 6 Go rather to the lost sheep of Israel. 7 As you go, preach this message: 'The kingdom of heaven is near.' 8 Heal the sick, raise the

---

* ذكر تحقق نبوءة العهد القديم ، بأن المسيح عليه السلامسيولد في بيت لحم، ويحكم على بني إسرائيل فقط .

جاء في (متى ٢/ ٦)

٦ وأنت يا بيت لحم بأرض يهوذا ، لست صغيرة الشأن أبدا بين حكام يهوذا ، لأنه منك يطلع الحاكم الذي يرعى شعبي إسرائيل ! »

6 "'But you, Bethlehem, in the land of Judah, are by no means least among the rulers of Judah; for out of you will come a ruler who will be the shepherd of my people Israel.'"

---

* يخبر المسيح عليه السلام في النص التالي بأنه سيعود مرة ثانية ، والنصارى لم ينتهوا من تبليغ رسالة المسيح عليه السلام الخاصة في مدن بني إسرائيل.

جاء في إنجيل متى (١٠/ ٢٣)

فالحق أقول لكم : لن تفرغوا من مدن إسرائيل إلى أن يأتي ابن الإنسان .

place, flee to another. I tell you the truth, you will not finish going through the cities of Israel before the Son of Man comes.

فرسالة عيسى فقط لبني إسرائيل حتى يعود المسيح عليه السلام.

ثالثا : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بأن المسيح عليه السلام لم يدَّعِ الألوهية أبداً

قال تعالى في سورة (مريم/ ٣٠)

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

30. [Jesus] said, "Indeed, I am the servant of Allāh. He has given me the Scripture and made me a prophet.

وقال سبحانه وتعالى في سورة (المائدة ١١٦)

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

116. And [beware the Day] when Allāh will say, "O Jesus, Son of Mary, did you say to the people, 'Take me and my mother as deities besides Allāh?'" He will say, "Exalted are You! It was not for me to say that to which I have no right. If I had said it, You would have known it. You know what is within myself, and I do not know what is within Yourself. Indeed, it is You who is Knower of the unseen.

والكنيسة تعلم وتكرس الإدعاء بأن المسيح هو الله ولكن الأناجيل تشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم

١- يخبر المسيح عليه السلام أن أعظم وصية جاء بها إلى بني إسرائيل هي التي جاء بها موسى عليه السلام،وهي أن الله واحد وليس آخر سواه .مرقس (١٢/ ٢٩)

The Greatest Commandment

[28]One of the teachers of the law came and heard them debating. Noticing that Jesus had given them a good answer, he asked him, "Of all the commandments, which is the most important?"

[29]"The most important one," answered Jesus, "is this: `Hear, O Israel, the Lord our God, the Lord is one. [30]Love the Lord your God with all your heart and with all your soul and with all your mind and with all your strength.' [31]The second is this: `Love your

الوصية العظمى

٢٨ وتقدم إليه واحد من الكتبة كان قد سمعهم يتجادلون، ورأى أنه أحسن الرد عليهم، فسأله: «أية وصية هي أولى الوصايا جميعا؟» ٢٩ فأجابه يسوع: «أولى الوصايا جميعا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد. ٣٠ فأحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك وبكل فكرك وبكل قوتك. هذه هي الوصية الأولى. ٣١ وهناك ثانية

٢- يؤكد عيسى عليه السلام لبني إسرائيل بأن التعاليم التي يأمرهم بها ليست من عنده، بل من عند الله الذي أرسله ، ويقدم الدليل على صدق كلامه .يوحنا (٧/ ١٦-١٧)

learning without having studied?"

[16]Jesus answered, "My teaching is not my own. It comes from him who sent me. [17]If anyone chooses to do God's will, he will find out whether my teaching comes from God or whether I speak on my own. [18]He who speaks on his own does so to gain honor for himself, but he who works for the honor of the one who sent him is a man of truth; there is nothing false about

هذا الكتب وهو لم يتعلم؟» ١٦ فأجابهم يسوع: «ليس تعليمي من عندي، بل من عند الذي أرسلني. ١٧ ومن أراد أن يعمل مشيئة الله يعرف ما إذا كان تعليمي من عند الله، أو أني أتكلم من عندي. ١٨ من يتكلم من عنده يطلب المجد لنفسه، أما الذي يطلب المجد لمن أرسله فهو صادق لا إثم فيه. ١٩ أما أعطاكم موسى

٣-المسيح عليه السلام يعمل ما يرضي الله، وليس هو الله. يقول عيسى عليه السلام في إنجيل يوحنا:يوحنا (٨/ ٢٩)

[29]The one who sent me is with me; he has not left me alone, for I always do what pleases him."

٢٩ إن الذي أرسلني هو معي، ولم يتركني وحدي، لأني دوما أعمل ما يرضيه».

انظر إنجيل مرقس (١٠/ ٢٨-٣١)

[28]Peter said to him, "We have left everything to follow you!"
[29]"I tell you the truth," Jesus replied, "no one who has left home or brothers or sisters or mother or father or children or fields for me and the gospel [30]will fail to receive a hundred times as much in this present age (homes, brothers, sisters, mothers, children and fields —and with them, persecutions) and in the age to come, eternal life. [31]But many who are first will be last, and the last first."

٢٨ فَأَخَذَ بُطْرُسُ يَقُولُ لَهُ: «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ ...» ٢٩ فَأَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَا مِنْ أَحَدٍ تَرَكَ لِأَجْلِي وَلِأَجْلِ الإِنْجِيلِ بَيْتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أُمًّا أَوْ أَبًا أَوْ أَوْلَادًا أَوْ حُقُولًا، ٣٠ إِلَّا وَيَنَالُ مِئَةَ ضِعْفٍ الآنَ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَفِي الزَّمَانِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ. ٣١ وَلَكِنْ أَوَّلُونَ كَثِيرُونَ يَصِيرُونَ

٤- المسيح عليه السلام يعلِّم الناس طريق الله ، وهذا يعني بوضوح أنه ليس الله.

متى (٢٢/ ١٦)

"Teacher," they said, "we know you are a man of integrity and that you teach the way of God in accordance with the truth. You aren't swayed by men, because you pay no attention to who they are.

«يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَتُعَلِّمُ النَّاسَ طَرِيقَ اللهِ فِي الْحَقِّ، وَلَا تُبَالِي بِأَحَدٍ لِأَنَّكَ لَا تُرَاعِي مَقَامَاتِ النَّاسِ، ١٧ فَقُلْ لَنَا إِذَنْ مَا رَأْيُكَ ؟

٥- المسيح عليه السلام يقول بأن الصلاح الكامل لله وحده ، وليس له(أي المسيح) فالمسيح عليه السلام غير الله. جاء: في لوقا:لوقا(١٨/ ١٨)

Inheriting Eternal Life

[18]A certain ruler asked him, "Good teacher, what must I do to inherit eternal life?"
[19]"Why do you call me good?" Jesus answered. "No one is good —except God alone. [20]

ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟

١٨ وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ قَائِلًا: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لِأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ ؟» ١٩ وَلَكِنْ يَسُوعُ قَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي الصَّالِحَ ؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلَّا وَاحِدٌ، وَهُوَ اللهُ !

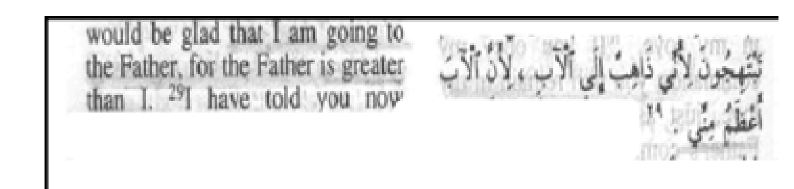
٦- المسيح عليه السلام إنسان يتلقى الوحي من الله ، يقول المسيح عليه السلام مؤنباً بني إسرائيل لإرادتهم قتله :يوحنا (٨/ ٤٠)

would do the things Abraham did. [40]As it is, you are determined to kill me, a man who has told you the truth that I heard from God.

٤٠ وَلٰكِنَّكُمْ تَسْعَوْنَ إِلَى قَتْلِي وَأَنَا إِنْسَانٌ كَلَّمْتُكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعْتُهُ مِنَ اللهِ

فأخبر المسيح عليه السلام بني إسرائيل بأنه إنسان يتلقى ما يقوله لهم بوحي من الله ، فلماذا يريدون قتله؟!

٧- كما يخبر المسيح عليه السلامبني إسرائيل بأن الله أعظم منه ، جاء في إنجيل مرقس قول المسيح عليه السلام.مرقس (١٤/ ٢٨)



would be glad that I am going to the Father, for the Father is greater than I. [29]I have told you now

تَبْتَهِجُونَ لِأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الْآبِ، لِأَنَّ الْآبَ أَعْظَمُ مِنِّي. ٢٩

فكيف يكون هو الله وهو يقول بأن الله أعظم منه.

٨- يقول المسيح عليه السلام بأن الله وحده الذي يعرف متى موعد رجوع المسيح عليه السلام. جاء في إنجيل مرقس:مرقس(١٣/ ٣٢)

This Day is Unknown

[32]"No one knows about that day or hour, not even the angels in heaven, nor the Son, but only the Father. [33]

لا أحد يعرف ذلك اليوم

٣٢ وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْرِفُهُمَا أَحَدٌ، لَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَلَا الِابْنُ، إِلَّا الْآبُ. ٣٣ فَانْتَبِهُوا وَاسْهَرُوا

فكيف يكون المسيح عليه السلام هو الله ، وهو لا يعرف متى موعد رجوعه الى الأرض مرة أخرى؟!!!

٩- الله يعطي المسيح عليه السلام ما يطلبه منه :يوحنا (١١/ ٢١- ٢٢)

home.
21"Lord," Martha said to Jesus, "if you had been here, my brother would not have died. 22But I know that even now God will give you whatever you ask."

٢١ وَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ هُنَا، لَمَا مَاتَ أَخِي. ٢٢ فَأَنَا وَاثِقَةٌ تَمَامًا بِأَنَّ اللهَ يُعْطِيكَ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنْهُ». ٢٣

١٠- المسيح عليه السلام يدعو الله ويشكره ، لأنه يسمع دعاءه ، ويمده بالمعجزات.

يوحنا (١١/ ٤١-٤٢)

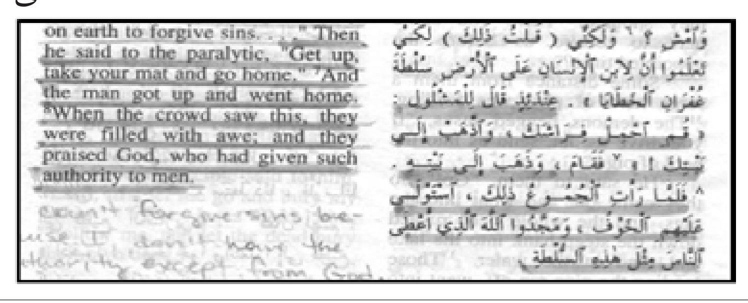
would see the glory of God?"
41So they took away the stone. Then Jesus looked up and said, "Father, I thank you that you have heard me. 42I knew that you always hear me, but I said this for the benefit of the people standing here, that they may believe that you sent me."
43When he had said this, Jesus

٤١ فَرَفَعُوا الْحَجَرَ. وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي. ٤٢ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ دَوْمًا تَسْمَعُ لِي. وَلكِنِّي قُلْتُ هذَا لأَجْلِ الْجَمْعِ الْوَاقِفِ حَوْلِي، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي». ٤٣ ثُمَّ نَادَى بِصَوْتٍ عَالٍ:

فالمسيح عليه السلام، رسول الله إلى بني إسرائيل ، أمده الله بمعجزات كبقية الأنبياء والرسل.

١١- الناس الذين رأوا المعجزة التي قام بها المسيح عليه السلام آمنوا بأن الله أمّد المسيح عليه السلام بهذه المعجزة . جاء في إنجيل متى :

متى (٩/ ٦-٧)



on earth to forgive sins. . . ." Then he said to the paralytic, "Get up, take your mat and go home." 7And the man got up and went home. 8When the crowd saw this, they were filled with awe; and they praised God, who had given such authority to men.

وَامْشِ؟ ٦ وَلكِنِّي (قُلْتُ ذلِكَ) لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ عَلَى الأَرْضِ سُلْطَةَ غُفْرَانِ الْخَطَايَا». عِنْدَئِذٍ قَالَ لِلْمَشْلُولِ: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ، وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ!» ٧ فَقَامَ، وَذَهَبَ إِلَى بَيْتِهِ. ٨ فَلَمَّا رَأَتِ الْجُمُوعُ ذلِكَ، اسْتَوْلَى عَلَيْهِمِ الْخَوْفُ، وَمَجَّدُوا اللهَ الَّذِي أَعْطَى النَّاسَ مِثْلَ هذِهِ السُّلْطَةِ.

فالمسيح عليه السلام، لا يأتي بالمعجزات من تلقاء ذاته ، بل الله يمده بها.

١٢- الإنجيل يقرّ بأن المسيح عليه السلام رجل أيده الله بالمعجزات، جاء في أعمال الرسل يقول بطرس رئيس الحواريين:أعمال الرسل (٢/ ٢٢)

22"Men of Israel, listen to this: Jesus of Nazareth was a man accredited by God to you by miracles, wonders and signs, which God did among you through him, as you yourselves know. 23This man was handed over to you by God's set purpose and foreknowledge; and you, with the help of wicked men, put him to

الْقَمَرُ إِلَى لَوْنِ الدَّمِ. ٢١ وَلكِنْ كُلُّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ! ٢٢ «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، اسْتَمِعُوا هَذَا الْكَلاَمَ: إِنَّ يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ رَجُلٌ أَيَّدَهُ اللهُ بِمُعْجِزَاتٍ وَعَجَائِبَ وَعَلاَمَاتٍ أَجْرَاهَا عَلَى يَدِهِ بَيْنَكُمْ، كَمَا تَعْلَمُونَ. ٢٣ وَمَعَ ذَلِكَ

١٣- نعمة الله كانت على المسيح عليه السلام منذ طفولته .لوقا (٢/ ٤٠)

Nazareth. 40And the child grew and became strong; he was filled with wisdom, and the grace of God was upon him.

بِالْجَلِيلِ. ٤٠ وَكَانَ الطِّفْلُ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى، مُمْتَلِئًا حِكْمَةً، وَكَانَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ.

وجاء في لوقا (٢/ ٥٢):

52And Jesus grew in wisdom and stature, and in favor with God and men.

٥٢ أَمَّا يَسُوعُ، فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ، وَفِي النِّعْمَةِ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ.

فالمسيح عليه السلام الطفل ، غير الله المنعِم على المسيح عليه السلام.

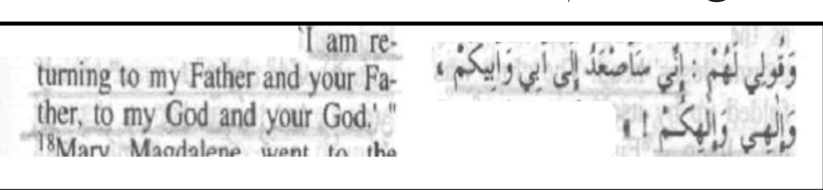
١٤- المسيح عليه السلام يقول إن الله ليس لحما ودما، بينما المسيح عليه السلام إنسان من لحم ودم. جاء في إنجيل متى :متى (١٦/ ١٧).

17Jesus replied, "Blessed are you, Simon son of Jonah, for this was not revealed to you by man, but by my Father in heaven.

١٧ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا. فَمَا أَعْلَنَ لَكَ هَذَا لَحْمٌ وَدَمٌ، بَلْ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ.

فكيف يكون المسيح عليه السلامالذي هو من لحم ودم هو الله؟!!!والمسيح عليه السلام في الإنجيل يؤكد بأن الله ليس لحما ودما.

١٥- المسيح عليه السلام سيصعد إلى الله في السماء، إلهه و إله الحواريين . جاء في إنجيل يوحنا قول المسيح عليه السلام :يوحنا (٢٠/ ١٧)

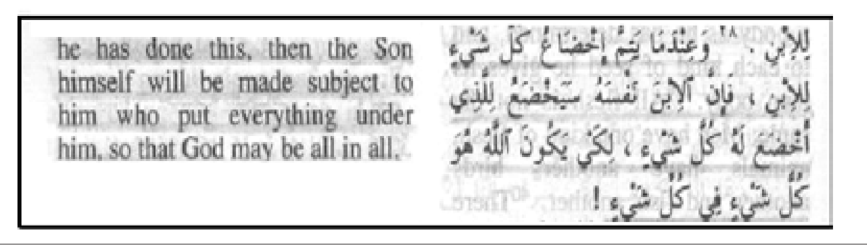


وَقُولِي لَهُمْ : إِنِّي سَاصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ ، وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ !

'I am returning to my Father and your Father, to my God and your God.' "
18Mary Magdalene went to the

فالله الحق هو الذي في السماء ، و هو إله جميع البشر بما فيهم المسيح عليه السلام، كما يقول ويقرّ ويعترف بقوله (إلهي وإلهكم).

١٦- عند عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض ، سيخضع الله له العالم ، فيحكم المسيح عليه السلام العالم ، ولكن المسيح عليه السلام نفسه سيكون خاضعا لله الذي أخضع العالم له . جاء في رسالة كورنثوس الأولى:كورنثوس (١٥/ ٢٨) .

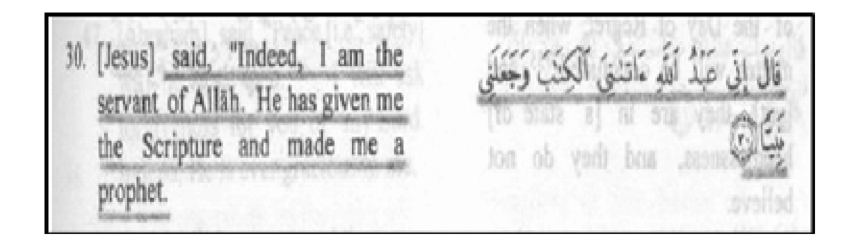


لِلابْنِ . ٢٨ وَعِنْدَمَا يَتِمُّ إِخْضَاعُ كُلِّ شَيْءٍ لِلابْنِ ، فَإِنَّ الابْنَ نَفْسَهُ سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ ، لِكَيْ يَكُونَ اللهُ هُوَ كُلَّ شَيْءٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ !

he has done this, then the Son himself will be made subject to him who put everything under him, so that God may be all in all.

رابعا: محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخبر بأن عيسى عليه السلام نبي اللّه إلى بني إسرائيل

قال تعالى على لسان المسيح عليه السلام في سورة مريم (٣٠)

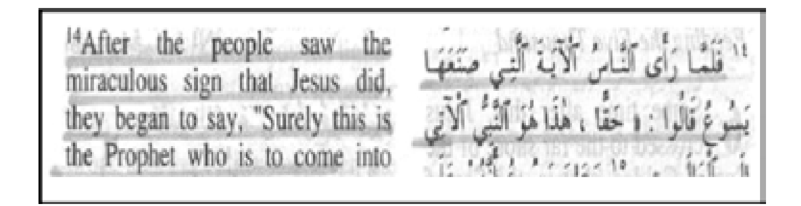


30. [Jesus] said, "Indeed, I am the servant of Allāh. He has given me the Scripture and made me a prophet.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠

والكنيسة تنفي نبوة المسيح عليه السلام وتزعم ألوهيته، ولكن الأناجيل تشهد بصدق محمد صلى اللّه عليه وسلم

جاء في إنجيل يوحنا عيسى نبيّ يوحنا (٦/ ١٤)



[14]After the people saw the miraculous sign that Jesus did, they began to say, "Surely this is the Prophet who is to come into

١٤ فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «حَقًّا، هَذَا هُوَ النَّبِيُّ الآتِي

فالناس الذين رأوا المعجزة أقرّوا بأن المسيح عليه السلام نبي الله ، وهذا ما كان يطلبه منهم المسيحعليه السلام أن يؤمنوا به ، فبعد أن رأوا المعجزة آمنوا بأن المسيح عليه السلام نبي . في النص التالي نقرأ في الإنجيل بأن الناس الذين شاهدوا المسيح عليه السلام يحيي الميت، آمنوا بالمسيح عليه السلام بأنه نبي عظيم تفضّل الله على بني إسرائيل بإرساله إليهم، جاء في إنجيل لوقا :لوقا (٧/ ١٥-١٦)

[15]The dead man sat up and began to talk, and Jesus gave him back to his mother. [16]They were all filled with awe and praised God. "A great prophet has appeared among us," they said. "God has come to help his people."

فجلس الميت وبدأ يتكلم، فسلمه إلى أمه. ١٦ فاستولى الخوف على الجميع، ومجدوا الله، قائلين: «قد قام فينا نبي عظيم وتفقد الله شعبه!» ١٧

الأعمى الذي شفاه عيسى عليه السلام ، يقرُّ بأن المسيح عليه السلام نبيّ .

جاء في إنجيل يوحنا: يوحنا (٩/ ١٧)

So they were divided. [17]Finally they turned again to the blind man, "What have you to say about him? It was your eyes he opened."

The man replied, "He is a prophet."

الآيات؟» فوقع الخلاف بينهم. ١٧ وعادوا يسألون الذي كان أعمى: «وما رأيك أنت فيه ما دام قد فتح عينيك؟» فأجابهم: «إنه نبي!»

الجموع التي شاهدت المسيح عليه السلام و عاشرته تهتف خلف المسيح عليه السلامبأنه النبي الذي من الناصرة. متى (٢١/ ٩-١١)

[9]The crowds that went ahead of him and those that followed shouted, "Hosanna to the Son of David!" "Blessed is he who comes in the name of the Lord!" "Hosanna in the highest!" [10]When Jesus entered Jerusalem, the whole city was stirred and asked, "Who is this?" [11]The crowds answered, "This is Jesus, the prophet from Nazareth in Galilee."

٩ وكانت الجموع التي تقدمت يسوع والتي مشت خلفه تهتف قائلة: «أوصنا لابن داود! مبارك الآتي باسم الرب! أوصنا في الأعالي!» ١٠ ولما دخل يسوع أورشليم، ضجت المدينة كلها، وتساءل أهلها: «من هو هذا؟» ١١ فأجابت الجموع: «هذا هو يسوع النبي الذي من الناصرة بالجليل».

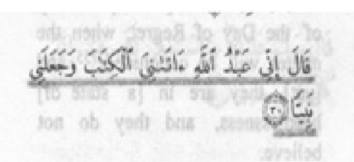
* عيسى عليه السلام يشك فيه قومه بني إسرائيل في كونه نبي مرسل من عند الله ، فيعزي نفسه بأن الأنبياء عليهم السلام لا يحترمون في أوطانهم.متى (١٣/ ٥٧).

57 And they took offense at him.
But Jesus said to them, "Only in his hometown and in his own house is a prophet without honor."

وَكَانُوا يَشُكُّونَ فِيهِ . أَمَّا هُوَ فَقَالَ لَهُمْ : « لَا يَكُونُ النَّبِيُّ بِلَا كَرَامَةٍ إِلَّا فِي بَلْدَتِهِ وَبَيْتِهِ ! » ٥٨

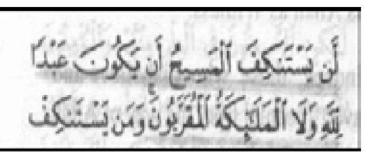
خامسا : محمد صلى الله عليه وسلم يخبر بأن المسيح عليه السلام عبدالله

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام في سورة مريم(٣٠)


30. [Jesus] said, "Indeed, I am the servant of Allāh. He has given me the Scripture and made me a prophet.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠

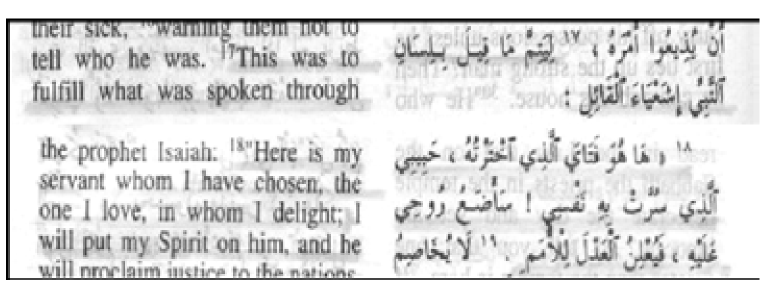
وقال تعالى: سورة النساء(١٧٢)


172. Never would the Messiah disdain to be a servant of Allāh, nor would the angels near [to Him]. And

لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ

فهو عبد الله. قالها بصراحة، ولم يستح من ذلك ، ولكن الكنيسة تنكر عبودية المسيح عليه السلام وتقول : بل هو المعبود، ومع ذلك فإن الأناجيل تشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وترد ما تدعيه الكنيسة.

جاء في إنجيل (متى) ذكر للنبوءة التي جاءت على لسان النبي أشعياء ، والتي تحققت في المسيح عليه السلام العبد الذي اختاره الله . يقول متى في إنجيله :متى (١٢/ ١٧-١٨)



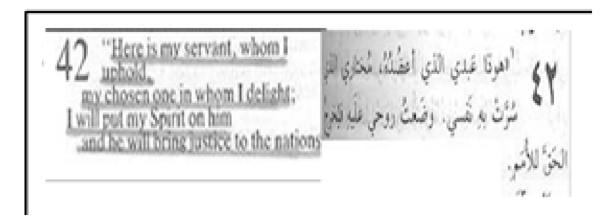
their sick, [16]warning them not to tell who he was. [17]This was to fulfill what was spoken through the prophet Isaiah: [18]"Here is my servant whom I have chosen, the one I love, in whom I delight; I will put my Spirit on him, and he will proclaim justice to the nations

أن يُذيعوا أمْرَهُ ، ١٧ لِيَتِمَّ ما قيل بلسان النبي إشعياء القائل : ١٨ وها هو فتاي الذي اخترته ، حبيبي الذي سُرَّت به نفسي ! سأضع روحي عليه ، فيعلن العدل للأمم . ١٩ لا يُخاصم

إن كلمة فتاه تعني في اللغة العربية عبده ، و قد استخدمها المترجم للتمويه على عامة الناس ، ولكنها في الترجمة الإنجليزية تركت كما هي (عبدي).

وقد جاءت هذه النبوءة التي استشهد بها متى في إنجيله؛ ليثبت لليهود بأن المسيح عليه السلام هو تحقق النبوءة التي وردت في سفر النبي أشعياء . وتقرأ في الإصحاح الثاني والأربعون العدد واحد ، من أشعياء الترجمة العربية تركت كما هي : (عبدي).

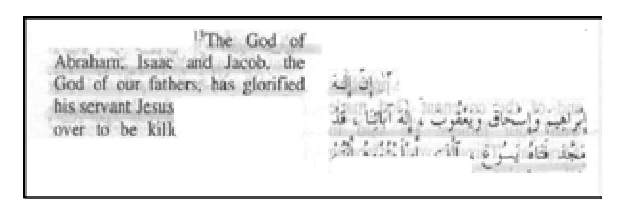
والذي نصه كالتالي :سفر النبي أشعيا (٤٢/ ١)



42 "Here is my servant, whom I uphold, my chosen one in whom I delight; I will put my Spirit on him and he will bring justice to the nations

٤٢ هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرَّت به نفسي. وضعتُ روحي عليه فيُخرج الحق للأمم.

* بطرس رئيس الحواريين يؤكد في العهد الجديد عبودية المسيح عليه السلام لله بعد أن رفع إلى السماء . فقد جاء في أعمال الرسل على لسان بطرس بأن الله مجّد عبده يسوع وهذا نصه:أعمال الرسل (٣/ ١٣)



[13]The God of Abraham, Isaac and Jacob, the God of our fathers, has glorified his servant Jesus over to be kill

إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إله آبائنا، قد مجّد فتاه يسوع

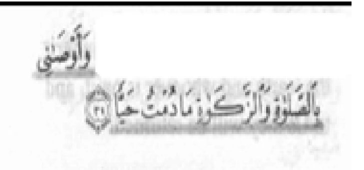
وجاء أيضاً على لسان بطرس رئيس الحواريين بأن الله بعث عبده عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل .أعمال الرسل (٣/ ٢٦)

٢٦ فَمِنْ أَجْلِكُمْ أَوَّلاً أَقَامَ اللهُ فَتَاهُ يَسُوعَ وَأَرْسَلَهُ لِيُبَارِكَكُمْ بِرَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَنْ شُرُورِهِ.

26 When God raised up his servant, he sent him first to you to bless you by turning each of you from your wicked ways."

سادساً :محمد صلى الله عليه وسلم يخبر : بأن المسيح عليه السلام قال : إن الله أوصاه بالصلاة والزكاة طوال حياته

قال تعالى: سورة مريم (٣١)



وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

31. And He has made me blessed wherever I am and has enjoined upon me prayer and zakāh as long as I remain alive

والكنيسة تأمر المسيحيين بأن يتوجهوا بصلاتهم للمسيح عليه السلام

ولكن الأناجيل تشهد بكثرة صلاة المسيح لله وأمره للنصارى بالصلاة لله

* عيسى عليه السلام يصلي لله في القفار وحده. جاء في إنجيل لوقا : (لوقا ٥/ ١٦)

١٦ أَمَّا هُوَ، فَكَانَ يَنْسَحِبُ إِلَى الأَمَاكِنِ الْمُقْفِرَةِ حَيْثُ يُصَلِّي.

be healed of their sicknesses. 16But Jesus often withdrew to lonely places and prayed.

المسيح عليه السلام يقضي الليل كاملاً في الصلاة لله . جاء في إنجيل متى :متى (١٤/ ٢٣)

The Twelve Apostles

[12]One of those days Jesus went out to a mountainside to pray, and spent the night praying to God. [13]When morning came, he called

الرسل الإثنا عشر

[١٢] وفي تلك الأيام، خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة لله.

المسيح عليه السلام يبتعد عن الأنظار ليصلي لله. جاء في إنجيل لوقا :لوقا (٢٢/ ٤١)

[41]He withdrew about a stone's throw beyond them, knelt down and prayed, [42]"Father, if you are

[٤١] وابتعد عنهم مسافة تقارب رمية حجر، وركع يصلي [٤٢] قائلاً: «يا أبي، إن شئت أبعد عني

المسيح عليه السلام يبتعد عن أنظار حوارييه، ويسجد لله مصلياً . جاء في إنجيل متى :

متى (٢٦/ ٣٩)

here and keep watch with me." [39]Going a little farther, he fell with his face to the ground and prayed,

[٣٩] وابتعد عنهم قليلاً وارتمى على وجهه يصلي

-ملحوظة : يعترف النصارى بأن المسيح عليه السلام كان يصلي ، ولكنهم يقولون بأنه كان يعلِّم الناس كيفية الصلاة له ، ولم يكن يصلي لله[1] ولكني اخترت النصوص التي كان المسيح عليه السلام يصلي فيها لله وحده ولم يكن معه أحد ، أضف إلى أن المسيح عليه السلام كان يعلِّم أتباعه كيف يصلّون ، وأمرهم بأن يصلّوا لله وليس له . جاء في إنجيل

متى قول المسيح عليه السلام :متى(٦/ ٩-١٣)

The Lord's Prayer

[9] "This, then, is how you should pray: "'Our Father in heaven, hallowed be your name, [10] your kingdom come, your will be done on earth as it is in heaven. [11] Give us today our daily bread. [12] Forgive us our debts, as we also have forgiven our debtors. [13] And lead us not into temptation, but deliver us from the evil one.'
[14] For if you forgive men when they sin against you, your heaven-

الصلاة الرّبانية

٩ فَصَلُّوا أَنْتُمْ مِثْلَ هٰذِهِ الصَّلاةِ : أَبانا الَّذي في السَّماوات، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ ! ١٠ لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ ! لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ عَلَى الأَرْضِ كَما هِيَ في السَّماءِ ! ١١ خُبْزَنا كَفافَنا أَعْطِنا اليَوْمَ ! ١٢ وَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا، كَما نَغْفِرُ نَحْنُ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنا ! ١٣ وَلا تُدْخِلْنا في تَجْرِبَةٍ، لٰكِنْ نَجِّنا مِنَ الشِّرِّيرِ، لأَنَّ لَكَ المُلْكَ وَالقُوَّةَ وَالمَجْدَ إِلى الأَبَدِ آمين.

فلماذا لا يصدق النصارى تعاليم المسيح ؟!!!

هل كان المسيح يكذب عليهم والكنيسة هي الصادقة؟!!!!

وهل جاء مضللاً لهم ؟!!!

الجواب ..لالا لا ،وهذا هو جواب النصارى أنفسهم .

إذاً يجب عليهم أن يصدقوا تعاليم المسيح عليه السلام إن كانوا أتباعه ويحبونه حقاً ، كما يجب عليهم أن يرفضوا كل التعاليم المناقضة لما جاء به المسيح عليه السلام .

أما المسلمون فهم المصدّقون لما جاء به المسيح عليه السلام من حق فما قاله المسيح عليه السلامأخبر به محمد صلى الله عليه وسلم، فمحمد و المسيح عليهما الصلاة والسلام أرسلا من عند الله العلي العظيم، و جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

- ملحوظة أخرى :

قد يلحظ القارئ مصطلح «ابن الله « ومصطلح « الآب « وهذان المصطلحان وجدا في كتب النصارى المقدسة ، كما في جميع كتاباتهم العادية ،وذلك انعكاساً لثقافة بني إسرائيل في زعمهم بأنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه ولذا فإن القارئ لكتاب النصارى

المقدس سيقرأ هذين المصطلحين بكثرة ،كما سيلحظ أن كتابهم المقدس لا يخص هذين المصطلحين بالمسيح عليه السلام فقط ، بل إن الأنبياء هم أبناء الله، فمثلا:

* (آدم ابن الله) لوقا (٣/ ٣٨)

* (وسليمان ابن الله)أخبار الأيام الأول (٢٨/ ٦)

* (وداود ابن الله) المزمور (٢/ ٧)

* (وإسرائيل (يعقوب) ابن الله البكر الخروج (٤/ ٢٢)

* (وإفراييم ابن الله) « وهو ابن النبي يوسف عليه السلام الأصغر "ابن الله البكر أيضا "إرميا (٣١/ ٩)

* وبني إسرائيل أبناء الله التثنية (١٤/ ١)

* وهي وصف لكل مؤمن نصراني يوحنا (١/ ١٢-١٣)و...و....الخ كثير.

* بل وجميع النصارى أولاد الله ، وشركاء المسيح عليه السلام في الآلام والإرث «الرسالة الأولى إلى روما «(٨/ ١٧)

فهو مصطلح مجازي عندهم ، والله لم يلد ولم يولد حتى في عقيدة النصارى أنفسهم .

والمسيح عليه السلاملم يدّع في الإنجيل أنه الله ، ولم يقل اعبدوني إطلاقا، بل أثبت عكس ذلك تماما ، وقد تحدى الشيخ أحمد ديدات رحمه الله تعالى النصارى بأن يخرجوا له نصا واحدا واضحا من الإنجيل يقول المسيح عليه السلام فيه ذلك . وأنا أضم صوتي إلى أحمد ديدات ، وأنا واثقة كل الثقة بما أطرح .

أسأل الله العلي العظيم أن يري جميع الناس الحق حقا ويرزقهم إتباعه ويريهم الباطل باطلا ويرزقهم اجتنابه.

آمـــــين



الإعجاز التشريعي في الطلاق

أ.د. محمد نبيل غنايم

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه وبعد ،،،

فهذا بحث عن الإعجاز التشريعي في الطلاق .. جاءت كتابته بناء على دعوة كريمة من هيئة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية . التابعة لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ومكتب الهيئة في القاهرة.

والبحث يكشف عن جوانب الإعجاز في تشريع الطلاق من خلال آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأقوال الأئمة الفقهاء وذلك بياناً وتصحيحاً لما يظنه أو يدعيه بعض الناس من المسلمين وغير المسلمين من أن تشريع الطلاق شر وظلم للمرأة والأسرة والمجتمع فيبين أنه خير وصلاح لجميع الأطراف لأنه تشريع الحكيم الخبير الذي لا يشرع إلا الخير ولا يدعو إلا إلى الرحمة والمصلحة لجميع الأطراف فالتشريع الإسلامي كله خير وصالح لكل الأحوال ويلبي احتياجات جميع الأطراف ويلائم جميع الظروف والبيئات ولولاه لوقع الناس في حرج عظيم وعاشوا في مشقة بالغة .

وليس ذلك دعوة للطلاق وإذناً فيه على الإطلاق؛ بل في ذلك بيان لحلول وعلاج يحتاجه الناس في بعض الأحوال وتقتضيه الضرورة في بعض الظروف فيكون الحل التشريعي أحسن الحلول وأطيبها ومحققاً لمصالح جميع الأطراف ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في فقرات متسلسلة تكشف كل فقرة منها عن جانب من جوانب الإعجاز التشريعي من خلال الآيات ذات الصلة أو الحديث المتصل بها .

والله أسأل أن ينفع به المسلمين في كل مكان ، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه (**يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم إنه نعم المولى ونعم النصير**)

أولاً : لفظ الطلاق ومشتقاته ومعناه :

وردت كلمة الطلاق ومشتقاتها في القرآن الكريم ٢٤ مرة [١] بلفظ الفعل والمصدر أو نحو ذلك كما وردت في السنة أيضاً بنحو ذلك وفي هذا دلالة على أهمية الأمر والحاجة إليه، ففي كل موضع من هذه المواضع نجد دلالات هامة وتوجيهات مفيدة لصالح هؤلاء المخاطبين بهذا التشريع مما يجعلنا أمام دستور للطلاق متعدد المواد ، واضح الدلالات فمن أخذ بها فهو في خير ، ومن حاد عنها كان في ضلال مبين فمن ذلك مثلاً قوله تعالى «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ..» [٢] فانظر إلى هذا البيان الواضح لعدد الطلاق فلا يكون دفعة واحدة ، ولكن مرة بعد مرة ولا يزيد عن ذلك فليس دفعة واحدة يجيء بعدها الندم والحسرة ، وليس كثيراً يجنح إلى الفوضى والإيذاء ولكنه مقيد وضيق ، مرة ثم مراجعة ولمدة ثم إذا اقتضت الحال مرة ثم الندم والمراجعة والإمساك بالمعروف ، فإن لم يتحقق وكانت الثالثة فالتفرقة التامة ولا مراجعة ، وقد اثبتت التجارب أن الإنسان يمكن أن يخطئ مرة أو مرتين ويتسرع مرة أو مرتين ويخدع مرة أو مرتين ، ويندم مرة أو مرتين ، أما أن يستمر على الخطأ أو الندم أو الخداع فلا ، فسبحان من هذا كلامه وبيانه ، وانظر إلى هذين القيدين في المرة الثالثة والأخيرة فإمساك بمعروف وهو الأولى بعد تجربتين مريرتين من النكد والحزن فليكن المعروف هو السائد بين الطرفين ، حتى لا يعودا إلى الشقاق ، أو تسريح وطلاق وفراق بإحسان ومعروف حيث أثبتت التجربة والتكرار أن لا فائدة وأن الأمور ستسير إلى الأسوأ والأخطر حيث لم تتم العبرة ولم يتحقق الهدف من المرتين السالفتين وإلا وقع ما لا تحمد عقباه ولا يطاق ، ومن هذا يتبين الإعجاز التشريعي، لأن الطلاق ليس هدفاً في ذاته ولكنه دواء مر مرة ثم مرة فإن تحقق الشفاء والعلاج فبها ونعمت وإلا فقد ثبت أن الدواء غير صالح فليكن البتر والفراق قبل أن يستشري المرض في جميع الأعضاء وتصير الحياة بين الزوجين عبثاً وهلاكاً يومياً ، فليكن الطلاق بالإحسان حتى تبقى بعض المصالح قائمة كالأبناء والرحم .. وهكذا مما سيأتي بيانه في الفقرات القادمة .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبد الباقي ص ٥٤٢ ، ٤٥٣ .

(٢) البقرة ٢٢٩ .

ثانياً : تعبير الطلاق أقوى من غيره :

في التعبير عن الفرقة بين الزوجين وإنهاء العلاقة الخاصة بينهما بهذا اللفظ القرآني النبوي (الطلاق) إعجاز لغوي كبير لا يقوم به إلا هذا اللفظ ونظائره «كالسراح والفراق» إلا أنه أقواها وأظهرها ولذا فهو الذي تردد في القرآن أكثر من اللفظين الآخرين لأنه الأقوى في التعبير عن هدم العلاقة وإنهائها ، فالطلاق في اللغة الحل ورفع القيد وهو اسم مصدره التطليق ويستعمل استعمال المصدر .. ويرادفه الإطلاق ، يقال : طلقت وأطلقت بمعنى سرحت ، وقيل الطلاق للمرأة إذا طلقت ، والإطلاق لغيرها إذا سرح فيقال : طلقت المرأة، وأطلقت الأسير [(١)] ، وقد اعتمد الفقهاء هذا الفرق فقالوا بلفظ (الطلاق) يكون صريحاً وبلفظ (الإطلاق) يكون كناية ، والطلاق في عرف الفقهاء هو : رفع قيد النكاح في الحال أو المآل بلفظ مخصوص أو ما يقوم مقامه [(٢)] ومن هذا نعلم مدى دقة القرآن الكريم وإعجازه في استعمال لفظ الطلاق وتكراره ومشتقاته في جميع المواضع وليس غيره ، ومدى عناية الفقهاء في اتباع أسلوب القرآن واستعماله ووقوفهم عند ذلك لأنه الأولى والأوضح في الدلالة على المقصود ، وإذا كان في هذا الاستعمال (الطلاق) إعجاز لغوي فهو أيضاً إعجاز تشريعي لأنه يفرق بين ما هو صريح وما هو كناية فالطلاق لفظ صريح يدل على المقصود مباشرة والكناية (الإطلاق) لفظ غير صريح فلا يدل على المقصود (الطلاق) إلا بنية [(٣)] .

كذلك هذا اللفظ (الطلاق) الذي استعمله القرآن يختلف عن ألفاظ أخرى تنهي العلاقة الزوجية كالفسخ والإيلاء والظهار والخلع. ذلك أن هذه الألفاظ قد تنهيها نهاية كلية وبلا تكرار ، وبلا رجعة ، أما الطلاق فتنهيها نهاية مؤقتة ، ويرفع قيدها إلى أجل وبضوابط معينة أو إلى رجعة بشروطها وهكذا ، من هنا كان في لفظ الطلاق واستعماله للدلالة على المقصود منه إعجاز لغوي وتشريعي واضح .

---

(١) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ص ٥٦٣ ، والمصباح المنير وغيرهما .

(٢) المغني لأبن قدامة ٧/ ٢٩٦ ومغني المحتاج ٣/ ٢٧٩ ، الدر المختار ٣/ ٢٦٦ .

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ج ٤٩ ص ٥ .

ثالثاً : حكمة مشروعيته :

قد يقول قائل ولماذا شرع الإسلام الطلاق ؟ أليست الحياة الزوجية والأسرة أولى بالبقاء من الهدم ؟

بلى إن العلاقة الزوجية والأسرة أولى من الهدم وأحق بالبقاء ، لكن حين تكون العلاقة سوية تحقق أغراض الزواج من السكن والمودة والرحمة وتنتج البنين والبنات وتحقق التواصل بين الأسرة الوليدة وأصولها وفروعها من الأسرتين ، لكن حين تتحول العلاقة الزوجية إلى جحيم وتصبح الأسرة والأسر أعداء وتتحول السكينة إلى اضطراب وقلق والمودة إلى بغضاء وكراهية ، والرحمة إلى عنف وقسوة حينئذ يكون البحث عن العلاج ضرورياً وتكون البدائل الأخرى حيوية فإما طلاق بالمعروف وتسريح بإحسان ، وإما شقاء وهلاك وتربص وقتل وكذب ومصائب ومتاعب بلا حدود ومن هنا يكون الطلاق أخف الأضرار وأنجع الحلول والأدوية لتلك الأمراض المستعصية ولبيان حكمة ومشروعية الطلاق وبيان وجوه الإعجاز التشريعي فيها جاء في الموسوعة الفقهية ما يلي :

(لقد نبه الإسلام الرجال والنساء إلى حسن اختيار الشريك والشريكة في الزواج عند الخطبة ، فقال النبي e «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم»[١] . «وقال : لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل»[٢] . وقال : «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» متفق عليه. وقال للمغيرة بن شعبة عندما خطب امرأة : «أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[٣]. وقال : «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم»[٤] . وقال لأولياء النساء :

(١) أخرجه ابن ماجة ١/ ٦٣٣ من حديث عائشة ، وأورده أبن حجر في الفتح ٩/ ١٢٥ وأشار إلى أن فيه مقالا ثم عزاه إلى أبي نعيم من حديث عمر ثم قال : ويقوى أحد الإسنادين بالآخر .

(٢) ابن ماجة ١/ ٥٩٧ وفي إسناده راو ضعيف .

(٣) أخرجه الترمذي ٣/ ٣٨٨ وقال حديث حسن .

(٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥٨ وإسناده حسن .

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد»[١].

إلا أن ذلك كله على أهميته قد لا يضمن استمرار السعادة والاستقرار بين الزوجين، فربما قصر أحد الزوجين في الأخذ بما تقدم، وربما أخذا به، ولكن جد في الحياة الزوجين الهانئة ما يثير بينهما القلائل والشقاق كمرض أحدهما أو عجزه.. وربما كان ذلك من عناصر خارجة عن الزوجين أصلاً كالأهل والجيران وما إلى ذلك، وربما كان سبب ذلك انصراف القلب وتغيره فيبدأ بنصح الزوجين وإرشادهما إلى الصبر والاحتمال وبخاصة إذا كان التقصير من الزوجة قال تعالى «**وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**» سورة النساء ١٩، إلا أن مثل هذا الصبر قد لا يتيسر للزوجين ولا يستطيعانه، فربما كانت أسباب الشقاق فوق الاحتمال أو كانا في حالة نفسية لا تساعدهما على الصبر وفي هذه الحال: إما أن يأمر الشرع بالإبقاء على الزوجية مع استمرار الشقاق الذي قد يتضاعف وينتج عنه فتنة أو جريمة أو تقصير في حقوق الله تعالى، أو على الأقل تفويت الغاية التي من أجلها شرع النكاح وهي المودة والألفة والنسل الصالح، وإما أن يأذن بالطلاق والفراق وهو ما اتجه إليه التشريع الإسلامي، وبذلك عُلم أن الطلاق قد يتمحض طريقاً لإنهاء الشقاق والخلاف بين الزوجين ليستأنف الزوجان بعده حياتهما منفردين أو مرتبطين بروابط زوجية أخرى حيث يجد كل منهما من يألفه ويحتمله قال تعالى «**وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما**» النساء ١٣٠. ولهذا قال الفقهاء بوجوب الطلاق في أحوال أخرى على ما فيه من الضرر، وذلك تقديما للضرر الأخف على الضرر الأشد، وفقاً للقاعدة الفقهية الكلية (يختار أهون الشرين)[٢] والقاعدة الفقهية القائلة (الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف)[٣].

وقال الشيخ أبو زهرة رحمه الله: (قد تتنافر القلوب ثم تستحكم النفرة بحيث لا يمكن أن تعود المودة بتحكيم أو بغير تحكيم وفي هذه الحال لابد من اختيار واحد من أمور ثلاثة:

---

(١) أخرجه الترمذي ٣/ ٣٨٦ وقال حديث حسن غريب.

(٢) مجلة الأحكام العدلية مادة ٢٩.

(٣) السابق مادة ٢٧.

أولهما : البقاء مع النفرة فيعيشان معاً ، والضغينة والبغض والحقد بينهما ، وهذه حال لا يمكن اختيارها ، وإن اختيرت لا يمكن بقاؤها ، وإن بقيت فليست من صالح الأسرة في شيء.

ثانيهما : الفراق الجسدي والزوجية قائمة فتصير المرأة كالمعلقة لا هي زوجة ولا هي مسرحة بالمعروف فيغنيها الله من سعته .

ثالثهما : الطلاق برفع قيد الزواج وقد صار غلا ونقمة وهو في أصله النعمة ، ولا شك أن المنطق السليم يوجب أن يسلك في هذه الحال طريق الطلاق ، والطلاق حينئذ ضرورة لابد منها [١] .

وذكر بنتام في كتاب أصول الشرائع ضرورة الطلاق فقال : «إن الزواج الأبدي هو الأليق بالإنسان والملائم لحاجته ، والأوفق لأحوال الأسرة ، والأولى بالأخذ لحفظ النوع الإنساني، ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل ألا تنفصل عنه ولو حلت قلوبهما الكراهة محل الحب لكان ذلك أمراً منكراً ، لا يصدقه أحد من الناس ، على أن هذا موجود دون أن تطلبه المرأة إذ القانون يحكم به فيتدخل بين العاقدين حال التعاقد ويقول لهما : أنتما تقترنان لتكونا سعداء فلتعلما أنكما تدخلان سجنا سيحكم غلق بابه .. ولن اسمح بخروجكما وإن تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء .. إن أقبح الأمور وأفظعها عدم انحلال ذلك الاتفاق لأن الأمر بعدم الخروج في حالة أمر بعدم الدخول فيها لا فرق في ذلك بين زواج وخدمة وبلد وصناعة وغيرها ، ولو كان الموت وحده هو المخلص من الزواج لتنوعت صنوف القتل واتسعت مذاهبه [٢] وأضاف أستاذنا الشيخ على حسب الله قوله عن بنتام المشرع الإنجليزي «لو ألزم القانون الزوجين بالبقاء على ما بينهما من جفاء لأكلت الضغينة قلوبهما، وقد يهمل أحدهما صاحبه ويلتمس متعة الحياة عند غيره ، وبهذا ينفتح باب الدعارة والفسوق ويضيع النسل وتفسد البيوت» ثم ذكر أستاذنا وقائع تثبت ذلك فقال : نشرت صحيفة الأهرام في الصفحة العاشرة من عدد يوم الاثنين ٧/ ٢/ ١٩٦٦ أن البواب نصر عزيز استعان بآخرين على قتل امرأته نجيبة غبريال في بدروم العمارة رقم ١٦ بشارع سيالة الروضة بالمنيل بالقاهرة لأنه

---

(١) الأحوال الشخصية / محمد أبو زهرة – دار الفكر العربي القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٨٠ .

(٢) السابق ص ٢٨١ .

تزوجها منذ ثمان سنوات وأنجبت منه طفلين ماتا ، ثم أصابها مرض منعها من الإنجاب ، واتسعت شقة الخلاف بينهما ، ولما كانت ديانته تمنع الطلاق رأى أن أحسن طريقة للتخلص منها قتلها ، ونفذ ما أراد .

ونشرت صحيفة الأهرام في الصفحة العاشرة من عدد يوم الثلاثاء ٢٢/ ١١/ ١٩٦٦ أن جمعية إباحة الطلاق المؤلفة من خمسة آلاف عضو في إيطاليا أعلنت أن خطر الطلاق في إيطاليا يؤدي كل سنة إلى انفصال عشرة آلاف زوج عن أزواجهم بسبب استحالة الحياة الزوجية بينهم ، وقالت إن حرمان هؤلاء الأزواج من الزواج مرة ثانية يضطرهم إلى العيش في الخطيئة[١] .

وهذا الذي قاله بنتام وشهدت به الوقائع الحياتية خير دليل على عظمة التشريع الإسلامي وسبقه لإيجاد الحلول الضرورية الناجمة لمشكلات الناس . ومن هنا فإن كثيراً من البلاد الأجنبية التي كانت ترفض الطلاق اعترفت بمشروعيته والحاجة إليه فهو – الطلاق – بمثابة أبواب الطوارئ التي يسرع الناس إليها للنجاة عند الخطر ، فالطلاق لا يستخدم إلا عند الضرورة القصوى وحين تنسد سائر الأبواب الشرعية الطبيعية لأنه أبغض الحلال فمن يقع فيه بلا سبب أو يكرره بلا ضرورة فهو ملعون ومطرود من رحمة الله تعالى .

وقال ابن سينا في كتاب (الشفاء) ينبغي أن يكون إلى الفرقة سبيل ما وألا يسد ذلك من كل وجه ، لأن حسم أسباب التوصل إلى الفرقة بالكلية يقتضي وجوهاً من الضرر والخلل ، منها أن من الطبائع ما لا يألف بعض الطبائع ، فكلما اجتهد في الجمع بينهما زاد الشر والنبو – الخلاف – وتنغصت المعايش ، ومنها : أن من الناس من يمني – يصاب – بزوج غير كفء ولا حسن المذاهب في العشرة ، أو بغيض تعافه الطبيعة ، فيصير ذلك داعية إلى الرغبة في غيره، إذ الشهوة طبيعية ، ربما أدى ذلك إلى وجوه من الفساد ، وربما كان المتزوجان لا يتعاونان على النسل ، فإذا بدلا بزوجين آخرين تعاونا فيه ، فيجب أن يكون إلى المفارقة – الطلاق – سبيل ، ولكنه يجب أن يكون مشدداً فيه[٢].

إلى غير ذلك من الأقوال التي تدل على أن تشريع الطلاق وجه من وجوه الإعجاز في

---

(١) الفرقة بين الزوجين أ/ على حسب الله وأنظر كتابنا : من فقه الأسرة في الإسلام ج ١ ص ١٠٦ .

(٢) أنظر : فقه السنة – السيد سابق – الفتح للإعلام العربي القاهرة ٢٠٠٤ ص ٦٢٧ .

القرآن الكريم والسنة النبوية لأنه يلبي ضرورات كثيرة ، ويرفع حرجاً كبيراً عن بعض الأزواج ، ويكون باباً من أبواب العلاج والإصلاح في المجتمع ، ووقاية من الوقوع في كثير من المخاطر والأضرار .

رابعاً : التدابير الشرعية للحد من الطلاق :

ومن وجوه الإعجاز التشريعي في تشريع الطلاق ما وضعه الإسلام من تدابير وإجراءات قبل الوصول إليه ، وهذه التدابير أنواع ، منها ما يسبقه ليحول دون اللجوء إليه ، ومنها ما يراعى عند اللجوء إليه ، وحتى يتضح الإعجاز في ذلك نبين تفاصيل هذه التدابير في إيجاز :

أ – التدابير السابقة :

[١] عناية التشريع الإسلامي بإنشاء العلاقة الزوجية على أسس متينة ، لأن استقرار الحياة الزوجية غاية من الغايات التي يحرص عليها الإسلام ، وعقد الزواج إنما يعقد للدوام والتأبيد إلى أن تنتهي الحياة ليتسنى للزوجين أن يجعلا من البيت مهداً يأويان إليه ، وينعمان في ظلاله الوارفة ، وليتمكنا من تنشئة أولادهما تنشئة صالحة ، لذلك شرعت الخطبة والاختيار على أساس الدين وحسن الخلق حتى تكون الصلة بين الزوجين قوية لأنها من أقدس الصلات وأوثقها ، وليس أدل على ذلك من أن الله سبحانه سمى العهد والعقد بين الزوجين « ميثاقاً غليظاً » فقال : « **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** » لنساء ٢١ .

[٢] وأباح التشريع الإسلامي فسخ الخطبة إذا تبين لأحدهما أن الاختيار غير صحيح قبل أن تستفحل المخالفات وتقوم العلاقة الزوجية .

[٣] بل إنه إذا تم العقد بينهما ولم يحدث دخول – زفاف – ولا خلوة فإنه جوز حل قيد الزوجية وهدم هذا العقد قبل أن تتعقد الأمور بالعلاقة الأقوى ووقوع الحمل أو الولادة ، فكان الطلاق قبل الدخول أو الخلوة مشروعاً لتدارك الأمر وإنهاء الخلافات .

[٤] وحين يتم ذلك الطلاق قبل الدخول تأخذ المرأة نصف المهر المسمى ولا عدة عليها ولا رجعة لها ويجب أن يتم ذلك كله بالإحسان والتسامح فما زال الطرفان على البر وذلك

أولى من التأجيل إلى أن تتأزم الأمور وتتضح بهم المشكلات قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات – أي عقدتم عليهن – ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن – الزفاف والدخول– فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن – طلقوهن – سراحاً جميلاً »([1]) ، وقال تعالى : «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة – مهراً– ومتعوهن – عوضوهن – على الموسع قدره وعلى المقتر – الفقير – قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير»[2].

[٥] وعند تسمية المهر وتقديره ينبغي أن يكون خفيفاً يسيراً حتى لا تتأزم العلاقة وتنفض قبل أن تتم فأيسرهن مهراً أكثرهن بركة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[3] وتتبين قيمة هذا التيسير والتخفيف عند حدوث المشكلات والرغبة في الطلاق فيكون العبء خفيفاً والمشكلات أقل .

وهكذا نرى نماذج لتهيئة الزوجين لعلاقة زوجية سعيدة تحقق السكينة والمودة والرحمة وكل تدبير منها يعتبر وجهاً من وجوه الإعجاز التي لم يسبق إليها إلا التشريع الإسلامي ، وكلها تدابير للحيلولة دون الوقوع في الطلاق أو مجرد التفكير فيه .

ب- التدابير الزوجية :

إذا تمت التدابير السابقة وتم زفاف الزوجين فإن التشريع الإسلامي يضع لهذه العلاقة الجديدة مجموعة من الأسس تحقق لها السعادة والاستمرار وتصونها من الهدم والانهيار والتفكير في الطلاق والفراق وتسمى هذه التدابير الحقوق الزوجية وهي ثلاثة فروع نجملها فيما يلي :

[١] حقوق مشتركة بين الزوجين وهي المعاشرة بالمعروف ، والاستمتاع والنسب ،

---

(١) الأحزاب ٤٩ .

(٢) البقرة ٢٣٦– ٢٣٧ .

(٣) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي e قال : « إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة » رواه الإمام أحمد ٦/ ١٤٥ .

والتوارث ، وحرمة المصاهرة ، فإذا قام كل زوج بحق الآخر فيها كانت السكينة والمودة والرحمة واستمرت العلاقة الزوجية ولم يقع بينهما طلاق.

[٢] حقوق للزوجة يجب على الزوج أن يقوم بها وان يحافظ عليها وهي : المهر ، النفقة، الإعفاف ، الرعاية والقسم أو العدل فإذا قام الزوج بذلك استقرت العلاقة واستمرت الحياة في سلام وأمان ولم يقع بينهما طلاق أو تفكير فيه .

[٣] حقوق للزوج يجب على الزوجة القيام بها والمحافظة عليها ، وإذا تم ذلك نجحت العلاقة الزوجية وكان الطلاق والشقاق بعيداً عنها وهذه الحقوق هي : طاعة الزوج في غير معصية الله عز وجل ، والقرار في البيت وعدم الخروج من غير إذنه ، والقوامة وعدم المنازعة فيها .

[٤] فإذا اختل أمر من تلك الأمور أو قصر أحد الطرفين في حق الآخر ودبت الخلافات بينهما لسبب أو لآخر فإن الأمر يتطلب الحكمة والتحكيم وليس الإسراع إلى الطلاق فهو آخر الدواء أما الحكمة فمن الزوج وتتمثل فيما أمر الله تعالى به وبينه الرسول e من الكلام الطيب والموعظة الحسنة والنصيحة الهادئة ، فإن لم تستجب كان الهجر في المضاجع داخل حجرة النوم دون أن يحس ذلك أحد، فإن لم تستجب كان الضرب الخفيف الذي لا يكسر ولا يسيل دما ولا يتلف عضواً في غير الوجه والرأس والمقاتل وصدق الله العظيم « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله .واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً النساء ٣٤ .

[٥] وتتتابع التدابير الشرعية والإعجاز التشريعي في إصلاح ذات البين في العلاقة الزوجية حرصاً على بقائها واستمرارها وبعيداً عن الطلاق والفراق فيدعو أهل الزوجين إلى التدخل بينهما بالحكمة والهدوء لإصلاحهما ومعاونتهما على استمرار العلاقة الزوجية بينهما وعدم اللجوء إلى الطلاق فيأمر باجتماع حكمين من الأسرتين للاستماع إليهما وتوجيههما إلى الخير وإبعادهما عن الشقاق والطلاق ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : « **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن**

الله كان عليماً خبيرا » النساء ٣٥ ويقول سبحانه : « **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعلمون خبيراً** » النساء ١٢٨.

جـ- التدابير الإجرائية :

إذا نفدت كل الوسائل السابقة وفشلت في إصلاح ذات البين وانسدت جميع الأبواب والطرق أمام استمرار العلاقة الزوجية وأصبح الحل محصوراً في الطلاق فإن التشريع الإسلامي في إجرائه وإيقاعه يقدم جملة من الشروط والضوابط التي تدل على الإعجاز وتقلل من كثرة الطلاق وبيان ذلك فيما يلي :

[١] أن تشريع الإسلام للطلاق وسط بين القوانين والمجتمعات الأخرى فهو لم يرخص فيه لأي سبب كما فعلت اليهود ، ولم يمنعه منعاً باتاً كما فعلت المسيحية ولم يجعله بلا حدود كما كانت الجاهلية ، ولم يضيقه إلى حد المنع كما تفعل المذاهب المسيحية وإنما جعله ثلاث مرات متفرقات ، تمكن المراجعة بعد الأولى والثانية وتكون بائناً بينونة كبرى بعد الثالثة .

قال الشيخ السيد سابق [١] عن الطلاق عند اليهود : « الذي دون في الشريعة عند اليهود وجرى عليه العمل أن الطلاق يباح بغير عذر كرغبة الرجل بالتزوج بأجمل من امرأته، ولكنه لا يحسن بدون عذر ، والأعذار عندهم قسمان: الأولى عيوب الخلقة ومنها : العمش والحول والبخر والحدب والعرج والعقم ، والثاني عيوب الأخلاق وذكروا منها : الوقاحة والثرثرة والوساخة ، الشكاسة والعناد والإسراف والنهمة والبطنة ، والتأنق في المطاعم والفخفخة ، والزنى أقوى الأعذار عندهم ، فيكفي فيه الإشاعة وإن لم تثبت ، إلا أن المسيح عليه السلام لم يقر منها إلا علة الزنى ، وأما المرأة فليس لها أن تطلب الطلاق مهما تكن عيوب زوجها ولو ثبت عليه الزنى ثبوتاً ... وقال عن الطلاق في المذاهب المسيحية : ترجع جميع المذاهب المسيحية التي تعتنقها أمم الغرب المسيحي إلى ثلاثة مذاهب :

المذهب الكاثوليكي : يحرم الطلاق تحريماً باتاً ، ولا يبيح فصم الزواج لأي سبب مهما

---

(١) فقه السنة ص٦٢٨.

عظم شأنه وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد في نظره مبرراً للطلاق ، وكل ما يبيحه في حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية بين شخصي الزوجين ، مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية .

والمذهبان الآخران الأرثوذوكسي والبروتستانتي يبيحان الطلاق في حالات محدودة أهمها الخيانة الزوجية ولكنهما يحرمان على كل من الرجل والمرأة أن يتزوج مرة أخرى ، وتعتمد المذاهب المسيحية التي تبيح الطلاق في حالة الخيانة الزوجية على ما ورد في إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول « من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزني[1] » ، وتعتمد المذاهب المسيحية في تحريمها الزواج على المطلق والمطلقة على ما ورد في إنجيل مرقص « من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها ، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزني»[2] .

وقال عن الطلاق في الجاهلية : « قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا راجعها وهي في العدة ، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبيني مني ، ولا آويك أبداً ، قالت وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتك ، أن تنقضي راجعتك ، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت حتى جاء النبيe فأخبرته ، فسكت النبي e حتى نزل القرآن «**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** » البقرة ٢٢٩ قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلق ، ومن لم يكن طلق «[3] .

ومن هذا العرض تتبين ميزة التشريع الإسلامي في الوسطية والاعتدال ومراعاة الفطرة وملاءمة الأحوال والظروف وهذا احد وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق.

[٢] ومن وجوه الإعجاز أيضاً أن التشريع الإسلامي جعل الطلاق من حق الرجل وحده لأنه أحرص على بقاء الزوجية حيث أنفق في سبيلها من المال ما يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر إذا طلق وأراد زواجاً آخر حيث سيتحمل أعباء الزواج الأول والطلاق وآثاره ثم

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس ٢٢/ ٢٣

(٢) إنجيل مرقص ، الإصحاح العاشر ١١

(٣) رواه الترمذي رقم ١١٩٢ . بإسناد لين .

أعباء إنشاء الزواج الثاني ، فهو بمقتضى عقله ومزاجه يكون أصبر على ما يكره من المرأة فلا يسارع إلى الطلاق لكل غضبة يغضبها أو سيئة منها يشق عليه احتمالها ، والمرأة أسرع منه غضباً وأقل احتمالاً ، وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقات البيت والزواج مثل ما عليه ، فهي أجدر بالمبادرة إلى حل عقدة الزوجية لأدنى الأسباب أو لما لا يعد سبباً صحيحاً إن أعطى لها هذا الحق ، والدليل على صحة هذا التعليل الأخير أن الأفرنج لما جعلوا طلب الطلاق حقاً للرجال والنساء على السواء كثر الطلاق عندهم فصار أضعاف ما عند المسلمين .

ولا يعني ذلك أن الإسلام ظلم المرأة بجعل الطلاق في يد الرجل وحده لأن الإسلام أعطى المرأة حقاً آخر تتحمل فيه جانباً مالياً وهو حق الخلع فهو بالنسبة للمرأة كالطلاق بالنسبة للرجل وكما أن الرجل في الطلاق يتحمل أعباء مالية لذلك قد يتراجع عنه فإن المرأة في الخلع تتحمل أعباء مالية تعويضاً للرجل لذلك يمكن أن تتراجع عنه ، وبهذا يكون التشريع الإسلامي أعدل التشريعات وأعظمها مساواة بين الرجل والمرأة وهذا وجه أخر من وجوه الإعجاز التشريعي .

[٣] ومن وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق أنه لا يقع من أي رجل وفي أي حال وبأي لفظ إنما يقع بضوابط معينة وبشروط محددة وفي أحوال خاصة ، فقد اتفق العلماء على أن الذي يصح طلاقه هو الزوج البالغ العاقل المختار أما غير الزوج أو الزوج غير البالغ أو غير العاقل أو المكره فلا يصح طلاقه ويعتبر لغوا: فعن على كرم الله وجهه عن النبي e أنه قال: « رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل[(١)] .

وعن أبي هريرة عن النبي e قال : « كل طلاق جائز إلا طلاق المغلوب على عقله»[(٢)]، ولا يقع الطلاق إلا على زوجة .

[٤] ومن وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق إنه لا يقع إلا بألفاظ معينة منها ما هو صريح لا يحتاج إلى نية وهي ألفاظ : الطلاق والفراق والسراح . ومنها ما هو كناية لا يقع

---

(١) رواه أحمد ٦/ ١٠٠ ، وأبو داود ٤٤٠٣ ، والترمذي ١٤٢٣ . وقال حديث حسن غريب

(٢) الترمذي ١١٩١ ، ضعيف.

إلا بنية الطلاق وهي الألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى فيرجع فيها إلى الزوج لبيان نيته فإن قصد الطلاق كان طلاقاً وإلا لم يكن وفي هذا تضييق لفرص الطلاق ، ويلحق بالألفاظ الصريحة الكتابة الواضحة والإشارة من الأخرس والوكالة ، ومما يلحق بالكناية تعليق الطلاق على شرط أو زمن على تفصيل في ذلك .

[٥] ومن وجوه الإعجاز التشريعي في إجراء الطلاق أنه لا يصح في كل حال بل هو نوعان : سني وهو الذي يتم وفقاً للسنة لفظاً ومعنى ومصلحة وذلك بأن يكون طلقة واحدة بلفظ صريح بعد الدخول على زوجة في طهر لم يجامعها فيه وليست حاملاً . وإنما كان ذلك سنياً لأنه موافق للسنة لا يظلم المرأة ولا يطيل عليها العدة وهو معنى قوله تعالى : « **يأيها النبي ، إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** » الطلاق ١ ، أي لابتداء العدة مباشرة ولأن هذا الطلاق هو الموافق لقوله تعالى: « الطلاق مرتان» أي مرة واحدة تعقبها رجعة ، ثم مرة ثانية تعقبها رجعة.

والنوع الثاني هو البدعي أي المخالف للشرع ، وذلك بأن يكون ثلاثاً دفعة واحدة، أو في حيض ،أو في طهر جامعها فيه؛لأن الدفعة الواحدة مخالف لقوله تعالى : « الطلاق مرتان» ولأن الطلاق في الحيض مخالف لقوله تعالى « فطلقوهن لعدتهن» لأن الحائض لا تبدأ العدة إلا في الحيضة القادمة فتطول عدتها وهذا إضرار بها، ولأن الطلاق الثلاث لا رجعة فيه فيخالف الشرع ، وقد أجمع العلماء على تحريمه ، واختلفوا في وقوعه لما روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله e ، فسأل عمر ابن الخطاب رسول الله e عن ذلك فقال رسول الله e : « مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعد ذلك ، وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله – سبحانه – أن تطلق لها النساء « ، وفي رواية أن ابن عمر رضي الله عنه طلق امرأة له وهي حائض تطليقه ، فذكر ذلك عمر للنبي e فقال : « مره فليراجعها ، ثم ليطلقها طاهراً «[١]، وإنما كان هذا التنويع من وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق لما فيه من تقييد للطلاق وتحجيم لإيقاعه وكثرته .

---

(١) انظر صحيح البخاري ٣/ ٣١٢ برقم ٤٩٠٨ ، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٩٥

[٦] ومن وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق أيضاً أنه نوعان :

رجعي وبائن ، أما الرجعي فهو الطلاق السني السابق الذي يكون طلقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه ، وقد اتفق الفقهاء على أنه يحرم على الزوج أن يطلقها ثلاثاً بلفظ واحد أو بألفاظ متتابعة في طهر واحد ، وعللوا ذلك بأنه إذا أوقع الطلقات الثلاث ، فقد سد باب التلاقي والتدارك عند الندم والرغبة في المراجعة لأن الشارع جعل الطلاق متعددا لمعنى التدارك عند الندم ، وفضلاً عن ذلك فإن المطلق ثلاثاً قد أضر بالمرأة من حيث أبطل محليتها بطلاقه هذا ، وأما الثاني وهو البائن فهو عبارة عن الطلاق الذي لا رجعة بعده وهو الطلاق قبل الدخول أو الطلاق على مال أو خلع ، والطلاق الثالث ، والبائن نوعان بينونة صغرى وهي خلاف الثلاث ويمكن تداركها بعقد جديد ومهر جديد أما الطلاق الثالث فلا تدارك بعده إلا بزواج رجل آخر زواجاً شرعياً مع دخول بلا قيد ولا شرط ثم انتهاء ذلك الزواج نهاية شرعية حينئذ يجوز للزوج السابق الأول أن يتقدم إليها بشكل جديد كسائر الرجال وإذا تزوجها كان له عليها ثلاث طلقات جديدة لأن العلاقة السابقة تم هدمها .

[٧] والرجعة أو المراجعة بعد الطلقة الأولى أو الثانية وجه من وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق لأنها تعيد المياه إلى مجاريها وتعيد إلى العلاقة الزوجية ما تهدف إليه من سكن ومودة ورحمة ، وفيها درس عظيم لكلا الزوجين أن يندم على ما حدث وان يعزم على ألا يعود ، وبهذا يكون الطلاق فرصة للإصلاح والعلاج قال تعالى «**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم**» البقرة : ٢٢٨.

[٨] ومن وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق الرجعي أن المرأة المطلقة تبقى في بيت الزوجية وتمارس كل نشاطها وحقوقها بل وتتزين لزوجها لعله يراجعها وتبدي له الأسف والندم حتى ولو كانت صاحبة حق لأن ذلك من المعاشرة بالمعروف ومن العفو والتسامح وبذلك يراجع الزوج نفسه ويندم على ما حدث فيراجعها قولاً أو فعلاً ، وفي ذلك من الستر ما فيه ومن المحافظة على العلاقة الزوجية حتى في المحن والشدائد ورب ضارة نافعة

فيخرج الزوجان بعد الطلقة الأولى أو الثانية ثم المراجعة أكثر حباً وأصلب عوداً وأشد حفاظاً على العلاقة الزوجية وبخاصة لو كان بينهما أولاد ، قال تعالى : « **يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا** » الطلاق : ١ ومن هذا نعلم أن الطلاق الرجعي – في فترة العدة – لا يمنع سائر الحقوق الزوجية التي سبقت الإشارة إليها لأن عدة الطلاق الرجعي استمرار للعلاقة الزوجية وباب لاستئنافها في أي لحظة قبل انتهاء العدة ولو مات أحد الزوجين في العدة ورثه الآخر .. وهكذا ولا تتوقف المراجعة على موافقة الزوجة أو علمها لأنها مازالت في فترة الزوجية وبيت الزوجية بل ويستحب لها أن تسعى إلى المراجعة بكل الوسائل .

[٩] وأحياناً يكون الطلاق عن طريق القضاء رفعاً للظلم عن المرأة وهذا وجه أخر من وجوه الإعجاز التشريعي حيث الهدف من الطلاق هنا عن طريق القاضي هو إنقاذ المرأة من ضرر اكبر وقع عليها ولا حيلة لها في رفعه لأن الطلاق بيد الرجل وهو رفض الطلاق فلو بقى الأمر لرغبته لاستمر الظلم ولو رفع الأمر إلى القضاء كان العدل عن طريق الطلاق ولما كان الطلاق حقاً للرجل وحده في الأحوال العادية فإنه لا ينتقل إلى القاضي إلا في حالات خاصة وهي حالات الضرورة التي لا تستطيع المرأة إزاءها شيئاً وهذه الحالات خمس : العجز عن النفقة ، والضرر الذي يتناقض مع المعاشرة بالمعروف كالضرب الشديد أو السب القبيح أمام الناس أو أي إيذاء أخر لا يطاق أو إكراهها على ارتكاب المنكرات .. والحالة الثالثة التطليق بسبب غيبة طويلة كالمسافر مجهول العنوان أو المحبوس بحكم سنة أو أكثر لأن هذا يضر المرأة ويمنع النفقة ويعرضها للخطر والانحراف فكان من العدل إنقاذها ولا مجال إلا للقضاء ، والحالة الرابعة التطليق لمرض الرجل مرضاً يمنعه من المعاشرة أو ينقل العدوى بمرض إليها ، والخامسة طلاق المولي الذي حلف ألا يجامع زوجته فإن القاضي يحدد له أربعة أشهر للرجوع عن يمينه ومعاشرة زوجته وإلا طلقها القاضي رفعاً للضرر الذي لحق بها ووقع عليها .

وجميع الحالات كما رأينا ترجع إلى ضابط واحد عام وهو زوال الضرر النازل بالمرأة ويكون التطليق رفعاً وإزالة لهذا الضرر وهذا أيضاً يؤكد جمال التشريع الإسلامي واهتمامه برفع الظلم عن المرأة ولو كان ذلك بالطلاق .

فليس الطلاق إذن سيئاً في كل الأحوال بل إنه دواء ناجع وإصلاح كامل وعدل وضروري في كثير من الأحوال وبهذا يكون تشريع الطلاق أو التطليق عن طريق القضاء وجها من وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق ومن هذا القبيل أيضاً طلاق الحكمين ، فإذا اتفق الحكمان المختاران للإصلاح بين الزوجين على الطلاق لأن أبواب الصلح مغلقة كان الطلاق واجباً وقام به القاضي أو ألزم الزوج به .

خامساً : ومن وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق :

أن حكمه التكليفي ليس واحداً للجميع بل يتراوح حكمه بين الأحكام التكليفية الخمسة ليناسب كل حكم منها أحوال الأزواج والزوجات والبيئات فالأصل فيه الحظر والمنع لما روي عن الرسول e أنه قال : «ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق» ([1]) وقد ذهب الجمهور إلى أن الأصل في الطلاق الإباحة وقد يخرج عنها في أحوال وذهب آخرون إلى أن الأصل فيه الحظر ، ويخرج عن الحظر في أحوال ، وعلى كل فالفقهاء متفقون في النهاية على أنه تعتريه الأحكام الخمسة فيكون مباحاً أو مندوباً أو واجباً كما يكون مكروهاً أو حراماً ، وذلك بحسب الظروف والأحوال التي ترافقه بحسب ما يلي :

١. فيكون واجباً كالمولي إذا آبى الفيئة إلى زوجته بعد التربص على مذهب الجمهور ، أما الحنفية فإنهم يوقعون الفرقة بانتهاء المدة حكما وكطلاق الحكمين في الشقاق إذا تعذر عليهما التوفيق بين الزوجين ورأيا الطلاق عند من يقول بالتفريق لذلك .

٢. ويكون مندوباً إليه إذا فرطت الزوجة في حقوق الله الواجبة عليها – مثل الصلاة ونحوها – وكذلك يندب الطلاق للزوج إذا طالبت زوجته ذلك للشقاق.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/ ٦٣١ مرسلا ، ثم ذكره موصولا ورجح غير واحد من العلماء إرساله كما في التلخيص الجيد لابن حجه ٣/ ٢٠٥ .

٣. ويكون مباحاً عند الحاجة إليه لدفع سوء خلق المرأة وسوء عشرتها أو لأنه لا يحبها .

٤. ويكون مكروهاً إذا لم يكن ثمة من داع إليه مما تقدم ، وقيل : هو حرام في هذه الحال لما فيه من الإضرار بالزوجة من غير داع إليه .

٥. ويكون حراماً حين يتم في الحيض أو في طهر جامعها فيه ، وهو الطلاق البدعي .

قال الدردير : وأعلم أن الطلاق من حيث هو جائز ، وقد تعتريه الأحكام الأربعة من حرمة وكراهة ووجوب وندب [١] .

ومن هذه الأحكام المتعددة يعرف كل زوج مسئوليته إزاء هذا الوضع إذا طرأ أما إذا لم تطرأ حاجة فالأصل هو استقرار الحياة الزوجية واستمرار السكن والمودة والرحمة وعدم اللجوء إلى هذا الطارئ إلا عند الحاجة إليه والعجز عن دفعه بأي شكل .

سادساً : العناية بالمرأة للوقاية من آثار الطلاق :

ومن وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق العناية الفائقة بالمرأة المطلقة للوقاية من أضرار الطلاق وذلك لما يلي :

١- وجوب وحلول مؤخر الصداق للمرأة الذي كان مؤجلاً لأقرب الأجلين الطلاق أو الوفاة .

٢- وجوب العدة وهي فترة انتقال من الزوج السابق إلى الزوج الجديد إن وجد وهي تتفاوت بين المرأة التي تحيض والمرأة التي لا تحيض فعدة الحائض ثلاث حيضات لقوله تعالى: «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق اله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا» البقرة ٢٢٨ وهي فترة للمراجعة بعد الطلقتين الأولى والثانية ، ولمعرفة براءة الرحم من الحمل حتى لا يسقى ماء الزوج الجديد زرع الزوج السابق ، كما أنها فترة ضرورية طبية لتهيئة الرحم

(١) الدر المختار ٣/ ٢٢٧ ، الشرح الكبير ٢/ ٣٦١ مغني المحتاج ٣/ ٣٠٧ ، المغني ٧/ ٢٩٦ ، ٢٩٧ والموسوعة الفقهية ج ٢٩ ص ٨/ ٩ .

لزواج جديد حيث ثبت علمياً وطبياً حاجة الرحم إلى ذلك . أما إن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر لقوله تعالى : « واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن » الطلاق ٤ أما الحوامل فعدتهن وضع الحمل لقوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ..» الطلاق ٤ .

٣- وجوب نفقة العدة إذا كان الطلاق رجعياً لقوله تعالى : « **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم** » الطلاق ٦ ولقوله في الحوامل : « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ..» الطلاق ٦ أما المطلقة طلاقاً بائناً فقد اختلف الفقهاء في وجوب نفقتها على **ثلاثة أقوال** : (١) لا نفقة لها ولا سكنى . (٢) لها السكنى والنفقة . (٣) لها السكنى فقط. والراجح أن لها السكنى والنفقة .

٤- وجوب المتعة تعويضاً لها عن الطلاق قال تعالى : « **وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين** » البقرة ٢٤١ وقوله « **ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقا على المحسنين** » البقرة ٢٣٦ . .

٥- وجوب الحضانة لها إن كان لهما أبناء وما يتبع ذلك من نفقات هؤلاء الأبناء وأجرة الحضانة والسكن ، قال تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والده بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ..» البقرة ٢٣٣

٦- وجوب أجرة الرضاعة للمولود دون الحولين لقوله تعالى : « **فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ..**» الطلاق ٦ وقوله « **وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ..**» البقرة ٢٣٣ .

فأين نجد مثل هذه التشريعات العادلة الرحيمة الفاضلة في غير التشريع الإسلامي الذي أعجز بجماله وعدله ورحمته وفضله وتكريمه للمرأة جميع التشريعات .

سابعاً : كفالة الله عز وجل :

تكفل الله تعالى – وهو الغني الحميد – لكلا الزوجين المستقيمين على شريعته إن تفرقا بعد كل المحاولات الشرعية للإصلاح وانسداد جميع الأبواب إلا الطلاق أن يغني كلاً منهما وأن يعوضه خيراً عما فاته فقال : «**وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً**» النساء ١٣٠ إما إن كانا ظالمين أو كان أحدهما ظالماً فعلى الباغي تدور الدوائر ، لأن العلاقة الزوجية موثقة مؤكدة فلا يجوز الإخلال بها لغير عذر ولا يجوز التهوين من شأنها بغير سبب وكل أمر من شأنه أن يوهن من هذه الصلة ويضعف من شأنها فهو بغيض إلى الإسلام لفوات المنافع وذهاب مصالح كل من الزوجين فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[١] وأي إنسان أراد أن يفسد ما بين الزوجين من علاقة فهو في نظر الإسلام خارج عنه ، وليس له شرف الانتساب إليه لقول الرسول e : «ليس منا من خبب امرأة على زوجها»[٢] أي أفسدها ، وقد يحدث أن بعض النسوة تحاول أن تستأثر بالزوج وتحل محل زوجته ، والإسلام ينهى عن ذلك أشد النهي، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله e قال : «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها – تحظى بزوجها – ولتنكح فإنما لها ما قدر لها»[٣] والزوجة التي تطلب الطلاق من غير سبب ولا مقتض حرام عليها رائحة الجنة فعن ثوبان أن رسول الله e قال : أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس حرام عليها رائحة الجنة»[٤] وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق حيث حمل كلاً من الزوجين مسئوليته في هذا الخطر الجسيم .

---

(١) أخرجه أبو داود ٢١٧٨ . والصحيح أنه مرسل .

(٢) أبو داود ٢١٧٥ . بإسناد حسن

(٣) البخاري ٦٦٠١ .

(٤) مسند أحمد ٥/ ٢٧٧ . بإسناد حسن

الخاتمة

تبين لنا من فقرات هذا البحث جملة من وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق نجملها فيما يلي :

١. أن الأصل هو استمرار الحياة الزوجية في جو من السكينة والمودة والرحمة والحفاظ عليها بكل الوسائل .

٢. أن الأصل في الطلاق الحظر والمنع إلا لضرورة وتتنوع هذه الضرورة فتجعل الحكم يتفاوت بين الوجوب والتحريم والكراهة والندب والإباحة .

٣. أن الفطرة والظروف تستدعي أن يكون إلى الفرقة سبيل وقاية من ضرر أكبر وخطر أعظم.

٤. أن التشريع الإسلامي بتشريع الطلاق تميز على سائر التشريعات والبيئات بالوسطية والاعتدال والتكريم والمساواة .

٥. أن التشريع الإسلامي سن من التدابير الواقية من الطلاق ما يحول دون وقوعه إلا في أضيق الحدود فتدابير قبل الزواج ، وتدابير أثناء الزواج ، وتدابير للحيلولة دون الوصول إلى باب الطلاق، وتدابير عند ضرورة إيقاع الطلاق وكل تدبير منها يحمل وجهاً من وجوه الإعجاز .

٦. أن التشريع الإسلامي قيد الطلاق بقيود عديدة للحد من إيقاعه فجعل منه السني والبدعي والرجعي والبائن .

٧. أن التشريع الإسلامي جعل الطلاق للرجال لحكمة واضحة وأعطى المرأة البديل في الخلع .

٨. أن التشريع الإسلامي قيد الطلاق بألفاظ معينة وصيغ محددة حتى يفوت على المتلاعبين ألاعيبهم

٩. أن التشريع الإسلامي أهتم بحقوق المرأة بعد الطلاق بما يكفل لها حياة كريمة وتعويضاً كافياً .

١٠. أن الله تعالى تكفل للمتقين المستقيمين من الأزواج ذكوراً وإناثاً بالخير والسعة وتوعد الظالمين بالعقاب الأليم وهكذا تعددت وجوه الإعجاز التشريعي في الطلاق بما يلجم الأفواه البغيضة والأفكار المسمومة ضد التشريع الإسلامي بعامة والطلاق بخاصة .

والحمد لله رب العالمين ،،،،،

المراجع

[١] القرآن الكريم .

[٢] إنجيل متى ومرقص .

[٣] الأحوال الشخصية للإمام محمد أبو زهرة .

[٤] التلخيص الحبير لابن حجر .

[٥] الدر المختار لابن عابدين .

[٦] سنن أبي داود .

[٧] سنن الترمذي .

[٨] الشرح الكبير للدردير .

[٩] صحيح البخاري .

[١٠] صحيح ابن ماجه .

[١١] فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر .

[١٢] الفرقة بين الزوجين للشيخ على حسب الله .

[١٣] فقه السنة للسيد سابق .

[١٤] من فقه الأسرة في الإسلام . د./ محمد نبيل غنايم

[١٥] مجلة الأحكام العدلية . على حيدر

[١٦] مجمع الزوائد للهيثمي .

[١٧] المسند للإمام أحمد بن حنبل .

[١٨] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .   محمد فؤاد عبد الباقي

[١٩] المعجم الوسيط .مجمع اللغة العربية

[٢٠] المغني لابن قدامه .

[٢١] مغني المحتاج للخطيب الشربيني .

[٢٢] الموسوعة الفقهية وزارة الأوقاف – الكويت



المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

الإعجاز التشريعي في الحقوق الاقتصادية المشتركة بين الرجل والمرأة كدليل على تكريم المرأة

إعداد

دكتورة / شيرين فتحي عبد الحميد

تمهيد

لما كان الدين الإسلامي دين عقيدة وشريعة ونظام مجتمع، يقوم على سلسلة من الشرائع والأحكام التي تنظم حياة المسلم في علاقته بربه وبنفسه وبأخيه الإنسان، فإن القرآن الكريم ـ وهو دستور المسلمين ـ يخاطب النساء كما يخاطب الرجال، حتى شملت أحكامه الجنسين معاً.

ولأن المرأة في نظر الشرع الإسلامي إنسان مكلف يتمتع بكامل الأهلية، فهي تمثل نصف المجتمع البشري، ولابد لهذا النصف إلا أن يشارك نصفه الثاني، ليساهم النصفان معاً في بناء المجتمع الجديد، الذي، الذي بنى أساسه على قواعد ثابتة من الحرية والعدالة والمساواة من غير محاباة جنس على حساب جنس آخر.

هذا يعنى في عرف التشريع الإسلامي أن المرأة صنو الرجل في إنسانيته، لها ما له، وعليها ما عليه من الحقوق والواجبات مراعياً في ذلك طبيعة كل منهما وإمكاناته.

من هذا المنطلق نجد هناك حقوقاً خص الإسلام بها المرأة فيما يتعلق بجميع مراحل الحياة الزوجية، وحقوقا أخرى يشترك فيها الرجال والنساء.

أما عن الحقوق التي خص بها الإسلام المرأة فيما يتعلق بجميع مراحل الحياة الزوجية فهي:

١ـ حق المرأة في المهر عند الزواج.

٢ـ حق المرأة في النفقة بموجب الزوجية.

٣ـ حق المرأة في أجرة الرضاع.

٤ـ حق المرأة في أجرة الحضانة.

٥ـ حق المرأة في المتعة.

وأما عن الحقوق الاقتصادية المشتركة بين الرجل والمرأة فهي:

١ـ حق المرأة في التصرفات المالية.

٢ـ حق المرأة في النفقة بموجب درجة القرابة.

٣ـ حق المرأة في الميراث.

٤ـ حق المرأة في العمل والكسب واستقلالها الاقتصادي.

٥ـ حق المرأة في التعليم والتعلم.

وسوف نخص بالدراسة والتفصيل في هذا البحث حق المرأة في الميراث، وحالات ميراث المرأة في الشريعة الإسلامية، ثم نعقد مقارنة سريعة بين ما أعطى الإسلام للمرأة من حقوق، وما استطاعت الجهود البشرية المبذولة أن تقدمه لها، وعلى رأسها اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة CEDAW حيث تعتبر بياناً عالمياً بحقوق المرأة الإنسانية.

أولاً: حق المرأة في الميراث

لقد ظل وضع المرأة على حال من الحرمان حتى جاء الإسلام وغير نظرته إلى الإنسان، وفك الحصار المفروض على المرأة، وكسر طوق الحرمان، وقرر حقها في الميراث من والديها وأقربائها، ولم يعد قرار انتقال الملكية بعد الوفاة مرهوناً برغبة الأب أو زعيم الأسرة حيث يورث من يشاء ويحرم من يشاء!

وإنما أصبح الإسلام نظاماً تشريعياً اجتماعياً بقانون إلهي يعتمد أساساً على صلة القرابة من الميت سواء من الذكور أو الإناث، ضعفاء وأقوياء، كبار وصغار، حتى الأجنة في بطون أمهاتها لهم نصيبهم كاملاً عند الولادة(٤).

وجاءت الآية الكريمة تقرر حق المرأة والرجل في الميراث على السواء. قال تعالى:

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴾ [النساء/ ٧].

نزلت هذه الآية لتقرر حق المرأة في كل تركة يتركها الوالدان والأقربون، سواء كانت قليلة أو كثيرة.. وأصبح هذا الحق طبع بطابع الوحي الرباني الذي لا قبل لأحد بنسخه أو تعديله أو تغيير شيء من أحكامه.

وبهذا يكون الشرع الإسلامي «هو أول تشريع في العالم كله تناول بالتفصيل حق المرأة في تركة الميت لا يأكل منها شيئاً إلا (كل باغ أثيم).

ثانياً: حالات ميراث المرأة في الشريعة الإسلامية

لعل من أبرز الانتقادات التقليدية التي مازالت تتكرر في مجال الحديث عن المساواة بين الرجل والمرأة وضرورتها، هي الوقوف عند قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾(النساء/ ١١).

واعتبارها وثيقة إدانة للشريعة الإسلامية الغراء، واتهامها بتهمة التمييز ضد المرأة، في أهم ما يجب أن تحصل عليه من حقوق، ألا وهو حق الميراث.

ويؤخذ على ذلك أنه مهما تبيّن الظلم البيّن في هذا الانتقاد، والظلم الأكبر في فهم المعنى الحقيقي لهذه الآية من كتاب الله الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ..﴾ (فصلت/ ٤٢) ومهما ظهر تجاهلهم للمعنى العلمي السليم لكلمة المساواة المنشودة، فإنهم لا يزالون يرددون هذه الاتهامات بشكل تقليدي مجرد دون أي نظر إلى ما قد قيل ويقال في الرد عن هذه الشبهة.

هؤلاء المتحاملون على الشرع الإسلامي يأخذون من قاعدة التنصيف هذه في الميراث المنصوص عليها في القرآن الكريم حجة على أنها تمثل «صورة غير مقبولة!» وغير مشرفة للمرأة وأنها مظهر من مظاهر عبوديتها وقهرها في تراثها وفي مجتمعها وفي مستقبلها(٥).

ومما يؤكد الظلم البيّن الذي يرتكبه أصحاب هذا الانتقاد أنهم يفهمون قوله تعالى: ﴿ للذَّكَر مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْن ﴾ قانوناً عاماً يسرى في جميع أحكام الميراث. بل أن كلمة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ أصبحت دستوراً اجتماعياً مطلقاً تفرضه الشريعة في سائر

الأحوال والقضايا والمشكلات في حين أن الآية رسمت هذا الحكم في ميراث الأولاد دون غيرهم..ولباقي الورثة ـ ذكوراً وإناثاً ـ أحكامهم الخاصة بهم، والأعجب أن نصيب الذكور والإناث واحد في أكثر هذه الأحكام، بل قد يفوق نصيب الإناث نصيب الذكور في بعض الأحيان(٩).

من هنا كان من الضروري بيان حالات ميراث المرأة في التشريع الإسلامي لكي يتضح أن نصيب المرأة في الميراث وضع على قاعدة محكمة تحقق لها الكفاية والحياة الكريمة وليس كما هو معلوم عند العامة من الناس أنها على النصف من الرجل فهذه القاعدة ليست مضطردة وإنما هي حسب النظام الإلهي لحكمة بالغة يعلمها علام الغيوب ونعلم منها بقدر ما توصلنا إليه من دراسات في هذا العلم.

فإذا كانت حكمة التشريع الإسلامي في هذا التفاوت المذكور بين أنصبة الوارثين والوارثات قد غفل عنها الكثيرون ممن يحسبون أن هذا التفاوت الجزئي ينتقص من أهلية المرأة في الإسلام، وكما يزعم العلمانيون جعل منها نصف إنسان!.

فإن استقراء حالات ومسائل الميراث ـ المنصوص عليها في علم الفرائض (المواريث) تكشف عن حقيقة مذهلة غفل عنها أصحاب هذه الأفكار وهي:

١ ـ إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل.

٢ ـ إن هناك أضعاف هذه الحالات الأربعة التي ترث فيها المرأة مثل الرجل تماماً.

٣ ـ إن هناك عشر حالات أو أكثر ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.

٤ ـ إن هناك حالات تنفرد فيها المرأة بالميراث ولا يرث نظيرها من الرجال.

أي أنه بمقارنة بسيطة نجد أن هناك أكثر من ثلاثين حالة ترث فيها مثل الرجل، أو أكثر منه، أو تنفرد هي بالميراث دون نظيرها من الرجال، كل هذا في مقابل أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل!!(٦).

وإليك هذه الأمثلة:

١ـ الحالات التي ترث فيها المرأة نصف الرجل (وهي أربع حالات فقط) نذكر منها المثال التالي:

* عند وجود أولاد للمتوفى ذكور وإناث، تأخذ البنت نصف ما يأخذه أخوها.

فإذا مات أب أو أم وتركا:

بنت	ابن	تقسم التركة أثلاثاً
١	٢	

٢ـ الحالات التي ترث فيها المرأة مثل الرجل:

هناك حالات عديدة للمساواة بين الرجل والمرأة في الميراث نذكر منها المثال التالي:

* حالة من توفى وترك أماً وأباً وابنا:

ففي هذه الحالة يرث كل منهم السدس بالتساوى(١٠) ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ (النساء/ ١١).

أب	أم	ابن
١/٦	١/٦	**الباقي تعصيباً**

فقد ورثت الأم كما ورث الأب، وتساوى هنا الذكر والأنثى، دون وجود أي سلطان للدستور الوهمي المطلق ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾.

٣ـ الحالات التي ترث فيها المرأة أكثر من الرجل:

* من الأمثلة المشهورة أنه إذا توفيت المرأة وتركت زوجاً وبنتاً، فإن البنت ترث النصف ووالدها ـ أي زوج المتوفاة ـ يرث الربع أي أن الأنثى هنا ترث ضعف الذكر.

* كذلك إذا توفى رجل وترك زوجة وابنتين وأخاً له، فإن الزوجة ترث الثمن، والابنتان الثلثان وما بقى فهو لعمهما، وهو شقيق الميت، وبذلك ترث كل من البنتين أكثر من عمهما، إذ أن نصيب كل منهما يساوى بينما نصيب عمهما (٩).

زوجة	ابنتان	أخ شقيق	
١/٨	٢/٣	**الباقي تعصيباً**	٢٤
٣	**١٦**	**٥**	

٤- **الحالات التي ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال:** كما في المثال التالي:

زوج	أب	أم	بنت	بنت ابن	
١/٤	١/٦ + الباقي تعصيبا	١/٦	١/٢	١/٦ تكملة الثلثين	١ ٢
٣	**٢**	**٢**	**٦**	**٢**	= **١٥**

زوج	أب	أم	بنت	ابن ابن	
١/٤	١/٦	١/٦	١/٢	الباقي تعصيباً	١ ٢
٣	**٢**	**٢**	**٦**	**-**	= **١٣**

هنا أخذت بنت الابن نصيبها من الميراث ولم يأخذ ابن الابن شيئاً، فأيهما أحظى في هذه الحالة؟ هذا هو وضع المرأة في ظل التشريع الإسلامي بعد أن كانت محرومة من أبسط حقوقها في الوجود وكانت كالمتاع تورث للغير فجاء الإسلام ليكرمها أرقى آيات التكريم.

ثالثاً: مقارنة بين ما أعطى الإسلام للمرأة من حقوق وما استطاعت الجهود البشرية المبذولة أن تقدمها لها

إن اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو ـ CEDAW) تعتبر من أهم الجهود البشرية المبذولة في مجال حقوق المرأة، وهي بمثابة بياناً عالمياً بحقوق المرأة الإنسانية، تدعو إلى المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل، بغض النظر عن حالتها الزوجية، في جميع الميادين: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية.

تتألف هذه الاتفاقية من مقدمة وثلاثين مادة، وقد فتح باب التوقيع عليها من قبل الدول في أول مارس ١٩٨٠م، وأصبحت سارية المفعول ابتداء من ٣ سبتمبر ١٩٨١م. وحتى ٣١ مايو سنة ١٩٨٧م كان ٩٣ بلداً قد وافق على الالتزام بأحكامها.

وسوف ينحصر هذا البحث في بيان بعض بنود هذه الاتفاقية ونبين كيف أن الإسلام كان له السبق في تقرير حقوق المرأة في كافة المجالات(٧).

المادة (١) عرّفت هذه المادة التمييز على أنه (أية تفرقة أو استبعاد أو تقييد يتم على أساس الجنس ويكون من آثاره أو أغراضه النيل من الاعتراف للمرأة ـ على أساس تساوى الرجل والمرأة ـ بحقوق الإنسان، والحريات الأساسية في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية، أو في أي ميدان آخر، أو إبطال الاعتراف للمرأة بهذه الحقوق أو تمتعها بها وممارستها لها بغض النظر عن حالتها الزوجية).

الملاحظات: يلاحظ على هذه المادة أن (التمييز) مصطلح قانوني له تداعياته وآثاره الاجتماعية، وإن كان لفظ Discrimination يعبر عن الظلم والإجحاف أكثر مما يعبر عن التفرقة والاختلاف.

وليست كل تفرقة ظلماً، بل إن العدل ـ كل العدل ـ يكون في التفرقة بين المختلفين، كما أن الظلم ـ كل الظلم ـ في المساواة بين المختلفين والتفرقة بين المتماثلين، فالمساواة ليست بعدل إذا قضت بمساواة الناس في الحقوق على تفاوت واجباتهم وكفاياتهم وأعمالهم.

فهذه المادة تنص على التماثل والتطابق التام بين الرجل والمرأة، وهي مخالفة لحقائق كونية وشرعية في آن واحد، فالله لم يخلق زوجاً واحداً، بل زوجين: ذكراً وأنثى، وهي حقيقة

كونية أكدت عليها الشريعة الإسلامية، إذ قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ... ﴾ (الذاريات/ ٤٩). وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ (آل عمران/ ٣٦).

لذلك كانت وحدة الأصل والخلقة أساساً في وحدة الحقوق والواجبات، ووحدة المسئولية والجزاء لكلٍّ بما عمل في الدنيا والآخرة. وقد وردت في ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ (آل عمران/ ١٩٥).

كما بين النبي خ الأصل العام الذي ينبغى أن نصدر عنه هذه القضية في الحديث الذي روته السيدة عائشة ل قالت: قال رسول الله خ : «إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ». وفي رواية: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ» (١)،(٢)،(٣). بأسلوب الحصر.

إذن فالأصل هو وحدة البشر، والأصل هو المساواة بين المرأة والرجل، ومع ذلك فإن تحقيق إرادة الله في الكون اقتضى أن تختلف الأدوار ويتفاوت توزيع الأعباء بين الرجل والمرأة، ومن ثم كان بينهما من الفروق الخِلقية ما يتناسب مع الدور الذي أُعد كل منهما للقيام به، والأعباء التي خُلق ليتحملها لتحقيق عمارة الأرض واستثمارها(٤).

إذن فإن مقولة (المساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء) هي خدعة كبيرة للمرأة، بل إنه من المكابرة ما يحاوله البعض من إلغاء جميع الفوارق الطبيعية والاجتماعية بين الرجل والمرأة وجعلهما متساويين في كل شيء.

إذن فقد سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية في تقرير المساواة بين الذكر والأنثى بأربعة عشر قرناً ولم تأت القوانين الوضعية بجديد حين قررت المساواة وإنما سارت في أثر الشريعة واهتدت بها.

المادة (٦) (تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة، بما في ذلك التشريع، لمكافحة جميع أشكال الاتجار بالمرأة واستغلال دعارة المرأة).

الملاحظات: هذه المادة رغم حرصها على صيانة المرأة، إلا أن الشريعة الإسلامية قد تجاوزت الاتفاقية فيما يتعلق بالعمل على منع الاستغلال الجسدي للمرأة، بل عملت على منع استغلال أنوثة الأنثى في وسائل الإعلام وامتهانها للمرأة.

وتحقيقاً لهذا الهدف عملت الشريعة على توفير سبل العيش الكريم للمرأة إلى حد إلزام أدنى أقاربها بالإنفاق عليها إذا لم يكن لها مال أو عمل.

المادة (١٠)(تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة لكي تكفل للمرأة حقوقاً مساوية لحقوق الرجل في ميدان التعليم).

الملاحظات: كما يتضح فإن هذه المادة تنص على حق التعليم، إلا أن مبادئ الإسلام العام وقواعده الكلية لا تراه مجرد (حق) بل هو (واجب) أيضاً، وشتان بين الأمرين: فالحق هو إمكانية أو ميزة، يمكن لصاحبها التخلي عنها طواعيةً واختياراً إن شاء. أما الواجب فهو التزام ينبغي عليه القيام به، كما في ميدان العلم والتعليم.

فقد فرض الله طلب العلم على كل مسلم بما تستقيم به دنياه، وتصلح به آخرته، وحكم المسلمة في ذلك حكم المسلم، فكان خطاب المولى سبحانه في جميع النصوص موجهاً للمؤمنين عامة رجالاً ونساءً، لا للرجال فحسب قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة/ ١١).

وقد روى عن أنس بن مالك ط عن النبي خ أنه قال: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**» (٢). ولفظ (المسلم) يراد به كل من اتصف بالإسلام رجلاً كان أو امرأة.

المادة (١١)

- (تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير للقضاء على التمييز ضد المرأة في ميدان العمل لكى تكفل لها نفس الحقوق على أساس تساوى الرجل والمرأة).

- (كما تتخذ الدول الأطراف التدابير المناسبة لمنع التمييز ضد المرأة بسبب الزواج أو الأمومة ولضمان حقها الفعلي في العمل).

الملاحظات: تنزلت آيات القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً تحدد مشروعية عمل المرأة وكسبها واستقلالها المالي والمساواة الاقتصادية بينها وبين الرجل.

قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ (النساء/ ٣٢)

إذن فمن وجهة نظر الشريعة الإسلامية فإن عمل المرأة مباح كما هو مباح للرجل، ولكن

يختلف من امرأة إلى أخرى حسب ضرورتها أو ضرورة العمل لها واحتياجها له، ونوع العمل، والظروف المحيطة به، ومدى تعارضه مع مصلحة الأسرة.

وحيث إنه توجد بعض الأعمال التي لا تتفق بطبيعتها مع احتمال المرأة ولا تلائم تكوينها كأنثى، فإن الشريعة الإسلامية لم تتناول تشريعاً يختص «بعمل المرأة» عامة والأجر الذي تتقاضاه عن عملها إذا عملت، ولكنها لم تغفل حرية المرأة في ممارسة العمل أو المهنة التي تراها، بل إنها لم توجد أية قيود على أهلية المرأة في إبرام عقد العمل، فالمساواة بين الرجل والمرأة، زوجة كانت أو غير زوجة، تامة من حيث الأهلية في التعاقد على العمل أو الاستخدام من صاحب العمل.

المادة (١٣)(تتخذ الدول الأطراف جميع التدابير المناسبة للقضاء على التمييز ضد المرأة في المجالات الأخرى للحياة الاقتصادية والاجتماعية لكي تكفل لها ـ على أساس تساوى الرجل والمرأة ـ نفس الحقوق، ولاسيما: «الحق في الاستحقاقات الأسرية»).

الملاحظات: سوف نخص بالتعليق على الجانب الاقتصادي من هذه المادة وبالتحديد البند الخاص بالاستحقاقات الأسرية، وهو ما يشمل قضية الميراث التي تعرضنا لها في بداية البحث ومايثار حول الشريعة الإسلامية من أنها تعطى الرجل في بعض الأحوال ضعف المرأة وهو ما يدل على دونية المرأة.

والباحث المنصف في أحكام وقواعد الميراث يتبين له أن أنصبة الميراث لا يتحكم في توزيعها بين المستحقين عامل الذكورة والأنوثة وإنما ثلاثة عوامل:

١ـ درجة القرابة بين الوارث ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وبين المورث.

٢ـ موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال.

٣ـ العبء المالي الذي يوجبه الشرع على الرجل دون المرأة.

فالإسلام يلزم الرجل بالإنفاق على المرأة: زوجة ويلزمه بالإنفاق عليها أمًّا وبنتاً وأختاً عند حاجتهن، ولا يلزم الزوجة بالإنفاق على نفسها أو أسرتها، ولو كانت غنية، فجميع ما تملك لها وحدها، وهي غير مكلفة بالإنفاق على أحد.

وبإلقاء نظرة سريعة على وجوه وجوب الإنفاق المكلف بها الرجل شرعاً مقابل هذا السهم الزائد في الميراث يمكن إدراك أن المرأة هي الرابحة مادياً لأن الرجل مطلوب منه:

١ـ أن يتكفل أمه وأباه، وأخته وأخاه، وأقاربه الأدنى فالأدنى إن كانوا معسرين والمرأة معفاة من ذلك.

٢ـ أن يعول زوجته وأولاده ويؤمن لهم المسكن والمأكل والمشرب والملبس وسائر تكاليف الحياة المعيشية من تطبيب وتعليم وترفيه، والمرأة معفاة من ذلك.

٣ـ أن يؤمن نفقة الزوجة إذا ما طلقت حتى تنتهي مدة عدتها، وقد تمتد فترة النفقة إذا ما كانت حاملاً إلى أن تضع حملها. كما يطلب من الرجل أن يؤمن أجرة الرضاعة إذا امتنعت الأم عن إرضاع رضيعها، والمرأة معفاة من ذلك.

٤ـ أن يقدم المهر لعروسه قل أو كثر ولا تتكلف المرأة شيئاً.

إذن يمكن القول أن الشرع الإسلامي إذ قرر للمرأة حقها في الإرث منذ ١٤٠٠ سنة ونيف قد خطا خطوة كبيرة في مجال القضاء على أشكال التمييز ضد المرأة ومنحها من الحقوق المالية أكثر بكثير مما تطمح إليه (المرأة العالمية) اليوم في تحقيق ما تصبو إليه في مجال المساواة في الحقوق المالية والاقتصادية والأسرية، وأن ما ترثه المرأة المسلمة تدخره لتنفق على نفسها في حالة عدم زواجها أو في حالة وفاة الزوج، إذا لم يترك لها ما يكفيها، فيكون المال الذي ورثته بمثابة مال احتياطي تنفقه عند الضرورة على نفسها أو على أسرتها(٨).

خلاصة القول: أن الرجل والمرأة متعاكسان في الملك والمصروف، فليس هناك من غبن أو ظلم في قضية الميراث عند المسلمين بتطبيق قاعدة التنصيف.

ونختتم بحثناً هذا بعمل مقارنة سريعة وبسيطة بين ما يمكن أن تملكه النساء المسلمات عن طريق الإرث، وما يمكن أن تحصل عليه النساء غير المسلمات في العالم من أموال، معتمدين في ذلك على ما جاء في تقرير برنامج خطة العمل العالمية للنصف الثاني من عقد الأمم المتحدة للمرأة العالمية عام ١٩٨٠م **يقول التقرير:**

«فبينما تمثل المرأة ٥٠٪ من سكان العالم الراشدين وثلث قوة العمل الرسمية فإنها تعمل تقريباً ثلثي ساعات العمل ولا تتلقى إلا عشر الدخل العالمي، وتمتلك أقل من واحد بالمائة من الممتلكات في العالم»(١١)، بينما مقدار أو نسبة ما تملكه المرأة المسلمة عن طريق الإرث

يمثل ٣٣,٣٣٪ رغم قاعدة التنصيف.

ثم يورد في التقرير:

«إن هذه النسب والتحليلات الاقتصادية تظهر بشكل كاف القهر والاستغلال والاضطهاد والسيطرة من جانب الرجل للمرأة التي لا يقتصر التمييز الممارس ضدها على النظم الإنتاجية، بل تخضع للتمييز بحكم كونها قوة الإنجاب فقط».

إذن فالدعوة إلى تغيير «قاعدة التنصيف» في قضية الإرث دعوة لا يمكن أن تعطى ثماراً مقنعة للداعين لها. هذا فضلاً عن أنها حكم شرعي إلهي لا يقبل التعديل ولا التبديل، ومن أعلم بمصلحة الخلق إلا الخالق سبحانه؟!

أما المواثيق الدولية والاتفاقات الوضعية التي تصدر عن البشر وتطالب بها جمعية الأمم المتحدة يمكن أن تتبدل وتتغير مع أهواء واضعيها إذا ما تعارضت مع مصالحهم.

لذا فإننا نوصي في ختام هذا البحث بالتمسك بأحكام الشريعة الإسلامية الغراء، ونحذر بما حذر الله تعالى منه من استبدال هذه الأحكام الشرعية بأخرى وضعية تتبدل مع أهواء واضعيها من الرجال ومصالحهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فنكون ـ إن فعلنا ذلك ـ قد ضللنا ضلالاً كبيراً كما ورد في نص الآية الكريمة:

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام/ ١١٤ - ١١٦).

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

* كتب الحديث الشريف:

(١) أبي داود بن سليمان بن الأشعث الجستاني (ت ٢٧٥هـ): سنن أبي داود. دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت. دار الجنان للطباعة والنشر والتوزيع. مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى. ١٤٠٩هـ ـ ١٩٩٨م.

كتاب الطهارة، باب الرجل يجد البلة في منامه، ج١، ص٢٩٩.

(٢) أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (٢٠٧ ـ ٢٧٥هـ). سنن ابن ماجة. دار الحديث. ١٩٩٨م. مصر.
كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. ج١، ص٤٤.
(٣)محمد ناصر الدين الألبانى. صحيح سنن الترمذى (باختصار السنة). الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج. الرياض. الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
كتاب الطهارة عن رسول الله خ ، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللا: ج١، ص١٨٩.

كتب معاصرة :

(٤) آمنة فتنت مسيكة بر. واقع المرأة الحضارى في ظل الإسلام/ منذ البعثة النبوية حتى نهاية الخلافة الراشدية. الشركة العالمية للكتاب. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. ١٩٩٦م. ص٢٨، ص٢٩٩.
(٥) خليل أحمد خليل. المرأة العربية وقضايا التغيير. ص٥٣.
(٦) صلاح الدين سلطان. ميراث المرأة وقضية المساواة. سلسلة التنوير الإسلامي. دار النهضة. مصر. طبعة أولى. ١٩٩٩م. ص١٠ ـ ٤٦.
(٧) اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل (CEDAW). رؤية نقدية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة. المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة. الأمانة العامة. ٢٠٠٠م. إعداد لجنة الصياغة المنبثقة عن الاجتماع العام لمناقشة الاتفاقية: الأستاذ الدكتور/ جمال الدين عطية، الأستاذ الدكتور/ محمد كمال الدين إمام، الأستاذ الدكتور/ سعاد صالح، دكتور/ فتحى لاشين، الشيخ/ جمال قطب، الأستاذ/ عمرو عبد الكريم سعداوى، ص٢٣.
(٨) محمد رشيد رضا. حقوق النساء فى الإسلام/ نداء للجنس اللطيف. مكتبة التراث الإسلامي. القاهرة. ١٩٨٨م. ص١٣.
(٩) محمد سعيد رمضان البوطى. المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الربانى. الطبعة الأولى. دار الفكر المعاصر. بيروت. لبنان. دار الفكر. دمشق ـ سوريا. ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م. ص١٠٦، ١٠٧.
(١٠) وهبة الزحيلى، محمد رأفت عثمان، رمضان على الشربناصي. فقه المواريث فى الشريعة الإسلامية. ص١٢٦.
(١١) منشورات الأمم المتحدة:
A Conf. 94/CW/CRP1/Add.1. 24 July 1980



المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

الإعجاز في أحاديث الخمر

دكتور/ محمد علي البار

ملخص الإعجاز العلمي في أحاديث منع التداوي بالخمر

لقد كان الأطباء يزعمون في الأزمنة الغابرة وعلى زمن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعده، وحتى عهد قريب أن الخمر دواء وأن شربها باعتدال معين على الصحة. وسنذهل للمفارقات العجيبة

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : (إنها داء وإنها ليست بشفاء) .

والأطباء يصرون في زمنه والأزمنة التي قبله والتي بعده أنها دواء! حتى جاء الطب في العصر الحديث وأبان زيف ما كان الأطباء يقولونه؛ إن في الخمر منافع شتى وعديدة للبدن وإنها تهضم الطعام وتشحذ الأذهان وتصفي الكبد وإنها معين عظيم على الصحة!!

الأحاديث الشريفة في منع التداوي بالخمر :

١. (عن وائل بن حُجر أن طارق بن سُوَيْد الخضري سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الخمر يجعل في الدواء فقال ـ صلى الله عليه وسلم (إنها داء وليست دواء) أخرجه مسلم وغيره

٢. عن طارق بن سويد قال : يا رسول الله إن بأرضنا أعنابا نعصرها فنشرب قال:لا فراجعته قلت: إنا نستشفي للمريض. قال: إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء). أخرجه مسلم وابن حبان في صحيحه.

٣. جاء ديلم الحميري مع وفد اليمن وسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم (إنا بأرض باردة نعالج فيها عملا شديدا، وإنا نتخذ شرابا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وبرد بلادنا؟ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: هل يسكر؟ قال: نعم، قال: فاجتنبوه. قال: إن الناس غير تاركيه. قال: فإن لم يتركوه فقاتلوهم) رواه أبو داود

ولا تزال الخمر تشرب حتى اليوم بناء على وهم أنها تدفئ الإنسان من البرد. وهي توسع الأوعية الدموية تحت الجلد فيشعر بالدفء ويفقد حرارة جسمه، كما أنها تمنع المناطق المخّية المسؤولة عن تنظيم حرارة الجسم فيما يسمى تحت المهاد (Hypothalamus) فيؤدي ذلك إلى فقدان حرارة الجسم... ومن المآسي التي تحدث كل عام في أعياد الميلاد ورأس السنة أن يتوفى المئات في روسيا والولايات المتحدة وأوروبا من فقدان حرارة أجسامهم بعد شرب الخمور والانغماس فيها، والبقاء في الحدائق والأماكن المفتوحة فيموتون من البرد وهو يتمتعون بالدفء الكاذب وقد نشرت المجلة الطبية لأمريكا الشمالية (Medical clinics of North America) عدد يناير ١٩٨٤م أن شرب الخمر هو أهم سبب لحدوث الوفيات الناتجة عن انخفاض درجة حرارة جسم الإنسان.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم**). أخرجه البخاري

وقال الله تعالى: (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**) البقرة٢١٩

وقد اتفق أهل التفسير في معنى الإثم الكبير أنه في الدين، وفي ضياع العقل بشرب الخمور، وما يحدث في شربها من النزاع والخصام، وحدوث الجرائم وارتكاب الموبقات. والخمر أم الخبائث كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجماع الإثم.

قال ابن كثير: (وأما المنافع الدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام وإخراج الفضلات، وتشحيذ بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة).ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: (**وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**)

إن الخمر لا تقوي الضعيف عكس ما زعمه الأقدمون بل تزيده ضعفًا وهزالاً، ولا تهضم الطعام بل تسبب التهاب الجهاز الهضمي ابتداء من الفم وانتهاء بالأمعاء مرورًا بالبلعوم والمريء والمعدة والبنكرياس والكبد. ولا تعين على الباه بل تفقد المرء عقله، فيقدم على الجرائم الجنسية ويعتدي على أمه وأخته، ونصف جرائم الاغتصاب على الأقل في العالم تقع تحت تأثير الخمر، وهي لا تسلي المحزون إذ إن تسليتها إذا حدثت وقتية سريعة الزوال وتعقبها الحسرات وتكثر المعارك والعداوات والبغضاء بين من يشربونها. وأما تشجيعها الجبان فهو ناتج عن فقدان العقل وحدوث التهور، وتقول الإحصائيات الحديثة إن ٨٦ بالمئة من جرائم القتل تمت تحت تأثير الخمور فأي شجاعة هذه؟؟ وإن ما لا يقل عن ٥٠ بالمئة من حوادث المرور ناتجة عن شربها.

وأما تصفيتها اللون فهو ما يحدث من الحمرة في وجه شارب الخمر وذلك بسبب تمدد الأوعية الدموية تحت الجلد، وبسبب إصابة الكبد وتليفها، فيحدث ذلك الاحتقان، وهو علامة المرض لا علامة الصحة.

المنظمات الصحية العالمية والأبحاث العلمية تحذر من مخاطر شرب الخمور:

يقول تقرير منظمة الصحة العالمية رقم ٦٥٠ لعام ١٩٨٠م عن الكحول ومشكلاتها

(إن شرب الخمور يؤثر على الصحة ويؤدي إلى مشكلات تفوق المشكلات الناتجة عن الأفيون ومشتقاته)

ويقول تقرير الكلية الملكية للأطباء النفسيين بالمملكة المتحدة (١٩٨٦م) عن مشكلة تعاطي الخمور: (إن الكحول مادة تسبب تحطيم الصحة بما لا يقاس معها الخطر على الصحة الذي تسببه المخدرات مجتمعة. وإن معظم المخاطر على الصحة العامة من العدد الكبير الذي يتناول كميات معتدلة من الكحول). ويؤكد هذا المعنى تقرير الكلية الملكية للأطباء بالمملكة المتحدة والصادر عام ١٩٨٧م وعنوانه: **(العواقب والمخاطر الصحية لتعاطي الكحول وباء خطير وشر مستطير)**

حيث يقول: إن المخاطر الصحية المتعلقة بتعاطي الكحول ليست ناتجة بالدرجة الأولى من العدد القليل الذي يتناول كميات كبيرة من الكحول، ولكن الخطر الأعظم على الصحة العامة هو من العدد القليل الذي يتناول كميات كبيرة من الكحول باعتدال وانتظام. إن تعاطي ٦٠ جرامًا من الكحول يوميًّا يؤدي إلى زيادة كبيرة في حدوث ضغط الدم والسكتات الدماغيـــة (Stroke)، وأمراض الكبد، والعقم، وضعف الباءة، وأمراض الجهاز العصبي أما بالنسبة للمرأة فإن نصف هذه الكمية كفيلة بإحداث هذه الأمراض الوبيلة) ويذكــر كتاب (ألف باء الكحول) الصادر عن المجلة الطبية البريطانية الشهيرة (BMJ) عام ١٩٨٨م:

(أن ما بين خُمس وثُـلث جميع الحالات التي أدخـلت إلى الأقسام الباطنية في بريطانيا كانت بسبب الكحول. وفي إنجلترا وحدها دون ويلز واسكتلندا وإيرلندا الشمالية) يدخل إلى الأقسام الباطنية كل عام ما بين ثلاثمائة ألف ونصف مليون شخص بسبب أمراض متعلقة بتعاطي الخمور. وفي السويد أثبتت دراسة مالمو أن ٢٩٪ من جميع أيام دخول المستشفيات في السويد كانت بسبب تعاطي الخمور). ويقول الدكتور برنت في كتاب (مواضيع في العلاج) (إصدار الكلية الملكية للأطباء بلندن عام ١٩٧٨م)

(لم يكتشف الإنسان شيئًا شبيهًا بالخمور في كونها باعثة على السرور الوقتي وفي نفس الوقت ليس لها نظير في تحطيم حياته وصحته، ولا يوجد لها مثيل في كونها مادة للإدمان وسمًّا ناقعًا، وشرًّا اجتماعيًّا خطيرًا) وقد أثبتت الدراسات الحديثة في بريطانيا والولايات المتحدة وأوربا أن ٤٠٪ من نزلاء المستشفيات العامة يعانون من مشكلات متعلقة بالخمور، وأن ما بين ثلث ونصف نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية في الأمريكيتين وأوربا يعانون من مشكلات متعلقة بالخمور، وأن سبب دخولهم إليها هو تعاطيهم الكحول بكثافة. ويذكر تقرير منظمة الصحة العالمية في الاجتماع الثالث والستين لعام ١٩٧٩م (الدورة ٣٢) أن تعاطي الخمور هي إحدى المشكلات الصحية الكبرى في العالم، وأن الاستمرار في تعاطيها يعيق التقدم الصحي والاجتماعي والاقتصادي في معظم المجتمعات بل وتشكل

عائقًا كبيرًا في المجال الصحي، وتعتبر أحد العوامل الهامة جدًّا التي تؤدي إلى تحطيم الصحة العامة والتي لا يوجـد حل لهـا.

وتقول مجلة اللانست (lancet) الطبية، المقال الافتتاحي (العدد الثاني لعام ١٩٨٧م) إن على الأطباء تبليغ رسالة واحدة للناس وهي: **أن الخمر ضارة بالصحة، وتؤدي إلى حدوث الذبحات الصدرية وجلطات القلب واضطراب نظمية القلب وموت الفجأة.**

وقد ثبت علمياً تأثير الخمر الضار على وظائف أعضاء الجسم المختلفة ابتداء من الجهاز الهضمي والجهاز الدوري والتنفسي والجهاز البولي والغدد الصماء والكفاءة الجنسية والتمثيل الغذائي داخل الجسم وقد بينا ذلك بالدليل العلمي القاطع في ثنايا البحث مما يؤكد كلام النبي صلى الله عليه وسلم أن الخمر داء وليست بدواء كما زعم الأطباء.



الإعجاز التشريعي في تحريم الربا

دكتورة / كوثر عبدالفتاح الأبجي

مقدمة

من الله تعالى على البشرية بالرسالة التي أتى بها خير البشر للبشر فكانت خير هدى للناس تناولت العقيدة السوية والتشريع الحكيم الذي تناول كل ما يصلح حياة الأمة ويبعث فيها الحياة والنهضة والترقي والعزة ، تهدي من اتبعها الى صراط مستقيم ويهلك من تركها في ظلمات الضلال ، ولذلك كان الهدي القرآني هو المنارة التي يجب أن تضئ حياة الأمة بتشريعاتها وحقا على أبنائها أن يتدارسوا هذا الهدى بالاستنباط العلمي ليضعوا أساسه ومنهجه أمام العالم نبراسا تهتدي به البشرية دوما إلى يوم القيامة .

ويتناول هذا البحث وجه جديد من أوجه اعجاز التشريع الإسلامي الحنيف وهو تحريم الربا الذي ورد في خمسة مواضع من سور القرآن الكريم ، تناولت فيها تحريم الربا بتهديدات شديدة للمجتمع المسلم إن لم ينتهي عن التعامل بالربا " فإن لم تنتهوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله " وهو ما لم يذكر في أي كبيرة أخرى حتى الشرك بالله ، وعقوق الوالدين، وهما أشد الكبائر . كما تناولت الأحاديث الشريفة تحريم الربا وتفظيعه ، وهو ما يؤكد أهمية إلقاء الضوء على أسباب التحريم القاطعة وتأثير الربا من خلال المنهج العلمي، ومن خلال نتائجه وأثره السلبي على المال ، والاقتصاد ، والتي تمثل إعجازا تشريعيا للمجتمعات البشرية التي ما فتأت تنقطع في كل مراحل الحضارة عن التعامل بهذه المعاملة التي تخالف كافة الشرائع السماوية ، وهو في عصرنا الحاضر المعروف باسم الفائدة المشروطة مقدما على الأموال النقدية سواء في شكل قروض وسندات ، أو في الحسابات المصرفية المعروفة باسم الودائع لأجل أو بإخطار .. الخ.

هدف البحث :

إثبات الإعجاز في تشريع تحريم الربا عن طريق تحقيق الأهداف الفرعية التالية :

١-إثبات السبق في التحريم مع تقنين بدائل متكاملة ، تقوم بالوظائف الاقتصادية والمالية التي تغني المجتمع عن الحاجة للربا .

٢-صلاحية المنهج المالي الإسلامي للتطبيق في كل زمان ومكان .

٣-إثبات توافق تشريع تحريم الربا مع المنهج العلمي الموضوعي وعلى العكس تعارض الربا مع المنهج العلمي .

٤-إثبات الأضرار الجسيمة التي تنال المجتمع من التعامل بالفائدة الربوية للمجتمعات البشرية كافة.

حدود البحث :

لا يتطرق البحث لمناقشة تحريم الربا فقهيا وعلاقته بسعر الفائدة باعتبار أن هذا الموضوع سبق بحثه من العلماء المعاصرين ، وتم الاستقرار على تحريم الفائدة المصرفية في الودائع والقروض المصرفية باعتبارها ربا محرم .

منهج البحث : ينهج البحث منهجين :

استنباطي : يهدف للوصول إلى المنهج العلمي للاستثمار وتوظيف الأموال بما يتوافق مع كل من التشريع الإسلامي الحنيف ، والمنهجية العلمية الرشيدة ، لتحقيق سلامة وأمن المجتمع البشري.

إستقرائي : من خلال :

١-دراسة علمية للحجج التي تبرر سعر الفائدة باعتباره حتمية لا مناص من إستخدامها

٢-دراسة علمية وتطبيقية لتأثير الربا على الإقتصاد المعاصر من ناحية الإنتاج والإستثمار والتوزيع على مستوى محلي ودولي .

فروض البحث :

١ – حرمت الشريعة الإسلامية الربا واستبدلته بكل من القرض الحسن والشركة ، ليقوما بالوظائف الاقتصادية والاجتماعية ، التي يحتاجها المجتمع وكذلك نظمت أحكام النقود بما يتناسب مع وظائفها ويحقق العدل وسلامة وأمن المجتمع .

٢ – ينبني نظام سعر الفائدة على فروض نظرية لم يثبت صحتها ولا تتبع المنهج العلمي السليم.

٣– ينقص نظام سعر الفائدة من حقوق أحد طرفي العقد ، المدين أو الدائن لحساب الطرف الآخر بدون مقابل عادل .

٤ – سعر الفائدة له تأثير سلبي شديد الأثر على الإنتاج والاستثمار والتوزيع .

٥ – تعتبر السياسة المالية هي المسئول الأول عن تطبيق نظام سعر الفائدة ، بإصدار الأذون والسندات الحكومية لتمويل الحكومة بالعجز .

٦ – الفائدة سبب رئيسي في الفساد المالي والإداري على المستوى المحلي والدولي .

خطة البحث :

لتحقيق هدف البحث يتم تغطية موضوعاته من خلال ثلاثة فصول تتناول ما يلي :

- **الفصل الأول : مقومات المنهج المالي الإسلامي في تحريم الربا .**
- **الفصل الثاني : دراسة تحليلية لتبرير سعر الفائدة (الربا) في ضوء المنهج العلمي ، وتتضمن دراسة تطبيقية للبنوك التجارية ؛ لاختبار فروض البحث .**
- **الفصل الثالث : دراسة تحليلية لتأثير سعر الفائدة (الربا) على الاقتصاد المعاصر**
- **وتتضمن دراسة تطبيقية على كل من : مصر ، الولايات المتحدة الامريكية .**
- **نتائج الدراسة**
- **المراجع**

نتائج الفصل الأول

مقومات المنهج المالي الإسلامي في تحريم الربا

تبين من استعراض المنهج المالي الإسلامي أنه قدم منهجا متكاملا لتنظيم جانب من جوانب المال شمل تحريم الربا ووضع بدائل تحقق العدل والتوازن والاستقرار وهو ما يتضح فيما يلي :

١- **الربا :** هي الزيادة على أصل المال في كل من القرض والدين الذي يكون نتيجة لمعاملة مثل السلم أو الشراء ، والربا محرم تحريما قاطعا لأنه : يتنافى مع سنة الله في خلقه التي جبل عليها النشاط الاقتصادي بكل أنواعه والتي يتردد عائدها بين أقصى ربح يمكن أن يتحقق أو خسارة ، كما أنه يتضمن استحقاق المرابي كل من الزيادة المسماة بالربا أو الفائدة ، كذلك من يقدم الضمان يستحق الربح ومن يأخذ الضمان لا يستحق سواه وأي زيادة تكون محرمة .

٢- **البيع معاملة حلال :** في كل الأنشطة الاقتصادية ، ويعتبر المصدر الأساسي للربح وبالتالي فهو يضمن استمرار الأنشطة النافعة للمجتمع ، وسبب الحل أن رب المال يتحمل النتائج الفعلية من ربح وخسارة وهي مقابلة عادلة تتفق مع قوانين الحياة الاقتصادية وسنة الله في الأرض .

٣- **أبدل التشريع الإسلامي الحنيف الربا بالقرض الحسن** ، وحبب إليه ووعد فاعله بالأجر الكبير، على أن يتم توثيق الديون كتابة وشهادة ، وأوصى المدين برد دينه وفاءً لصاحبه وبحسن القضاء ، وأوصى الدائن بإمهال المعسر والتصدق عليه ، وفوق ذلك جعل للمعسرين حظا من زكاة المال لسداد ديونهم ، عملا على استقرار وسلامة المنهج المالي في المجتمع، وحرم بيع الدين بالدين .

٤- **قدم الفقه الإسلامي** الشركة ونظم قواعدها حتى تكون مخرجا آخر للتعامل بدلا من معاملة الربا المحرم لمن يريد أن يقترض للنشاط الاقتصادي ومنها شركة المضاربة الشرعية التي تصلح بدلا من علاقة الربا ، وقد طبقت هذه الشركة بديلا عن نظام الفائدة في

المصارف الإسلامية، والفرق الجوهري بينها وبين عقد الربا ؛ يكمن في حصول المتعاقدين على عائد فعلي غير مشروط مقدما على أحد المتعاقدين ، وقد نجحت هذه الشركة في البنوك الإسلامية بين البنك باعتباره شخصية اعتبارية وبين المودعين أصحاب الأموال بما يؤكد صلاحيتها عوضا عن استخدام سعر الفائدة المعاصرة .

٥- **تناول فقه الشركات قواعد قياس الربح وتوزيعه** بما يتناسب مع قدر حصص عناصر الإنتاج بما يحقق العدل للشركاء ، وبذلك يخص رأس المال النصيب الفعلي من العائد سواء كان ربحاً أو خسارة ، ويوزع بنسب حصص الشركاء في رأس المال ، أما العمل فيتم تحديد حصته من الربح طبقا للتعاقد بالتراضي بين الشركاء لتفاوتهم في المقدرة والكفاءة وفي حالة شركة المضاربة الشرعية يخص العامل (الشريك بالعمل) حصته المتفق عليها من الربح ولا يتحمل الخسارة إلا إذا قصر أو خالف شرط من شروط العقد ، كما لا يصبح الربح نهائيا بين الشريكين إلا إذا تحاسبا ووافق رب المال على نتيجة الأعمال باعتبارها شركة بين الطرفين .

٦- **تناول التشريع والفقه الإسلامي** ؛ النقود باعتبارها أداة للتداول ومعيارا لقياس القيمة ومخزنا لها ، وتناول المعدنين الذهب والفضة ؛ باعتبارهما النقود الشرعية ، فحرم ربا الفضل في كل من الذهب والفضة في البيع الآجل وبنفس القدر " سواءً بسواءً ويداً بيد " حتى لا يتم الاتجار بهما وتضيع وظيفة النقد بتذبذب قيمتهما ، كما حرم استخدام المعدنين الثمينين في غير النقد – عدا ما تتحلى به النساء – وفرض عليهما الزكاة حتى يتم دفعهما للاستثمار ووضع لهما القواعد التي تكفل حسن الاستخدام في الوظيفة الشرعية لهما .

٧- **تعتبر القواعد السابقة ضوابط تربوية** ، تقوم بعلاج الفطرة الإنسانية التي جبلت على حب المال ، فتهذب هذه الفطرة بتدريبها بالاكتساب من حلال دون الحرام ، من خلال النشاط الإيجابي المثمر، وتقديم القرض الحسن ، والحث على الشركة ، وبذلك يبث التشريع الإسلامي روح الإيجابية والتعاون والتكافل بين أبناء المجتمع .

وبذلك يكون التشريع الإسلامي قد وضع قواعد واضحة ومتكاملة لتداول المال وتملكه طبقت بمنهجية ناجحة خلال عقود زمنية طويلة ثبت فيها تفوق النموذج المالي

الإسلامي طيلة العصور السابقة ، أما بالنسبة للعصر الحديث فقد أثبتت البنوك الإسلامية التي تعتمد على تطبيق قواعد شركة المضاربة الشرعية ، بدلا من الربا بين البنك وبين المودعين ، وعقود البيوع والإجارة ، بدلا من الربا بين البنك والمستثمرين ، وبذلك يكون المنهج الإسلامي مؤهلا للتطبيق في كل زمان ومكان ، بل أن الحقبة الأخيرة من المشكلات المالية في المجتمع الغربي أدت إلى رغبته في تطبيق العقود الإسلامية بدلا من الربا المحرم وإنشاء البنوك الإسلامية .

وبذلك يثبت الفرض الأول للبحث وهو :

وضعت الشريعة الإسلامية قواعد متكاملة لتنظيم المال ، وحفظ الحقوق ، تشمل : تحريم الربا واستبدلته بكل من القرض الحسن والشركة ، ليقوما بالوظائف الإقتصادية والاجتماعية التي يحتاجها المجتمع ، وتحريم بيع الدين بالدين ، وكذلك تنظيم وظيفة النقد من خلال تحريم ربا الفضل في النقود ، واعتباره معيارا ومخزنا للقيمة ، ووسيلة للتبادل ، وتحريم استخدامها باعتبارها سلعة حتى لا يتفشى الفساد والإضرار بحقوق الناس ، ويتحقق العدل وسلامة وأمن المجتمع .

كما يتحقق الهدف الأول والثاني من البحث وهما :

- إثبات السبق الإسلامي في تحريم الربا مع تقنين بدائل متكاملة ، تقوم بالوظائف الاقتصادية والمالية التي تغني المجتمع عن الحاجة له .

- صلاحية المنهج المالي الإسلامي للتطبيق في كل زمان ومكان .

نتائج الفصل الثاني

دراسة تحليلة لتبرير سعر الفائدة (الربا) في ضوء المنهج العلمي

أولا : عقد الربا أو سعر الفائدة هو عقد لا يتوافق مع المنهج العلمي السليم ، بل ويتعارض مع القوانين الرياضية والإحصائية ، ويتنافى مع واقع الأعمال للأسباب الاتية :

١- عقد الربا يأخذ احتمال الربح فقط دون احتمالين قائمين هما : احتمال حدوث خسائر، واحتمال تعادل الإيرادات ، مع التكلفة بدون تحقق ربح أو خسارة .

٢- اختيار احتمال نسبة معينة من الربح لا يقوم عليه دليل موضوعي ، إذ قد تتحقق أضعافها أو أقل منها ؛ لأن احتمال الربح ذاته ينقسم إلى احتمالات أخرى عديدة تم اختيار أحدها دون باقي الاحتمالات باعتباره حقيقة يقينية مع أنه مجرد احتمال يقبل الحدوث بنسبة لا تبلغ درجة التأكد .

٣- وبذلك يستحيل في أي عقد للربا أو الفائدة ؛ أن يتوافق سعرها بالصدفة مع معدل العائد الفعلي العادل الذي يجب أن يحصل عليه صاحب القرض أو الوديعة ، وفي هذه الحالة يكون قد حدث غبنا لأحد الطرفين ، إما المقترض الذي يستثمر المال ويكون قد دفع الفائدة ولم يتحقق له العائد المجزي الذي يستحقه ، وإما المقرض الذي شارك ماله في الاستثمار الذي حقق أرباحا كبيرة لم يحصل منها إلا على القليل .

٤- يتعارض عقد الربا مع المنهج الإحصائي الرياضي الذي أخضع نتائج أعمال القطاعات الاقتصادية لقانون الاحتمالات، وبذلك يكون العائد المقدر نسبة محتملة لا تصل درجة التأكد فيها أبدا لنسبة ١٠٠ ٪ وفي نفس الوقت يؤدي هذا العقد إلى وقوع التزام مالي يقيني على المدين .

ويتبين لنا مما سبق قدر التعارض بين منهج سعر الفائدة وبين المنهج العلمي القائم على أساس القوانين الإحصائية والرياضية بينما يتوافق هذا المنهج مع المنهج الإسلامي بتحريم سعر الفائدة توافقا تاما .

ثانيا : استعرض البحث حجج عديدة تبرر سعر الفائدة Rate of Interest وهي :

- الحجة الأولى : سعر الفائدة هو ثمن استخدام النقود .

-الحجة الثانية : ضرورة الفصل بين رأس المال والمخاطرة .

-الحجة الثالثة : ضرورة سعر الفائدة لعمل دراسة الجدوى الاقتصادية Feasibility Study عند إنشاء المشروعات الجديدة .

-الحجة الرابعة : أن سعر الفائدة يتم تحديده بالاعتماد على العائد المحقق من أرباح المشروعات التي يشارك فيها المال المقترض .

وبمناقشة كل أسانيد هذه الحجج في ضوء المنهج العلمي ؛ لم يثبت صحتها وتم إثبات مخالفتها للقواعد المستقرة في الدراسات الإحصائية والرياضية.

ثالثا : طرق تقدير سعر الفائدة : تعرض البحث لطرق تقدير سعر الفائدة تحديدا للمسئولين عن تقنينها وتقديرها فتبين وجود سببين :

السبب الأول : تدخل السلطات المالية في تحديد سعر الفائدة عن طريق التمويل بالعجز:

بمعنى أن السياسة المالية التي تضعها الدولة هي المسئول الأول عن تقنين نظام سعر الفائدة ؛ لأنها المدين الأول والأساسي المهيمن على النشاط من ناحية ، كذلك باعتبارها المسئولة عن إصدار أذون الخزانة قصيرة الأجل ؛ والسندات طويلة الأجل بفائدة ثابتة من ناحية أخرى ، وبذلك تعتبر السياسة المالية المعاصرة ؛ هي المسئولة عن استحداث مفهوم " احتمال الربح في حالة التأكد " اعتمادا على قدرة الدولة على ضمان رد القرض أو السندات بفوائدها ولو عن طريق التمويل بالعجز أو فرض ضرائب جديدة ، وبذلك يكون التأكد " مفهوم مصطنع " لا يتوافق مع آلية النشاط الاقتصادي والمنهج العلمي .

السبب الثاني : العرض والطلب على النقود : ويقصد بهم المستثمرين في السوق المالي وتقع عليهم مسئولية ثانوية في عرض وطلب النقود ، إذ أن السلطة النقدية يمكنها إعادة توجيههم طبقا للسياسات المالية المتبعة .

رابعا : مثالب وعيوب استخدام نظام سعر الفائدة :

١- يؤثر سعر الفائدة على تكلفة إنتاج السلع ، والخدمات بالزيادة باعتباره تكلفة ثابتة fixed cost تمثل عبئا لا يستطيع المشروع تخفيضه خاصة في حالة خفض الإنتاج أو الركود وبالتالي يرفع من تكلفة الإنتاج وقد تناول البحث دراسة تطبيقية على عينة من البنوك التجارية أثبتت ارتفاع التكلفة الثابتة نتيجة لسعر الفائدة ب ٢٥٪ إلى ٨٠٪ ، وهو ما يؤثر على:

أ- ارتفاع تكلفة المنتج أو الخدمة وخاصة في أحوال الركود والانكماش لصعوبة تخفيض التكلفة الثابتة .

ب- مما يؤدي إلى ارتفاع سعر المنتج أو الخدمة ، وبالتالي صعوبة حصول ذوي الدخل المحدود والفقراء عليها .

ج- وما يؤدي إليه ذلك في النهاية من التأثير على الدخل والتوظيف .. الخ .

٢- يؤدي ارتفاع سعر الفائدة إلى التأثير السلبي على الإنفاق على الاستثمار نظراً لإمكانية توجيه الأموال للاستثمار المضمون في السندات والودائع دون الاستثمارات الحقيقية التي يحتاجها المجتمع وهو أيضا ما ينشر الفكر السلبي تجاه الاستثمار إذ يحافظ على وجود فئة كل همها أن تنتظر جني الفوائد بدون تحمل مخاطر الاستثمار الفعلية .

٣- يؤثر سعر الفائدة على قياس كفاءة استخدام الموارد المتاحة للمنشأة وتقييم أداء الإدارة Evaluating a Firm›s Performance.

٤- يؤدي سعر الفائدة إلى عدم تحقق العدالة في توزيع العائد على عناصر الإنتاج في القطاع المصرفي وفي الإدارة ، وقد أثبتت الدراسة التطبيقية على عينة من البنوك التجارية أن حقوق المساهمين في المتوسط أقل من ٨ ٪ والمودعين ما يزيد عن ٩٢٪ ، ومع ذلك فللمساهمين حق الإدارة ولكنهم لا يسألوا أو يحاسبوا عن تجاوزات إدارة البنك مهما أثرت على النشاط المالي المحلي والدولي . كما يجني المساهمون أرباحاً ضعف ما يتحقق للمودعين من فوائد في حالة الرواج من استثمار أموال المودعين وأنشطة المقترضين ، ويتحمل المقترضون أصحاب الأعمال كافة المخاطر التي قد تؤدي إلى حدوث الخسائر أو إفلاسهم ولا يتحمل المساهمين

الخسائر إلا بقدر أسهمهم ، وبالتالي يؤثر نظام سعر الفائدة على عدالة التوزيع ، وعدالة حق الإدارة ، وقد وضحت الدراسة التطبيقية أن متوسط ما يحصل عليه المساهم في البنوك يزيد عن ضعف معدل العائد الذي يحصل عليه المودع مع أن كلاهما قدم المال الذي اشترك في نفس الاستثمارات عن نفس الفترة الزمنية ولم يقدم أحدهما عنصر العمل .

٥- يوجه نظام الفائدة الأموال لتمويل المشروعات المغطاة بأكبر ضمانات متاحة بغض النظر عن دورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٦- يوجه نظام الفائدة الموارد المتاحة للمشروعات ذات الربحية السريعة ، بغض النظر عن دورها في توفير الإنتاج الحقيقي.

وبذلك يكون الفصل الثاني قد أثبت فروض البحث التالية :

١- ينبني نظام سعر الفائدة على فروض نظرية لم يثبت صحتها ولا تتبع المنهج العلمي السليم.

٢- يبرر الاقتصاديون سعر الفائدة بحجج لا تعتمد على منهج علمي سليم .

٣- أثبت البحث أن السياسة المالية التي تنتجها الحكومات عن طريق التمويل بالعجز هي المسئول الأول عن تطبيق نظام سعر الفائدة بإصدار الأذون ، والسندات الحكومية لتغطية ارتفاع النفقات عن الإيرادات ، ويستند إليها البعض في تصنيف الاستثمارات إلى استثمارات بدون مخاطر- بما يتعارض مع واقع الأعمال- باعتبار أن الحكومات تضمن رد القروض وفوائدها .

٤-ينقص نظام سعر الفائدة من حقوق أحد طرفي العقد ، المدين أو الدائن لحساب الطرف الآخر بدون مقابل عادل .

٥- سعر الفائدة له تأثير سلبي شديد الأثر على الإنتاج والاستثمار والتوزيع .

ويكون الهدف الثالث قد تحقق وهو :

إثبات توافق تشريع تحريم الربا مع المنهج العلمي الموضوعي وعلى العكس تعارض عقد الربا مع المنهج العلمي .

الفصل الثالث

دراسة تحليلية لتأثير سعر الفائدة / الربا على الاقتصاد المعاصر

حالة مصر – حالة الولايات المتحدة الأمريكية

أثر الربا أو نظام سعر الفائدة تأثيرا سلبياً كبيراً على البشرية منذ مهد الحضارة الإنسانية، ولكن في الواقع حمل العصر الحديث كثيراً من ويلات وسوءات هذا النظام بما نعتقد انه لم يسبق حدوثه على مر الأحقاب السابقة ، وهو ما سيتضح من الدراسة المعاصرة لتأثير نظام الفائدة على نموذجي الدراسة : مصر والولايات المتحدة الأمريكية كما يلي .

الحالة الأولى : دراسة أثر الربا على مصر في العصر الحديث

لعب الربا أو سعر الفائدة دورا محوريا سالبا في مستقبل مصر في العصر الحديث بدءً من سنة ١٨٦٠ حتى عصرنا الحاضر ، واختيار مصر في الدراسة معني لأنها أكبر بلد عربي إسلامي سكاني من ناحية ولأنها كانت مهد الخير والعطاء عندما كانت ظروفها الاقتصادية والمالية تسمح بذلك من ناحية ثانية ولأنها كانت القوة العسكرية والسياسية التي تتصدى لأعداء الأمة من ناحية ثالثة ، وذلك من خلال التقسيم التاريخي إلى جزئين كما يلي .

الجزء الأول : أثر النظام الربوي على مصر من سنة ١٨٦٠ حتى سنة ١٩٤٢ :

استعرضت الدراسة بالأرقام ما آل إليه وضع مصر في هذه الحقبة وتطور الديون ، وبإيجاز شديد تم استعراض ما يلي :

أ- قروض الخديوي سعيد : بدأت بمبلغ ٣,٥ مليون جم وقيمته الحقيقية ٢,٤ مليون جم نظرا لإصداره بخصم إصدار حتى تكون قيمته الاسمية أعلى من قيمته الحقيقية ، وهو ما طبق في كل القروض التي عقدتها الجهات الأجنبية الدائنة .

ب- قروض الخديوي إسماعيل : عقد الخديوي إسماعيل قروضا شخصية حولها الدائنين إلى قروض على الدولة ، وقروض أخرى لتمويل مشروعات عامة ، وقد ساهمت كل تلك القروض وفوائدها في تفاقم مديونية مصر وأدت إلى ما يلي :

١- سداد مصر فوائد في الفترة من ١٨٧٦-١٩٤٢ أكثر من ٢٤٥ مليوناً لمبلغ ٧٦ مليوناً، صدرت هذه الفوائد للبلاد الأوروبية ، مما تسبب في نزيف دائم للاقتصاد المصري ، مع أن إيرادات مصر كانت ٨,٥ مليون جم سنة ١٨٨٠ ، والفوائد المدفوعة ٣,٩ مليون جم أي بلغت نسبة الفائدة ٤٦٪ من الإيرادات ، وفي سنة ١٩٠٠ كانت مصروفات مصر ٩,٧ مليون جم منها ٣,٨ مليون جم فوائد أي أنها بنسبة ٣٩٪ ، مع أن تكلفة إنشاء سد أسوان بلغت ٢ مليون جم ، وبذلك كانت الفوائد تكفي لإنشاء أكثر من ١٢٢ مشروعا بهذا الحجم الضخم .

٢- إنشاء صندوق الدين سنة ١٨٧٦ لتحصيل حقوق الدائنين الذي سحب اختصاصات وزارة المالية ، وأطلقت يده في جمع الإيرادات ، وحرمت الحكومة المصرية من عقد معاهدات دون موافقة إدارته الأجنبية ، ورفضه كثير من مصالح مصر مثل إنشاء سد أسوان .

٣- إنشاء المحاكم المختلطة التي عملت على نهب الأجانب لأموال المصريين والحكومة المصرية بأحكام قضائية صارخة ابتزت أموال مصر، كما ساندت هذه المحاكم صندوق الدين بغير حق ، حتى أن بعض أحكامها استفز اللورد كرومر الذي هاجمها سنة ١٨٨٤ .

٤- أدى تدخل القوى الأجنبية نتيجة للديون وضعف الدولة إلى احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ مما أدى إلى إنشاء الامتيازات الأجنبية التي حملت مزيدا من الظلم ، ونهب موارد الدولة ، والتدخل السافر في مصالحها ، وأسفرت مديونية مصر عن تكالب كل من بريطانيا وفرنسا على الاحتلال المالي والاقتصادي والثقافي إلى جانب السياسي .

ج - أثر النظام الربوي على الدولة العثمانية :

اتجهت الدولة العثمانية أيضا إلى أوروبا للاقتراض بضمان الإيرادات التي كانت تحصلها من ولاياتها ، فعقدت ثلاثة قروض بفوائد تحملتها الحكومة المصرية وهي ، الأول : ١٨٥٥ بمبلغ ٥ مليون جنيه إسترليني ، الثاني : قرض الدفاع العثماني سنة ١٨٩١ ، الثالث : ١٨٩ مليون إسترليني ، وقد أدت هذه القروض لزيادة ضعف الدولة العثمانية ، ووضعت – للأسف–النهاية الحزينة للخلافة الإسلامية ربما لأجل غير مسمى وأصبحت وثيقة على تخلف الأمة الإسلامية وانتهاء دورها .

الآثار السلبية التي جنتها مصر من الديون الربوية على الجوانب الاقتصادية والسياسية :

١- أسفرت الديون بالربا التي عقدتها مصر مع الدائنين الأجانب عن ضياع استقلال البلاد سياسيا وعسكريا ، لمدة تزيد عن نصف قرن .

٢- أدت هذه الديون لنهب موارد البلاد ، وتراكم الفوائد المركبة ؛حتى تضاعف حجم الدين عدة مرات ، وحرمت البلاد من الاستفادة من مواردها التي سخرت للوفاء بديون الدائنين دون أبنائها.

٣- أثقلت الديون ميزانية مصر حتى أصبحت غير قادرة على الإنفاق على الصحة والتعليم والمشروعات العامة ، وإحداث أي تنمية اقتصادية ومنها حرمان مصر من الاحتياطي النقدي لدى صندوق الدين لإقامة سد أسوان مثالا على ذلك .

٤- سادت مشاعر الإحباط والكراهية لدى المصريين للحكام والرأسمالية الوطنية مما أشاع أحاسيس اليأس واحتقار ما هو مصري ، حتى قال الزعيم مصطفى كامل قولته الشهيرة لرفع معنويات الشباب المصري " لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا " وهو ما انتهى بالبلاد إلى ثورة يوليو ١٩٥٢ .

٥- كما لا يخفى على أحد أن القروض بالربا المحرم كانت أيضا سببا رئيسيا من أسباب تدهور الدولة العثمانية ، وانتهاء دولة الخلافة الإسلامية ، نهاية لا يتصور قيام لها ، مما نتج عنه ضياع الاستقلال السياسي والاقتصادي لباقي الدول العربية والإسلامية ، وهو ما انتهى ببلاد الأمة إلى تقطيعها لمستعمرات تخضع للحكم الغربي طبقا لاتفاقية " سايكس بيكو " التي وزعت الدول العربية إلى إقطاعيات تحت الحكم الإنجليزي والفرنسي والإيطالي ، وأيضا تم إنشاء " وعد بلفور" بإقامة دولة إسرائيل في فلسطين العربية ، وبالتالي أصبحت سببا مباشرا للنزيف المستمر لشباب الأمة، ومواردها المالية وتهديدا مروعا لمستقبلها .

ولا يتصور المعاصرون أن شعوب الأمة الإسلامية قد تحررت في العصر الحاضر من الاستعمار الغربي ، فما زالت مجتمعاتنا مبهورة بالفكر، والثقافة الغربية ، وتعتبره النموذج الأمثل الذي يستطيع أن يوفر لأبنائه ما يتطلع إليه من الحياة الكريمة والتشريعات المتكاملة رغم بعدها عما ورد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

الجزء الثاني : تأثير الاقتراض بالربا في الفترة المعاصرة من سنة ١٩٦٠م حتى تاريخه: ويتمثل في التمويل بالعجز عن طريق القروض :

أولا : الاقتراض بالفائدة من القطاع المصرفي :

١– قدم القطاع المصرفي المصري من خلال ودائع المجتمع قروضا ميسرة لمنشآت القطاع العام وقطاع الأعمال العام التي فشل كثيرا منها في الالتزام بسداد مديونياته ، وكان لتراكم هذه المديونية تأثيره السلبي على ربحية هذه الشركات ، وحقق الكثيرمنها خسائر متوالية مما كان له تأثيره في الإسراع بخصخصة هذه الشركات وتقييمها بأقل كثيرا من قيمتها ، تأثرا بالقروض والفوائد التي تعرقل نموها وربحيتها ، وهو ما سبب ضياع ممتلكات الدولة لأهم عناصر الإنتاج بها ، نظرا للمآخذ التي ارتبطت بعدم الرشد الاقتصادي في استخدام الموارد المالية المتاحة .

٢– امتد الإسراف في استخدام القروض المصرفية إلى كثير من رجال السلطة ، مثل نواب القروض وكثيراً من كبار المسئولين الذين استثمروا مراكزهم في الحصول على قروض بضمانات ضعيفة أو شخصية ، وما يزال بعضها حتى الآن .

ثانيا : التمويل بالعجز عن طريق إصدار الأذون والسندات :

بلغت الديون نتيجة للتمويل بالعجز مبلغا يؤثر سلبا على التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وينقسم دين الدولة إلى دين داخلي ودين خارجي كما يلي :

أ– الدين الداخلي : ويتكون الدين الداخلي من عناصر شتى (تم الاستعانة بالبيانات المنشورة للبنك المركزي المصري) فتطور بدءً من ٤٣٤٨٤٦ مليون جم سنة ٢٠٠٤ حتى بلغ ٨٦٣٢٩٧ سنة ٢٠١٠ .

ب– موارد بنك الاستثمار القومي : (موارد البنك جميعا ديون على الدولة لصالح أصحاب الأموال) وقد تطورت من ٢٠٠٤–٢٠١٠ بدءً من ٢٩٤٥٥ مليون جم سنة ٢٠٠٤ حتى بلغت ٢١١٢٩٤ مليون جم سنة ٢٠١٠ .

وبذلك يكون متوسط نصيب الفرد من الدين الداخلي سنة ٢٠١٠(على أساس عدد السكان ٨٠ مليون نسمة) = ١٣٤٣٢,٣٨٨ جم .

ج – الدين الخارجي : تطور من ٢٩٨٧٢ مليون $ سنة ٢٠٠٤ حتى بلغ ٣٢٢٧٧,١ مليون $ سنة ٢٠١٠ .

وبذلك يكون نصيب الفرد من اجمالي الديون = ١٥٧٥٢,٣ جم .

د- خدمة الدين المحلي والخارجي سنة ٢٠٠٩ / ٢٠١٠ :

إجمالي المصروفات : ٣٩١٠٥٠ جم . إجمالي الايرادات ٢٩٧٦٣٩ مليون جم .

بلغت الفوائد المحلية : ٥٩٨٠٤ مليون جم والفوائد الخارجية : ٢٨٣٩ مليون$، وهي تساوي ١٦٣٢٤,٢٥ مليون جم (بسعر ٥,٧٥ جم للدولار) الإجمالي = ٧٦١٢٨٢٥٠٠٠٠ جم

فتكون نسبة الفوائد إلى إجمالي المصروفات = ١٩,٥٪ .

نسبة الفوائد إلى إجمالي الإيرادات = ٢٥,٥٧٪ .

نتائج الديون على اقتصاد مصر :

١- أثقلت الديون كاهل الميزانية بعبء الفوائد المركبة المتراكمة من سنة لأخرى حتى بلغت حصة الفرد منها مبلغ ١٥٧٥٢,٣ جم .

٢- تشير هذه الديون وتزايدها عاما بعد عام إلى عدم الرشد الاقتصادي في الإنفاق العام

٣- كما تؤكد نتائج استغلال هذه الديون ضعف قدرة الدولة على استثمار الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة بما يحقق أعلى جدوى اقتصادية ومالية منها .

٤- تؤثر هذه الديون وفوائدها على خطط التنمية الاقتصادية ، والإنفاق على الخدمات العامة ، وخاصة الصحة والتعليم وتطوير الزراعة والبحث العلمي مما أدى إلى معاناة المجتمع المصري خلال الحقبة الأخيرة من أمراض صحية واجتماعية لم تكن موجودة من قبل ، وهي تهدد أمن وسلامة المجتمع المصري .

٥- يتدخل البنك الدولي بكثير من التوصيات الآمرة للحكومة المصرية لحفظ حقوق الدائنين والتي تؤثر سلبا على كثير من مصالح المجتمع على غرار صندوق الدين فترة الخديوي إسماعيل

٦- تلقي هذه الديون أعبائها الثقيلة على الأجيال القادمة ، التي قطعا ستعاني الكثير حتى يتم سدادها وفوائدها ؛ بالإضافة إلى التدخل الأجنبي السافر من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في كثير من أمور الدولة سياسيا واقتصاديا على غرار ما كان يحدث في ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر.

الحالة الثانية : دراسة أثر الربا على الولايات المتحدة الأمريكية

سبب اختيار الولايات المتحدة الأمريكية :

يعتبر اختيار الولايات المتحدة في الدراسة مقصودا باعتبار ما يلي :

١- تعتبر الولايات المتحدة من أكبر وأغنى دول العالم اقتصاديا وعسكريا وحضاريا، فهي النموذج الحضاري الذي يحتذي به معظم دول العالم ، وخاصة الدول الإسلامية والعربية .

٢- كما أن الولايات المتحدة دولة محورية ، فهي من أكثر دولا العالم تأثيرا في النظام الاقتصادي والمالي العالمي .

٣- أن نظامها المالي قد أثر تأثيرا مدمرا في الحقبة الأخيرة على النظام المالي العالمي ، من خلال سعر الفائدة بحدوث الأزمة المالية العالمية التي بدأت من قطاعها المصرفي ، لتمتد منه إلى معظم أنحاء العالم .

وقد تناول البحث تأثير سعر الفائدة ودورها من خلال الجوانب الآتية :

١- خصائص النظام المصرفي الأمريكي وقوة تأثيره على العالم .

٢- دور نظام سعر الفائدة في تمويل النظام المالي في الولايات المتحدة .

٣- تأثير سعر الفائدة على صنع الأزمات المالية في الولايات المتحدة ، وكثير من دول العالم.

وسيتم استعراض النتائج التي توصل لها البحث في كل منها باختصار كما يلي :

الجانب الأول : خصائص النظام المصرفي الأمريكي القائم على سعر الفائدة :

١- يختص النظام المصرفي الأمريكي بخصائص معينة ، حيث تمتعت عملته النقدية

-الدولار الأمريكي- بقبول واسع طيلة الأحقاب السابقة ، وهو ما شجع النظام على رفع غطاء العملة الذهبي ، وفقا لاتفاقية بريتون وودز في القرن الماضي، وأصبح له الحق في الإصدار النقدي وقتما شاءت أجهزة الدولة .

٢- نتج عن ذلك إيداع مدخرات ضخمة من قبل كثير من المؤسسات الاقتصادية والأفراد ، من كبار الرأسماليين في العالم ، وكبار رجال الدول النامية، والأثرياء من الساسة، وحكومات بعض الدول المتعاملة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، مما ضخم قدر الهيمنة النقدية والمصرفية للقطاع المصرفي الأمريكي على العالم .

٣- ربطت بعض الدول العربية قيمة عملاتها بالدولار الأمريكي بعلاقة ثابتة ، وهو ما يؤثر على قيمة عملاتها في حالة انخفاض قيمة الدولار، ويؤثر على قيمة ودائعها في البنوك الأمريكية من ناحية ، ويؤثر على مستحقات هذه الدول التي تستحق وتدفع بالدولار من ناحية أخرى .

٤- كان نتيجة كل ما سبق أن تؤثر فائدة رأس مال البنوك الأمريكية ، ليس على اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية فقط بل يمتد تأثيرها حتما إلى باقي دول العالم ، كل بحسب مدى معاملاته معها وقدر ارتباط عملته بها .

الجانب الثاني : دور نظام سعر الفائدة في تمويل النظام المالي في الولايات المتحدة :

أولا : تمويل النفقات العامة عن طريق الاقتراض :

عندما تصبح إيرادات الدولة قاصرة عن الوفاء بتمويل البرامج الحكومية الأمريكية ، يعتمد الكونجرس بشدة على خزانة الدولة ، وقدرتها على الاقتراض، وعلى أسواق المال لتمويل هذه البرامج وهو ما يحدث بشكل مستمر ويسمى بالسياسة المالية Policy Fiscal حتى لقد بلغ الدين القومي ٨٨١٩٢٧٨٨٥٧٦٥٢ $ في مايو ٢٠٠٧ بإصدار السندات وأذون الخزانة .

ثانيا : تحكم الدولة في سعر الفائدة عن طريق تحديد فوائد أذون الخزانة والسندات الحكومية المصدرة من الدولة :

تتحكم الدولة في سعر الفائدة عند إصدار أذون الخزانة ، أو السندات الحكومية لمدد سنوية

بأسعار فائدة معينة ، وهي من أهم دعائم نظام الفائدة حيث تعتبر استثمارات خالية من المخاطر لأنها مضمونة من قبل الدولة . ويعتبر مستوى سعر الفائدة أداة منظمة للتحكم والسيطرة في التدفق النقدي بين الطرفين ، كما تضع السلطة النقدية الفيدرالية القواعد الملائمة للسيطرة في حالة الضرورة لرفع أو خفض سعر الفائدة للتحكم في التضخم أو الانكماش .

ثالثا : تدخل حكومة الولايات المتحدة المباشر في تنظيم القطاع المصرفي :

يعتبر مجلس الاحتياطي الفيدرالي - المصرف المركزي الأمريكي - Federal Reserve Board أحد أهم عناصر السيطرة على القطاع المصرفي الأمريكي ، وتضع الدولة السياسات العامة للقطاع المصرفي في كل من :

١ - تحديد سقف الائتمان : مثلما تدخلت سنة ٢٠٠٣ برفع سقف الائتمان في التمويل العقاري .

٢ - وضع الحد الأقصى أو الأدنى للفائدة المصرفية : مثلما فعلت من سنة ٢٠٠١ وما بعدها بتخفيض سعر الفائدة على القروض العقارية ، ثم رفعها مما ضاعف الفوائد المستحقة، ومن ثم بدأ تعثر المدينين .. الخ .

٣- تتدخل الدولة في تغيير سعر الفائدة في ظروف معينة ، كما تدخلت مثلا الولايات المتحدة الامريكية خلال الأزمة المالية .

وتوضح الدراسة دور الإقراض بالفائدة عن طريق السندات والبنوك بما يشير لأهميتهما القصوى في تمويل النشاط ؛ إذ يزيد مجموعهما على ٩٠٪ من مصادر التمويل وتشغل الأسهم ١٠٪ فقط في السوق الأمريكي .

رابعا : تأثير التدخل غير المباشر في التحكم في سياسة الائتمان :

١ - تؤدي زيادة أو خفض الإنفاق الحكومي لزيادة أو خفض الأعمال ودخول الأفراد بما يؤثر على طلب مجتمع الأعمال على الائتمان .

٢ - عندما يتم تمويل زيادة الإنفاق الحكومي عن طريق العجز (بالاقتراض) وعن طريق السندات الحكومية تتأثر أسعار الفائدة .

٣- قد تتخذ قرارات برفع الضرائب ، وخفض الإنفاق تؤدي إلى تخفيض الاقتراض

الحكومي وتدفع أسعار الفائدة للانخفاض مما يؤثر على إيرادات البنوك من القروض وسائر الخدمات المصرفية الأخرى تأثرا بحركة أسعار الفائدة .

٤- يستخدم كل من سعر الفائدة وسعر الخصم كأداة لتحريك الائتمان في السوق النقدية

٥- وبالتالي يؤثر سعر الفائدة المطروح من كل من الدولة ، والمؤسسات المصرفية ، وغير المصرفية ، على حجم التمويل المطروح للاقتراض ، والمطلوب من المقترضين والمستثمرين .

٦- السماح بممارسة الأنشطة المالية عالية المخاطر مثل التوريق والمشتقات .

الجزء الثالث: أثر سعر الفائدة في صنع الأزمات المالية في أمريكا وتأثيرها على باقي دول العالم :

١- تسبب سعر الفائدة في صنع الأزمات المالية خلال القرنين الماضيين في الولايات المتحدة الأمريكية ، كما سبب حدوث أزمات مالية مرت بدول العالم الأخرى مثل : أزمة المكسيك سنة ١٩٩٤ ، أزمة دول شرق آسيا بدأت في يولية ١٩٩٧ (تايلاند - ماليزيا - اندونيسيا - الفلبين -كوريا الشمالية) أزمة الأرجنتين ٢٠٠١ .

٢- أثبتت الدراسة دور سعر الفائدة في صنع الأزمة المالية العالمية سنة ٢٠٠٧ عن طريق الفوائد المصرفية في القروض والتوريق والمشتقات من خلال :

- دراسة أسباب انهيار القطاع المصرفي الأمريكي .

- تم إجراء دراسة تطبيقية على بعض البنوك الأمريكية : تناول البحث بدراسة تطبيقية لتقارير مكتب المفتش العام Office of Inspector General وتمثل عينة من البنوك الأميركية المنهارة لتوضيح مسئولية نظام سعر الفائدة عن إنهيار هذه البنوك .

٣- حصر الآثار السلبية للأزمة من ٢٠٠٧-٢٠١٠ على كل من : الولايات المتحدة الأميركية ، دول أوروبا الغربية ، دول جنوب شرق آسيا ، الدول العربية ، وذلك بالنسبة لمجالات : البورصات ، أسواق الطاقة والمواد الأولية ، السياحة والاقتصاد .

٤- فشل الضوابط المالية والمحاسبية في حفظ النظام المصرفي الأمريكي نتيجة للفساد المالي والإداري :

خلال العشرين سنة السابقة على الأزمة انشغلت كثيرا من المجالس العلمية المرموقة، وسلطات ذات مكانة مالية واقتصادية رفيعة بوضع ضوابط قانونية وعرفية وأخلاقية؛ لتنظيم وحماية الاقتصاد الأمريكي والدولي في نشاط الأعمال والمصارف ومن أمثلة هذه الضوابط : تطوير أدوات النظام المحاسبي الداخلي ، تطوير دور ومسئولية مراقب الحسابات، مقررات بازل ١١ ، قواعد الحوكمة ، قانون سيربانس أوكسلي Sarbanes Oxley ، المعايير المحاسبية الدولية I A S ، وكالات التصنيف الائتماني ، التقييم باستخدام القيمة العادلة Fair Value .. الخ.

وبذلك فقد أثبت البحث أن كل هذه الضوابط لم تفلح في منع حدوث كارثة مالية ، بدأت من أعظم الدول اهتماما بهذه الضوابط ، بل إن معظمها نابع من البيئة العلمية والمهنية الأمريكية ، لتصنع كارثة دولية يحصد نتائجها الجميع ، حتى الأبرياء من العاملين الذين فقدوا وظائفهم نتيجة لهذه الأزمة ، ومن المستثمرين في أقاصي الدنيا في البورصات المحلية التي تأثرت .. والكثير جدا مما لا يمكن حصره وقياسه حتى تاريخه ، وصدق الله العظيم في قوله تعالى : " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " الأنفال / ٢٥.

فقد كانت هذه الضوابط تطبق شكلا دون مضمون ، بما يؤكد سوء النية المبيتة من كثير من المسئولين عن تطبيقها ، والملفت للانتباه انه على عظم نتائج الأزمة المالية على جميع الأصعدة ، إلا أنه لم يتم محاسبة مراقبي حسابات البنوك المنهارة الذين قدموا تقاريرهم المالية السنوية باعتبارها " تقارير نظيفة " قبل انهيار البنوك الأمريكية مباشرة ، أي أنه لم يتم التحفظ فيها على أعمال الإدارة بالإشارة صراحة أو ضمنا ، على الرغم من مسئوليتهم القانونية عن نتائج هذه التقارير ، وتجريم القانون الأمريكي لها ، وهو ما سبق حدوثه لواحدة من أكبر شركات المحاسبة في العالم وهي شركة آرثر أندرسون Arthur Anderson التي كانت تراجع حسابات شركة " إنرون للطاقة " وانهارت سنة ٢٠٠١ وقضى بعض مسئوليها سنوات في السجون الأميركية جزاءً لهم على تقصيرهم أو تواطؤهم مع الإدارة على إخفاء حقائق عن أعمال الشركة كانت يمكن أن تفيد المساهمين والجهات الإشرافية لو نشرت في الوقت المناسب.

فهل كان انهيار شركة إنرون أسوأ أثرا من نتائج الأزمة المالية ؟ ولماذا لم نسمع منذ ٢٠٠٧

حتى تاريخه عن مساءلة شركات المحاسبة والتدقيق التي كانت مسئولة عن البنوك المنهارة ؟

وبذلك يثبت البحث عدم جدوى الضوابط التي وضعتها أعلى المجالس العلمية والسلطات العليا وهو ما نفسره بسببين :

١ – أن مفهوم سعر الفائدة يعمق هدف تعظيم المال بما يدفع النفوس الضعيفة للتجاوز عن كثير من القيم الأخلاقية .

٢ – أن ضوابط التشريع الوضعي الأمريكي لم تصل إلى عمق الضمير الإنساني المرتبط بخشية الله سبحانه وتعالى في السر والعلن وهو ما أدى لحدوث الأزمة .

وهذا على خلاف المنظومة التشريعية الإسلامية التي وضعت الضوابط التربوية للمجتمع الإسلامي –التي سبق بيانها في الفصل الأول– بالنسبة لإكتساب المال وتنظيم تداوله بما يربي الفطرة الإنسانية السليمة على الخيرية والتعاون والتراحم ، حيث شرعت ضوابط متكاملة من الحل والتحريم والمندوب وترتبط بالعقيدة التي تكون سياجا مانعا للنفس من الإنحراف ومحفزا لها على العمل الصالح .

وبذلك يكون البحث قد أثبت الفرضية السادسة والأخيرة وهي :

أن نظام سعر الفائدة هو السبب الرئيسي في الفساد المالي والإداري والسياسي في كل من مصر والولايات المتحدة الأمريكية والذي امتد منها لسائر دول العالم وتم إثباته من خلال استعراض نظام الربا في النظم المالية في العصر الحديث في مصر ، ونهاية القرن العشرين والقرن الحالي في أمريكا وامتد تأثير النظام لصنع الأزمات المالية التي أطاحت بثروات عظيمة ومصالح ضخمة لملايين البشر على كل من المستوى المحلي والدولي .

ويكون البحث قد حقق الهدف الرابع والأخيروهو :

إثبات الأضرار الجسيمة التي يسببها التعامل بالربا لكافة المجتمعات البشرية .

وبذلك يكون تحريم الربا معجز بكل ما تحمله الكلمة من معان ، وبرهانا لا جدال فيه على أن هذا التشريع المحكم من لدن حكيم عليم ، ويكون البحث قد قدم دليلا جديدا على آيات الله المعجزة ، تصديقا لكتابه الكريم وقوله تعالى: " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " (فصلت : ٥٣) صدق الله العظيم .



خروج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى

دكتورة / مها عبد الرحمن أحمد نتو



ملخص البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

أما بعد : ففي نظري أن مثل هذا الموضوع مهم جداً في عصر افتتن الناس فيه بالعلم الحديث ، وظنوا أنه شيء فوق التصورات العقائدية والشرائع السماوية،وأنه مبتوت الصلة بدين الله –تعالى– .

ولا شك أن هذا ظن عقيم ، وتصور خاطيء ، فمن المفروض أن يهتدي الإنسان بهذه القدرات العلمية ، لاسيما وقد تمخضت تلك القدرات العلمية الحديثة عن نتائج مذهلة دعت إليها نصوص الإسلام كتاباً وسنة منذ أربعة عشر قرناً من الزمان أو أشارت إليه يتصريح أو تلميح .

وليس لشك في تلك النصوص يُستدل لها بالعلم التجريبي ، لاسيما قد تكون تلك النتائج اجتهداً أو نظرية فليس معنى أن تكون النظرية أو الاجتهاد خطأً أن نخطيء النص الشرعي، وفي كل ما أوردته هنـــا لم أحمل نصاً فوق ما يحتمل أو أتكلف في فهمه وفق تلك النتيجة التي تمخض عنها العلم الحديث ، بل أوردت ما لا يمكن أن يُهمل أو يترك أو يُنظر إليه بعين الارتياب ، **ومن ذلك :**

١. كشفت الدراسات الحديثة التي قام بها مجموعة من العلماء المتخصصين في دراسة الظواهر الأرضية أن هناك علاقة بين الزلازل والبراكين ، وأنه يسبق ظهور البراكين حدوث الزلال وهو ما حدث في عام (٦٥٤هـ) .

٢. خروج نار من أرض الحجاز هي من علامات الساعة الصغرى التي وقعـــت ولا زالت مستمرة .

٣. هذه النار ليست هي النار التي تخرج في آخر الزمان ، تحشر الناس إلى محشرهم ، والتي تكون من علامات الساعة الكبرى .

٤. تُشير الدراسات العلمية التي أجريت على منطقة الحجاز إلى أن الثورات البركانية التي كونت حرة رهط قد بدأت منذ عشر ملايين من السنين على الأقل ، وأنها تميزت بتتابع عدد من الثورات البركانية التي تخللتها فترات من الهدوء النسبي ، ونحن نحيا اليوم في ظل إحدى هذه الفترات الهادئة نسبياً .

٥. بعد رسم خريطة الحرارة الأرضية في العالم تبين أن أعلى قدر من الحرارة الأرضية كانت تحت الحجاز وبخاصة تحت حرة خيبر.

٦. تم تسجيل زلزالين كبيرين وقعا في حرة خيبر ، أحدهما في سنة (٤٦٠هـ) (١٠٥٧م)، والآخر في سنة (٦٥٤هـ) (١٢٥٦م) ، وقد سبقت الزلزال الأخير أصوات إنفجارات عالية ، تلتها ثورة بركانية كبيرة ، وصاحبتها هزات أرضية ، وقد كونت هذه الثورة البركانية الأخيرة عدداً من المخاريط البركانية ، ودفعت بملايين الأطنان من الحمم في اتجاه الجنوب ، ولا تزال تلك المخاريط البركانية تتعرض لأعداد كبيرة من الرجفات الاهتزازية الخفيفة التي توحي بأن الصهارات الصخرية تحت هذه المخاريط البركانية لا تزال نشطة ، مما يؤكد حتمية وقوع ثورات بركانية عارمة تخرج من أرض الحجاز في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله .

فسبحان الله الذي أعطانا هذا العلم الصحيح الذي لم تصل إليه مدارك الإنسان إلا منذ سنوات قليلة ، ونطق به المصطفى صلى الله عليه وسلم منذ حوالي (١٤٢٩) سنة مؤكداً على صدق نبوته ورسالته وصدق اتصاله بوحي السماء الذي وصفه الله – تبارك وتعالى – في كتابه .



عدة المطلقة .. الحكمة الإلهية والمعجزة العلمية

دكتور/ فوزي رمضان

خلق الله سبحانه و تعالى سيدنا آدم عليه السلام و خلق من ضلعه أمنا حواء و جعل من نسلهما ذرية وخلائف في الأرض.

قال تعالى : (**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**)

قال تعالى: (**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**). الروم (آية ٢١).

قال تعالى : (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء**) النساء (آية ١)

أصل العلاقة بين الرجل و المرأة وهو النسل والذرية ولذلك شدد الله عز وجل على هذه العلاقة وجعل لها مكانة كبيرة في الإسلام ووضع لها أحكاماً تخص النسل و تضبط هذه العلاقة من كل زيغ أو خروج على الفطرة فجعل الله الزواج ميثاقا غليظا كما ورد في كلامه جل وعلا ووضع أسس بناء هذه العلاقة التي تبدأ بالزواج أو عقد القران وتنتهي بالطلاق أو بالموت، وجعل لكلتا الحالتين تشريعا محكما وهو ما يسمى بالعدة أو تربص المرأة المطلقة ثلاث دورات شهرية، لقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ» البقرة (آية ٢٢٨)

وشدد الله سبحانه وتعالى على إحصاء العدة والتدقيق في الزمن ولو بليلة قال تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ » الطلاق (الآية ١)

وعدة المرأة التي توفي عنها زوجها بأربعة أشهر و١٠ أيام .

لقوله تعالى: « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ». البقرة (آية ٢٣٤)

عندما كنا في السودان في مؤتمر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة وبعد صلاة الصبح وعلى مائدة الإفطار تناقشت مع شيخنا الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح في الشفرة الوراثية لمني الرجل وما ذكرته في البحث الذي قدمته هناك و الذي أشرت فيه إلى تفسير

حديث الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول: « يا معشر الشباب من أراد منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء». (رواه مسلم في النكاح حديث ١) فأثبت أن الله عز وجل حصن فرج المرأة بغدة برثولين (Bartholin) التي تفرز سائلا لزجا يحتوي على مادة الجلوكوز وتحوله البكتيريا المهبلية المسماة بكتيريا دردولان Dardolin إلى حمض اللبن Lactic acid لقتل البكتيريا والفيروسات الداخلة إلى مهبل المرأة والحيوانات المنوية التي لا تحمل شفرة الزوج. وجهاز إنذارها هو التغير PH. أما العدة فبثلاث حيضات تفقد المرأة شفرة الزوج الأول.

فسألني الشيخ المصلح لماذا أحصيت عدة المرأة المطلقة بثلاثة قروء أما المتوفى عنها زوجها فبأربعة أشهر وعشرة أيام. فقلت له إن الحيض يتبع الجهاز العصبي الودي لذلك عندما تفرح المرأة ممكن أن تحيض وكذلك عندما تحزن وفي حالة موت الزوج فقد تفتقد المرأة العادة الشهرية للأسباب نفسها. لذلك شرع الله عز وجل العدة بالشهر واليوم ، وفي ذلك حكمة بالغة.

ولقد كنت متأكدا أن هناك سر في عدة المرأة المطلقة والمتوفى عنها زوجها وهو سبب فسيولوجي في خلق البويضات لأن مدة العدة متعلقة بخلق البويضات ولكن لم يكن عندي الدليل العلمي الصحيح للإفصاح عن هذه الحقيقة .

كان الأخ مصطفى رحموني في فرنسا فطلبت منه كتاباً في علم الغدد الصماء للمرأة الحامل للتأكد من الفكرة التي كنت أعلمها ولكن لم يكن لدي الدليل العلمي الكافي للإفصاح عنها، فأحضر لي الأخ مصطفى كتاب علم الغدد الصماء والاتصال الخلوي ENDOCRINOLOGIE ET COMMUNICATION CELLULAIRES للكاتبين: د. سيمون إدلمان وجان فردتي SIMON IDELMAN et JEAN VERDETTI

ولتأكيد الفكرة والنظرية التي كنت أحملها أسرعت مباشرة للبحث على العنوان وهو مراحل خلق البويضة أو ما يسمى بالفرنسية Ovogenèse أو بالإنجليزية oovogenisis تحت عنوان « الأوجه الديناميكية لخلق البويضات Aspect dynamiques de la folliculogénise .

الترجمة لمقال مراحل خلق البويضات: وتجدون النص كاملا باللغة الفرنسية لاحقا.

تبدأ مرحلة البلوغ عند المرأة بين ١٢ و١٤عام من العمر بخروج البويضات من المبيض في كل شهر واحدة ويستمرهذا حتى سن اليأس. وهذا الكلام متعارف عليه، ولكن الحقيقة العلمية أن بداية خلق البويضات يتم والمرأة لا تزال جنينا في بطن أمها حيث يخلق الجُرَيْبْ الذي يبدأ في المرحلة الجنينية بين الشهر الثاني والسابع (فينتج مبيض الجنين حوالي ٦ إلى ٧ مليون جريب في الشهر الخامس من الحمل).

عند الولادة، المبيض يكون في حوزته حوالي ٢ مليون بويضة أولية. مع بداية الطفولة ٩٠٪ من هذه البويضات الأولية تتلاشى Dégénérer ويبقى فقط حوالي ٤٠٠ بويضة «Ovocytes أولية قد تصبح بويضة ناضجة قابلة للتلقيح في كل شهر خلال فترة خصوبة المرأة.

في الصفحة المقابلة

صورة للكتاب مع النص الذي يتحدث عن هذه الحقيقة العلمية.

ENDOCRINOLOGIE ET COMMUNICATIONS CELLULAIRES

Cet ouvrage d'endocrinologie générale, sexuelle et moléculaire présente aussi bien les données fondamentales qu'il est indispensable de posséder que les apports plus récents de l'endocrinologie moderne : rythme biologique, physiologie des récepteurs, modes d'action des hormones.

L'ouvrage est destiné tant aux étudiants de médecine qu'à ceux de biologie. Il permet aux enseignants et professionnels de la santé d'actualiser leurs connaissances.

LES AUTEURS





Après une double formation de médecin et de scientifique, ***Simon Idelman*** (à gauche) obtint une thèse sur la cytophysiologie de la surrénale au laboratoire d'évolution des êtres organisés de P.P. Grassé. Ses recherches concernent la glande surrénale puis l'action des hormones sur le système immunitaire (thymus, ganglions lymphatiques). Simon Idelman est professeur honoraire de physiologie à l'Université Joseph Fourier.

Professeur à l'Université Joseph Fourier, ***Jean Verdetti*** (à droite) anime le groupe d'électrophysiologie moléculaire (GEM) où il étudie les mécanismes de l'homéostasie calcique intracellulaire. Il enseigne dans les différents cycles de l'enseignement supérieur et participe au jury de l'agrégation des sciences de la vie et de la terre.

Ont également contribué à la réalisation de l'ouvrage Ivan Bachelot et Serge Halimi, professeurs à l'Université de Grenoble (CHU), Claude Cochet, directeur de recherches à l'INSERM, et des médecins spécialistes : Robert Elkaïm, Philippe Léger et Danielle Pallo.

Pendant le cycle, en début de phase folliculaire, dix à quarante follicules sortent de la réserve, seule une cohorte de cinq à dix follicules tertiaires sont recrutés, un seul, dit follicule dominant [1], va ovuler, terminer la division réductionnelle de la méiose, émettre le premier globule polaire et engendrer l'ovocyte de deuxième ordre, haploïde, en attente d'une éventuelle fécondation. Ainsi, seulement 500 ovocytes ont le privilège de terminer leur ultime évolution pendant les 40 ans que dure la vie de reproduction. Seuls ces 500 ovocytes auront la possibilité de décondenser le noyau spermatique lors de la fécondation. Si l'on considère l'importance du stock initial et le résultat final, la disparition de la plupart des cellules germinales (99% des follicules qui entrent en croissance dégénèrent au cours de leur développement) apparaît comme un gaspillage phénoménal. On sait qu'il faut 25 jours pour passer du follicule secondaire au follicule antral, que 60 jours sont nécessaires à celui-ci pour mûrir et devenir "pré-ovulatoire". Ainsi, le follicule qui ovule à un cycle donné a commencé son ultime évolution au moins trois cycles auparavant (fig. 12.2). Ceci laisse escompter que les résultats d'une thérapeutique sur le follicule seront complets seulement 3 mois après son administration.

ترجمة حرفية للنص الفرنسي:

1. البويضة التي تخرج من المبيض اليوم قد بدأت رحلتها قبل ثلاث حيضات
2. إذا أردنا أن نحقن الجريب الأول بدواء فيجب علينا الانتظار ثلاث حيضات

ترجمة حرفية للنص الفرنسي:

١. البويضة التي تخرج من المبيض اليوم قد بدأت رحلتها قبل ثلاث حيضات .

٢. إذا أردنا أن نحقن الجريب الأول بدواء فيجب علينا الانتظار ثلاث حيضات .

المبيض هو العضو التناسل الأولي عند المرأة ، شكله يشبه حبة اللوز أو الفاصوليا، ويختلف حجمه من امرأة إلى أخرى، بل وعند نفس المرأة ، يتراوح حجمه ما بين ٥ ,٣ – ٥سم طولاً، و ٥ ,٢ سم عرضاً، و ١ – ٥ ,١ سم سمكاً ، ووزنه من ٥ – ١٠ غم

قبل البلوغ يكون سطح المبيض أملس ناعماً، ولكن بعد البلوغ، وتكرار عملية الاباضة يصبح سطح المبيض مجعداً بسبب الندب التي تخلفها حوصلات دوغراف بعد انفجارها. وبعد سن اليأس ينكمش ويضمر حجم المبيض.

تركيب المبيض

يتكون المبيض من عدد كبير جداً من الخلايا البيضية الأولية الموضوعة وسط مادة أساسية مؤلفة من نسيج ضام، وسطحه الخارجي مغطى بطبقة واحدة من الخلايا الطلائية المكعبة تعرف بـ « الطلاء الجرثومي Germinal epithelium ، وغالبا ما تزول هذه الطبقة عند المرأة بعد البلوغ .

أسفل القشرة توجد محفظة ليفية تتكون من ألياف من النسيج الضام ، تدعى « الغلالة المبيضية البيضاء » Theca Albuginea.

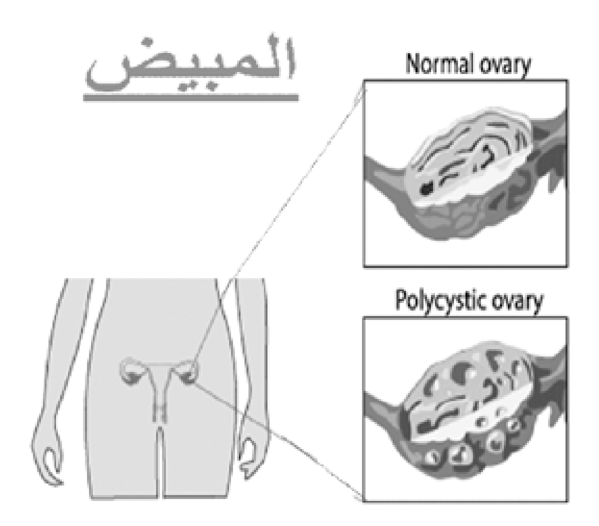
المبيض يتكون من طبقتين هما :

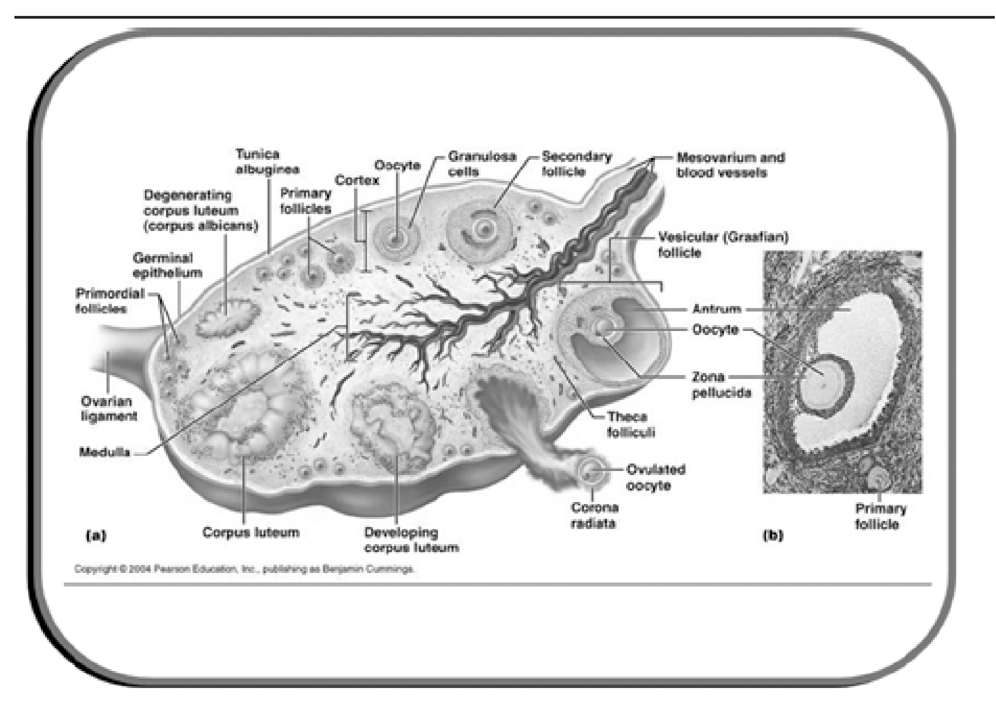
١ - اللب Medulla

عبارة عن نواة مركزية غنية بالأوعية الدموية التي تتوسط بين النسيج الضام العضلي والجزء الأكبر من المبيض ، تحيط به الغلالة البيضاء.

٢ - القشرة Cortex

طبقة رقيقة سطحية ، مولدة للبويضات، بيضاء اللون، تحتوي على آلاف الحويصلات الأولية primordial follicules ، حجمها ٢٥ ,٠ – ١ ملم ، تتألف الواحدة منها من بويضة تتكون من طبقة واحدة من الخلايا المحببة، وبينها خلايا متطورة تفرز هرمونات. تقع القشرة بين الطلاء الجرثومي المتكون من خلايا طلائية مكعبة من الخارج، والغلالة البيضاء من الداخل، وهي تحيط باللب


المبيض
Normal ovary
Polycystic ovary


Tunica albuginea
Oocyte
Granulosa cells
Secondary follicle
Mesovarium and blood vessels
Cortex
Degenerating corpus luteum (corpus albicans)
Primary follicles
Germinal epithelium
Primordial follicles
Vesicular (Graafian) follicle
Antrum
Oocyte
Zona pellucida
Theca folliculi
Ovarian ligament
Medulla
Ovulated oocyte
Corona radiata
(a)
Corpus luteum
Developing corpus luteum
(b)
Primary follicle
Copyright © 2004 Pearson Education, Inc., publishing as Benjamin Cummings.

تعريف العـدة

لغـة: بكسر العين جمع (عدد) وهو إحصاء الشيء يقال عددت الشيء أي أحصيته إحصاءا.

اصطلاحا: اسم لمدة تتربصها المرأة وتمتنع فيها عن التزويج . وتبدأ بعد وفاة زوجها أو فرا قه لها بالولادة أو الإقراء أو الأشهر، وهذا التربص المحدود شرعا مأخوذ من العدد لأن أزمنة العدة محصورة مقدورة، وسبب وجود العدة أمران وهما : الطلاق أو الموت .

والطلاق ينقسم إلى قسمين:

طلاق سني: وهو أن يطلق الرجل زوجته طلقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه (حديث عبد الله بن عمر) رواه البخاري عند تفسير سورة الطلاق حديث رقم ٤٩٠٨ .

طلاق بدعي: كأن يطلقها طلقة وهي حائض أو في طهر جامعها فيه، أو أن يجمع الطلقات الثلاثة بلفظ واحد أو في مجلس واحد .

يقول الإمام ابن تيمية في كتاب أحكام العدة في تفسير قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)** الطلاق (الآية ١)

وذلك بأن يطلقها بعدما تطهر وقبل أن يمسها فإن قيل إن الأقراء هي الأطهار فإنها تبدأ ذلك الطهر وتعتد قرءا وإلا تعد الحيضة التي بعدها، وتكون الحيضة التي بعده هي أول القروء الثلاثة هذا معنى « وطلقوهن لعدتهن» .

ويقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: **(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ)** البقرة (الآية ٢٢٨)

وقد اختلف السلف والخلف و الأئمة على قولين :في المراد بالأقراء ما هو ؟

أحدهما : أن المراد بها : الأطهار وقال مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنها قالت : انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثلاثة، فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن فقالت صدق عروة . وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا إن الله تعالى يقول في كتابه « ثلاثة قروء ، فقالت عائشة صدقتم وتدرون ما الإقراء ؟ إنما الإقراء: الأطهار....) (انظر ابن كثير ١ / ٣٧٧،٣٧٨) ، موطأ ٢ / ٥٧٦ .

وهو ما ذهب إليه مالك والشافعي وهذا القول هو الأقرب من الناحية العلمية لأن البويضة تكتمل في الطهر بعد الحيضة بحوالي ٨-٩ أيام.

الخلاصة العلمية :

إن البويضة تبدأ رحلتها في بداية الحيض رقم ١ - وتنتهي في طهر الحيض رقم ٣.

عملية حسابية ٢٨+٢٨+١٤ = ٧٠ .

ومدة حياة البويضة في الرحم حوالي يومي(٧٠ + ٢ = ٧٢يوما) حياة البويضة.

تبسيط المفهوم: مثال الدجاجة

الدجاج تبيض كل يوم بيضة، ولكن هذه البيضة التي تخرج اليوم قد بدأت رحلة تكوينها منذ أكثر من ٢٠ يوما ومرت بمراحل عديدة)

إذا اشتريت دجاجة من مالك رقم (١) وكانت هذه الدجاجة تأكل طعاماً ملوثاً أو غير صحي وكذلك لقحت بويضتها بديك ذي أصل غير جيد فيجب على المالك الجديد رقم (٢) الانتظار ٢٠ يوماً حتى تعطي هذه الدجاجة بيضة هي ملك للرجل الثاني ومغذاة بطعام صحي ولقحت بيوضها بديك ذي أصل جيد وإذا أردنا أن نعطي مدة لعدة الدجاجة فنقول ٢٠ يوما.

وكذلك فإن هذه البويضات تلقح من طرف الديك الذي ألهمه الله تعالى التوقيت المناسب للتلقيح بعد التبييض وقبل خروج البيضة حتى لا تكون البيضة عائقا لدخول الحيوانات المنوية فسبحان الذي قدر كل شيء و تبقى هذه الحيوانات المنوية بضعة أيام لتلقيح اليويضات وهنا حكمة ثانية أن الدجاجة هي المسؤولة عن تحديد الجنس وليس الذكر ولله في خلقة شؤون .

حكمة الأحكام لابن تيمية

ما شرع الله سبحانه وتعالى أحكام العدة إلا لحكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها، وعدم العلم بها لا ينفيها.

حكمة العدة

قال العلماء الذين سبقونا: حكمة العدة هي براءة الرحم من الحمل، إذن السبب هو الحمل، ولكن يأتي العلم في هذا العصر ليثبت أن المرأة إذا حملت فإنه في اليوم التاسع تتكون المشيمة Placenta فتفرز هرمون الحمل HCG الذي نجده في الدم أولا ثم في البول بالنسب الآتية:

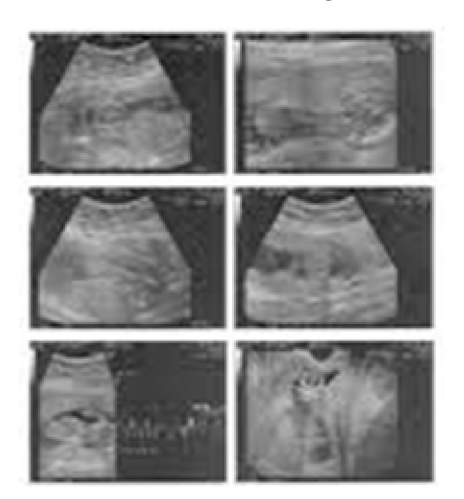
نسبة هرمون الحمل...اتش.سى.جى

- ٩ أيام بعد التلقيح= (عادة حوالى ٢٥ وحدة دولية)
- اسبوع٢= ٥-٥٠
- اسبوع٣= ٥-٥٠
- اسبوع٤= ١٠-٤٢٥
- اسبوع٥=١٩-٧٣٤٠
- اسبوع٦=١٠٨٠-٥٦٥٠٠
- اسبوع٧-٨=٧٦٥٠-٢٢٩٠٠٠

- اسبوع ٩-١٢=٢٥٠٠٠-٢٨٨٠٠٠
- اسبوع ١٣-١٦=١٣٣٠٠-٢٥٤٠٠٠
- اسبوع ١٤-١٧=٤٠٦٠-١٦٥٤٠٠
- اسبوع ٢٥-٤٠=٣٦٤٠-١١٧٠٠٠

بإمكاننا معرفة المرأة هل هي حامل أم لا ؟

وكذلك إذا غم علينا ذلك ؛ فإننا نقوم بفحص المرأة عن طريق جهاز التصوير بالموجات الصوتية Echographie لنتأكد بحمل المرأة أو لا.



الخلاصة

بعدما تأكدنا من أن المرأة غير حامل عن طريق تحليل الدم والبول والفحص الطبي، تكون قد زالت العلة والسبب إذن تستطيع المرأة أن تتزوج ولكن في الشريعة الإسلامية تتربص المرأة ثلاثة قروء كما قال تعالى: (**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**) البقرة (آية ٢٢٨).

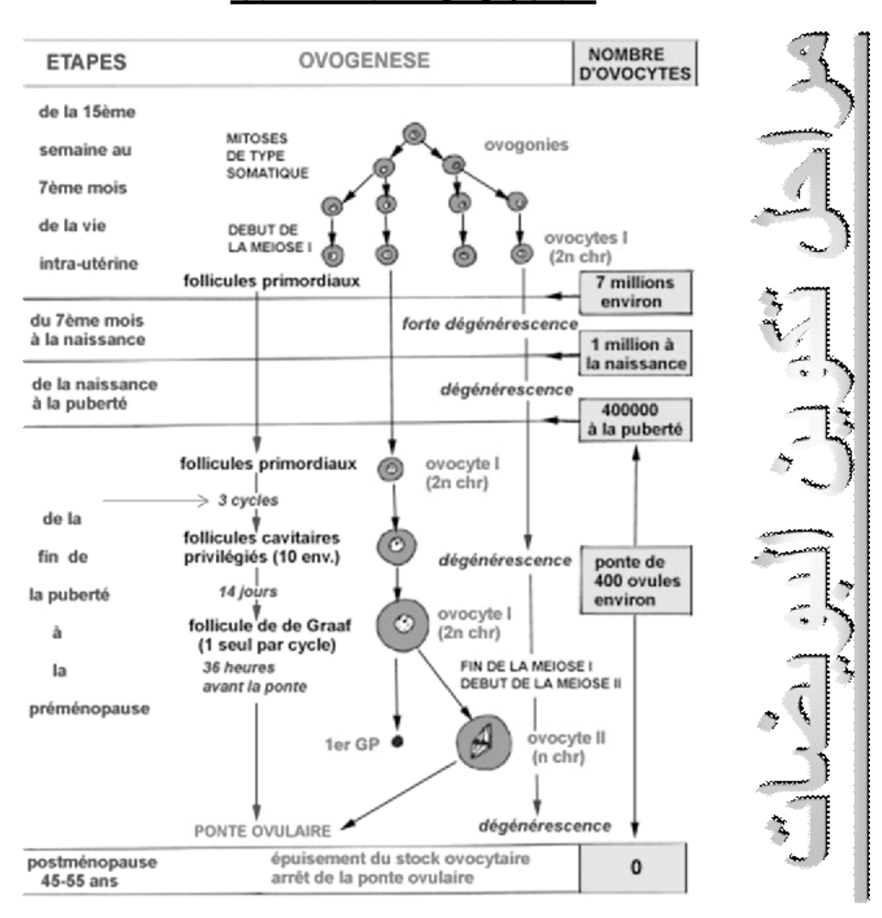
الحقيقة العلمية رقم الأولى

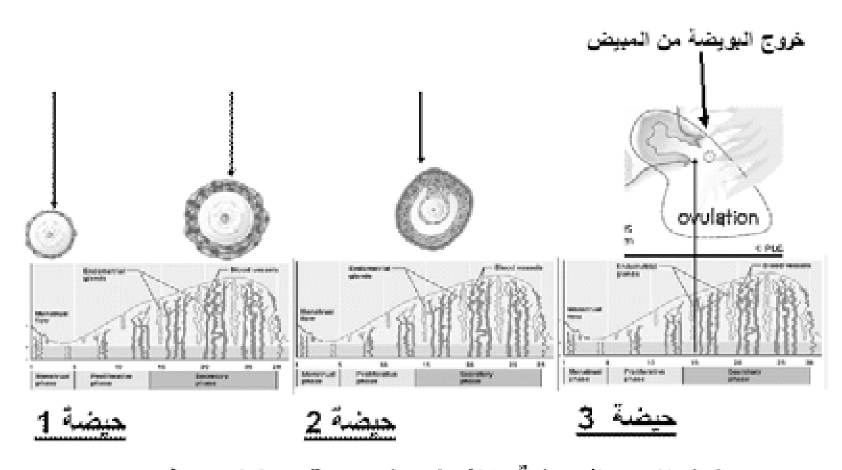
يكشف العلم الحديث في علم الأجنة في مراحل تخليق البويضات أن مدة تكوين البويضة هي ثلاثة قروء.

أنظر الدليل العلمي في الجدول العالمي لمراحل خلق البويضات، حيث يقول العلماء ٣حيضات (cycls)+ ١٤ يوما أي الطهر .

الجدول العالمي المتعارف عليه

الذي يدرس في كل الجامعات الطبية

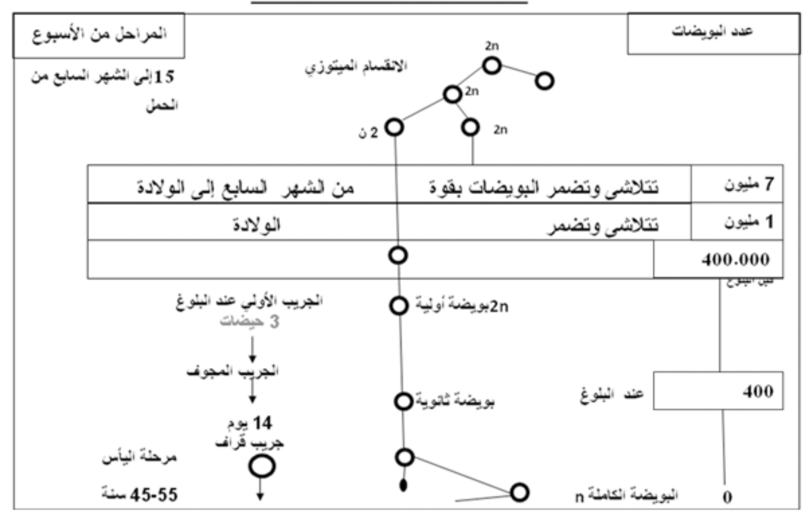




مراحل تكوين البويضة داخل المبيض = 3 حيضات و طهر

الجـــدول العالمي المترجم للغة العربية ترجمة شخصية

OOVOGENESIS



الخلاصة:

عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء لقوله تعالى : (**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**) فإذا طلقت المرأة في طهر ثم حاضت، ثم طهرت، ثم حاضت، ثم طهرت ثم حاضت. فإذا طهرت انقضت عدتها.

يبدأ إنتاج البويضة في الحيضة رقم ١ وتنتهي في طهر الحيضة الثالثة.

٢٨ يوم ٢٨ يوم ١٤ يوم

حيضة ١ ← حيضة ٢ ← حيضة ٣ ← طهر

مدة تكوين البويضة ٢٨ +٢٨ +١٤ = ٧٠ يوما .

إذا طلق الرجل زوجته في طهر بعد اليوم العاشر من بداية الحيضة تكون في المبيض ثلاثة بويضات.

- البويضة الكبرى عمرها (مدة تكوينها) ٢٨ +٢٨ + ١٠ = ٦٦ يوم
- البويضة الوسطى عمرها (مدة تكوينها) ٢٨ + ١٠ = ٣٨ يوم
- البويضة الصغرى عمرها (مدة تكوينها) ١٠ أيام

علما أن البويضة تخرج من المبيض في اليوم ١٤ عشر من يوم بداية الحيض، ففي الحيضة الأولى بعد الطلاق تخرج من المبيض البويضة الكبرى مع دم الحيض لأنها لم تلقح.

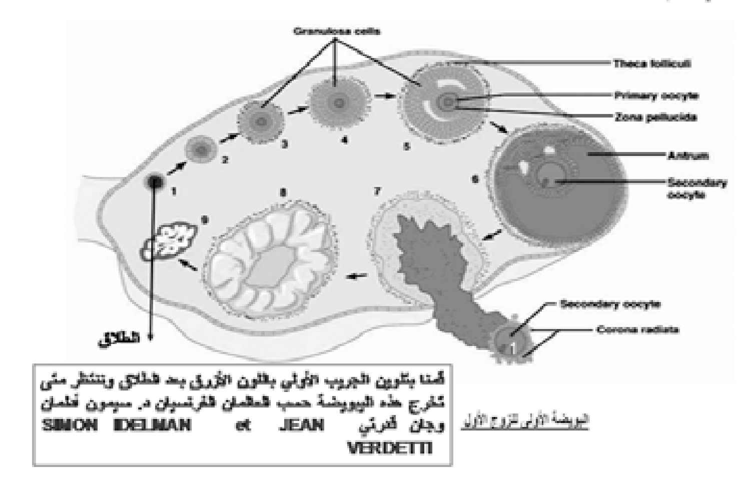
ففي الحيضة الثانية بعد الطلاق تخرج البويضة الوسطى

ففي الحيضة الثالثة بعد الطلاق تخرج البويضة الصغرى

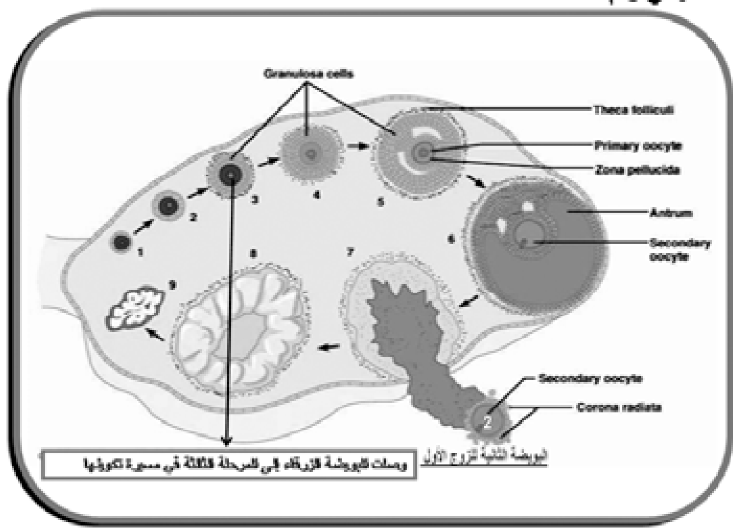
الحقيقة العلمية الثانية:

إذا طلق الرجل زوجته في طهر لم يجامعها فيه (الطلاق السني)، يكون في المبيض ثلاثة بويضات في مراحل التخليق والتكوين هذه البويضات هي تابعة للزوج الأول

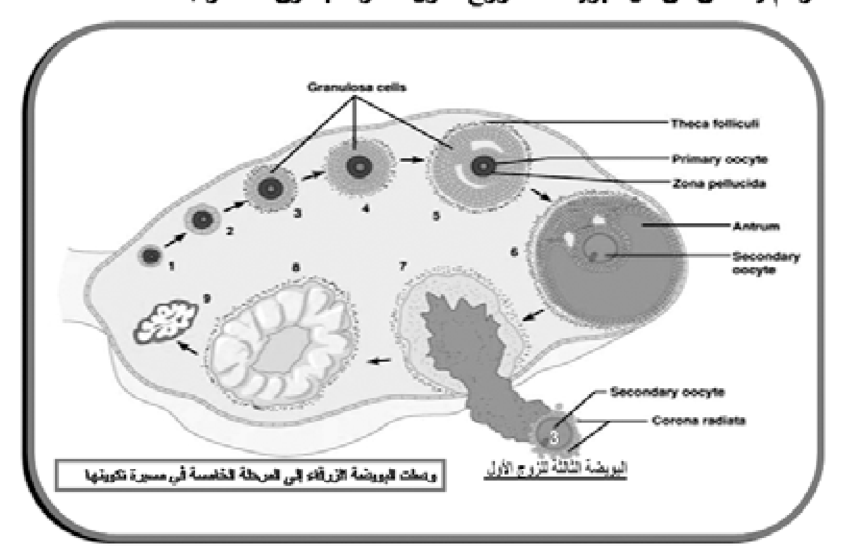
فلبويضة الأولى – تخرج بعد الحيضة الأولى بعد الطلاق
وهي رقم 1



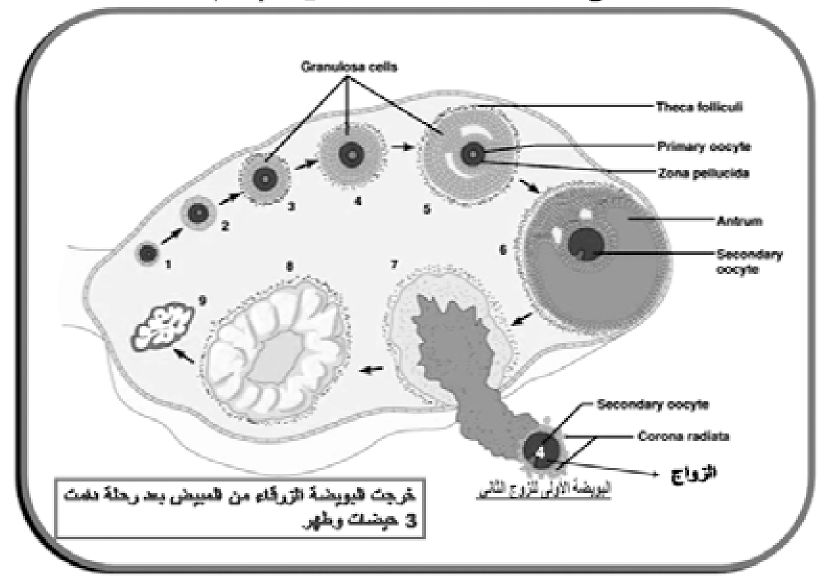
فالبويضة الثانية – تخرج بعد الحيضة الثانية بعد الطلاق
وهي رقم 2



البويضة الثالثة – تخرج بعد الحيضة الثلثة بعد الطلاق وهي رقم 3
الرحم يتخلص من كل البويضات الزوج الأول الملونة باللون الأحمر .



البويضة الرابعة – تخرج بعد الحيضة الرابعة بعد الطلاق وهي رقم 4



أما البويضة رقم ٤ لا علاقة بالزوج الأول لأنها كانت في المخزن كما يقول العلماء و المرأة في بطن أمها وبدأت رحلتها في التخليق بعد الطلاق لأن عمرها ثلاث قروء كما قال تعالى، إذن هذه البويضة لا علاقة بالزوج الأول وإذا تزوجت المرأة بعد العدة كانت هذه البويضة خالصة للزوج الثاني و إذا لقحت هذه البويضة بحيوان مني الرجل الثاني كان الولد خالصا للزوج الثاني.

وهذه الحقيقة العلمية توافق ما قاله فقهاؤنا الأوائل في حكمة العدة وهو استبراء الرحم، لئلا تختلط المياه وتشتبه الأنساب.

وهذا هو الإلهام الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى لعلمائنا الأوائل، وصدق رسوله الكريم في الحديث الشريف ١٨٤٤ : حَدَّثَنَا النُّفَيْلِيُّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَقَ حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَبِي مَرْزُوقٍ عَنْ حَنَشٍ الصَّنْعَانِيِّ عَنْ رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَامَ فِينَا خَطِيبًا قَالَ أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ « **لَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ** » (رواه أبوداود برقم ٢١٥٨) بإسناد لاباس به

هناك رواية يسقي ماءه ولد غيره ولكن بعد البحث تأكدنا أن الرواية الصحيحة هي زرع غيره. لذلك نقول إن المقصود هنا ليس الولد كما ذكر بعض المفسرين لأن الولد قد يكون جنينا. والمقصود هنا بالزرع والله أعلم هي البويضات، لأن الولد هو ثمرة الزرع والبويضة هي الزرع الحقيقي قبل النضج.

فمن أخبر محمد بن عبد الله بأن هناك زرعاً للرجل الأول وهو البويضات؟

إن الذي أخبره هو الذي أرسله وهو الذي خلق هذه البويضة وهذه المرأة.

وكذلك تبين لنا غيرة الله سبحانه وتعالى ورسوله على بنات حواء. حيث يخلصها الله سبحانه وتعالى بالعدة مما يربطها بالزوج الأول حتى لا تختلط الأنساب. وهناك دراسة قام بها دكتور جزائري بفرنسا تؤكد أن النساء اللائي يتزوجن في مدة العدة يصبن بانهيارات عصبية ولله في خلقه شؤون.

حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث رقم ٦٣٧٣ صحيح البخاري في الحدود رقم ٤٠) ردا على بعض الصحابة وذلك حين قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع إمرأتي لضربته بالسيف غير مصفح فقال النبي صلى الله عليه و سلم : « **أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغيرمنه والله أغيرمني** » **صدق رسول الله .**

فأين المدافعين على حقوق المرأة من هذه الحكمة الإلهية والحقيقة العلمية ؟.

تحريم الطلاق في الحيض

تعريف الحيض : هو نزيف في الرحم من ٦٠ إلى ٢٤٠ ملل من ٣ إلى ٥ أيام مع انسلاخ قطع من بطانة الرحم . والجديد علمياً :أن دم الحيض ٢٥ ٪ وريدي والباقي دم شرياني.

وآخر ما توصل إليه العلم أنه عند تحليل دم الحيض وجد فيه كمية من مادة prostaglandin وهي المسؤولة عن تثبيط الآلام عند الإنسان، لذلك ففي هذه المرحلة يزداد إحساس المرأة بالألم لأنها تفقد هذه المادة مع الحيض. علما أن المرأة تستقبل هذه المادة prostaglandin عند الوقاع لأنها في مني الرجل، فسبحان الله في هذا التوازن العجيب.

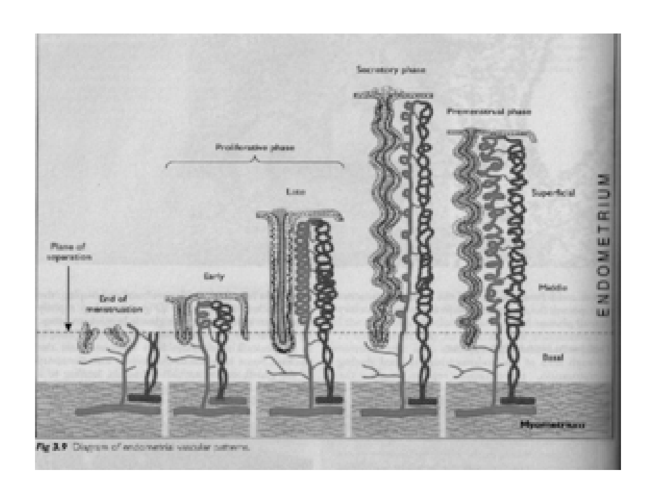


Fig 3.9 Diagram of endometrial vascular patterns.

كما أن الحيض هو تغييرات هرمونية كبيرة تلعب فيها الغدة الصنوبرية والغدة النخامية الدور الأساسي في هذه العملية في إفراز هرمون FSH وهرمون LH ويفرز المبيض مادة البروجسترون والإستروجين وفقدان كمية معتبرة من الدم كلها تجعل المرأة في حالة صحية ونفسية غير عادية مما يؤدي بها إلى تغيير مزاجها ونفسيتها وكذلك تكون في هذه المرحلة أضعف مما كانت عليه. والطلاق قد يضاعف هذه الأعراض مما يؤدي بها إلى ما لا يحمد عقباه.

وكذلك من ناحية خلق البويضات فإن البويضة تبدأ رحلتها في بداية الحيض وهنا إذا تعرضت المرأة إلى ضغط نفسي قد يؤدي بها إلى اضطراب هرموني مما يؤثر سلبيا على تكوين البويضة التي بدأت رحلتها وهذا قد يؤثر في الصيغة الجينية لهذه البويضة وإذا لقحت هذه البويضة قد يصاب الجنين بتشوهات معتبرة .

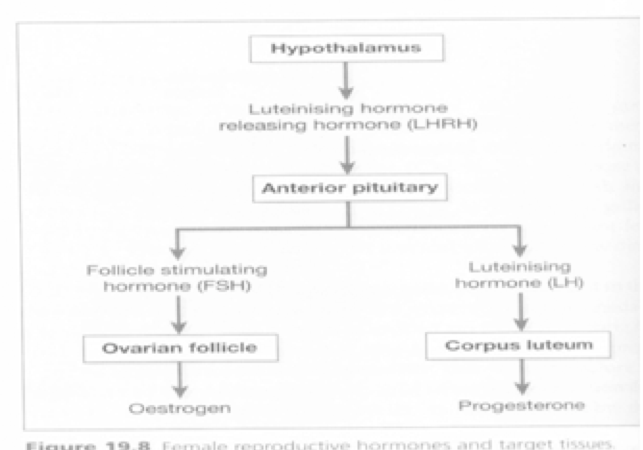


Figure 19.8 Female reproductive hormones and target tissues.

تحريم الطلاق في طهر جامعها فيه :

إذا جامع الرجل زوجته في طهر ثم طلقها فإن الحيوانات المنوية تعيش في رحم المرأة من ٠٣ إلى ٠٥ أيام و هي مدة لا بأس بها لتلقيح البويضة إذا كان الوطء بعد الحيضة مباشرة وهكذا إلى ما بعد اليوم الرابع عشر لأن البويضة تعيش يومين وهي مدة إمكانية أن تلقح

هذه البويضة لتصبح إنساناً؛ ولكن إذا طلق الرجل زوجته في هذه المرحلة ولقحت البويضة ((هذه المرحلة تسمى البويضة الملقحة Zygot)) تكون الصيغة الجينية قبل مرحلة التمايز أي خلايا جذعية وهي أكثر عرضة للتشوهات الجينية بحسب الأزمات النفسية وقد يكون هذا الولد طفلا مشوها ويلد بدون أب ويكون حملا ثقيلا على المرأة ولذالك حرم الشارع الحكيم الطلاق في الطهر إذا جامعها فيه والله أعلم.

البصمة أو العلامة الوراثية code :

نعلم أن الحيوانات البحرية المعروفة التي يزيد عددها على ٤٠٠,٠٠٠ نوع كلها تضع حيواناتها المنوية في الماء وتضع الإناث أيضا البيض في الماء وكل حيوان منوي يلقح نفس البيض من نفس النوع ولا يخطئ أبدا وكذلك الشأن بالنسبة للنبات والحيوان، حيث حاول بعض أنصار الدروينية أن يلقحوا بويضة إنسان بحيوان منوي للقرد ولكن لم يفلحوا وكذلك خلطوا في زجاجة عدداً من أنواع من البويضات والحيوانات المنوية فكانت النتيجة أن كل بويضة لقحت بنفس الحيمن من نفس النوع وهي حقيقة علمية وحكمة ربانية حتى لا تختلط الأنواع ويظهر في كل جيل حيوان يخالف الأصل { سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً } الأحزاب٦٢.

وراح العلماء يبحثون عن السر في ذلك، وأخيرا توصلوا إلى السر العلمي، فإذا هو سر عجيب .. وجدوا في قلنسوة كل حيوان منوي مادة بروتينية معقدة التركيب جدا، تختلف من نوع من الخلق إلى نوع آخر، تعمل عمل البطاقة الشخصية أو الباسبور تسمى علميا (المادة المخصبة المضادة) antifertilizin ، مضادة لماذا؟

وجدوا أنها مضادة لمادة مخصبة أخرى قرينة لها فقط – أي من نفس نوعها – وهذه « المادة المخصبة» القرينة لها موجودة على جدار بويضة الأنثى من نفس النوع وتسمى fertilizin وكلا المادتين تعملان كالمفتاح والقفل. لذلك تسمح أي بويضة من أنثى، بحيوان منوي من نفس نوعها باختراقها ، كما أن الحيوان المنوي لا يخترق بويضة إلا إذا كان على جدارها (المادة المخصبة) القرينة (للمادة المخصبة المضادة) التي على غطاء رأسه (القلنسوة) ..

ولولا هذا الإعجاز في الخلق لاضطربت صفات الوراثة في المخلوقات، ولعمت فوضى هائلة في المخلوقات جميعا.

وتوصل أخيرا الباحث سعدي كشبان من المعهد الفرنسي للبحوث لمعرفة هذه المادة والتفصيل يأتي لاحقا، فقد قمت بترجمة النص الفرنسي إلى اللغة العربية.

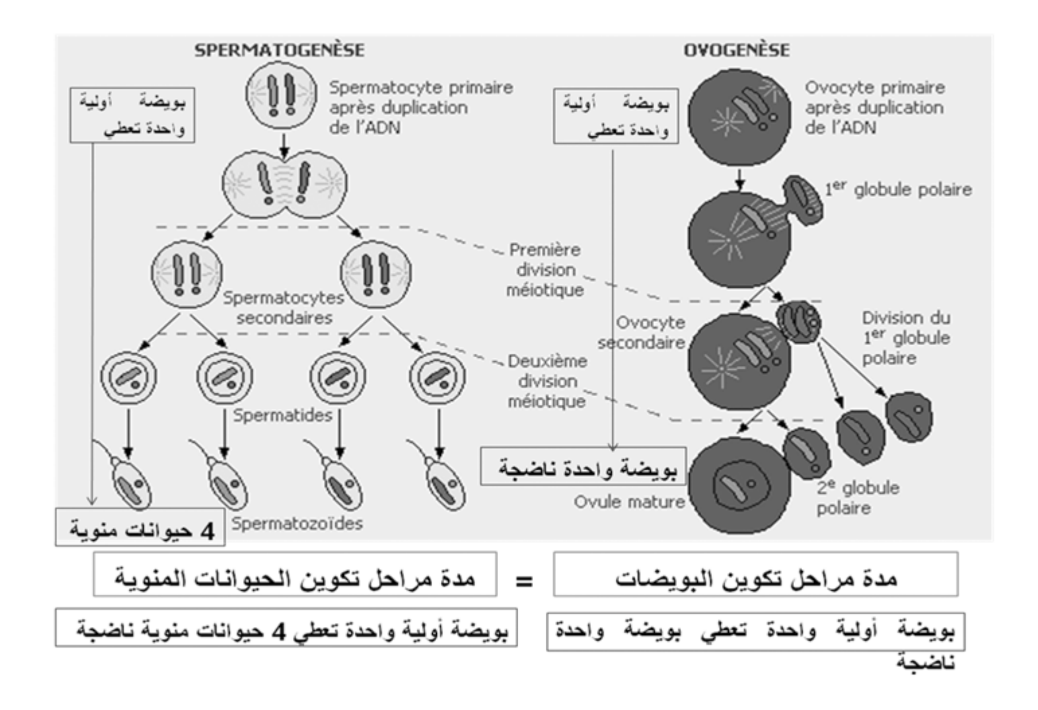
البصمة أو العلامة الوراثية code بالنسبة للإنسان :

نحن نعلم أن الرجل يقذف من ١٥٠ مليون إلى ٤٥٠ مليون حيوان منوي في قذفة واحدة. ولكن المعجزة الإلهية أن هناك واحد فقط يدخل البويضة. وهناك عندنا فيلم حقيقي يصور مرحلة اختراق الحيوان المنوي للبويضة. بعد ذلك تغلق البويضة ولن يدخلها آخر وتموت البقية كمدا وحسرة على جدارها.

وهي الظاهرة التي أطلق عليها العلماء – علاقة القفل والمفتاح – أي عند هذا الحيوان المنوي المفتاح الذي يفتح به ونحن عندما شاهدنا الفيلم السابق لاحظنا أن الحيوان المنوي الذي دخل البويضة لم يكن من الأوائل الذين وصلوا إلى جدارها.

هذا (الكود) code يصنع والبويضة في رحم الزوجة والحيوان المنوي في خصية الرجل مع العلم أن مدة تخليق الحيوانات المنوية هي نفسها مدة تخليق البويضة – فسبحان الله.

لذلك أقول أن البويضات الثلاثة الموجودة في مبيض المرأة أثناء الطلاق تحمل بصمة الزوج الأول لذلك يعلم الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم حين تكلم على الزرع « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لا يسقي ماءه زرع غيره » ومن هنا كانت العدة ثلاث أطهار حتى يتخلص المبيض من البويضات الثلاثة بثلاث حيضات .



وهنا نعطي الدليل العلمي المتفق عليه عالميا من طرف كل الأطباء بأن كل بويضة أولية للمرأة تعطي بويضة واحدة ناضجة قابلة للتلقيح.

أما بالنسبة للرجل فبويضة واحدة أولية تعطي ٤ أربعة حيوانات منوية قابلة للتلقيح. وهو دليل على أن الذي شرع حكمة تعدد الزوجات بأربعة هو الذي خلق أصل الإنسان وهي البويضات.

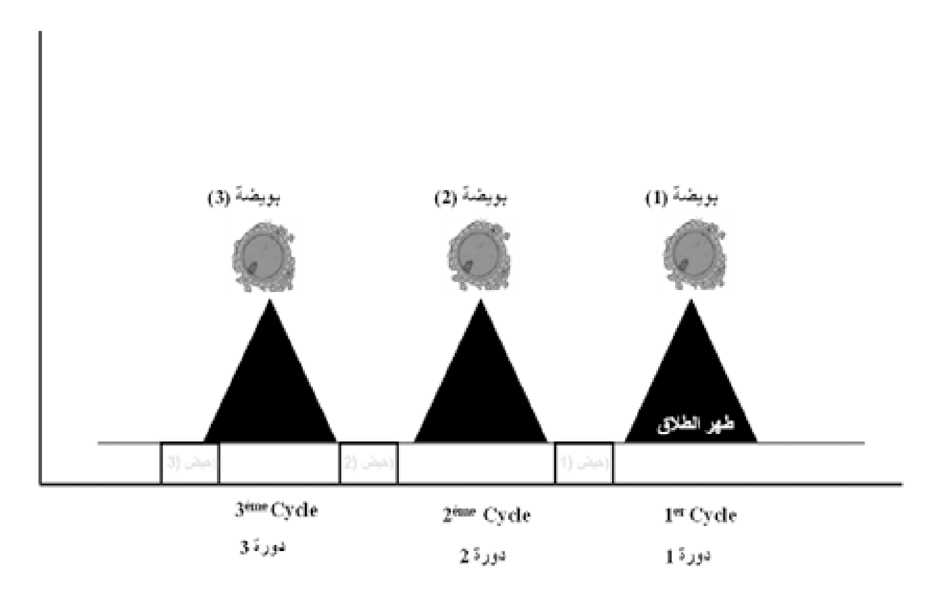
فأربعة بويضات أولية للمرأة تلقح ببويضة أولية واحدة للرجل لأنها تعطي أربع حيوانات منوية. وهنا يحق للرجل الزواج بأربع. والذين يريدون تغيير سنة الله في تعدد الزوجات ويسنون قوانين تحرم ذلك نقول لهم هل تستطيعون تغيير خلق الله؟

فبهت الذي كفر.

ولم نسأل أنفسنا لماذا أكبر عدد الطلقات هو ثلاثة. **والإجابة** لأن للمرأة ثلاث بويضات في مراحل التخليق.

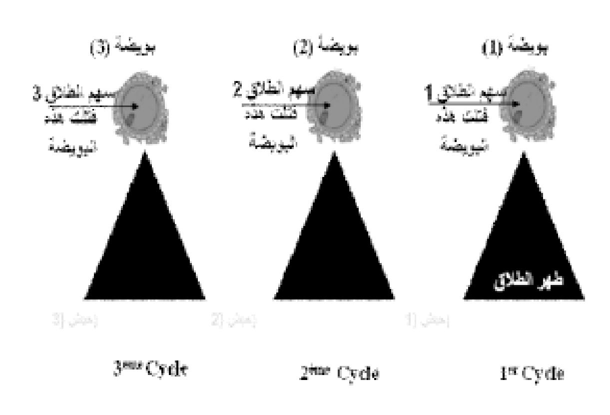
عن مالك أنه بلغه أن رجلاً قال لعبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما: إني طلقت امرأتي مائة تطليقة، فماذا ترى علي ؟ فقال له ابن عباس: طلقتْ منك لثلاث، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هُزُوًا. (قال محقق الاستذكار: وأخرجه عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي في السنن، وانظر المحلَّى).

عن مالك أنه بلغه أن رجلاً جاء إلى عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه فقال: إني طلقت امرأتي ثماني تطليقات، فقال ابن مسعود: فماذا قيل لك ؟ قال: قيل لي إنها قد بانت مني، فقال ابن مسعود: صدقوا؛ من طلق كما أمره اللَّه فقد بين الله له، ومن لَبَسَ على نفسه لَبْسًا جعلنا لَبْسَهُ مُلْصقًا به، لا تَلْبسُوا على أنفسكم ونتحمله عنكم، هو كما يقولون. (انظر تخريج الأثر السابق فإن هذا مثله).



توجد في المبيض ثلاث بويضات أثناء الطلاق

قول الجمهور من فقهاء الأمة: وهو وقوع الطلاق الثلاث في « فم واحد « أي بلفظ : طالق ثلاثا أو في مجلس واحد أي يلفظ (أنت طالق ، أنت طالق، أنت طالق). وهنا قد قتل الرجل البويضات الثلاثة التابعة له بأسهم الطلاق الثلاثة.



الطـــلاق الغيـــر رجعـــي يتم بثلاث طلقات

السؤال الذي قد نطرحه حول المرأة اليائسة من الحمل أوالتي لم تحض؛ لماذا مدة عدتها ٠٣ أشهر؟ .

الإجابة : عدة المطلقة اليائسة التي لا تحيض لكبر سنها أو لصغره هي ثلاثة أشهر لقوله تعالى: « **وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ** » الطلاق آية ٤

الدورة الشهرية تنقسم إلى ثلاثة أقسام حسب المرأة :

- دورة قصيرة – ٢٤ يوما – خروج البويضة يكون ١٠ يوما حسب الطريقة الفرنسية لحساب يوم التبييض أي خروج البويضة من المبيض .
- دورة عادية – ٢٨ يوما – خروج البويضة يكون ١٤ يوما
- دورة طويلة – ٣٥ يوما – خروج البويضة يكون ٢٠ يوما

والشرع هو مبني على جلب المصلحة ودرء للمفسدة. والتشريع الحكيم يأخذ كل الاحتياطات لأطول مدة وهي ٣٥ يوما.

٣٥ + ٣٥ + ٢٠ = ٩٠ يوما وهي ثلاثة أشهر وصدق الله العظيم

إذا حل لغز ثلاثة أشهر علميا:

يبقى سؤال ثاني، المرأة لا تحيض أي لا يوجد هناك بويضات لماذا ٠٣ أشهر .

يحب العلم هنا أن هناك بعض الحالات الخاصة:

فمثلا لدينا نحن في الجزائر منطقة تسمى تمنراست التي أجرت فيها فرنسا تجربتها النووية وفجرت فيها القنبلة النووية. ولا زال الإشعاع النووي في هذه المنطقة إلى حد الآن حيث نجد هناك نساء ولدن بعد سن اليأس. وبالتالي يكون هناك خلل في النظام الهرموني فتبقى بويضة بعد سن اليأس وتحمل المرأة وهناك حالات كثيرة تطرق إليها العلم.

وبالتالي فالتشريع عمد إلى إبعاد كل الاحتمالات حتى لا تكون المفسدة لذلك كان تشريعا احتياطيا بـ ٠٣ أشهر.

المرأة التي لم تحض:

هذه المرأة قد يكون في مبيضها بيوضات ولكن يحدث حملها لأسباب مرضية هرمونية وحتى لا تخلط المياه و الأنساب شرع الله عز وجل عدتها ثلاثة أشهر وهو وقاية كافية لعدة المرأة.

تداخل العدة : حتى فقهائنا انتبهوا إلى هذه الحقيقة وشرعوا لها.

مطلقة اعتدت بالحيض فحاضت حيضة أو حيضتين ثم أيست من الحيض فإنها تنتقل إلى الاعتداد بالأشهر فتعتد ثلاثة أشهر.

مطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كبيرة أيست اعتدت بالأشهر فلما مضى شهر أو شهران من عدتها رأت الدم تنتقل من الاعتداد بالأشهر إلى الاعتداد بالحيض هذا فيما إذا لم تتم العدة بالأشهر. أما إذا تمت العدة ثم جاءها الحيض فلا عبرة به

الحقيقة العلمية الثالثة :

كنت متأكدا من حقيقة علمية ثالثة وهي أن هذا الكود أو الشفرة التي يتعرف بها الحيمن على البويضة مدته ٠٣ أشهر على الأقل لماذا ؟

لأنه عندما تتزوج المرأة في طهر هناك ثلاثة بويضات في مبيضها هذه البويضات لا تحمل هذه الشفرة.

أما التي تحمل شفرة الزوج وهي البويضة التي تبدأ رحلتها بعد النكاح.

بحثت في كل الكتب العلمية لأجد الدليل على هذه النظرية فلم أجد فبدأت بعملية إحصائية لمئات النساء حيث أطلب من المرأة

عمر المرأة أثناء الزواج يوم الزفاف ويوم ولادة الولد الأول، والتي نوضحها في الجدول التالي:

عمر المرأة	يوم الدخول بها	يوم ولادة الإبن الأول
٢٠ سنة	١٠_٠١_٢٠٠٩	٠٨_١٢_٢٠٠٩

وكانت النتيجة كما توقعت وهي دراسة إحصائية وهي بالتقريب ثلاثة أشهر وأخيرا وجدت الدليل من طرف الدكتورة DR. Anne de Kervadone gynécologue (هي مختصة في أمراض النساء والولادة بفرنسا) التي تقول بالصورة والصوت أن مدة تلقيح البويضة بعد الزواج في المتوسط (ونحن نؤكد متوسط المدة وهي دراسة حسابية إحصائية) وهي ثلاثة أشهر.

آخر ما توصل إليه العلم في مسألة العلامة CODE :

البحث موجود في مجلة INSEM المعهد الوطني للصحة والبحوث الطبية بفرنسا بتاريخ ٣٠/ ٠٩/ ٢٠٠٩ في مجلة الطبيعة.

قمت بترجمة البحث وهو مجهود شخصي لألخص لكم زبدة ما قاله الباحثون وتجدون النص كاملا باللغة الفرنسية مع أسماء الباحثين وهواتفهم وكذلك البريد الإلكتروني.

فقد وجد الباحثون طريقة جديدة لقراءات الرمز Code في الهستونات الموجودة في الحمض المنوي ADN للحيوانات المنوية .

باحثون في المخبر الأوروبي للبيولوجيا الجزئية(EMBC) في مدينة هندبارق (Hindeberg) وفي مدينة قرونوبل الفرنسية ومعهد (Albert bONNIOT) في مدينة قرونوبل الفرنسية توصلوا إلى سر سرعة الحيوانات المنوية وتوجيهها.

الترجمة الحرفية للنص الفرنسي :

الحمض المنوي DNA يتكون جزيء طويل ومعقد يسمى (كرماتين) « Chromatine» أي يكون جزئي الحمض المنوي المكون من شرطين بين الواحد والآخر تربطهما بروتينات تسمى (الهستون) (Histone) في الحيمن، وهي المسؤولة على توجيه و سرعة الحيوان المنوي.

هذه (الهستون) هي بمثابة علامة مشفرة بـEtiquette (علامة) كيميائية توجد بعدد كبير في كل هستون والتي تتحكم في تسيير رمز « Code « وتمييز التركيب البياني للكروماتين.

هذا الرمز « Code » تتعرف عليه بعض البروتونات وتلصق بها.

هذه البروتينات أعطي لها اسم «BRDT » تحمل علامة « Etiquette » خاصة ومن مجموعة أستيل (Acetyl) .

وهذا البحث تحت إشراف الدكتور سعدي كشبان مدير البحوث العلمية بمعهد Albert Bonniot البريد الإلكتروني saadi.khochbin@ujf-grenoble.fr

ونشر بحث ثاني للدكتور سعدي كشبان بتاريخ ٢٠١٠/٠٨/٠٦ ويثبت أن من أسباب العقم عند الرجال ضعف الحيوانات المنوية وهذا راجع إلى حمضها المنوي المحطم Endommagé مما يؤدي إلى عدم التلقيح . حتى الجنين لا يكون سليما نتيجة فقدان مادة الهستون الموجودة في كروموزومات الحيوان المنوي .

إذن مادة الهستون هي المسؤولة على الشفرة (Code) وتوجيه الحيوان المنوي لتلقيح البويضة وطبقت هذه التجربة على الفئران حيث نزعت هذه المادة من DNA فأصبحت

الحيوانات المنوية غير ملقحة، وهذه التجربة قام بها الدكتور سعيد كشبان .

هذا هو الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهو حجة علينا نحن المسلمين وخاصة الأطباء المتخصصين منا. وصدق الله العظيم في قوله تعالى:» سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم»حتى يتبين لهم أنه الحق.

وهو حجة على اللذين ينكرون هذا الدين ويتطاولون على سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

لنثبت للعالمين أننا على حق وكتابنا حق. ورسولنا حق. ونتحداهم أن يأتوا بحقيقة علمية واحدة جلية ذكرت في كتبهم وأثبتها العلم الحديث، ثبوتا واضحا لا غبار عليه .

لذلك فإن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة هو السد المنيع والدرع الواقي لشبابنا المتعلم، ضد كل التيارات الإلحادية والتشكيكية منها، و اليهودية التي تريد النيل من عقيدتنا وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بدعوى العلم والعولمة. ولكن كما جل وعلا: (يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

وإن هذا القرآن لا تنقضي عجائبه فسبحان الذي قدر فهدى، سبحان الذي خلق الإنسان من نطفة تمنى ، سبحان الذي خلق فسوى، سبحان الذي ما شرع إلا لحكمة وما حكم إلا لغاية.

سبحان الذى قدر مدة العدة للمطلقة فكانت هى مدة تكوين البويضة في مبيض المرأة.

والله أعلى و أعلم وبارك الله فيكم وجعلكم ذخرا للإسلام والمسلمين، ومدافعين عن سنة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.



MUSLIM WORLD LEAGUE رابطة العالم الإسلامي

الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُنّة

INTL. COMMISSION ON SCIENTIFIC SIGNS IN QUR'AN & SUNNAH